الجزء الاول

من

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب

بدائه الآيات الباهرات

(تأليف)

الاستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى

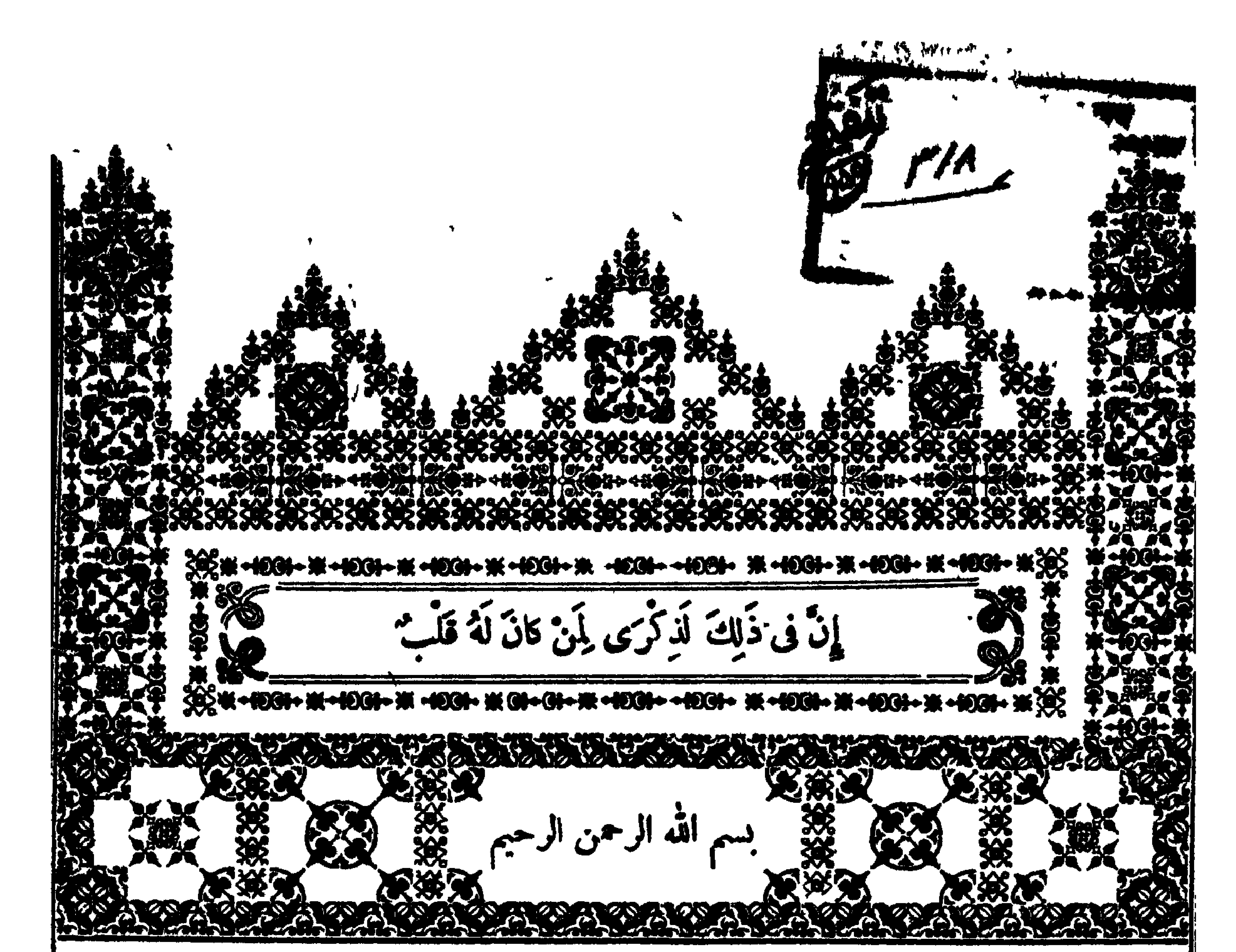
المدرس بمدرسة الجامعة المصرية ومدرسة

دار العلوم سابقا متع الله المسلمين بحياته آمين

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر

محرم - ١٣٤١ هـ



الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ﴿أما بعد﴾ فانى خلقت مغرما بالعجائب الكونية معجبا بالبدائع الطبيعية مشوقا الى مافى السماء من جمال ومافى الارض من بهاء وكمال آيات بينات وغرائب باهرات شمس تدور وبدر يسير ونجم يضىء وسحاب يذهب ويجىء وبرق يأتلق وكهرباء تخترق ومعدن بهىّ ونبات سنىّ وطير يطير ووحش يسير وأنعام تسرى وحيوان يجرى ومرجان ودر وموج يمر وضياء فى مخارق الاجواء وليل داج وسراج وهاج وكتاب من العجائب مسطور فى لوح الطبيعة منشور وسقف مرفوع ان فى ذلك لبهجة لذوى البصائر ونورا وتبصرة لصادق السرائر

ثم انى لما تأملت الامة الاسلامية وتعاليمها الدينية ألفيت أكثر العقلاء وبعض أجلة العلماء عن تلك المعانى معرضين وعن التفرج عليها ساهين لاهين فقليل منهم من فكر فى خلق العوالم وماأودع فيها من الغرائب فأخذت أؤلف كتبا لذلك شتى * كنظام العالم والأمم * وجواهر العلوم * والتاج المرصع * وجمال العالم * والنظام والاسلام * ونهضة الامة وحياتها وغير ذلك من الرسائل والكتب ومزجت فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية وجعلت آيات الوحى مطابقة لعجائب الصنع وحكم الخلق وأشرقت الارض بنور ربها وتقبلها أجلة العلماء قبولا حسنا وترجم منها الكثير الى اللغة الهندية المسماة بالاوردية والى لغة القازان بالبلاد الروسية والى لغة جاوه فى الاوقيانوسية ولكن كل ذلك لم يشف منى الغليل ولم يقم على غنائه من دليل فتوجهت الى ذى العزة والجلال أن يوفقنى أن أفسر القرآن وأجعل هذه العلوم فى خلاله وأتفيأ فى بساتين الوحى وظلاله ولكم طلبت منه جل جلاله بالدعوات فى الخلوات وابتهلت اليه وهو المجيب فاستجاب الدعاء ﴿وكان ابتداء التفسير﴾ اذ كنت مدرسا بمدرسة دار العلوم فكنت ألقى بعض آيات على طلبتها وبعضها كان يكتب فى مجلة الملاجئ العباسية وهأنذا اليوم أوالى التفسير مستعينا باللطيف الخبير مؤملا بما وقر فى النفس أن يشرح الله به قلوبا ويهدى به أمما وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين فيفهموا العلوم الكونية وانى لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين وينسج على منوال هذا التفسير المسلمون وليقرأن فى مشارق الارض ومغاربها مقرونا بالقبول وليولعن بالعجائب السماوية والبدائع

الارضية

الارضية الشبان الموحدون وليرفعن الله منهم الى العلا وليكون هذا الكتاب داعيا حثيثا الى تعرس العوالم العلوية والسفلية وليقومن من هذه الامة من يفوقون الفرنجة فى الزراعة والطب والمعادن والحساب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم والصناعات (كيف لا) وفى القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية فاما علم الفقه فلا تزيد آياته الصريحة عن مائة وخمسين آية * ولقد وضعت فى هذا التفسير ما يحتاجه المسلم من الاحكام والاخلاق وعجائب الكون وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق مما يشوق المسلمين والمسلمات الى الوقوف على حقائق معانى الآيات البينات فى الحيوان والنبات والارض والسموات (ولتعلمن) أيها الفطن ان هذا التفسير نفحة ربانية واشارة قدسية وبشارة رمزية أمرت به بطريق الالهام وأيقنت ان له شأنا سيعرفه الخلق وسيكون من أهم أسباب رقى المستضعفين فى الارض ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز (وهذا أوان) أن أشرع فى المقصود فأقول وبالله التوفيق

تفسير سورة الفاتحة

وبيان آيات العلوم والاخلاق فيها

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ *

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لابى ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والانجيل والقرآن مثلها قلت بلى يارسول الله قال فاتحة الكتاب انها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته) * نزلت هذه السورة لتعليم العباد كيف يتبركون باسم الله عزوجل فى سائر أحوالهم وكيف يحمدونه و يستعينون به فيبتدئ القارئ قائلا أقرأ متبركا باسم الله الرحمن المنعم بجلائل النعم كالسموات والارض والصحة والعقل * الرحيم المنعم بدقائقها كسواد العين وتلاصق شعرات أهدابها المانعات من دخول الغبار المؤذى لها مع ان النور يلمع من خلالها و ينقل صور المرئيات الى حدقتها فشبكيتها فالدماغ فهذه الدقة فى الصنع والحكمة فى الوضع التى أباحت لضوء الشمس والكواكب مثلا أن يلج ومنعت الغبار أن يدخل يعبر عنها بلفظ الرحيم تتميما للنعمة وتكميلا للهناء والسعادة .

(ولما كان أكثر الناس لايلحظون العجائب الكامنة فيهم ولايعرف نفسه الاقليل منهم وهم أكابر الحكماء والاولياء وجب أن أبين فى هذا المقام بعض رحمة الله عزوجل فى العالم المشاهد) فمنها ما أشار اليه (العلامة الاستاذ ميلن ادوارد ان حيوانا يسمى اكسيلوكوب) يعيش منفردا فى فصل الربيع ومتى باض مات حالا فمن رحمة الله وجميل صنعه ورأفته بالخلق ان ألهم هذا الطائر أن يبنى بيتا قبل أن يبيض على منوال ما كانت تفعله عاد من اتخاذ البيوت بالحفر ولكن هذا فى خشب وأولئك فى صخر فيعمد ذلك الطائر الى قطعة من الخشب فيحفر فيها حفرة مستطيلة ثم يجلب طلع الازهار و بعض الاوراق السكريه ويحشو بها ذلك السرداب ثم يبيض على ذلك بيضة ثم يأتى بنشارة الخشب ويجعلها عجينة ويجعل منها سقفا لذلك السرداب والحكمة فى ذلك ان هذه البيضة متى فقست وخرجت الدودة كفاها ذلك الطعام سنة وهى المدة التى لاتستطيع تلك الدودة أن تحصل فيها قوتها ومتى أتم الطائر ذلك صنع سردابا آخر فوقه على هذا المنوال وهكذا يضع جملة أدوار فانظر كيف شملت الرحمة ما خلق وما لم يخلق فان ذلك

الهدام المخزون فى السرداب برحمة ألهمها الطائر لولده الذى سيخلق

(ومن هذه العجائب) ما شاهده العلماء الباحثون فى أمر النحل والنمل والعنكبوت (أما النحل) فتعجب كيف جعل الرحمن الرحيم له سبيلا مذللا فانه متى فتح زهرة أول النهار ليتحصن رحيقها لتمص رحيقها فقد ألهم أن لا يفتح زهرة فى ذلك اليوم الا ما كان من جنس تلك الزهرة رحمة النحل ولا يجوز له أن يحتال فى فتح زهرات أخرى من نوع آخر فيطول عناؤه وأمانة للناس فان ما يلتقطه ويحمله من حبوب طلع الذكور من النبات اذا وصل الى زهرة أنثى علق بها من ذلك الطلع ما يتم به تلقيح ذلك النبات فلولا النحل لا التقاح بهذه الرحمة العجيبة

(وأما النمل) فمن عجائب الرحمة الخاصة به أن الله خلق له حشرة تسمى (افس) السان الافرنجى يطعمها النمل ويظلها ومتى غلبها أخذ يستولى على بهلو يسيمها فى ورق الورد ومتى أكلت وشبعت أقبل النمل عليها وامتص منها مادة حلوة فكأنه بقرة يشرب لبنه

(وأما العنكبوت) فانها ألهمت النسج البديع بهندسة فاقت هندسة الانسان وعلل ذلك العلماء بقولهم ان هندسته الهية وهندسة الانسان بتعليم البشر فلذلك يغلط الانسان ولا يغلط العنكبوت فى الهندسة (ولما كان) بيت العنكبوت أضعف بيت ألهمها الله أن تبحث عن صمغ وغراء من أماكنها وأشجارها وتلطخ بها خيوطها التى نسجتها فتكسبها الزوجة فلذلك لا تمزقها الرياح اذا فاجأتها ولا الاعاصير اذا ساورتها واذا مر بها الذباب التصقته بمادتها اللزجة

فانظر الى آثار رحمة الله كيف كانت المادة الصمغية صائنة بيت العنكبوت الضعيف من التمزيق اذا هبت الزعازع واهتاجت الاعاصير مع أنها قد تقتلع الاشجار وتخرب المساكن ثم تكون شبكة صائدة وحيلة محتالة هذه هى الرحمة والحكمة

وهكذا ألهم الله الانبياء وأوحى اليهم أن يعلموا العباد كيف يتبركون باسم الله فى أول أعمالهم كالقراءة والأكل ذاكرين ربهم ورحمته الواسعة التى عمت سائر العوالم فيمتلىء قلب العبد ايقانا بالرحمة واستبشارا بالنعمة وفرحا برحمة الرحمن الرحيم

فاذا ابتدأ القارىء بالتسمية وامتلأ قلبه بتلك الرحمة لا جرم ينطلق لسانه بالحمد بعد أن أفعم قلبه بالاجلال فيقول الحمد لله يقول القارىء ها أنا ذا عرفت رحمة الله سارية فى سائر العوالم ولقد علمت ان كل من أنعم عليه بنعمة يشكر مسديها فالولد يشكر أبويه على التربية والضعيف الذليل يشكر القادر الشجاع الذى أنقذه من الذلة والمتعلم يشكر العالم الذى أسبغ عليه نعمة العلم

ان الأمم كالافراد فانا نرى كل أمة تمجد وتمدح وتحمد رجالها الذين أفادوها ورقوا صناعتها وتجارتها وثروتها فى التاريخ والجامع وهكذا شجعانها الجحاجيح وأبطالها المقاديم وكذا أنبياؤها وحكماؤها الذين أسعدوها بنعمة العلم والدين

فهذه نعم واصلة من المحسنين والشجعان والعلماء الى الامم فاستحقوا بذلك الشكر ولا جرم ان الشكر يكون بالقلب ثم الجوارح وأهمها اللسان فينطق بالحمد وهو الثناء بالجميل لاجل النعمة الواصلة بالاختيار من المنعمين يجيش فى نفس القارىء تلك الرحمات العامة فيشكر مسديها بقلبه وجوارحه وهى قسمان رحمات واصلة على أيدى الناس كالوالدين والشجعان والعلماء والانبياء والمحسنين ورحمة واصلة من غيرهم كاشراق الشمس ونسمة السحاب وجريان المياه وعجائب النبات وجمال الطبيعة وبهاء النجوم وهذه النعم والرحمات جميعها ليس لها مصدر الا الله ولا جرم ان الحمد والثناء انما يكون للمحسن الحقيق (فالحمد اذن انما يكون لله تعالى) فاذا حمدنا الوالدين وحمدنا الشجعان وشكرنا العلماء والانبياء فالحمد والمدح والشكر لله لانه مولى هذه الرحمة واذا عمنا

[illegible] وساطة الجهال ونور الشمس فالحمد والشكر لسيدها وهو الله فكأن القارئ [illegible] والرحمة [illegible] للعباد من جنبها الله فليكن كل حمد صادر من الالسنة راجعا لله عز وجل لانه [illegible] كانت سببا في الثناء

(نسخ العادات العربية الجاهلية من مدح المحسنين والملوك واختصاص الحمد والعبادة بالله اطلاقا للحرية والمساواة)

(اعلم) ان العرب كان من عادتهم أن ينصتوا الشعراء ويسمعوا المدائح ويصغوا لمن هم في كل واد يهيمون الذين يقولون ما لا يفعلون وما كان أكبر سلطان الشعر عليهم وما أقساه وأقواه وأملكه لقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ومشاعرهم ولقد كان الشاعر يقول البيت من الشعر مدحا فيرفع القبيلة الوضيعة المنزلة ويشيد بذكرها ويقول بيتا ذما فيضع القبيلة الرفيعة ويميت ذكرها فمن الاول ما قاله الشاعر في بني أنف الناقة

قوم هم الانف والاذناب غيرهم • ومن يسوّي بانف الناقة الذنبا

(ومن الثاني قول جرير)

فغض الطرف انك من نمير • فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ولقد كان ذكر بني أنف الناقة مما يعير به فلما قيل هذا البيت رفعوا رؤسهم وفخروا بلقبهم وشرفوا بنسبهم وكان الرجل منهم اذا سئل يقول أنا من بني أنف الناقة ويميل صوته تحببا وتيها وافتخارا وكذلك بنو نمير كانوا قبل هذا البيت يتكبرون ويفخرون بنسبهم فلما أن شاع البيت طأطؤا رؤسهم وغضوا من صوتهم وانخذلوا أمام عدوّهم وصغروا في المحافل ولقد كانت هذه حال العرب كما ترى في شعر حسان مادح ملوك الغسانيين وزهير بن أبي سلمى مادح هرم ابن سنان والنابغة الذبياني مادح النعمان وغيرهم فترى النابغة يقول في هرم

كأنك شمس والملوك كواكب • اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

(ويقول أيضا)

ألم تر أن الله أعطاك سورة • ترى كل ملك دونها يتذبذب

(ويقول أيضا)

فانك كالليل الذي هو مدركي • وان خلت أن المنتأى عنك واسع

(ويقول زهير في هرم)

قد جعل المبتغون الخير في هرم • والسائلون الى أبوابه طرقا

(وقال في قومه أيضا)

على مكثريهم رزق من يعتريهم • وعند المقلين السماحة والبذل

وهل ينبت الخطي الا وشيجه • وهل نبتت الا بمغرسها النخل

يريد ان الفقراء منهم كرماء والاغنياء يعطون ما يسألون ثم يقول وهل الرماح الخطية التي تجلب من الخط وهو مرفأ ببلاد البحرين كانت ترد له الرماح تنبت الا في شجرها وهل النخل ينبت الا في منابته

هذا قليل من كثير ومثل من عادات العرب في الجاهلية فكانت المحامد من الشعراء تلقى الى الملوك وكانت أنظارهم قاصرة على رؤسائهم فلما جاء القرآن فاجأهم بقوله لا تحمدوا الملوك والمحسنين ولكن احمدوا الله كما قال الاعشى في قصيدته

وصل على حين العشيات والضحى • ولا تحمد المثرين والله فاحمدا

أمر العرب أن يولوا وجوههم قبل الله وأن يصدوا عن المدائح الملكية وقوى الشرف اطلاقا لنفوسهم من الاسر

ولعقولهم من الغفلة وتعويدا لهم على الحرية العقلية وأن ينسوا الاحسان القليل الصادر من المخلوق الضعيف وأن يطلبوا الخير والمعروف عند الله الذى هو المربى لجميع العالمين من الملوك والمثرين وغيرهم فاذا فعلوا ذلك أصبحوا سادة العالم لانهم بنظرهم فى العوالم وبحثهم فى نظامها وعجائبها وما أودع فيها من حكمة ودقيقة وغنى وشرف ينالون الخير من المربى العظيم والخالق الحكيم بجدهم واجتهادهم لا بالاستجداء من الملوك ولا بالتوسل للمحسنين ولقد حقق الله بعض ماذكرناه ألا ترى انهم فتحوا الامم شرقا وغربا باتحادهم ونالوا من الخيرات فوق ما يبتغون وفى هذه السورة أمر الله المسلمين أن يخصوا الله بالحمد وبالعبادة كما جاء فى سورة البقرة اذ أمرهم أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم أو أشد ذكرا اذا قضوا مناسكهم اذ قال (فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) فرجع الامر الى توجيه العبادة والحمد والذكر لله وتحريم عبادة المخلوق والخضوع فتتوفر هممهم على الاعمال العظيمة ألا ترى الى ما قاله النعمان بن مقرن الى يزدجرد ملك الفرس أيام حرب القادسية فى زمن عمر رضى الله عنه (ان نبينا صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نبتدئ بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه الجزية فان أبيتم فالمناجزة الخ)

وتأمل قول زهرة لرستم قائد جيش الفرس اذ ذاك (انا لم نأتكم لطلب الدنيا انما طلبتنا وهمتنا الآخرة) فقال له رستم مادين الاسلام (قال أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله) قال وأى شئ أيضا قال (اخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله والناس بنو آدم وحواء اخوة لاب وأم) قال ما أحسن هذا * ثم دعا رستم قومه فأنفوا من ذلك * ثم طلبوا من سعد بن أبى وقاص رجلا آخر يكلمهم فأرسل ربعى بن عامر فلما وصل الى رستم داس بفرسه على النمارق والبسط والزينة والحرير وامتنع أن ينزع سلاحه وأخذ يمزق الوسائد والبسط ثم ركز رمحه على البسط ومما قاله (قد بعثنا الله لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الاسلام الخ) فأعجب بكلامه رستم وخلا بقومه وقال لهم هل رأيتم كلاما أعز وأوضح من هذا فقالوا معاذ الله أن نميل الى دين هذا الكلب * ثم أرسل لهم المغيرة بن شعبة فجلس مع رستم على سريره فأنزلوه فقال (ما أرى قوما أسفه أحلاما منكم أنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا وانى رأيت أن بعضكم أرباب بعض وان هذا الامر لا يستقيم فيكم) اهـ

ألست ترى ان هذه المحاورات والخطب تتقارب مع ماذكرناه فى فاتحة الكتاب وان العبادة والحمد مختصان بالله عز وجل وانه هو الذى يطلب منه الاعانة والهداية الى الصراط السوى * أولا ترى أن الاسلام كان له فى الصدر الاول معنى غير الذى يفهم المسلمون الآن وان الامة الاسلامية اليوم غير أولئك الذين كانوا فى القرون الاولى والا فكيف نسمع منهم العدل والمساواة وأن لا يستعبد بعضهم بعضا وانهم خلفاء الله فى أرضه ليعطوا عباده الحرية فالاسلام اذ ذاك مبنى على الفهم والعلم والعقل فأما الآن فانه مجرد ظواهر وأعمال لا تصل الى أعماق القلوب فلذلك انحطت الامم الاسلامية اليوم وقد آن أن ترجع الى عزها القديم ومجدها العظيم

﴿ الشريعة الاسلامية والنظر فى الآفاق وفى الانفس ﴾

قد تبين لك مما ذكرناه ان الحمد والعبادة مختصان بالله والقرآن طافح بهذه المعانى وقد ظهرت آثاره فى أقوال السلف الصالح كما رأيت وهكذا كانت أفعالهم * وبالشريعة من الحدود والاحكام والبيع والقرض والميراث وأحكام القضاء من الجنايات وغيرها والمخالفات والجنح المبينة فى كتب الفقه حكموا الامم وعدلوا فملكوا شرقا وغربا هذا كله بالشريعة وهى الاحكام الشرعية المعروفة التى تدرس فى بلاد الاسلام وآياتها محدودات فأما آيات العلوم الكونية فانها تبلغ نحو ٧٥٠ آية كلها فى عجائب هذا الكون ومنافعه وغرائبه والذى أراه أن المسلمين فى مستقبل الزمان سيقرؤن هذه الآيات ويعرفون هذه العجائب وكما ان الذين قبلنا درسوا الشريعة وأحكموها وحكموا الامم بها ثم دالت دولتهم فهكذا سيكون فى هذه الامة من يرون الكون خلق الله وآياته وعجائبه وحكمه وقد ذكرها الله فى كتابه أكثر مما ذكر من الاحكام الشرعية والعناية الالهية توجهت اليها أكثر من توجهها الى أحكام

الفقه فيدرسون علوم الهيئة والفلك والحساب والهندسة وعلم المعدن والنبات والحيوان وسائر علوم هذه الدنيا ويرون ان ذلك من الدين فيكون علم الدين على قسمين حينئذ * العلم الاول علم الآفاق والانفس أى معرفة العوالم العلوية والسفلية المشروحة فى هذا التفسير وعلم النفس * والعلم الثانى علم الشريعة فنرى العالم الدينى شارحا النبات والحيوان والآخر مديرا المعمل الكيماوى وهذا من قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) ومن قوله هنا (الحمد لله رب العالمين) والعالم علوى وسفلى والله ربهما والمسلمون خلفاؤه فى الارض بالقضاء والعدل بين الناس وبالبحث ومعرفة العوالم فكما برع آباؤنا فى القضاء والحكم بين الناس فلنقم نحن بذلك وندرس علوم العوالم كلها باعتبار ان ديننا يأمرنا به والا فما الفرق بين (قل انظروا ماذا فى السموات والارض) وبين قوله (فصل لربك وانحر) كلاهما أمر والامر للوجوب فاذا نحن قرأنا الاحكام الشرعية وقضيناها فلنقرأ العجائب الكونية ولنعمل بها فنرقى الزراعة والصناعة والتجارة ﴿وانى أدعو جميع أمم الاسلام فى مشارق الارض ومغاربها﴾ ان يعنوا النظر فيما أقول والا فكيف يقول الله تعالى (ليظهره على الدين كله) وكيف يظهر على الاديان الا بهذه المزية وهى ان الديانات لا تتعرض لعلوم الكائنات والاسلام يدعو اليها ويأمر بها وهذه خاصة به لا يشاركه فيها دين من الاديان * ليعلم كل عالم وملك أمته جميع العلوم باعتبار انها من الاسلام كما سيظهر ان شاء الله فى هذا التفسير فاذا أبى المسلمون ماذكرناه فانى أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود وقد بدت بوادرها من الطيارات القاذفات على القرى والشيوخ والصبيان فمن تكاسل من المسلمين عن هذه العلوم فلا يلومن الا نفسه (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له) ألا وان أرباب المذاهب من شيعة وسنية ومالكية وحنابلة وحنفية وشافعية وزيدية كان اختلافهم فى مسائل من الشريعة المطهرة فاذا قرؤا علوم الآفاق التى أرشد اليها القرآن لم يكن بينهم اختلاف فيها لانها مكشوفة ظاهرة والله هو الذى منحهم اياها فليقرأ المسلمون فى الشرق والغرب جميع العلوم التى برع فيها الافرنج وهى علوم الانفس والآفاق واذ ذاك يرون ان الخلاف بينهم فى الشريعة يسير جدا بالنسبة لما اتفقوا فيه ﴿الى هذا ادعو جميع المسلمين والله يهدى الى سواء الصراط﴾ ان علماءنا السابقين شرحوا هذا فى كتبهم ودونوه فى دفاترهم ولكن المسلمين كانوا فى غفلة ساهين

ليقف العالم بين الناس شارحا لهم جمال الزهر وبهجة القمر وبدائع النبات وغرائب الطب والمعادن ليفهم غيره وليكثر من هذا أولا يرى علماء الاسلام من سنيين وشيعيين وزيديين وغيرهم ان علوم الخلق من العوالم العلوية والسفلية غذاء وان علوم الشريعة وهى الاحكام الفقهية التى صرفوا فيها أعمارهم دواء وكيف يعيش الانسان الا بالغذاء وهو اذا تعاطى الدواء وحده هلك بل الغذاء هو الدائم الطلب أما الدواء فانما يكون عند انحراف الصحة

فيا أيها المسلمون اطلبوا علوم الغذاء وعلوم الدواء أى العلوم الكونية والعلوم الشرعية وجميعها يطلبها القرآن وقد اعتنى بعلوم الغذاء أشد من عنايته بالدواء فمالى أراكم عما قدمه الله معرضين وعلى ما أخره الله عاكفين قدم تربيته للعالمين ورحمته للمخلوقين على العبادة وهداية الصراط المستقيم كأنه يشوقكم الى دراسة رحماته ويأمركم بمعرفة كمالاته الكونية وآياته الرحمانية وعجائبه الحكمية وبدائعه الفطرية وماذرأ من البهجات ومارزق من المصنوعات ولقد ساءنى والله ما أرى من اعراض بعض العلماء بالدين عن عجائب الخلق ولقد كنت أود أن أرى أولئك الذين نزحوا الى أوروبا بعلم الطبيعة مغرمين وبعجائب الخليقة مسارعين ولكنى رأيتهم منصرفين الى الوظائف الوقتية والاعمال الادارية ومارأيت أحدا منهم بالعلوم الكونية مغرما فتشابه فى بلادنا العلماء الدينيون والشبان الذين هم للكون دارسون فالاولون على أحكام الفقه مقتصرون وهؤلاء بالوظائف قانعون وكل حزب بما لديهم فرحون الا قليلا من الفريقين نالوا حظا عظيما (وقليل ماهم * وقليل من عبادى الشكور)

فاذا تأمل المسلمون ماذكرناه كان حمدهم حقيقيا اذا عملوا بمقتضاه ولما كان كل حمد لابد له من سبب يستوجبه وقد ذكرنا السبب اجماليا وهو الرحمة وكان الاجمال لا يغنى عن التفصيل ذكر الله أهم النعم وهى انه مربى العالمين

فقال ﴿رب العالمين﴾ أى مربى العوالم كلها ومرقيها من حال النقص الى حال الكمال وغايات التمام فهو الذى يتعهد النبات بالتغذية والانماء وهكذا الحيوان والانسان وكذا العوالم العلوية وهذه هي التربية التي كان مبدؤها الرحمة ﴿ولاذكرن لك مسائل من التربية﴾

﴿المسئلة الاولى﴾ (الذرة) ان المسلمين فى أنحاء المعمورة يأكلون الذرة ويشاهدون مزارعها وأكثرهم يجهلون مادبرالله عزوجل فيها وكيف ربى الحبة الواحدة فى (المطر) وهو المسمى (الكوز) عند العامة فى بلادنا المصرية وهو مجمع الحب الذى يتكون حوله سطورا منظمة لو يعلم المسلمون كيفية تربية الله للحبة الواحدة لعجبوا من صنع ربهم وفهموا كيف يربى العوالم كلها ان لكل عود من أعواد الذرة ذكورا فى أعلاه واناثا فى وسطه أما الذكور فهو مايسميه العامة (الكذاب) وهو أغصان بيضاء فيها الطلع مخفى عن الناس ذلك الطلع ينزل على ذلك (المطر) الذى هو مجمع الحب وله خيوط طويلات حريرية حمر أو بيض تلك الخيوط الدقيقة منقوبة من وسطها ثقبا لايشعر به الناس فينزل الطلع من أعلى العود الى تلك الخيوط التي يسميها العامة فى مصر (شرابه) فيدخل ذلك الطلع فى التجويف الذى فى تلك الخيوط ويسرى حتى يصل الى محل الأنثى فى (المطر) أى محل الحب فتلقح تلك الانثى فتخرج حبة واحدة بذلك التدبير فانظر وتعجب كم فى ذلك المطر من حبة وكيف كان لكل حبة رحم مخصوص ولقح ينزل على ذلك الخيط حتى يصل فى التجويف الى الام فتحمل بتلك الحبة ولقد ذكرت هذا فى كتابى (جواهر العلوم) وأوضحته أيما ايضاح

﴿المسئلة الثانية﴾ حبة القمح لقد توجهت الى مدرسة الزراعة المصرية بالجيزة فأرونى حبة القمح مكبرة مجسمة بشكل الكفرى أى الغلاف الذى فى جوفه طلع ذكور النخل فرأيت ان لكل حبة من حبات السنبلة ثلاثة أغشية ملتفة حولها وفى أعلى تلك الاغشية (السفا) جمع سفاة كأنها أسنة تحمل أكياسا مملوءة طلعا كطلع النخل أو كطلع الذرة المتقدم وهذه الاكياس المحمولة على تلك الاسنة تنزل ذلك الطلع على محل الانثى وهى موضع تلك الحبة من السنبلة ومتى وقع طلع الذكور عليها حملت بتلك الحبة ﴿ألا فليعجب المسلمون من تربية الله مربى العالمين﴾ وكيف كانت عنايته تامة بالحبة الواحدة من الذرة ومن القمح وكيف جعل لها أنثى وذكرا وألف بينهما وجعل الحبة نتيجة لتلك الحكمة وكيف يقرأ المسلمون فى صلواتهم كل آن ان الله مربى العالمين وأكثرهم يجهلون تربيته

انى لأعجب غاية العجب من أمة يكون مبنى عبادتها ودينها على معرفة حكمة الله وتربيته ثم يجىء الفرنجة فيسبقونهم بتلك المعارف الشريفة العالية

ياأمة الاسلام كيف نقرأ فى صلاتنا ان الله رب العالمين ونحن نجهل تلك التربية فى صغيرات الامور وكبيراتها واذا كانت عناية الله قد بهرت وظهرت فى حبة ذرة وحبة قمح فكم من حبات فيهما يزدردها الانسان وهو أشبه بالبهائم ألا لافرق بين الانسان والحيوان الا بهذه العلوم لو كان المدار على الخبز والماء والملابس والزينة لقال لنا الله الحمد لله الذى أروانا أو والذى أشبعنا أو والذى ألبسنا أو والذى جاء لنا بولد أو بمال بل قال لنا الذى شمل العالم بالتربية فكأنه يراد منا أن نكون مفكرين علماء لاأن نأكل كما تأكل الانعام ونموت كما يموت الدود ولو كان المراد أن نعرف الله بأنه مثيب ومعاقب على الحسنات والسيئات فقط لقال لنا الحمد لله رب الحسنات والسيئات ان الله واسع الرحمة عظيم المحبة واسع العطايا فاقتصار الوعاظ على ذكر الثواب والعقاب قصور معيب اللهم انى أفرغت جهدى فى ايقاظ الأمة وأديت ما على وانى أسألك أن تعينني على اتمام هذا التفسير انك أنت السميع المجيب

﴿المسئلة الثالثة﴾ تربية الثمرة فى النخلة ذلك ان النخلة تجذب مارق وراق من خلاصة العناصر الارضية لتتغذى بها أجزاؤها فيرتفع ذلك الغذاء فيغذى جذع النخلة بما غلظ منه وأما خلاصته فتذهب صاعدة الى الجريد فيغتذى بها ويبقى ما هو ألطف من تلك الخلاصة فيرتفع الى القنوان فيغتذى القنو بتلك اللطائف ثم مارق وراق من ذلك يرتفع الى شماريخ الثمر فتتغذى به وترتفع الخلاصة الى الثمرة فتقابلها فى أولها تلك التي هي فيها المسماة بالقمع وذلك القمع

مصفاة تمدني الغذاء وتأخذ ألطفه وتوصله الى جرم الثمرة وهذه الخلاصة المصفاة يؤخذ ماغلظ منها فيصير نواة ومالطف يكون جرم الثمرة الحلو اللذيذ ثم جعل هناك منسوج حريري رقيق صفيق فوق النواة فاصلا بينها وبين المادة الحلوة لئلا تصل المرارة من النواة الى مافوقها فتذهب بالحلاوة وجعل في شق النواة ذلك الفتيل الطويل ووظيفته ايصال الغذاء الى سائر أجزاء الثمرة

فتأمل كيف صفى الغذاء سبع مرات حتى وصل الى ما يأكله الانسان من التمر والرطب والبسر فتصفيه الجذور في الارض من خلاصة العناصر ثم جذع النخلة ثم الجريد ثم القنو ثم الشماريخ فالمصفاة فالنواة فتعجب من تربية الله للتمرة والرطبة وكيف راعاها حق رعايتها حتى صارت الى ماهي عليه الآن من اللذة والمنفعة

﴿ المسئلة الرابعة تربية الله للؤلؤ في البحر ويسمى الدر والجمان ﴾

وهو حيوان يعوم على وجه الماء ثم يهبط في الاعماق وهو داخل صدف من المواد الكلسية وقايةله من الاخطار والدر يتكوّن في لحمه * ومن عجيب صنع الله عزوجل أن يجعل هذا الحيوان مخالفا لما نعرفه من سائر الحيوانات أن الحيوان يشم بأنفه ويأكل ويشرب بفم ويتنفس بهما ويمنع المضار عنه بيديه وقرونه وقواه وحصونه وجيوشه * أما حيوان اللؤلؤ فان له شبكة دقيقة كشبكة الصياد متداخلة عجيبة النسج تكون مصفاة له فيدخل الى جوفه الماء والهواء ومواد الغذاء ويمنع الرمال وغيرها من المضار من الدخول في جوفه وتحت تلك الشبكات أفواه لكل فم أربع شفاه تقبل الملائم من تلك المود وتدفع غيره واللؤلؤ ينشأ من تجمع رمل أو حيوانات ضارة تدخل قسرا الصدفة فيفرز حيوانها مادة لزجة يغطيها بها ثم تجمد وتتحجر * ومن اللؤلؤ ما هو أصغر من العدسة ومنه ما هو أكبر من بيضة الحمام وينبت في خليج فارس وخليج المكسيك وجزيرة سيلان فتعجب من تربية الله لحبة الذرة وحبة القمح والثمرة والدرة في البحر التي تتحلى بها الحسان وتيجان الملوك الا وان حليتها في صدور الحكماء وعلم تربيتها في أفئدة العلماء أبقى أثرا وأشرف ذكرا وأرفع مقاما

﴿ المسئلة الخامسة تربية الجنين في بطن أمه ﴾

ان للاجنة علما خاصا يدرس في مدارس العالم الراقي وهي من التربية الالهية الداخلة في قوله رب العالمين ان الحيوان المنوي الجاري من الحيوانات التي تعد بالآلاف ومئات الآلاف في الماء المهين يسارع في مجراه عند مصبه حتى يلاقي حيوانا من التي سارعت جارية من ماء لامات فيلتقيان ويكوّنان خلية واحدة ثم تكبر بالانقسام ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ ١٢٨ وهكذا بطريق المتوالية الهندسية المحتوية على بيوت الشطرنج ذات الاسرار العجيبة في علم الارتماطيقي وهكذا التكاثر المنتظم السريع بهذه المتوالية يستمر الى تسعة أشهر * ومن عجب ان هذا الانقسام العددي في الخلايا يتبعه نظام مدهش في الاعضاء والشرايين والاوردة والعروق والرباطات واللحم والشحم والظفر والشعر والحواس المدهشة الدقيقة الصنع عجب وأي عجب * انقسام الخلية (المكوّنة من الحيوان المذكر ومن الحيوان المؤنث) الى المضاعفات بنظام تام آلافا مؤلفة يتبعه نظام في الأعضاء فكان ظفر ومخ وماء زجاجي في العين ان في ذلك لعجبا عجابا ونظاما غريبا وحرام على المسلمين أن يجهلوا تربية الله للاجنة في بطون أمهاتها

﴿ حكاية ﴾

حكي في أيامنا هذه ان رجلا أمريكيا أراد أن يستخرج الفراخ من بيض الدجاج بدون واسطة الدجاجات وحضنها للبيض فخطر له أن يجعل البيض في حرارة تضارع الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له فلما جمع البيض وابتدأ العمل قال له فلاح يأيها السيد لابد لك ان تقلب البيض كل أربع وعشرين ساعة مرة لاني رأيت الدجاجة تقلبه هكذا فسخر منه ذلك العالم وقال له أيها الفلاح ان الدجاجة تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذي حرمته أما نحن فحرارتنا محيطة بالبيض من جميع جهاته فاني يستوي عملنا وعمل الدجاجة ثم استمر في عمله فلما جاءه دور الفقس لم تفقس بيضة واحدة ولم ينل منها فرخا فقال لابد أن أفعل في المرة الثانية ما أشار به

الفلاح ثم صار يقلبه كما لقنه الفلاح ففقس جميع البيض وخرجت منه أفراخ كثيرة فطار الخبر في المحافل المعمورة وطلب من العلماء تفسير هذه الحادثة وآخر ما رأوه أن قالوا ان الفرخ حينما يخلق في البيض اذا بقي بدون تحريك انحدرت المواد الى الجهة السفلى من جسمه فتتمزق أوعيته فاذا بقيت رأسه لم تحرك مثلا تمزقت من الأسفل لكثرة المواد في الجهة السفلية وهكذا بقية الأعضاء فهذه وأمثالها مما لا يتناهى يدلنا على أننا في حومة الجهالة في وسط بحر لجي من الحكمة لا يعرف قراره ولا يدرى منتهاه

﴿ المسئلة السادسة تربية الولد باللبن ﴾

خلق الله اللبن في الثدى قبل أن يولد الطفل وكلما كبر الجنين ازداد اللبن في الثدى حتى اذا ما تم حمله وكانت الولادة درّ له لبن مناسب لسنه فكلما كبر سنا اقترب اللبن من طبعه وتناسب مع قوته حتى ان علماء الطب حرموا أن يرضع حديث الولادة من امرأة قديمة العهد بها لأن الطفل لا يتحمل لبنها وقالوا أيضا الأولى بكل طفل أمه في الرضاعة فان لبنها أنسب له وذلك من التربية التي تضمنها لفظ الحمد لله رب العالمين الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى * ومن عجب أن العجوز والصغيرة جدا لا تشتهيان ولا يقترب منهما الرجال لحكمة الله عز وجل لانهما لا قبل لهما بالحمل ولا الولادة ولا الارضاع فهذه الحكمة ناطقة بلسان فصيح قائلة ما جعل الذكر والانثى في الانسان والحيوان الا للانتاج * فاما الشهوات واللذات فانما هي مقدمات وممهدات للنسل

﴿ المسئلة السابعة التربية الطبية * ولنذكر منها قليلا فنقول ﴾

قال الأطباء مراعاة الصحة أفضل من استعمال الدواء يعني انك اذا حافظت على جسمك وراعيت صحتك ونظمت أغذيتك لم تحتج الى الدواء * وقالوا ان جميع الاستفراغات والمسهلات للبدن مثل الصابون للثوب اذا أكثر استعماله أبلاه سريعا وأكثر المسهلات سمية قاتلة اذا لم يعرف القدر المستعمل منها وربما يحرك المسهل أخلاطا رديئة كامنة في الجوف فيثور منها علل عظيمة وداء لا دواء له فترك المسهل والاستفراغات جميعا أولى وأوفر ما وجد الانسان سبيلا الى السلامة الا عند الضرورة الملجئة فيستعمل منها القدر اليسير الاسلم * وقال الاطباء متى أمكنك أن تعالج المريض بالغذاء فلا تعطه شيأ من الأدوية ومتى قدرت أن تعالجه بدواء خفيف مفرد فلا تعالجه بدواء مركب ولا قوى ولا تستعمل الأدوية الغريبة المجهولة ما أمكنك الا أن يصح لك منها شئ بالتجربة واذا مالت شهوة المريض الى غذاء لا يوافقه فأعطه منه اليسير * هذا ما أردت ذكره من تربية الله للناس بعلم الطب الذى لم تراع أصوله في بلاد الاسلام والعالم كله لا يزال فيه طفلا لا يدرى ما منتهاه

﴿ المسئلة الثامنة التربية في المدارس والتعليم ﴾

ان علم التربية في المدارس يدرس للمدرسين ولأذكرن لك منه مسئلة واحدة لانها من تربية الله للعالمين

* اعلم ان الله تعالى خلق المخ وجعله مركز الفكر والخيال والتذكر والحس المشترك والحافظة ومادته سمراء من خارجها بيضاء من داخلها وقدر بي الله مخ الناس فجعل أدناهم يبلغ مخه نحو ست عشرة أوقية وأعلاهم وهم النابغون يبلغ المخ فيهم أربعا وستين أوقية وقد تبين لك فيما تقدم ان أجسامنا مركبة من خلايا كثيرة تتكاثر بالانقسام والمخ منها مركب من آلاف الآلاف من الخلايا الدقيقة وهذه الخلايا اشكالها صغيرة مستديرة حولها نتوآت صغيرات * فمن عجائب صنع الله عز وجل أن جعل هذه الخلايا لوحا محفوظا في الدماغ لما يرد على النفس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس * فهناك خلايا مختصة بقبول المحسوسات * فمنها ما هو للسمع ومنها ما هو للبصر ومنها ما هو للشم وهكذا ومنها ما هو للتفكر والتعقل ومنها ما هو للتذكر ومنها ما هو للقوة الناطقة ومنها ما هو للقوة الكاتبة والصانعة في اليد * فاذا اختل منها بعض الخلايا تعطلت القوة الكامنة فيها ولا ينفع فيها التعليم البتة فلو أن الخلايا المعدة لعلم الاعداد فقدت فانه لا يمكنه أن يتعلمه * فكأنما هذه الخلايا المختلفة المتباينة رياض وغياض

يخرج

يخرج فيها مختلف الزرع والشجر والفاكهة والأب لكل منطقة من مناطق الأرض مزارع خاصة بها كالقطن والنخل فهكذا هنا فى خلايا المخ * ونتيجة هذه المعرفة فى التعليم ان المعلم اذا ألقى الدرس على التلميذ فنظره ببصره مكتوبا بخط جميل وسمع نطق المعلم ونطق به هو وكتبه بخط جميل فهناك تكون آثار أربعة آثار البصر وآثار السمع وآثار النطق وآثار الكتابة كل ذلك فى المخ وهناك تتكيف الخلايا المختصة بها ويحصل بينها علاقات فتمتد خلايا النطق بخيوط رقيقة الى خلايا السمع وخلايا البصر وخلايا الكتابة فتتعاون وتحفظ الكلمة فى ذهن التلميذ ويصير الدرس مفهوما جدا * وان قصر فى بعض هذه كأن قبح خط الكاتب أولم يصغ التلميذ أولم يكتب بيده كان الاثر فى العقل ضعيفا والحفظ ضائعا

وهذه الخلايا المتصلة المتعاونة محال لما يسمى (الحس المشترك) الذى يجمع ما تأتى به الحواس ثم تأخذه القوة المتخيلة فتحلل فيه وتركب ثم القوة المفكرة فستنتج ثم القوة الحافظة فتحفظه وهكذا فهذه المسئلة من علم (البيداجوجيا) وهو فن يعرف به كيفية تربية الناشئين على أكمل وجه وهو يستمد من علم التشريح وعلم النفس كما رأيت وهذه التربية داخلة فى قوله تعالى (رب العالمين)

﴿ المسئلة التاسعة تربية الله للعقول الكبيرة بعلم المنطق لادراك العلوم العالية فنقول ﴾

اعلم ان كل حاسة من الحواس الخمس لا يمكنها أن تحكم بما ارتسم فيها ولكن الذى يحكم هو العقل * مثلا اذا رأى الانسان سرابا وسط النهار فليست الباصرة مخطئة فى رؤيته وانما المخطئ الفكر فى استنتاجه اذ ظنه ماء وانما سبيل المفكرة أن تتربص وتنظر حكم القوة اللامسة والقوة الذائقة فاذا لمسه باليد وذاقه باللسان فعرفه ماء فبها والا فلا وهكذا اذا نظر الانسان بقوة الباصرة تفاحة مصنوعة من كافور مصبوغة كلون التفاح فورد خبرها الى المتخيلة فللمفكرة فليس للمفكرة أن تحكم أن طعمها ورائحتها وملمسها مثل التفاحة فلا بد لها أن تستخبر قوة الذائقة والشامة واللامسة وحينئذ يمكن الحكم عليها بالاثبات والنفى * هذه من تربية الله للعالمين العقلاء فاذا سقط الفراش فى النار ومات فالعيب على ضعف قوته المفكرة الضئيلة لانها حكمت على ضوء النار انه كضوء الشمس وقنعت بالقوة الباصرة وهنا كان يجب أن يحكم القوة اللامسة ليعرف الحار من البارد وهكذا ترى سائر البشر يذهبون فى الدنيا والدين ضحية جهلهم وحكمهم باحكام مقدماتها ناقصة وهذا من قوله تعالى رب العالمين

﴿ الحمد يكون على مقدار علم الحامد ﴾

ألا وان الحامد كلما كان أعرف بصفات المحمود كان أصدق حمدا وكلما كان قليل العلم بها كان أقرب الى الكذب فى حمده ولذلك تجد الناس اذا أرادوا تأبين ميت أو تكريم حى جمعوا من الكتب ما كان له من محمدة واذا أرادوا ذما نقبوا عن الأعمال السيئة فهكذا هنا لن يعرف المسلمون محامد الله حتى يقرؤا نظام الطبيعة لأنها أفعاله وآثاره وعجائب صنعه وهى كتاب التاريخ الذى حفظ فى سجل الدهر فاذا أراد المسلمون أن يحمدوا الله حق حمده فليقرأ عقلاؤهم نظام الطبيعة وليعقلوها وليفهموا دقائق التكوين فلا يتركون علما الا درسوه ولا فنا الا عرفوه وحينئذ يحمدون الله حق حمده كما تحمد الأمم رجالها وتمدح شجعانها بذكر مآثرهم التى انتفعوا بها فاذا قالوا الحمد لله كان ذلك على الحقيقة والواقع لا بمجرد اللفظ * ولعلك تقول هأنا ذا قد عرفت أنه لابد من معرفة نعم الله حتى أكون حامدا له حق حمده بحسب طاقتى البشرية فما مجامع تلك النعم * أقول كل العلوم مجامع الحمد وسأفصلها لك فى التفسير بل كل ما أشار له القرآن هو مآثر تربية العالمين التى تستوجب الحمد ولاذكرن لك مجملها فأقول

﴿ معنى العالمين ﴾

اعلم أن العالمين جمع عالم وهو ماسوى الله تعالى * والعالم قسمان عالم علوى وعالم سفلى والعلوى هو الكواكب والشمس والقمر والسيارات وأقمارها ولا يتسنى لك معرفتها الا بضرب مثل

تصور امرأة جميلة الصورة طويلة القامة كثيرة الحلى والحلل مشرقة الوجه وهذه المرأة قد ولدت عشر فتيات وهن

أقل منها قامة وحليا وحلا واشراق وجه وقد أحطن بها كاحاطة بالقمر وأخذن يدرن حولها بنسب معلومة ومواقيت محدودة وكل واحدة من الفتيات العشر ولدت عشر فتيات أقل منها طول قامة وحليا وحللا واشراق وجه وهن يدرن حولها بنسب محفوظة وأوقات معلومة ثم كل واحدة من هؤلاء ولدت عشر فتيات أقل منها طولا وجمالا واشراق وجه وحليا وحللا وهكذا * فالجيل الأول عشر فتيات والثانى مائة والثالث ألف والرابع عشرة آلاف والعاشر عشرة آلاف ألف ألف (عشرة بلايين) وكل جيل أقل مما قبله جمالا وقامة وحللا واشراق وجه وأرق مما بعده

فالمرأة الأولى ذات الجمال هى المجرة التى ترى فى الليالى المظلمة مستطيلة فى السماء كسحابة بيضاء لبنية * وهذه أصل جميع الشموس ومنشؤها ومستقرها ومستودعها وهى شموس لانهاية لعددها بعدت عن الأبصار وتباعدت فى الأقطار حتى صغرت فى العيون وتضاءلت فصار كل ألف ألف ألف منها يكاد يكون ذرة من اللبن فى أعين الرائين فهذه المجرة فيها هناك على ابعاد لا يتصورها العقل أصل الشموس وأمها التى عبرنا عنها بالمرأة الجميلة وحولها شموس كل شمس حولها شموس وهكذا الى أن ينقطع الفكر عن التصور ويقف العقل عن التعقل * وآخر هذه الشموس مقابل للفتيات اللاتى فى الجيل العاشر وشمسنا كفتاة منهن لا يحصى عددا أترابها من الشموس كما كثر عدد فتيات ذلك الجيل * واذا نسبت هذه الفتيات فى الحسن والقامة والحلى والحلل والاشراق الى الأم الأولى كانت كالقردة بالنسبة الى الانسان بل أقل فهكذا نقول فى الشمس المضيئة عندنا انها بالنسبة الى الشمس الاولى كالليل بالنسبة للنهار وفى الجسم كالذرة بالنسبة للجبل وأنت تعلم أن الشمس أكبر من الارض ألف ألف مرة وثلثمائة ألف مرة * وفيها من الجمال والبهاء ما يبهر العقول انها ترسل ضوءها على الارض فينير السبل ويوضح المسالك ويفتح الاعين فترى الصور المرسومة على سطح الهواء وخلال الاثير جلية واضحة وترسل الحرارة فيجرى الماء وينمو النبات والحيوان والانسان وتصبح الارض مخضرة باجتماع الماء مع الشمس والعناصر والهواء * ثم ان سيرها وانتقالها من مكان الى مكان بحساب متقن يعرف الناس السنين والحساب فلا يضلون فى أحوالهم الزراعية والصناعية والمدنية * هذه بعض محاسن الشمس وهذه من عجائب جمالها الذى لا نسبة بينه وبين جمال الشمس الاولى وقد قلنا ان لها نظائر تسير معها حول شمس أخرى وهذه الاخرى لها نظائر وهكذا فما مقدار السنة التى تسيرها حول شمس أخرى (فى الكواكب المسماة بالجاثى على ركبتيه) وربما كانت آلاف آلاف من السنين المعلومة فكيف يكون جمال الشمس الاولى ومقدار عظمتها وبعدها (ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب) وهذه الشمس التى هذا وصفها حولها السيارات الثمانية وهى نبتون وأورانوس وزحل والمشترى والمريخ والارض والزهرة وعطارد فارضنا سيارة تسير حول الشمس فالشمس أم والسيارات فتيات حولها كأنها فتاة لام قبلها والارض قد ولدت القمر يجرى حولها كما ان زحل والمشترى وغيرهما لها أقمار تجرى حولها والاقمار أقل جمالا وحجما وبهجة من السيارات والسيارات أقل من الشموس والشموس ترتقى طبقا عن طبق الى الام التى فى المجرة وما يقال فى هذه المجرة يقال فى مجرات أخرى (وما يعلم جنود ربك الا هو) فتلك عرائس فى الجو سائرات وجنود مصطفات الى أن تقف العقول * وهذه الشموس وحركاتها ونظامها لا يتسنى لك معرفتها الا بعلم العدد والحساب والهندسة وعلم الجبر والفلك (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ولعلك تقول انك ما قرأت مسئلة الشمس وأنها تدور حول شمس أخرى وهكذا دائرة بعد دائرة الى أن ينقطع الفكر ويقف العقل انك لم تقرأ ذلك الا من تعاليم الفرنجة وهم الذين قالوا ان تلك الشموس أكبر من شمسنا * فهل ورد فى ديننا ما يؤيد ذلك * أقول نعم بل ورد ان تلك العوالم فيها سكان أرقى من بنى آدم وهم صالحون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله أرضا بيضاء مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوما مثل أيام الدنيا ثلاثين مرة مشحونة خلقا لا يعلمون ان الله تعالى يعصى فى الارض ولا يعلمون ان الله تعالى خلق آدم وابليس اهـ

فاذا كانت تلك الارض مسيرة الشمس ثلاثين فى ثلاثين تكون مسافتها تسعمائة يوم وهذا فوق الافق ومثلها

تحت الافق وفيها قوم عقلاء صالحون فهذا يشير الى ما ذكرناه (والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) الى هنا قد أجملنا الكلام على العالم العلوى

(العالم السفلى)

العالم السفلى ما فى البحر من مخلوق حى وما على الارض من معدن ونبات وحيوان وانسان * فاما عالم البحر فقد جعل له العلماء فى هذه الايام علما مستقلا ليطلع الناس على غرائبه ومما قرأناه عنهم أنهم استخرجوا من قاع البحار على بعد أميال حيوانا يعيش فى الظلمات فى تلك الاصقاع الغائرة وقد وجدوا له آلة للضوء اذا حركها أضاءت ما حولها وقد خلق لها على جسمها فى مقابلة تلك الآلة سطح قائم بزاوية مناسبة متى أشرق النور عكسه ذلك السطح فأبصر ذلك الحيوان المسالك البحرية فكأن ذلك الحيوان لما حرم ضوء الشمس خلقت له فى قاع البحار شمس خاصة به يفتحها متى شاء وأمامها سطح يعكس شعاعها فيرى المسالك والطرق (فتبارك الله أحسن الخالقين)

وفى البحر سمك شفاف سمين طوله نحو ثمانية قراريط وشحمه أبيض نقى يصيده سكان ألاسكا ويجففونه ثم يوقدونه من ذنبه فينير بلهب صاف شديد اللمعان * ومن السمك نوع ببحر الصين اذا أكله الانسان أخذ يضحك حتى يموت وهذا السمك يختص به الوزراء والعظماء اذا حكم عليهم بالاعدام فيشترونه سرا وبه يموتون من الضحك وحكومة الصين تمنع بيعه * ومن عجائب البحر الدر والمرجان * ثم من العالم السفلى عالم المعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والخارصين والبلاتين والكبريت والزئبق والمغنيسيا والملح والزنك والرصاص وغيرها ثم الآثار العلوية من حوادث الجو وتغير الهواء من النور والظلمة والحر والبرد وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ثم الأنهار وما يكون من الغيوم والضباب والطل والندى والأمطار والرعود والبروق والثلوج والبرد والهالات

(عالم النبات)

ومن العالم السفلى عالم النبات وله علم يعرف به اختلاف أنواعه وأشكاله وألوانه وطعومه وروائحه وأوراقه وأزهاره وثماره وحبوبه وبزوره وصموغه وحالاته وبنية تكوينه ونتاجه وتربيته لأولاده

(عالم الحيوان)

وله علم يعرف به صنوفه وأنواعه وأجناسه وسكان البر منه والتراب والهواء والبحر كالانعام والحشرات والطير والسمك ومعرفة تزاوجها وتوالدها ومستقرها ومستودعها ويتبع ذلك معرفة تشريح الانسان

(علم التشريح)

يعرف منه ان أعضاء الانسان ٢٤٨ عضوا وتعرف أوردته وشرايينه وأعصابه والدورة الدموية والدورة التنفسية والدورة الغذائية والدائرة العقلية والحواس الخمس ونظامها والقوى الخاصة التى فى الدماغ (وتقدم الايماء اليها عند تفسير لفظ رب من (رب العالمين) وهى الحس المشترك والمخيلة والمفكرة والذاكرة والواهمة هذه هى بعض العلوم الطبيعية فى العوالم السفلية * وأما العوالم الالهية فلها علوم خاصة بها تبحث فى أمر الملائكة كما ستراه فى سورة البقرة عند قوله تعالى (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة) فسيظهر هناك ان شاء الله ان فى معنى الخلافة ما يفهم المقام من معرفة الله والملائكة وبهذه العلوم أيضا تعرف الامور العامة والمقولات وتقسم العلوم انتهى الكلام على العالم السفلى وما بعده

(هذه هى العوالم العلوية والسفلية التى تضمنها لفظ العالمين والله هو المربى لها والمكمل لذواتها)

ألا فليعلم المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها انهم لا يحمدون الله حق حمده ولا يشكرونه حق شكره الا اذا درسوا هذه العلوم كلها وعرفوا ما تفرع عنها وانتفعوا بها ونفعوا الناس بفوائدها واذن يحق لهم أن يقولوا الحمد لله رب العالمين

أما اذا ما بقوا على جهلهم ولم يعرفوا هذه العوالم ولا نظامها فليعلموا ان حمدهم لفظى وشكرهم ظاهرى * ولأضرب لك مثلا اذا أنت مدحت امرأ فى مجلس وكان فيه من هو أعرف به منك وسألك عن بعض صفاته فوجدك بها جاهلا فانه لاجرم يقول أنت به جاهل ثم يشرح صفاته فتقر له بالفضل عليك ﴿يحكى﴾ أنه فى زماننا قدم مؤلف عظيم على رجل من رجال الجرائد وكان هو وزوجه لا يتركان مجلسا الامدحا هذا المؤلف فيه ولا ناديا الا أثنيا عليه وهما فى كل واد يمدحان و يحمدان صنيع ذلك المؤلف وأنه أحسن الى أمته وأنا لهما شرفا عاليا وفخرا نالدا فلما أن حل بساحتهما وهما لم يرياه قبل ذلك فرحا به واستبشرا وأكرماه غاية الاكرام * ولما قاما الى بعض شأنهما نظر فوجد كتابه لم يفض ختامه ولا يزال ورقه متصلا غير منفصل دلالة على أنهما لم يقرآ منه حرفا ولم يعرفا منه كلمة فلما ودعهما وانصرف أرسل لهما مقصا ليفهمهما انه أدرك ان المدح والحمد كانا على جهالة عمياء وان الثناء رياء وانقلب سروره غما وفرحه حزنا أفلا يكون نصيب المسلمين من ربهم نصيب ذلك الرجل وزوجته من المؤلف أفلا يقول الله للمسلمين أنتم تحمدونني ولكنكم لا تعرفون من صفاتي وأفعالي الا قليلا فلا عطينكم من نعمي على مقدار ما عرفتم وآخذ ينقص أرضنا معاشر المسلمين و يعطيها للامم الأخرى التى درست العوالم * اللهم يرسل مقصا للمسلمين كما أرسل المؤلف ولكنه أرسل رجالا وأمما قصوا من أرضنا وحرمونا منها جزاء وفاقا وقد آن أن يرجع مجدنا و يبزغ نجمنا ونعرف ربنا و (أن الارض يرثها عبادى الصالحون) فارض الجنة يرثها الصالحون لها بالعمل وأرض الدنيا يرثها الصالحون لها بالعمل والعمل يتقدمه العلم فكل أمة أعرف بهذا العالم فهى أحق به وأولى بالفضل وأعرف بالحمد

﴿ أسباب الحمد زيادة ايضاح لما سبق من قبل فيها ﴾

اعلم أن لكل حمد سببا كما أشرنا اليه آنفا فالجائع يقول الحمد لله الذى غذانى والظمآن يقول الذى أروانى والفقير يقول الذى أغنانى والجاهل يقول الذى علمنى وفى القرآن على لسان ابراهيم (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق) وفيه على لسان يوسف (وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن) وهذه الجملة حمد على نعمة الخروج من السجن ولم تشمل أسرة يوسف عليه السلام وقال الشاعر الجاهلى لما أسلم

الحمد لله اذ لم يأتنى أجلى * حتى اكتسيت من الاسلام سربالا

فاما الحمد فى هذه السورة فسببه أن الله مربى جميع العوالم * فاذا قال ابراهيم الخليل أنا أحمد الله لانه أعطانى ولدا أيام كبرى يقول المسلم فى صلاته أنا أثنى على الله لانه هو الذى ربى جميع العوالم من العلويات والسفليات

ان ابراهيم يعرف نعمة الله فى ابنه والجائع يعرف نعمة الله فى أكله والمسلم يجب أن يعرف نعمة الله فى تربية العوالم وليس معنى هذا أن يكون جميع المسلمين حكماء فلاسفة وانما المراد أن يكون فيهم طائفة تقوم بجميع العلوم كالفرنجة أو أكثر * ألا تراه يقول (اياك نعبد) ولم يقل أعبد للاشارة الى أن المقصود الجماعة

واذا بقى المسلمون على ماهم عليه من الجهل بنظام الله فى العالم فلاحظ لهم من حمد الله وشكره الاحظ الجائع من النسيم والماء عز الحامدون الحقيقيون الشاكرون العاقلون قال الله (وقليل من عبادى الشكور)

﴿ سؤال وجوابه وضرب مثل لحال القرآن بما أبدع الله فى العالم ﴾

لعلك تقول مالى أراك تحمل الفاتحة مالا تحتمل وتدخل فيها من العلوم مالا يعقل مع ان الناس يقرؤنها ولا يلحظون ماتذكرون و يكررونها صباحا ومساء ولا يتهيأ لهم ماتصفون وانما أنتم تقولون هذا استطرادا لا استنباطا وتطويلا لا تأويلا وتعليلا لا تفسيرا واكثارا لا استخراجا

﴿ أقول على رسلك واصغ لما ألقى عليك من مثل أضربه تذكرة لاولى الالباب ﴾

تأمل حال الرجل الزارع وقد استصحب دابته وولده الصغير ولما وصل الى الحقل رأى مهندسا للرى وعالما طبيعيا وحكيما الهيا فهل ترى ان هؤلاء والحقل امامهم متفقون فى الرأى متحدون فى الفكر كلا فان الدابة لا ترى فى الحقل الا حاجتها من البرسيم لسد جوعتها والصبى يتعالى عن الدابة فينظر الى خضرة البرسيم والمزارع وترنحها يمينا وشمالا

ويرى بهجة الزهر وجمال منظره وهبوب الرياح عليه والفلاح يتعالى عن ذلك فينظر فى أمر الزرع والحصاد والمكسب والخسارة ورى الارض وحساب المزارعين وماشاكل ذلك والمهندس يتعالى بنظره الى نظام الرى العام فى هذا الجدول وفى سواه من نظائره ويقارن المصارف والترع ببعضها ويتسع نطاق عمله حتى يشمل آلافا من المزارع ليحفظها من العطب ويحرسها من الهلاك والعالم الطبيعى أو الزراعى يتأمل فى العناصر كيف تكوّن منها النبات ويحللها ويعرف وزنها بالنسبة لبعضها كما سيأتى فى سورة البقرة ثم يتولى عمل المناسبة بينها ويقول ان السماد يكون على مقدار الحاجة فكل عنصر قلّ فى الأرض يعتاض عنه بآخر من السماد بوزن معلوم * ثم ان الحكيم الربانى يتعالى عن هذه الطبقات فيرى ان هذه النباتات كلها من عناصر أرضية اختلفت طعومها وروائحها وأثمارها ولحاؤها وأوراقها وأزهارها وأثمارها وبلدانها وطقوسها ومناخها ومنافعها الطبية والعناصر واحدة لا تتجاوز الثمانين عدا منبثة فى الأرض والهواء والماء * ثم ان تلك العناصر ترجع الى مادة واحدة وهى الأثير الذى يكون ضوأ وكهرباء وحرارة * ثم ان الجوهر الفرد الذى كان آخر آراء العلماء فيه انه مكوّن من ذرات كهربائية * منها الموجبة ومنها السالبة ولها نواة حولها ذرات تدور كدوران السيارات حول الشمس * ثم يقول ان هذه كلها ما جمعها حكمة وراءها وقدرة وعلم وذات مدبرة واله منظم والا فبالنار نرى نظاما عاليا وحكمة باهرة (وان الى ربك المنتهى) هذه هى النظرات فى الحقل

﴿ فقس عليها نظرات الناس فى الفاتحة ﴾

ان الفاتحة كلام الله والحقل وما فيه من الزرع فعل الله أفلا ترى أن تختلف الانظار فى الثانى كما اختلفت فى الاول * أولست ترى ان حافظ القرآن الذى لا يعنيه الا أن يعيش به كالحمار يحمل أسفارا وكالجاموسة فى المثال المتقدم لم يعنها الا البرسيم * أوليس العامة الذين يفرحون بنغمات القرآن فى مآتمهم وأعراسهم أشبه بالصبى الذى راقه مناظر النبات وأزهاره * أوليس العابد الذى يخاطب ربه بالفاتحة ويثنى عليه ويتجه اليه بقلبه أشبه بصاحب الحقل المقبل على تنظيمه * أوليس المفسر للقرآن الناظر فى معانيه العامة (وهو أرقى من العابد) أشبه بالمهندس الناظر فى سائر الحقول * أولست ترى ان من يعرف هذه العوالم العلوية والسفلية ويدرك نظامها وجمالها ويعرف من كل فن طرفا أرقى من المفسر وأعلم منه وانه أشبه بالرجل الطبيعى أو الزراعى الذى عرف نظام الزرع وتركيبه من العناصر * أوليس الذى يحمل الأمة على معرفة سائر العلوم فتكون راقية ذات مدنية ونظام وسعادة فى الدنيا لتحفظ كيانها وتصون بلادها وتستغنى عن غيرها وتمد الأمم بعلمها وصناعاتها فضلا عن أنه عرف تلك العلوم * أليس ذلك فى مثالنا كالحكيم الربانى فى المثال المتقدم الذى وصل الى الله من طريق الحكمة والعلم

وبهذا فلتفهم قوله صلى الله عليه وسلم (يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا) * فظاهره معلوم للناس والعامة وحقيقته ما ذكرناه لك

ألا انما ذلك العالم العظيم والملك الكبير فى الاسلام الذى يحملهم على معرفة العلوم والصناعات ليحفظوا مدنيتهم ويقيموا الوزن بالقسط ويكونوا خلفاء الله فى الأرض فى المثال الثانى * وذلك الحكيم العظيم الربانى فى المثال الأول الذى أدرك سر الخليقة بقدر طاقته * هذان وأمثالهما هم أولياء الله وخلفاؤه فى الأرض وخلفاء أنبيائه (فلمثل هذا فليعمل العاملون * وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) * هؤلاء هم الذين يكونون فى أعلى الجنة وقد تركوا أدناها للجهلاء كما فى الحديث (وعليون لأولى الألباب) فالجنة مفتاحها المعارف وفاتحة الكتاب فاتحة المعارف وما يعقلها الا العالمون (هاأنا ذا قد أبنت العوالم التى تولى الله تربيتها وترقيتها) وأنت تعلم ان التربية يعوزها أمران الرحمة والشدة فاذا لم تكن رحمة أو عدم الجزاء والمكافأة بالاحسان والاساءة كانت التربية ناقصة ولقد جعل الله الأم أقرب الى الرحمة والأب أقرب الى الشدة والمجازاة فاذا فقد أحدهما ساءت التربية فأشار الى الأول بقوله (الرحمن الرحيم) والى الثانى بقوله (مالك يوم الدين) أعنى مالك الأمر فى يوم الجزاء أما الرحمة فقد عرفتها فيما تقدم وأما الجزاء فانه تابع للأعمال كما قال تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) ألا ترى ان الرجل الكاسل

يصيبه المرض والفقر و يزدر يه الناس وهكذا من يؤذي الناس أو يؤذيهم وترى حكومات الأرض قاطبة نصبت القضاة وأقامت الجند وجعلت لها دورا للحبس وأخرى لاكرام الوافدين من الاقطار ووضعت القوانين والحدود وذلك سائر على نظام في مشارق الارض ومغاربها * ولما كان القانون البشرى يلحقه الخطأ لخلل فيه أو لضلال القضاة والحكام أو جهلهم جعل الله الجزاء الأوفى يوم القيامة لتجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون فالله عز وجل مالك جميع الامور محيط بالخلق في الدنيا والآخرة يثيب الطائعين والعاملين و يقهر العاصين والكاسلين و يذل الباغين اما في الدنيا واما في الآخرة واما فيهما معا و بهذا تمت التربية ونظام العالم * ان هذه الصفات التى حصرت الرحمة والملك في ذاته وانه هو المربى للعوالم كلها المالك لها تحصر قلب القارئ والمصلى والذاكر فى الله تعالى وتجعل الحمد خاصا به لجميع المحامد التى يفوه بها الناس للمحسنين راجعة اليه لانه المحسن الحقيقى وفوق الحمد يختص بالعبادة التى هى غاية الخضوع ومنه طريق معبد أى مذلل فكأن القارئ يقول يامن اتصف بهذه الصفات التى يمتاز بها عما عداه (اياك نعبد) أى نخصك بالعبادة والخضوع فضلا عن الحمد فالنصف الاول من السورة أحضر فى قلب القارئ الصفات المميزة للربوبية فلما تمثلت فى ذهنه تلك العظمة صارت كأنها مشاهدة أمامه فالتفت عن الغيبة الى الخطاب وكأنه يشاهده و يراه وفى الحديث (اعبد الله كأنك تراه) ولن يكون ذلك الا باستحضار صفاته العالية فى قلبه والى هنا وصل القارئ الى آخر درجات التقرب وهو الخضوع والتذلل كما فى قوله تعالى (واسجد واقترب) فلم يبق بعدها الا السؤال والطلب من المتقرب اليه فقال (واياك نستعين) فى أمورنا الدنيوية والاخروية كالصحة والغنى والمال والولد وأهم الحاجات أداء العبادات والهداية الى الصراط المستقيم فكأنه يقول نحن نعبدك ولن نقدر على أداء العبادة الا اذا أعنتنا * ولما طلب العبد الاستعانة بالله كأنه قيل له ما أهم ما تستعين فيه فقال العبد (اهدنا الصراط المستقيم) والهداية دلالة بلطف وهى على أقسام * الاول هداية الغريزة التى اهتدى بها الحيوان فى غدوه ورواحه والطفل لرضاع أمه والنحل لبناء المسدسات التى يجمع فيها العسل بنظام يحار فيه المهندسون * الثانى هداية العقلاء الاولية بان يميزوا بين الحسن والقبيح والجمال وضده وتعرف الاوليات ومبادئ العقول التى يرجع اليها فى العلوم مثل الكل أعظم من الجزء والضدان لا يجتمعان * الثالث معرفة العلوم وفهمها والتصرف فى أصولها وفروعها * والرابع الملكة الراسخة بحيث تحضر العلوم والمسائل التى عرفت انى شاء العارف ويتبع ذلك قوة التصرف والحذق فى الامور والالهامات وسداد الرأى والوحى الخاص بالانبياء * والمراد بالهداية هنا هذا الاخير وماقبله * فاما أن يقال أدمنا على الهداية واما أن يقال زدنا فى مراتبها لنرتقى الى أعلاها وننال الزلفى لديك والقربى * و يقرب من هذا قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا و يكفر عنكم سيآتكم) والمراد بالفرقان نور يقذفه الله فى قلب العبد يفرق به بين الحق والباطل والصراط المستقيم هو المستوى وهو مثله فى التذكير والتأنيث ثم أبان ذلك الصراط فقال (صراط الذين أنعمت عليهم) من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهم عظماء كل أمة واشرافها أو الذين أنعمت عليهم من الامم وهم المسلمون (غير المغضوب عليهم) وهم اليهود (ولا الضالين) وهم النصارى * وتبيانه أن يقال ان الصراط المستقيم يراد به هنا الطريق الوسط وهو فى علوم الاخلاق

(العفة) التى هى وسط بين الوقوع فى الشهوات والفسق والفجور و بين الجمود والبخل والامساك والشح

(والشجاعة) وهى وسط بين التهور والطيش والظلم و بين الجبن والخوف والحزن والجزع وأمثالها

(والحكمة) وهى الوسط بين الجهل والغباوة والبلادة و بين المكر والخداع والاحتيال والطيش فى الآراء

(والعدل) وهو المساواة بين هذه الامور

وقد فرع العلماء على هذه الاربع فروعا شتى تربو على المائة وكلها داخلة فى الصراط المستقيم وهو الوسط وما جاوز الوسط فاما الى زيادة فهو التهور والطيش والتبذير وما أشبهها واما الى النقص كالجبن والبخل والخوف وما أشبهها والمسلمون وسط فى أمر سيدنا عيسى عليه السلام اذ يعتقدون نبوته أما اليهود فانهم قد غضب الله عليهم لانهم جعلوه

ابن الله * وأما النصارى فانهم أفرطوا في اعتقادهم وجاوزوا الحد في دينهم وغلوا في أمر المسيح فقالوا انه اله فهؤلاء هم الضالون في أمر عيسى فاعتقاد المسلمين صراط مستقيم واعتقاد اليهود تفريط واعتقاد النصارى افراط أي مجاوزة الحد * وقد علمنا ان الحكمة وسط فلا تغالى كما قالت النصارى ولا جود وانكار كما قالت اليهود (ولقد ورد تفسير الصراط الخ بهذا المعنى مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم) وهذا الذي قلناه توجيهه وكأنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك ضرب مثل الصراط المستقيم والا فهذا الوسط في الاعتقاد في مسئلة المسيح عيسى ومسائل كثيرة كالكرم والشجاعة والعفة والصدق كما تقدم فافهم * وقوله (غير المغضوب عليهم) بدل من الذين أنعمت عليهم ولا في قوله (ولا الضالين) للتأكيد وقرئ غير الضالين

واعلم ان النعم اما مال واما أصحاب وأهل وأعوان واما صحة بدن واما عقل وحكمة وصدق روية وكل نعمة مقدمة لما بعدها فأعلاها العقل والحكمة وأدناها المال الذي لا بد منه لحفظ الثلاثة بعده من الاصحاب والصحة والعقل والمراد بالنعمة هنا أعلاها التي تقوى وتبقى بما قبلها

وقد يراد بالمنعم عليهم المطيعون وبالمغضوب عليهم العصاة وبالضالين الجهال

واعلم ان المنعم عليهم هم الأنبياء وورثتهم والمخلصون من بني آدم وهم الذين نصبوا أنفسهم لهداية الناس وارشادهم وكأنهم آباء والناس أبناؤهم ويتشبهون بالله في أفعالهم وأقوالهم ويقودون الأمم الى سبيل الرشاد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقال ان غاية الحكمة التشبه بالله فيعرفون نظام العالم وحكمة الخالق ويتركون آثارا في البرايا ويتحملون ما ينالهم من الآلام في سبيل اسعاد الأمم فينالون أجرهم مرتين فهم في الآخرة مكرمون وفي الدنيا مذكورون بالثناء والاكرام تشتاق اليهم النفوس وتحن اليهم القلوب وتطمئن اليهم الأفئدة وتذكرهم الأجيال

وأضرب لك مثلين * الأول ما جاء في القرآن في سورة والصافات فانظر كيف ابتدأها بذكر أهل الجنة والنار وتوبيخهم فقال (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) وأقام عليهم الحجة فقال (ولقد أرسلنا فيهم منذرين) وأخذ يذكرهم بالثناء واحدا واحدا فذكر نوحا بالثناء ولما انتهى من القصة قال (سلام على نوح في العالمين) ثم ذكر ابراهيم وتاريخه وما لقي من المحن في قومه وختمها بقوله (سلام على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين) ثم ذكر موسى وهرون ونجاتهما من فرعون وقومه ثم ختمها بقوله (سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزي المحسنين) ثم ذكر الياس وكيف كان يدعو قومه وختمها بقوله (وتركنا عليه في الآخرين سلام على إل ياسين انا كذلك نجزي المحسنين) ثم ذكر لوطا ونجاته ويونس وختم السورة بقوله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) فانظر كيف ذكر المرسلين بالثناء فمن كان منهم أقوى عزما وأطول بلاء قال فيه (وتركنا عليه في الآخرين سلام على) فلان فكأن الله عز وجل يجعل الثناء الباقي في الاعقاب للمجاهدين الأبطال من المكافآت للفضلاء

وهذا هو الذي ينبغي أن يكون في أمة الاسلام * يعلمنا الله بهذا أن نعلن فضل الفضلاء وعلم العلماء وحكمة الحكماء وجهاد الابطال وننشر فضائلهم ليقلدهم من بعدهم وليؤخذ عنهم كما تفعل الامم الغربية اليوم بكل مشهور الفضل ولو كان سفيه النفس سيء الخلق ضيق الفطنة ويذكرون علمه ليقتدي به الناشئون * ولعلك تقول ما الفاتحة ولسورة الصافات * أقول على رسلك ان الفاتحة تسمى أم الكتاب والمنعم عليهم والمغضوب عليهم ورد ذكرهم في القرآن فهل هذه القصص واردة لغير غرض أم للهو واللعب أم لمجرد الحكاية كلا فالمنعم عليهم مثنى عليهم والمغضوب عليهم مذمومون وليس للمسلمين أن يعيشوا خامدين جامدين أمام القرآن والامم الغربية فعليهم أن يتبعوا القرآن فمن رأوه يبذل مهجته في خدمة الامة أو ينشر العلم أو يضحي ماله فليرفعوا قدره بهذا أمرهم الله والا فكيف يقول في سورة أخرى (واذكر في الكتاب ابراهيم * واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد) ويقول (واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا * واذكر في الكتاب مريم) أليس هذا أمرا بذكر الفضلاء المخلصين ونشر محاسنهم فليعمل بذلك المسلمون في مشارق الارض ومغاربها والا فليبقوا جامدين جاهلين * الى هنا انتهى المثل

الاول المنعم عليهم (المثل الثانى) ماقرأناه فى كتب المتقدمين عن اليونان ان (سولون) الحكيم المولود سنة ٦٤٠ ق م المائت سنة ٥٥٩ ق م لما خرج من أثينا مغاضبا لقومه اذ عصوا نصيحته أرسل اليه الملك (كرسيوس) خطابا فلما قدم عليه حقر ما رآه من الزينة والزخرف فقال له الملك من أسعد الناس فى نظرك فقال له الملك طيلوس كان محببا الى أهل أثينا مسبغا النعم عليهم فلما أن مات حزنوا عليه كلهم أجمعون فتعجب كرسيوس من سولون وقال فمن بعده قال أخوان شابان كانا شجاعين أكرما أمهما ولقد كانت تغدو كل يوم للصلاة فى المعبد فاتفق أن سائق العربة لم يوافها يوما فجر الأخوان عربتها بدل الثورين فدعت الله لهما فعاشا قريرى العين وأحبهما الناس حبا جما ولما ماتا حزن عليهما أهل أثينا فقال الملك أفلا تعدنى سعيدا ياسولون فقال أنت أسعد من كثير من الناس ولكن انتظر العاقبة فغضب الملك من سولون وأبعده ثم دارت رحى الحرب بين الملك و بين ملك العجم فوقع كرسيوس فى الأسر فأمر باحراقه وأوقدت النار فصاح كرسيوس سولون سولون فسأل فيروس ملك العجم مامعنى هذا فقص عليه القصص فرق قلب فيروس وأنعم عليه وواساه

وانما ذكرت هذا المثل ليعلم المسلمون فى أقاصى الارض ان الذين أنعم الله عليهم بحب الاخوان والصبر على أذاهم والزهد فى الدنيا ونشر الفضيلة والعلم ممدوحون على كل لسان أينما كانوا وأولئك المنعم عليهم شموس وأقمار فانظر كيف ذكر سولون ان السعيد هو الملك طيلوس لأن أهل أثينا حزنوا عليه لعموم نفعه لهم وأن الشابين اللذين أكرما أمهما أحبهما الناس ولما ماتا حزنوا عليهم لأن المحسنين محبوبون والنفوس الشريفة يشرق ضوؤها فى الارض وتلك النفوس العالية انما جاءت الى الارض لتحرس أهلها وتخدمهم فاذا أدوا ما خلقوا له سارت بذكرهم الركبان فما أجل العلم وما أجل الحكمة

الفاتحة أم القرآن

هذه السورة تسمى فاتحة الكتاب وتسمى سورة الحمد وتسمى أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى لانها تثنى فى كل صلاة وتسمى الوافية والكافية ولقد يعجب القارئ من تسميتها بأم القرآن و بأم الكتاب و بالكافية و بالوافية وكيف تقرأ فى كل صلاة فليعلم ذو اللب أن الذى يتلى على اللسان دائما و يتلوه الجاهل والعالم سرا وجهرا يصبح فى أنفس التالين من المألوفات التى لايتنبه الى شئ وراءها وتصبح كالسمع والبصر والعقل والجسم الانسانى عند الجهلاء فالناس لما رأوا أجسامهم والانهار والسماء والارض لم يظنوا فيها عجائب ولا غرائب لانها مكشوفة أمامهم معروضة كل حين كالعالم فى بلده والنبى فى قريته فهكذا فاتحة الكتاب يقرؤها المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها وأكثرهم جاهلون لايعقلون ولذلك داستنا الفرنجة فقتلت أبناءنا واستحيت نساءنا ونحن فى غفلة معرضون

واعلم ان العلماء هم الذين يعرفون أسرار الاشياء فعالم النبات وعالم الطب يعقلان حكم النبات وعجائب الجسم فكذلك هنا المفكرون فى القرآن الدارسون للعلوم حديثها وقديمها هم الذين يعقلون الفاتحة وعلومها فاعلم ان الفاتحة تشتمل على الاشارات لجميع ماورد فى القرآن والذى ورد فى القرآن عشرة علوم عامة كما قاله الغزالى وكل علم تحته علوم (الاول) معرفة ذات الله (الثانى) معرفة صفاته فأما الذات فبالتقديس والتنزيه فهو الذى ليس كمثله شئ وأما الصفات فانه قادر ومريد وعالم وحى وسميع الخ (الثالث) انه خالق العالم ومبدعه وهو الذى رفع السموات و بسط الارض (الرابع) ذكر المعاد من الجنة والنار والثواب والعقاب (الخامس والسادس) ذكر الصراط المستقيم بترك الافعال المخزية والاخلاق المزرية و بالتحلى بفضائل الاعمال والاخلاق الشريفة ونشر الفضيلة (السابع) ذكر المنعم عليهم ومدحهم والثناء عليهم (الثامن) ذكر الظالمين والطاغين والكافرين (التاسع) ذكر محاجة الكفار (العاشر) ذكر حدود الاحكام هذه هى العلوم التى ورد ذكرها فى القرآن والفاتحة قد اشتملت على ثمانية منها على رأى الامام الغزالى

﴿ الاول ﴾ ذات الله تعالى فى قوله بسم الله * الثانى الصفات بذكر الرحمن الرحيم مالك يوم الدين فان الرحمة والملك يستلزمان القدرة والارادة والعلم وهى من الصفات الواردة فى أكثر سور القرآن كقوله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن الخ (الثالث علم الأفعال) وهو العلم الذى أشرت اليه فيما تقدم المندرج فى قوله رب العالمين المنطوى تحته أكثر العلوم * وقلت ان العالم قسمان علوى وسفلى ودخل فيهما أكثر العلوم لأنها كلها أفعال الله تعالى الداخلة فى آثار رحمته وتربيته العالمين * ونقول الآن أيضا فوق ما تقدم ان العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية اللتين دخلتا فى تربية العالمين يلحقهما صناعات كثيرة * فمنها علم الميكانيكات (آلات قياس الزمن كالساعات المعروفة) وعلم جر الاثقال كقطر السكك الحديدية وعلم انباط المياه وعلم الآلات الحربية كالمجانيق وغيرها والغازات الخانقة الموقظة للامم النائمة فايقظت أهل الشرق من سباتهم * وهذا من عجائب التربية وكالمدافع الفتاكة بالغافلين وعلم المرايا المحرقة وعلم عقود الابنية لتنضيد المساكن وشق الانهار وعلم المناظر لمعرفة أشكالها وأوضاعها وعلم مراكز الاثقال وعلم المساحة وعلم الطب وعلم الزراعة * وهذان الأخيران يتبعان علوم الطبيعة وأما ما قبلهما فمن الرياضيات تتفرع وكلها داخلة فى تربية العالمين * واعلم ان جميع الصناعات ما كان منها وما يكون ترجع الى هذه الموجودات فاذا رأيت النجار والحداد والخراط والزجاج والجوهرى والصيرفى * فاعلم ان الأول تابع لعلم النبات لأن عمله فى الخشب * والثانى لعلم المعادن لأنه فى الحديد * والثالث فى النبات كالاول * والرابع فى المعدن لانه فى الزجاج والزجاج رمل مخلوط ببعض المعادن * والخامس * والسادس فى المعادن لأن الخامس فى الجوهر المستخرج من الصدف والسادس فى الذهب والفضة هذا ما أردت ذكره فى العلم الثالث وهو علم الأفعال وقد دخل تحته أكثر العلوم والصناعات ﴿ العلم الرابع ﴾ ذكر المعاد وفيه الجنة والنار والنعيم والجحيم والثواب والعقاب والقرآن طافح بذلك وهو هنا فى قوله مالك يوم الدين ﴿ العلم الخامس * والسادس ﴾ الصراط المستقيم وهو قسمان ﴿ الأول ﴾ ترك الضلال والفسوق والعصيان كالكذب والخيانة والزنا ﴿ والثانى ﴾ التحلى بالطاعات كالكرم والعلم والمساعدة ونشر العلم وما أشبه ذلك ﴿ العلم السابع ﴾ قصص الأنبياء والصالحين والمؤمنين والفضلاء وهو داخل فى قوله (الذين أنعمت عليهم) ﴿ العلم الثامن ﴾ قصص المغضوب عليهم والضالين وفى القرآن كثير من قصص الغاوين وتاريخ أمم الظلم التى أورثتهم البوار والخسار هذه هى العلوم التى اشتمل عليها القرآن ودخلت فى ضمن الفاتحة فهل اذا سميت أم القرآن أو الكافية أو الوافية لا تكون بذلك حرية بلى فالفاتحة أم القرآن بما بيناه كافية بما أبرزناه وافية كما قررناه فتعجب من المسلمين * واعلم أن القرآن أشبه بضوء الشمس الذى يجرى فى الجو ولا يظهر الا على سطح الأرض أو على جسم قابل فاما الهواء فانه لا يعكس ضوءها ولا يراه الطائر فى جو السماء كذلك الافئدة الخالية من العلم والحكمة يمر بها القرآن وأم القرآن ولا تشعر بمعانيها والضوء المشرق فيها وهم يقرؤنها صباح مساء كذلك الطائر فى الجو السائح فى مخارقه حتى اذا قرأ القرآن من يعرفه فهمه حق فهمه * واعلم ان هذا الزمان هو الصالح لظهور المقصود من القرآن فى بلاد الاسلام ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز

* ولم يبق من العلوم التى فى القرآن الا محاجة الكفار ويقوم مقامه علم التوحيد وعلم الاحكام الفقهية التى يقصد بها حفظ النظام الاجتماعى للامة * وانما احتيج لهذين العلمين لحفظ العقائد ولحفظ نظام المجموع ثم ان هذا التقسيم الاخير مستمدة أصوله من كلام الامام الغزالى مع زيادة وتصرف * ومن هذا نعلم ان علم ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله وهى العلوم المعروفة اليوم والصناعات مقدمات على علم الفقه وعلم التوحيد والامم الاسلامية اليوم أحوج الى معرفة الكائنات لمعرفة الله ولبقائهم فى الدنيا ليزاحموا الامم الغربية وهى أهم من معرفة علم الفقه وعلم التوحيد وجميع هذه العلوم فرض كفاية ولكن الفقه والتوحيد لم يظهرا ظهورا جليا فى الفاتحة * اللهم الا فى العبادات اما الفقه فيما عدا ذلك فلم تشتمل عليه والمسلمون يجب عليهم النبوغ فى علوم الكائنات لعناية القرآن بها والفاتحة خصوصا لدخولها ضمن تربية العالمين

فاذا سمعت قول القائل ان سر القرآن فى الفاتحة وسر الفاتحة فى البسملة وقرأت الحديث المتقدم وهو قوله عليه الصلاة والسلام لأبى (ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والانجيل والقرآن مثلها) ثم قال هى فاتحة الكتاب وهى السبع المثانى والقرآن العظيم ثم قرأت ما كتبناه بامعان أدركت السر المصون وتجلت لك عظمة الفاتحة وعرفت معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى الفاتحة انها القرآن العظيم وعسى أن يكون فتح لك باب قولهم سر القرآن فى الفاتحة وسر الفاتحة فى البسملة * فمن هذا الطريق فلتسر ولتعلم ان ما كتبناه شذرة مما نعلمه ثم ما نعلمه ذرة من علم العلماء ثم علم العلماء ذرة من علم الله عز وجل فتعجب النبوة وحكمتها وعلمها الواسع * ان هذا يفتح لك أبوابا تدخل منها الى سر عظمة الفاتحة وسرها انها سبع آيات تؤدى معنى ست آلاف آية وهى جملة القرآن كله تقريبا * ثم ان خروج الفقه والتوحيد من ضمن الفاتحة هو رأى الامام الغزالى ولكن عسى أن يكونا ضمن الصراط المستقيم أو التربية للعالمين ولو بطريق التبعية فتأمل فيما كتبناه فعسى انك فى غضونه تلقاه هذا ما فتح الله به وأردت اثباته فى تفسير الفاتحة والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

(مقارنة فاتحة الكتاب بفواتح البلغاء وأصحاب المعلقات)

لقد سبق الكلام على ما فى الفاتحة من الاشارة الى العلوم وما تضمنت من الحكمة فلنذكر الآن نبذة مما تضمنت من البلاغة لتكون تذكرة وتبصرة لذى لب * وانما قدمنا الكلام فى العلوم لانها أعم وأهم وأدعى الى رقى الأمم الاسلامية وأدنى الى حاجتها وأقرب الى سعادتها فنقول

تأمل أيها العاقل الفطن وانظر بعقلك واياك والتقليد بل ليكن نظرك عقليا وفهمك نفسيا واحذر أن تكون امعة فيما أنا ذا أسأتلو عليك من أقوال الشعراء فواتح المعلقات وما شاكلها لتقارن بصفاء ذهنك ونور عقلك وصادق سريرتك بينها و بين فاتحة الكتاب لتعرف الفرق بين كلام الوحى وكلام الشعراء الذين كان لهم القدح المعلى فى سوق عكاظ وذى المجنة وذى المجاز وهم الخافضون الرافعون بذمهم ومدحهم كامرىء القيس وطرفة بن العبد وزهير ابن أبى سلمى ولبيد بن ربيعة ومن على شاكلتهم ممن طأطأت لهم الرؤس وخلا لهم الجو وخشعت لهم الأصوات وذلت لهم الرقاب وكانوا شموس الجماعات وسادات الشعراء

ان للوحى لسمة ظاهرة وعلامة بينة * ألا ترى أنه ينحو منحى الأمور العامة و يتعالى عن الجزئيات ومحقرات المقاصد * فاما كلام الشعراء فى فواتحهم فهاك مقال امرىء القيس بن حجر بن حارث اذا بتدأ قصيدته المعلقة وهى فاتحته فوصف انه بكى واستبكى على حبيبته ومنزلها الذى بسقط اللوى بين الأماكن الأربعة وهى الدخول وحومل وتوضح والمقراة فقال

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها * لما نسجتها من جنوب وشمأل

وطرفة بن العبد بن سفيان كانت فاتحة قصيدته أن قال ان خولة محبوبتى لم يبق لها الا آثار الديار الخفية التى صارت كآثار الوشم فى ظاهر اليد وهذه الآثار فى موضع وهو برقة ثهمد وهى مكان لبنى دارم اذ قال

لخولة أطلال ببرقة ثهمد * يلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وزهير بن أبى سلمى من الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية كانت فاتحة قصيدته أن قال

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم * بحومانة الدراج فالمتثلم

أم أوفى كنية محبوبته والدمنة آثار الدار وما فيها من البعر والرماد وغيرها والحومانة ما غلظ من الأرض والدراج والمتثلم موضعان من العالية (يقول هل من منازل محبوبتى أم أوفى تلك الدمنة التى سألتها فلم تجبنى) ولبيد بن ربيعة العامرى من الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية كانت فاتحة قصيدته ان قال ؛ اندرست ديار محبوبتى وهى ما تحل

فيه وكل ومنى بالمكان الذى يسمى منى وقد توحش الموضعان اللذان فيهما وهما الغول والرجام اذ قال

عفت الديار محلها فمقامها * بمنى تأبد غولها فرجامها

وعمرو بن كلثوم كانت فاتحة قصيدته أن قال لجاريته قومى من نومك واسقينى الخمر أول النهار بقدحك العظيم ولاتدخرى عنى شيأ من خمرة القرية المسماة الاندرين من قرى الشام كثيرة الخمر الجيدة اذ قال

ألا هبى بصحنك فاصبحينا * ولا تبقى خمور الاندرينا

وعنترة بن شداد العبسى يقول ماترك الشعراء شيأ يرقع الا رقعوه أى ماتركوا لنا من فنون الشعر الا سلكوه ثم قال أنا لم أعرف دار محبوبتى لطول عهدى بها الا بعد عناء شديد اذ قال

هل غادر الشعراء من متردم * أم هل عرفت الدار بعد توهم

والحارث بن حلزة اليشكرى قال فى فاتحة معلقته فى حضرة الملك عمرو بن هند * أعلمتنا أسماء بقرب ارتحالها فشق علينا ومن المقيمين من يمل قربهم ولكن أسماء ماملمناها اذ قال

آذنتنا ببينها أسماء * رب ثاو يمل منه الثواء

والنابغة الذبيانى وهو زياد بن معاوية كانت فاتحة قصيدته ان قال

يادارمية بالعلياء فالسند * أقوت وطال عليها سالف الأمد

العلياء المكان المرتفع * والسند حيث يسند الى الجبل أى يرقى وأقوت خلت والامد الدهر * يخاطب دار محبوبته مية متوجعا متأسفا على ارتحالها عنها وابتعادها عنه * والأعشى ميمون بن قيس بن جندل كانت فاتحة قصيدته أن قال

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا * وبت كما بات السليم مسهدا

أرمد أى رجل أرمد والسليم اللديغ والمسهد الذى شرد عنه النوم * يقول انه أرق ليلة فلم تغتمض أجفانه كالارمد الذى لايطيق انطباق أجفانه من حر مابهامن الالم ولم ينم كأنه لديغ * وعبيد بن الابرص الشاعر الجاهلى أحد المعمرين يقال انه عاش عشرين ومائتى سنة كانت فاتحة قصيدته ان قال

ليس رسم على الدفين ببالى * فلوى ذروة فجنبى ذيال

الدفين واد قريب من مكة واللوى منقطع الرمل وذروة وادلبنى فزارة وذيال رملة أخرى يقول ان الدفين والذروة وذيالا وهى منازل الاحبة لها آثار ظاهرة ورسوم شاخصة تذكرنا ماسبق لنا من لذيذ العيش فها أناذا أتيت لك بفواتح لعشرة من فحول شعراء الجاهلية وهل خرجت فواتحهم عن آثار الديار وفراق المحبوبة والتحسر والتوجع عليها وذكر سهر العين ورمدها وشرب الخمر بالقدح * وهل رأيت الا مدارا واحدا داروا جميعا فيه أوليست الفواتح يكاد يتحد معناها وان اختلف مبناها * وهل ترى هذه المعانى التى طرقوها فى فواتحهم رافعة رأس الانسانية أو بانية لها صرحا أو شائدة لها ذكرا أو ناظمة لها عقدا أو مربية لها أمة أو سانة لها قوانين كلا وانما هى كلمات محدودات فى معانى ضئيلات يذكرها الفتى أيام صبوته ولا تبقى له أيام كهولته لم تخرج عن مداعبات غراميه وأنات شوقيه قد يقولها الشاعر تكلفا لاغراما واتباعا لا ابتداعا واحتذاء لا ابتداء فلعمرى لقد بهر العرب وسحرهم أن سمعوا هذه الفاتحة فقيل لهم أيها الناس تبركوا باسم الحكم الرحمن الرحيم ولا تنزلوا الى صغائر الامور بجمع الملوك وار بؤا بانفسكم عن ذلك فاحمدوا من رفع السماء وبسط الارض واطلبوا منه الهداية

أقول أيها الذكى اللبيب بمثل هذا فلتعرف البلاغة فى القرآن وبهذه الطريقة وأمثالها تزن كلام القرآن وكلام العرب وقد مهدت لك الطريق وبسطت لك السنن فى البلاغة * فانظر فى أوائل السور وأوائل قصائد الجاهلية مثلا وكذلك نمط القرآن فى المعانى والمقال ونمط كلام شعرائهم وهذا هو النمط الذى جرى عليه العرب فى تعظيمهم القرآن * ألا ترى كيف يقول بعض سادات قريش لما انطلق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفتنك به فسمعه يقرأ

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول) وكان ذلك فى صلاة المغرب فلم يصبه بأذى ورجع الى قومه والله لو كان من كلام العرب لعرفناه وان أسفله لمغدق وان أعلاه لمثمر وانه يعلو ولا يعلى عليه الخ

* وتأمل فى قصة اسلام عمر رضى الله عنه أن رجلا من قريش لقيه فى بعض طرق مكة فقال أين تذهب انك الصلب القوى فى دينك وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك (أى دين الاسلام) قال وما ذاك قال أختك قد صبأت (خرجت عن دينك) فرجع مغضبا فقرع الباب على أخته فدخل عليها وقال ياعدوة نفسها قد بلغنى عنك أنك صبأت ثم لطمها لطمة شج بها وجهها وأمسك بلحية زوجها سعيد بن زيد وضرب به الأرض ولما رأت أخته الدم بكت وغضبت وقالت أتضربنى ياعدو الله على أن أوحد الله لقد أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب فما كنت فاعلا فافعل قال عمر رضى الله عنه فاستحييت حين رأيت الدم فقمت وجلست على السرير وأنا مغضب فنظرت فاذا كتاب فى ناحية البيت فقلت اعطونى هذه الصحيفة فأبت أخته أن تعطيه اياها وقالت انك رجس فانطلق فاغتسل فانه كتاب لا يمسه الا المطهرون فلما اغتسل ناولته الصحيفة فاذا فيها بسم الله الرحمن الرحيم قال عمر فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدى وجعلت أفكر من أى شئ اشتق قال ثم رجعت الى نفسى وأخذت الصحيفة فاذا فيها (سبح لله ما فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والارض يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم هو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها الى قوله ان كنتم مؤمنين) فقلت أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله * واطلع على أخرى فوجد فيها (بسم الله الرحمن الرحيم طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) قال رضى الله عنه فعظمت فى صدرى وقلت من هذا فرت قريش ﴿قال مؤلف هذا الكتاب﴾ وأنا أقول من هذا تعرف البلاغة وبهذا كان العرب يدركونها فانهم يعرفون الفرق بين قوله * ألا هبى بصحنك فاصبحينا * وبين قوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى) وكلاهما فى فاتحة الكلام * ثم لما بلغ قوله انى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى قال ما ينبغى لمن يقول هذا أن يعبد غيره * دلونى على محمد الخ

﴿ومن ذلك﴾ أنه صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر لقى سادات بنى شيبان بن ثعلبة وهم مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصة ومثنى بن حارثة والنعمان بن شريك وكان مفروق بن عمرو أجلهم وجها وأفصحهم لسانا فعرفهم أبو بكر بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مفروق الام يدعو فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أدعو الى شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله وأن تؤوونى وتنصرونى فان قريشا قد تظاهرت أى تعاونت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد قال مفروق والام تدعو أيضا يا أخا قريش فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيأ وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) قال مفروق ما هذا من كلام أهل الارض ولو كان من كلامهم لعرفناه * ثم قال والام تدعو أيضا يا أخا قريش فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) * فقال مفروق دعوت والله الى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم صرفوا عن الحق وكذبوك وظاهروا أى عاونوا عليك

﴿آيات العلوم والأخلاق فى سورة الفاتحة﴾

سورة الفاتحة كلها آيات علوم ولنا أن نجعل القسم الثانى منها أخلاقا فان الهداية الى الصراط المستقيم وما بعدها

(تقسيم سورة البقرة الى بابين عظيمين)

الباب الاول

من قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) الى قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر)

(وهذا القسم) غلب فيه التوحيد ومحاجة اليهود وفيه عشرة مقاصد ﴿والباب الثانى﴾ من قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم الى آخر السورة) وغلب فيه الأحكام الشرعية وفيه عشرة مقاصد

(مقاصد الباب الاول)

﴿مدح القرآن * و بشارة المؤمنين ﴾ ﴿ ذم المنافقين والكافرين ﴾ ﴿ ضرب مثلين لحال الطائفتين المؤمنين والمنافقين﴾ ﴿ نداء عام للناس أن يؤسسوا الايمان على قاعدة النظر فى السموات والأرض ﴾ ﴿ كيف بدء الخلق ﴾ ﴿خلق آدم * وكيف تشير القصة الى قوة الغضب والشهوة وقوة العقل بابليس وحواء والعلم﴾ ﴿ ذكر بنى اسرائيل وانهم ضلوا واتبعوا الشهوات وذلك فى فصلين ﴾

(الفصل الاول و به عشرة يواقيت)

﴿ تذكيرهم بنجاتهم من آل فرعون﴾ ﴿فرق البحر لهم﴾ ﴿اغراق فرعون﴾ ﴿اعطاء التوراة لموسى﴾ ﴿ توبة الله عليهم بعد الذنب ﴾ • ﴿ تظليل الغمام ﴾ ﴿ انزال المن والسلوى ﴾ ﴿الأعين المنفجرة﴾ ﴿ تعنتهم وطلبهم الشرف﴾ ﴿ مسئلة البقرة وكيف ظهر بها القاتل ﴾

تلك عشرة كاملة وهذه آخر يواقيت الفصل الاول من المقصد السابع فى الباب الاول من سورة البقرة

(الفصل الثانى من المقصد السابع من الباب الاول من سورة البقرة و به خمسة مقاصد)

﴿المحرفون لكتاب الله منهم وهم العلماء﴾ ﴿المنافقون والاذكياء صرفوا ذكاءهم للفسدة﴾ ﴿الاميون وهم العامة المقلدون﴾ ﴿ مجمل الآداب المنزلة على بنى اسرائيل و بها سعادة الامم﴾ ﴿ تقريعهم على هنات ارتكبوها وارتطموا فى أوحالها وهذا الخامس يشتمل على ١٠ زبرجدات ﴾ ﴿ قتلهم الانبياء ﴾ ﴿ اشرابهم العجل فى قلوبهم ﴾ ﴿دعواهم الاختصاص باليوم الآخر﴾ ﴿عداوتهم لجبريل﴾ ﴿نقضهم للعهود﴾ ﴿ كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد اعترفوا به﴾ ﴿ اتباعهم علم السحر ﴾ ﴿ايذاؤهم للنبى بلفظ راعنا﴾ ﴿تأييد النسخ بالحجة وتعنتهم على النبى كما تعنتوا على موسى بقولهم أرنا الله جهرة﴾ ﴿ ارادتهم السوء بالمؤمنين ودعوى النصارى واليهود انهم هم الناجون لاغير ثم ذكر المساجد وظلم أهلها الخ ﴾

(المقصد الثامن)

قصة ابراهيم الخليل واسمعيل و بناء الكعبة بعد ذكر اسحق و بنيه وكأنه هدم اليهودية بنحو عشرين برهانا وأخذ يؤسس الاسلام على قواعد ابراهيم و يذكر بناء الكعبة ولم يكن دين اليهودية دين ابراهيم ولا يعقوب ثم دعوة الناس جميعا لدين واحد اتفق عليه الاسباط ونبذ النصرانية والتعميد

(المقصد التاسع)

ذكر الله قصص آدم وقصص بني اسرائيل وهدم اليهودية وبناء الاسلامية عليها بين النداء الاول العلم وبين النداء العلم الثاني وهو واحكم الواحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم ان في خلق السموات والارض فقد قال أولا (يأيها الناس اعبدوا ربكم) ثم أعاد الكرة فاوضحه وقال ان (في خلق السموات والارض) ليبرهن بعلم الطبيعة

(المقصد العاشر)

تقليد الرؤساء والآباء في الدين والحلال والحرام جهلا وتقريع المقلدين الغافلين بعد تبيان الحقائق الناصعة فيما تقدم نفيا واثباتا ❊ وهنا تم بيان مجمل المقاصد في الجزء الاول فلنشرع في تفصيله

ابتداء التفسير

(المقصد الاول)

﴿ مدح القرآن وبشارة المؤمنين في قوله عزوجل ﴾

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

الٓمٓ ❊ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ❊ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ❊ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ❊ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ❊

يقول عزوجل اني أرسلت رسولا حكيما فصيح اللسان كما سترون في هذه السورة من القصص ونتائجها والحجج وبدائعها والآيات وشرائعها ومافي هذه الآيات المنزلات الاجل بليغات وهي حروف مركبات الم فما منعكم أن تنسجوا على منواله وتبنوا مجدا كما بني ذلك الكتاب يهدى المتقين الذين جمعوا ثلاث صفات الحكمة والعلم والهما الرمز بالايمان بالغيب وتسخير البدن في العبادة كالصلاة وبذل المال مما رزقوا ثم خصص طائفة منهم بالذكر تشريفا لهم وهم الذين آمنوا بما سبق انزاله من الكتب وما نزل من الدين وما سيكون من اليوم الآخر أي الماضي والحال والاستقبال تلميحا الى أن الانسان صاحب الدهر وعليه النظر في حقيقة جميع الاشياء

(المقصد الثاني وفيه غرضان)

الغرض الاول ذم الكافرين وتبيان ان فريقا منهم حرموا من الهداية وسجل عليهم الحرمان والطرد فان أنذروا أولم ينذروا فهم لا يؤمنون وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم لاتمتاز عما للحيوان ولاتعلو بهم الى مصاف نوع الانسان فقد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون الخير وعلى موضع سمعهم فلا ينتفعون بالحق وحيل بينهم وبين الانتفاع بما يبصرون كأن على أعينهم أغطية

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ❊ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ❊

الغرض الثاني بيان حال المنافقين وأنهم ذوو الطمع والملق والظهر متناقضين ذوو وجهين مختلفين وأطال في وصفهم وشرح سوء طباعهم وخبث طويتهم وكيف يظهرون ما لا يضمرون ويضمرون ما لا يظهرون وكيف تسوء عاقبتهم وتخبو نارهم لنستبين الصفات فنقع فيما هم واقعون فكم جلب الصديق الملق اللسان ضررا لا يجلبه الاعداء وكم للعدو من فضل على الصديق المنافق وما أقل الصديق وما أكثر المنافقين في كل زمان وهو

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وما يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كانُوا يَكْذِبُونَ * وإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قالوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ولكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ * وإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قالوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ولكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ وإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالوا آمَنَّا وإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قالوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وما كانُوا مُهْتَدِينَ *

الخداع الحيلة والمكر * والخادع يظهر خلاف ما يبطن وهؤلاء يخادعون رسول الله والذين آمنوا وضرر الخداع راجع اليهم كما قال تعالى ولا يحيق المكر السيء الا بأهله * والتمادي في الذنوب المعتاد لها لا يشعر بنتائجها الكامنة فيه البادية في سائر أحواله فهؤلاء أصبحوا وقد أكل الحسد قلوبهم وأحاط الجهل بها فصار ذلك مرضا لازما لها فزادهم الله مرضا باعلاء شأن النبي صلى الله عليه وسلم وتضاعف النصر وتكرار الوحي * والشياطين كبار المنافقين * والمستهزئ المستخف الله يستهزئ بهم يجازيهم ويمدهم يزيدهم والطغيان مجاوز الحد والعمه في البصيرة كالعمى في البصر اشتروا الضلالة بالهدى اختاروها عليه واستبدلوها به والربح في الاصل الفضل على رأس المال

(المقصد الثالث)

قوله تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

[illegible] اقرب من أصول هذه المناقضات تخييلا لعقولنا وضربا على الامثال وضربها وتشبيها المعقول بالحس ومثل حال المنافقين وقد تبوؤا الاسلام وأظهروا الايمان فسعوا في الحياة بنوره وحرموا بعد الموت من ثمره

لما أضمرته النفوس من الجهل والعداوة بحال قوم باتوا فى ظلام فأوقدوا نارا أضاءت لهم الحالك وأرتهم المسالك وشرحت صدورهم وآنستهم بوجهها الجميل ثم خبت نارهم وأظلمت سبلهم وحالك ليلهم ذلك مثلهم

(المثل الثانى) يقول انظر السحاب المعصرات وهى تمطر والظلمات حالكة والرعد يزمجر والبرق يخطف تصور السحاب مظلمة مخيمة فى جو السماء وقد اكفهر وجهها وأرعدت وأبرقت وأمطرت ان هذا وصف حال القرآن والكافرين فالعلوم فى الكتاب كودق السحاب وتوصيف الكفر والنفاق وذم الاصنام أشبه بالظلمات والحجج العقلية والبراهين الطبيعية على صدق الايمان أشبه بالبرق الخاطف للأبصار والوعيد والتخويف أشبه شئ بالرعد القاصف فكأنما هذا الكتاب مع أولئك المنافقين سحاب نشر ملاءته على الأنظار والظلام حالك والرعد يزمجر والبرق يومض وهم بين حزن وفرح وخوف وطمع وادبار واقبال وظلام ونور وهذا من أعجب الامثال فان سمعوا البراهين العقلية أصغوا اليها وكادت تخطف أبصارهم وتميل عقولهم وان سمعوا ذم الاصنام نفروا معرضين كما يفعل أولئك السائرون فى الظلمات اذا برقت لهم بارقة وتبعتها ظلمة حالكة *

(المقصد الرابع)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *

المراد بالحجارة الاصنام التى كانوا يعبدونها ليروا نقيض ما كانوا يتوقعون * وقوله هذا الذى رزقنا من قبل أى ان الثمر الذى فى الجنة يشابه الذى كان فى الدنيا لأن النفوس تواقة الى ما كانت تألفه ولتعلم ان ذلك أقرب لقوله تعالى ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولذلك أمر الناس بالعبادة وضروب الحكمة ليرتقوا الى الدرجات التى تناسب ما رفعوا أنفسهم اليه فى الدنيا فتأمل * وطهارة الأزواج تكون من دنس الطبيعة وسوء الخلق وما يستقذر من أحوالهن كالحيض والنفاس

عجب لهذا النظام وما أبدع هذا الترتيب أنظر كيف ذكر المؤمنين والكافرين وأتبعهم المنافقين وجاء المثلان لتصوير حال المنافقين وشرح صورتهم الباطنة بالمشاهدات الطبيعية والعجائب الحكمية فى الآفاق وإيضاح تلك المعانى التى خفيت فى النفوس بما يماثلها فى العالم المشاهد المحس من سحاب وماء وظلام وضياء فلاجرم ان ذلك دعاء حثيث الى تذكار العجائب الكونية وحب ما فى العالم من البدائع الخلقية ذكر المثلين لتباين أخلاق المنافقين على نموذج البلغاء فتأمل كيف أتبعه بما هو المقصود الأتم والمنهج الأقوم من علم التوحيد وشرح عجائب الكائنات أنظر وتعجب كأنه يقول ها أناذا أبنت لكم سبل ذوى النفاق والكافرين وشرحت حالهم وليس ذكرها هو المعنى بذاته فلا تضع وقتك فى مناوشة الاعداء ومقاومة الخصماء وتعال عن تلك الطائفة العمياء واسلك سبل الحكماء وكأنما المثلان وسط متناسب بين المقامين مقام نبذ الضالين ومقام العلم والفضل المبين فقال يا أيها الناس اعبدوا ربكم يقول اعبدوا ربكم فانه خلقكم وخلق آباءكم وجعل فوقكم سماء تظلكم وتحتكم أرضا تقلكم وقال لكم هاهو ذا سحاب يمطر وهذه الارض تنبت وتثمر ومنها تأكلون يقول آويتكم الى بيتى فسكنتموه فسماؤكم ممطرة ماء وأرضكم مثمرة ها أنتم أولاء تبنون وتسكنون فهل تستطيعون أن تنزلوا من سمائكم ماء عند حاجتكم وأن تنبتوا من شجركم فتأكلون خبزا وفواكه * تأكلون من تحت أرجلكم وتشربون من فوق رؤسكم * تنظرون فترون الارض يابسة فما أسرع أن نكسى جلاليب سندسية ونفرش أنماطا ملونة زبرجدية ثم نمدكم بما تأكلون ونعطيكم ما به تشفون * الارض مهاد لكم عليها تنامون وجمال لكم فيها تتفرجون ولها تنظرون وغذاء منها تأكلون ودواء وجمال وحسن ونظام * السماء قبة صافية ذات جلابيب زرقاء مرصعة بالدرارى الحسان * والهواء بينهما يحمل الاضواء ويزجى السحاب ويقدر المطر وينزل الودق رحمة عظيمة وحكمة عميمة بهاء وجمال تخر لعظمتها العقول وتخضع لجلالها النفوس وتقر بأن هذه البدائع لامندوحة لها عن مبدع فطرها وحكيم نظمها واله أتقنها (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) أيها الناس أنتم أسرة واحدة أسكنتكم دارى وآويتكم الى فراشى وكسوت الارض لكم حللا بهجة للناظرين وصبغتها من كل صبغ وزينتها بكل لون وأوسعت لكم الأمد والمدد والبلد وجعلت سقفكم بهجا أزرق بهيا لطيفا نظيفا لم تبنوه بأيديكم أليس من عجب انه قديم حديث وجديد عتيق لم يتغير منظره ولم تقدم جدته ولم تهرم الحسان من نجومه الباهرات وان شاب الزمان وهرم الهرمان * ومن ذا يتصور سقفا يبنيه بلا ابناء وينظمه بلاعناء ويبقيه بلا فناء ويبقى حسنه بلا اخفاء * ألا ان نسبة المخلوق الضعيف للخالق العظيم كنسبة عمله الضئيل الى سقف السماء ذات الجمال والصفاء

(فصل آخر فى هذه الحكم الكونية)

عجب أمر هذا الأسلوب من الكلام مثل للعلم والكفر والوعيد بذلك المثل مثل بديع رائع أراك السحاب والقطر والرعد والبرق جعلها مثلا لما تعقله النفوس وتفقهه الفكر * مثل الانفس بالآفاق وتعالى على ما نظمه الشعراء فى الجاهلية والاسلام * ألم تر الى امرئ القيس الجاهلى وقد ضرب مثلا لقوة العقاب بقوله

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا * لدى وكرها العناب والحشف البالى

وحسده بشار حتى قال بيته المشهور

كأن مثار النقع فوق رؤسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

مثل الغبار وقد علا تتخلله بيض السيوف بالليل الحالك تتساقط فيه الكواكب ولقد جاء من بعده ابن المعتز فى نحو القرن الثالث وأبدع فقال

وساق صبيح للصبوح دعوته * الى أن قال *

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا * على الجود كنا والحواشى على الارض

يطرزها قوس السحاب بأصفر * على أخضر فى أحمر تحت مبيض

وصف السحاب بالسواد وانها كست الجو وأسبلت حواشيها على الارض وقد زوقت تلك الحواشى بقوس قزح وكان منه جدد بيض وحمر وصفر وخضر و بنفسجى و برتقالى وأزرق * هذا أحسن ماتخيله قدماء العرب والمحدثون وتبينه المتقدمون والمتأخرون (فأما القرآن) فقد امتطى غارب البلاغة وتعالى فى الفصاحة وسما الى مقام لا يصله منطيق ولا يدركه مصقع لبيب ألا ترى أن مقالهم فى وصف عقاب أوخمر أوشراب أوحرب أوضراب ولم نجم يوما هذه المعانى الشريفة بعقولهم ولم تسمو اليها نفوسهم رقة المعانى وجزل اللفظ فى القرآن وحسن العبارات فمثل الاخلاق النفيسة وأبرزها فى صورة محسة مشاهدة تهدى الى هدى وتدفع عن ردى وترفع أذى وتزيل غمة فيالله ماالذى يرفع من همة انسان من وصف طعام وشراب وسحاب حالك وقت شراب الراح وتعاطى الاقداح * هاهنا تجلت البلاغة وسطعت شموسها * ولما كان المثل المذكور مقتبسا من الكون منظوما من المشاهدات معروفا من المحسات أخذ فيما بعد ينقل النفس من الخيال الى الحقيقة والوجدان وقال نحن وان ضربنا لكم الأمثال من الكون فانا ما صغوه لكم لتفقهوه (يأيها الناس اعبدوا ربكم الخ) هذه هى العبادة الحكمية والآيات العلمية والعجائب الخلقية.

(بدائع العلم)

(الأول) روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعمران بن حصين كم لك من اله قال عشرة قال فمن لغمك وكربك ودفع الأمر العظيم اذا نزل بك من جلتهم قال الله قال عليه الصلاة والسلام مالك من اله الا الله

(الثانى) جاء جماعة من الدهرية لأبى حنيفة رضى الله عنه فقال ماتقولون فى خشب قطع من الأشجار بلا نجار واجتمع ثم كوّن سفينة تجرى فى البحر وهى مشحونة بالاحمال مملوءة من الأثقال قد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهى من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها هل يجوز ذلك فى العقل قالوا لا هذا شئ لا يقبله العقل فقال أبو حنيفة ياسبحان الله اذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ فبكوا جميعا وقالوا صدقت

(الثالث) سأل جماعة من الدهريين الشافعى رضى الله عنه ما الدليل على وجود الصانع فقال ورقة الفرصاد (التوت) طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم قالوا نعم قال فتأكلها دودة القز فيخرج منها الابريسم والنحل فيخرج منها العسل والشاة فيخرج منها البعر ويأكلها الظبى فينعقد فى نوافجها المسك فمن الذى جعل هذه الأشياء كذلك مع ان الطبع واحد فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده وهم سبعة عشر قال أبو نواس

تأمل فى رياض الأرض وانظر * الى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات * وأزهار كالذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات * بأن الله ليس له شريك

(الرابع) قال الفيلسوف هربرت سبنسر المتوفى فى بريطن مدينة من بلاد الانجليز سنة ١٩٠٣ فى كتابه فى التربية العلم الطبيعى لايناقض الدين * ونقل عن الأستاذ هكسلى ماياتى (العلم الطبيعى الصحيح والدين الصحيح توءمان اذا انفصل أحدهما من الآخر تواصريعين وماتا حتف أنفهما) ثم قال سبنسر * متى اتفق العلم والدين نموا نموا صحيحا فالدين ينمو بامتداد جذوره وتغذية أصوله فى رياض العلم الصحيح والعلم الصحيح يؤيده الدين ويشد ازره فيكون قويا متينا

ألا وان الفلاسفة الذين أثمرت أذهانهم أجل الأثمار وأفادوا النوع الانسانى بجميل علومهم انما كان ذلك بباعث دينى بعثهم على التفكر والبحث وذلك أحرى من أن ننسبه لتلك الاذهان وحدها * ثم قال من ذا الذى يرى منافاة الدين

للعلم * ألا انما المنافى للدين هو ترك العلم والجهل عما حاط بنا من المخلوقات * ثم ضرب مثلا فقال لو أن الناس أخذت تمدح مؤلفا عظيم الشأن عالى الصيت رفيع المنزلة وهم لم يفتحوا له كتابا ولم يقرؤا له حرفا * وانما كانوا ينظرون الى ظواهر شكله وتزويق جلده فاقيمة تلك المدائح * وما معنى ذلك الثناء انما هذا هراء * اذا عرفت هذا فالناس جميعا هم هؤلاء المادحون والله منظم الكون والكون تأليفه * فلعمرى ما أجهلهم حين يثنون عليه وهم عن عجائبه معرضون * وما كفاهم ان صرفت أذهانهم عن المعرفة حتى أخذوا يحقرون من أظهر اهتماما بشأنها وصرف وقته فى تحصيلها * ثم قال لذلك أكرر القول ان مخالفة الدين ليست بدراسة العلم الطبيعى بل هى فى تركه والانصراف عنه

ألا وان التوجه للعلم الطبيعى عبادة صامتة وتسبيح عملى * ثم قال ان العلم الطبيعى موافق للدين ومقوله ومؤيد له من جهات كثيرة * أولا يرى الانسان عالما منظما بحركات ثابتة جارية بقانون لا تتخطاه وناموس لا تتعداه وهذا النظام يدل على قوة وراءه وحكمة أبدعته وسوته أحسن تسوية

العلم الطبيعى يعرفنا سبب الكائنات معرفة صحيحة ويعرفنا ان النتائج تتبع المقدمات والمسببات الأسباب وأن العقاب والثواب من تبطان بالأعمال ارتباط المسببات بالأسباب فيوقن الطالب ايقانا تاما بهما وان ذلك ارتقاء فى معارج الكمال والسعادة العليا

والعلم الطبيعى يعرفنا أن لنا حدا محدودا لا نتجاوزه فى العلم فلا نتخطى الى معرفة السبب الأول وحقيقته فالعلم لا يستبد بنا فى تعريفنا صانع الكائنات ولكنه يهدينا الى الحدود التى لا نتجاوزها ونقف دونها فلا نصل الى كنهه ومعرفة حقيقته

ان هذا العلم يرفعنا عن الوقوف أمام التقاليد الموروثة الخرافية ولكننا عندما نصل الى حدود المحيط العلمى الذى وراءه ذلك السبب الأول وهو صانع الكون أقررنا بالتواضع ورجعنا بخفى حنين

ثم قال واياك أن تظن أن عالم الطبيعة من يعرف التحليل الكيماوى أو يقرأ الهندسة وانما نعنى به ذلك العالم الذى يتخذ أسافل الحقائق سلما لأعاليها حتى يبلغ الحقيقة العليا ومن ذا سواه يعرف الهوة السحيقة الفاصلة ما بين ذلك الصانع الحكيم الذى جعل الطبيعة والحياة والعقل من مظاهر ذاته وبين العقل الآدمى والفكر الانسانى ان الفرق لعظيم اه باختصار

أقول أيها الفطن اللبيب * اعلم أنى عند كتابة هذا الموضوع فى هذه الاسطر كنت أشعر بألم فى النفس وأسف واعترتنى دهشة ما كنت أشعر بها واهتاجت أعصابى وقلت فى نفسى ياليت شعرى أى الفريقين أحق بالشكوى والأسف أنحن أم فلاسفة الانجليز كالعلامة سبنسر الذى نحن بصدد الكلام فيه * يقول ان أقواما يزدرون المتهجين بالمعارف الطبيعية ولا يعبؤن بها فهم يصدون عن سبيل الهدى وهم لا يهتدون * يقول هذا شاكيا بائسا ولئن شكا مرة لأشكون ألفا كيف لا وأمته عالمة وأمتى جاهلة وأمته حاكمة وأمتى محكومة وأمته قوية وأمتى ضعيفة وأمته راقية فى التجارة والصناعة والزراعة والامارة والسلاح والكراع وأمتى على نقيض ذلك فهو يشكو أمته طالبا المزيد وأنا أشكو لضنكها وضعفها أنا أحق بالجد والتشمير لذلك يشكو ودينه المسيحى لم يكن مؤسس القواعد على الطبيعة وأنا أشكو لان دين الاسلام مبناه الفطرة وعماده دلائل المخلوقات الطبيعية خالفنا الدين والعلم فكنا أول فريسة للقانصين

مالى أرى أمة الاسلام نائمة مالى أرى سفينتها تجرى بلا ملاح أيجوز فى دين المروءة ومنهج العقل أن يسبقنا الفرنجة بذلك والعلم علمنا والدين ديننا * ومن أعجب العجائب بل من أبكى المبكيات أن كثيرا من الشبان يحقرون الديانات اتباعا لسبنسر ويقولون انه ينكر الله أوليس مما يذيب القلب ويوقع الأسى فى النفس ان بعض الشبان

يجهلون العلوم التي عند الفرنجة ويدعون انهم بها عالمون يدعون أنهم قرؤا مذهب سبنسر ومذهب داروين وهم كاذبون فيما يدعون فوالله ما أغراني بقراءة الكتب الانجليزية الاما رأيت من دعوى هؤلاء الجهال

يقول سبنسر العلم الصحيح والدين توأمان أوليس هذا هو دين الاسلام أوليس قوله تعالى فيما نحن بصدده (ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) ✱ ثم شرح الارض والسماء وجاءهما (علم الطبيعة)

(أوليس دين الاسلام هو هذا العلم) ياأمة الاسلام ألهذا الحد وصل جهلنا بديننا أني أرفع صوتي أمامكم أيها المسلمون وأقول أبعد تجارب ألف وثلثمائة سنة نكون أجهل الامم بالدين ونجتزئ بعلم التوحيد وتلك الكلمات الجدلية فيه وهي لاتسمن ولا تغني من جوع ولقد وضعت لغرض خاص فكيف تكون للعموم

أيها المسلمون ان الخزي الذي حاق بنا والسوء الذي أحاط بنا انما منشؤه جهلنا في القرون الاخيرة ويقول سبنسر ان الدين هو السبب في سوق النفوس الى علم الطبيعة ✱ فيا للعجب اني قرأت التوراة والانجيل فلم أجد فيهما من علوم الطبيعة الا آثاراً ضئيلة منحرفة والقرآن هو الذي يأمر بالطبيعة وفهمها فاذا كان الدين الذي لا علم فيه يصبح غنيا بالفلاسفة والحكماء فما بالك بالقرآن الذي لو علم حق علمه لكان أكثر أتباعه ربانيين منهم أكابر الحكماء أفلا ينبغي أن يكون أكثر العقول الكبيرة من اتباعه أوليس قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود الى قوله انما يخشى الله من عباده العلماء) يشير الى المعنى الذي قاله سبنسر وان علم الطبيعة به تكون العقول الكبيرة الناظرة في الماء والاشجار والثمار والجبال واختلاف الألوان فتخشى الله وأولئك هم العلماء أفليس هذا هو دين الاسلام

✱ وأما المثل الذي ضرب به سبنسر بالمؤلف ومدح الناس له مع جهلهم بما في الكتاب فلقد رأيت نظيره في كتب أسلافنا كقول بعض القدماء في اخوان الصفاء ما معناه العلوم التي نقرؤها أربعة كتاب الله وكتاب الطبيعة وكتب الحكماء وكتاب النفس الانسانية ومعرفة عجائبها

✱ وأما تعجبه من اعراض الناس عن العلم وعجائب الطبيعة فذلك كثير في القرآن كقوله تعالى (وكم من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون)

✱ وأما قوله ان العلم الطبيعي عبادة صامتة فاعلم ان هذا هو الذي عليه مدار الاسلام كقوله عليه الصلاة والسلام (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) وجاء في حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لقد أنزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتدبرها ويل له ويل له) ثم قرأ (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء الآية) ✱ واعلم ان هذه الآية كانت السبب في محبتي بحث الطبيعة واني وجهت وجهي تلقاءها في أوائل أيام تعليمي ولولم أطلع عليها ماتوجهت هذا التوجه منذ أيام الشباب

✱ وأما قوله العلم الطبيعي مقوّ للدين والدين مقوّ له فاعلم ان الامام الغزالي يقول الدين دواء والعلم غذاء وليس الدواء بمغن عن الغذاء ولا الغذاء بمغن عن الدواء

✱ وأما قوله ان علم الطبيعة يعرفنا بلا استبداد ان لنا حدا لا نتجاوزه فلا نصل الى معرفة صانع العالم وحقيقته فهو الذي ورد في الحديث (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله) فان التفكر في ذات الله اشراك وورد أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال (ان الشيطان ليقول لأحدكم من خلقك فيقول الله فيقول ومن خلق الله فاذا قال ذلك فليقل أحدكم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لا يعرف الله الا الله)

(حكاية)

سألني تلميذ وأنا مدرس بالمدرسة الخديوية فقال وفي يده كتاب انجليزي ان سبنسر ينكر الله فقلت اسمعني قوله فقال يقول (ان الله اما أن يكون خلق نفسه واما أن لايخلقه أحد فان كان الأول فهو مستحيل لان الشئ يكون متقدما على نفسه وهو باطل * وأما الثاني فباطل أيضا لانه لاموجود بلاموجد فقلت أوتظن ان هذا كفر قال نعم قلت كلا)

* واعلم يابني ان هذا شذرة من أقوال علمائنا بل قطرة من بحر وذرة من جبل فقد حققوا هذا المقام وأفرغوا فيه جهدهم فلقد برعوا في المباحث العقلية كابرع الفرنجة في الصناعات الحربية الآن * ألا ترى ماقرروه ان المعلومات التي تصل لنا لاتكون الامن طرق أربع *طريق الحواس كالسمع والبصر *وطريق ماندركه من أبداننا بالوجدان كالألم واللذة والجوع والعطش والفرح والحزن والغيظ والحقد والابتهاج *وطريق العقل كالعلم بأنه اذا زيد على شيئين متساويين شيئان غير متساويين فالمجموعان يكونان غير متساويين وكذلك اذا نقص من المتساويين شيئان غير متساويين فالباقيان يكونان غير متساويين *والطريق الرابع ماندركه مستنتجا بطريق المنطق من هذه الثلاثة فهذه الطرق الأربعة هي التي لاعلم للبشر بالتحقيق الامنها *وهنا يقال كيف عرف الناس الله *أذاته تعالى عرفوا أم وجوده أم سائر صفاته وبالتحقيق أنه لم يعرف الناس الاأنه موجود أولا وانه دائم الوجود ثانيا وانه منزه عن المادة وجميع الحوادث وهي المسماة صفات الجلال ثالثا وانه متصف بصفات الاكرام وهي صفات المعاني كالقدرة والارادة والعلم الخ هذه هي الصفات التي عرفها الانسان بالطرق المتقدمة اما معرفتهم ذاته فذلك أمر غائب عن العقول لايتهيأ لها الوصول اليه وليس ذلك بداخل في الطرق المتقدمة الأربعة للمعرفة فلاهي بطريق حواسنا ولاوجداننا ولاالبديهيات ولامايستنتج منها وهذه هي الطرق التي بها سائر العلوم والكشف والاختراع * فماذات الله فلا تعرف بواحد منها

* وقالوا أيضا ان المعرفة على قسمين معرفة ذاتية ومعرفة عرضية * فاذا رأينا تمثالا هندسيا منظما متقنا جميل المنظر حسن الشكل بهي الطلعة حصلت لنا هنا معرفتان معرفة ذاتية ومعرفة عرضية * أما المعرفة الذاتية فانا نقول هذا اللون وهذا المقدار وهذا الشكل التي نظرناها بأنفسنا وهذه النعومة وهذه الخشونة وهذا الثقل وهذه الخفة التي لمسناها بأيدينا كلها حقائق ذاتية فانه لاحقيقة للون ولاللمقدار ولاللشكل ولاللنعومة ولاللثقل ولاللخفة الاهذا الذي أدركناه * وأما المعرفة العرضية فاننا نقول هذا الشكل الجميل لابد أن يكون له فاعل وعلمه وقدرته على مقدار مابرز لنا في صفاته المشاهدة فهذه معرفة عرضية فانا لاندرى ذات ذلك الصانع ولاطوله ولاعرضه ولاأوصافه الظاهرية والباطنية ولاطباعه * وانما نعرف منه على مقدار ماوصل الينا من ذلك التمثال * فمعرفة الله لنا من القبيل العرضي وليس من الذاتي (هذه أقوال علمائنا رحمهم الله في اثباتهم العجز عن ادراك ذات الله تعالى) وهكذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وكيف ذلك *قلت لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول (اللهم اني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لاأحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) ومعنى هذا لايعرف قدرك الاأنت فكيف يمكنني أن أعرف صفاتك بل أنت الذي تعرفها فيكون منك الثناء واليك يعود * وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه (العجز عن الادراك ادراك) * وأما قول سبنسر العالم الطبيعي ليس من يعرف التحليل والهندسة الخ وانما هو من يرتقي في الأسباب فقصده بذلك العلم الأعلى في فن الفلسفة الذي حرمت منه الأمة الاسلامية فراغ الطلاب وتاهوا في بيداء الجهالة لأنهم قرؤا قشورا من العلوم الجزئية وجهلوا العلم الكلي أو العلم الأعلى الذي يبحث في سائر العلوم وهي تستمد منه * وقال القدامى من علمائنا ان قراءة العلوم الجزئية تورث الضلال * فاما قراءة العلوم الكلية فانها تعرف الانسان ربه * وقالوا أيضا

فى قوله تعالى شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ان مرتبة الملائكة فى العلم بعد الله ويليهم أولوا العلم الذين يعرفون نظام هذا العالم المتقن لمعرفتهم حقيقة هذه الصنعة وتركيبها وانها مسيرة بنظام متقن

* واعلم ان العلم المنتشر فى مدارسنا المصرية مبعثر منثر لا يهدى الطالب ولا ينير المسالك بخلوه من العلم الأعلى فتأمل وتعجب من أمة الاسلام النائمة وقد آن أن تقوم من نومتها وتستيقظ من غفلتها * وأما قول سبنسر ان الثواب والعقاب نتائج للأعمال ونظام الطبيعة يعرفنا ذلك فقد شرحه أكابر علمائنا كالغزالى * فما قال فى ذلك ما معناه اياك أن تقول ان الله يغفر لى * وانما الثواب والعقاب نتائج لابد من حصولها اهـ * ولكن المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها نائمون * اللهم اهد أمتنا وأيقظها من غفلتها انك أنت السميع العليم

* وانما أطلت فى هذا المقام لتعلم ان أكثر الشبان المتعلمين فى ديار الاسلام لم يبقوا مع العامة مقلدين ولا هم من الحكماء المحققين وانما هم فى وسط الطريق فلا الى العلو وصلوا ولا الى أسفل نزلوا فأحراهم أن يعكفوا على العلوم حتى تطمئن نفوسهم وترتقى مدنهم ويتم نظامهم وتكون أمتهم من الأمم العظيمة القوية المتينة بهذا أمرنا الله بقوله (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم الى آخر الآية)

* ولما فرغ سبحانه من وصف الأرض والثمار والعجائب التى ذكرها والحكم التى صورها أخذ يذم الأصنام وينهى عن عبادتها

﴿ تفصيل الكلام على الانداد وعبادة الأصنام ﴾

أريد فى هذا المقام أن أشرح بقول وجيز مسئلة الأصنام وعبادتها كما شرحت فى أواخر سورة الفاتحة البلاغة ومقارنة القرآن بكلام العرب وكما سترى فى تفسير قوله (وأتوا به متشابها) مسئلة الجنة والنار ومراتب السعداء ومسئلة ترتيب النجوم فى عصرنا عند قوله (سبع سموات) ومسئلة نفس الانسان وجسمه عند قوله (خليفة) والكلام على الملائكة وهل هم يثبتون بالعقل أم يكتفى فيهم بالنقل بمناسبة قوله (واذ قال ربك للملائكة) حتى اذا طال الأجل ووصلنا فى التفسير الى آيات أخرى فى هذه المعانى أشرنا الى الرجوع الى ما ذكرهنا ليقل التكرار وليقف القارئ على عجائب العلم وغرائب الحكمة فى غضون التفسير والله يهدى من يشاء الى الصراط السوى فلنشرع فى موضوع الأوثان فنقول لا لخص لك ما عثرت عليه فى هذا المقام قديما وحديثا حتى لا يشذ عنك شئ منها وتطلع على آراء الأمم والأجيال الغابرة والحاضرة

* اعلم أن عبادة الأوثان قديمة العهد بعيدة المدى درجت عليها الأمم البائدة واتبعتها الحاضرة وأنت لو سرت فى بلاد الصين واليابان والهند لرأيت الأوثان ماثلة أمامك معبودة والناس حولها ملتفون عابدون خاشعون حامدون راكعون ساجدون وأنت ترى ان أهل الصين قوم فيهم العلماء والحكماء قديما وحديثا وهكذا الهند * واذا أتيت الا المدنية الحديثة والنبوغ فى فنون القتال والحرب وجندلة الابطال وغلبة الأمم والتفوق فى الحرب فهاك أمة اليابان عابدة الأصنام كثيرة التماثيل * تلك الأمة التى تعبد الها له جوادان عليهما يركب ذلك الاله جاثمان دائما بادارة المعبد بجوار تمثاله وهذان الجوادان من أسعد الحظ وقدم اليهما قبضة من شعير يوم خروجهما فى الأوقات المعلومة فقد نال حظا عظيما لأنه قبلت هديته لجواد الاله * هذا مثل من أمثال عبادة الأوثان ببلاد اليابان اليوم * وهنا يقال هل يعقل ان أمرا تأباه الفطرة وينقضه العقل وهو بديهى البطلان يبقى مع طول الزمان وفناء الأجيال ويعمر فى الأرض ويبقى هكذا الى يوم العرض هل يعقل أن يكون هذا الانسان قد بلغ من البلاهة حدا بحيث لا يعرف ان هذا الحجر الذى نحت أمامى من الجبل لم يخلق السموات والارض وما بينهما ولم يخلق أنفسنا ونحن الذين أوجدناه وهندسناه وأبرزناه * ان العقل يأبى أن يصدق ان هذه الأمم العظيمة الكبيرة الحكيم علماؤها تبقى مخدوعة هكذا آلافا وآلافا من السنين اذن لابد أن يكون هنالك أصول رجعت اليها وعوامل عولت عليها وأحوال فقهتها

حتى

حتى بقيت تلك الديانات فيها وهل يدوم ما لا أصل له وهل الخداع له ثبات * فلاذكر ما عثرت عليه للجواب على هذا فاقول يقول الامام الرازى انه لم يكن فى الأرض أمة تقول ان الله شريكا يساويه فى الوجود والقدرة والعلم والحكمة وهذا مما لم يوجد الى الآن ولكن الثنوية يثبتون الهين أحدهما حليم يفعل الخير والآخر سفيه يفعل الشر * وأما اتخاذ معبود سوى الله ففى الذاهبين الى ذلك كثرة اهـ وها أنا ذا ألخصها لك فأقول

(أولا) من الأمم من مات عندها العظيم الجليل القدر الكبير المنزلة وقد اعتقدوا فيه انه مجاب الدعوة فعبدوه ليشفع لهم عند الله وعكفوا على قبره ثم اتخذوا له تمثالا ثم مضت الاجيال تلو الاجيال فصار معبودا وطال عليهم الامد فقست قلوبهم فهم دائبون على عبادته فانظر كيف كان أصله انه آدمى مجاب الدعوة ثم انتهى الامر بان نسوا الاصل فهم ضالون .

(ثانيا) ان الصابئين كانوا يرون أن الله عزوجل خلق ملائكة مجردة عن المادة وهى المتصرفة فى العالم وهذه الملائكة هى المسيرة للكواكب والكواكب مؤثرة فى الأرض وأهلها وقالوا ان الشمس والقمر والكواكب ترسل أشعتها الى الأرض وأهلها وبها الحياة ولولا ضوء الشمس ما عاش حيوان ولا نبات على الأرض والكواكب الأخرى تساعدها فى ذلك * وزعموا ان السعد والنحس للاشخاص تابعان لتلك الكواكب كما ان حياة الحيوان والنبات تابعة لضوء الشمس واشراقها على الأرض وهذه الاجرام المتلألئة المشرقة يحركها ويتصرف فيها الملائكة فعبدوهم ليكونوا شفعاء عند الله (ولما طال الأمد) عبدوا نفس الكوكب الذى هو كجسم والملك روحه (ثم لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم) صوّروا للكواكب صورا على حسب ما تخيلوه لها من النعوت والاوصاف وهى الأصنام فعبدوها لتكون واسطة بسبب المناسبة بينها وبين الكواكب والكواكب واسطة للملك والملك واسطة لله * ثم لما طال الأمد نسوا الكوكب وعبدوا نفس الصنم ولهم أبخرة خاصة واستحمامات ودعوات وملابس حتى ان حفلات (الزار) المعروفة فى مصر انما هى صورة محورة من صور دين الصابئين وهذه الطائفة تقول ان البشر لن يكونوا واسطة بين الله وخلقه وينكرون الأنبياء ويقولون لا واسطة الا الملائكة ويقولون انهم أفضل من البشر لتجردهم عن المادة * وهناك محاورة بين هؤلاء وأتباع الانبياء مذكورة فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى وختم القول فيها بفضل الأنبياء على الملائكة لأنهم جمعوا بين القوة الروحية والقوة الجسمية ومن جمع بين فضيلتين أفضل ممن له واحدة * ولقد كان لقدماء المصريين من الأوثان والأصنام ما يضرب به المثل بين الأمم * ولقد كانوا يقولون ان الله هو الواحد الحق ورتبوا العالم بعده مراتب فالمادة لها عدد ٢ وزحل ٣ والمشترى ٤ والمريخ له عدد ٥ والشمس لها عدد ٦ والزهرة لها عدد ٧ وعطارد ٨ والقمر له ٩ وقد كانوا يجعلون لها مربعات يكتبونها فى صفائح من ذهب فى أوقات خاصة لمنافع زعموا انهم ينالونها وتلك المربعات ناشئة من ضرب العدد فى نفسه فالله واحد مربعه ١ والمادة ٢ مربعها ٤ وزحل مربعه ٩ والمشترى ١٦ وهكذا الى القمر ٨١ وكل هذه لها حساب بديع مربعات يكون طول أضلاعها الافقية والرأسية والقطرية متساوية * وهذه لعمرك عبادة يتقربون بها الى الكواكب * وان أردت الاطلاع على ذلك الحساب البديع فعليك بكتاب خواص الاعداد للمرحوم على مبارك باشا وهذا العلم نقله فيثاغورث وأدهشه عجائب خواص الاعداد فقال ان العدد أصل العالم

(ثالثا) دين التثليث * كان القدماء من الفلاسفة اليونانيين الذين نقل عنهم علماء الاسكندرية بعد المسيح واتصل باسلافنا العرب يقولون ان الله خلق العقل الأول لانه لا يليق بالمجرد عن المادة أن يخلق الا ما هو أقرب اليه وبواسطة العقل الاول خلق الله النفس والنفس بها تحركت الكواكب ونظمت الطبيعة وكانت نفوسنا أشعة من تلك النفس ولذلك تراهم دائما يقولون الله العقل النفس

قال العلامة (دوان) كان القسيسون فى هيكل ممفيس يقولون للتلاميذ ان الله الاوّل خلق الثانى والثانى مع الاوّل خلقا الثالث وكانوا يسمون الثانى (الكلمة) المعبر عنها بالعقل عند الفلاسفة * ولما سأل الملك تولسيو ملك

مصر الكاهن تنيشوكى أن يخبره هل كان قبله أحد أعظم منه أو يكون بعده أحد أعظم منه قال له الله ثم الكلمة ومعهما روح القدس وهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الابدية فاذهب يافاني ياصاحب الحياة القصيره والآلهة الثلاثة الهندية هم برهمه وفشنو وسيفا ويقولون لما أراد برهمة (خالق الوجود الذى لا شكل له ولا تؤثر فيه الصفات) أن يخلق الخلق اتخذ صفة الفعل وصار (برهمة الخالق) ثم زاد فى العمل فانقلب الى الصفة الثانية فكان فشنو (الحافظ) ثم انقلب الى الصفة الثالثة فصار سيفا أى المهلك ويسمونها (ترى مورتى) الاقانيم الثلاثة ويشبهونها بالنار وفشنو هو الابن وسيفا المهلك والمعيد وهو روح القدس * وقد اطلعت فى بعض الكتب على صورة هذا التثليث منقولا من كتاب العلامة موريس فى آثار الهند القديمة وقال لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديم دكته مرور القرون صنما له ثلاثة رؤس على جسد واحد والمقصود منه التعبير عن الثالوث * وهكذا نجد عند البوذيين ثالوثا فانهم يقولون بوذا مثلث الاقانيم * والصينيون يعبدون بوذا ويقولون مثلث الاقانيم ويرمزون للثلاثة بهذه الحروف الثلاثة (أوم) فالهمزة أولها والميم آخرها من أقصى الحلق الى الشفتين فهؤلاء هم الاول والآخر والظاهر والباطن وهكذا تعبر الهنود بنفس هذه الحروف عن برهمة وسيفا وفشنو * وقد جاء فى الكتب الصينية الدينية ان أصل كل شئ واحد وهذا الواحد الذى هو أصل الوجود اضطر الى ايجاد ثان والاول والثانى انبثق منهما ثالث ومن هذه الثلاثة صدر كل شئ وهذا القول بالتوليد والانبثاق أدهش العلامة موريس لان قائله وثنى ولقد تنزل الهنود بتثليثهم الى درجة مخجلة مخزية فقد رأيت لهم صورة هيكل مقدس كشف حديثا مثلث يمثل برهما وهو بحالة الذكورة والانوثة معا وعلامة التأنيث وبعبارة أوضح عضو التأنيث مع التناسل يفيد قوة الايجاد وانه خالق الاشياء فانظر كيف تنزلت الثلاثة عند بعضهم من رفيع مقام العقل والنفس الى ماتباشره الانعام ويقولون ان هذا الثالوث المقدس حاضر فى كل مكان بالروح والقدرة

وقد وجد التثليث أيضا عند الفرس القدماء قال العلامة هيجن كان الفرس يدعون متروسا (الكلمة) والوسيط والمخلص وكان القدماء من اليونان يقولون ان الله مثلث الاقانيم وهذا التعليم الثالوثى أصله من مصر

وقال مؤلف كتاب (الخرافات ومخترعوها) كان الرومان يعتقدون التثليث قبل المسيح

وقال العلامة (نيت) هكذا وجد سكان الجزائر فى الاوقيانوس والمكسيكيون الذين ظلمهم الاسبان خرقوا كتبهم كان لهم دين يثبت ثلاثة آلهة الاب والابن والروح القدس والابن اسمه (باكاب) مولود من عذراء وصنمهم المعبود يمثل ذلك وأهالى النيبال يعبدون الها اسمه (اندرا) وهو كان مصلوبا كاصلب المسيح وسفك دمه بالصلب وثقب بالمسامير كى يخلص البشر من ذنوبهم وصورة الصلب فى كتبهم (أقول) وقد رأيت صورتها فى بعض الكتب المنقولة ويقول المصريون أوسيريس مخلص الناس وباخلاصه يقتل ويسمى الولد والفادى والولد الوحيد * وكان قدماء اليونان يقولون ان الله مثلث الاقانيم وكان القسيسون يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع * وكان الفرس يعبدون الها مثلث الاقانيم مثل الهنود وهم أورموزد ومترات واهرمان فأورموزد الخلاق ومترات ابن الله المخلص والوسيط واهرمان المهلك * وسكان سيبير يا القدماء كانوا يعبدون ثلاثة آلهة فالاول خالق كل شئ والثانى اله الجنود والثالث روح المحبة السماوية

وكل هذه الديانات قائمة بأوثان وأصنام وأنت ترى ان هذه الوثنية قسمان * قسم يرجع لعبادة الملائكة فالكواكب فالاصنام * وقسم يرجع الى عبادة ثلاثة اتحدت فصارت واحدا ولها قوة الخلق والحفظ والاهلاك والاعادة وهذا هو القسم الذى تنوع حتى ملأ الكرة الارضية فتراه فى الصين والهند وأوروبا بصور مختلفة وأحوال متباينة وكل يقول انى أعبد الخالق فتبين أن سائر الناس جعلوا الاوثان والاصنام من الوسائط لعبادة الله تعالى وهذا معنى قوله تعالى على لسان الكفار (مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) ولكن جاء فى القرآن مايفيد ياأيها الناس انكم تقيدون أنفسكم وتكونون عبيد الاصنام أرقاء الاوهام فكونوا أحرارا والارض لله (والله معكم أينما

كنتم)

كنتم) فلا تتقيدوا بصنم ولا حجر ولا تمثال ولا وثن ولكن انظروا (الى السماء كيف رفعت والى الأرض كيف سطحت * اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) فانظروا فى هذا الجمال وفيه من الصور والتماثيل وأنواع الجمال الدال على قدرتى وعلمى وحكمتى ولا تكونوا مقيدين بتلك التماثيل التى صنعها البشر فان جمالها ضئيل بجانب الجمال الذى أبدعته فى سمواتى وأرضى والجبال التى عليها والجمال الباهر فى محاسن الصور المنقوشة فى زينتها تبصرة لكم وتذكرة لأولى الألباب (فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم)

(الأصنام عند العرب الذين نزل عليهم القرآن)

يقال ان عمرو بن لحى لما ساد قومه ورأسهم وولى أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة الى البلقاء فرأى قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه أرباب نستنصر بها فتنصرنا ونستسقى بها فنسقى فالتمس اليهم أن يكرموه بواحد منها فاعطوه الصنم المعروف بهبل فسار به الى مكة ووضعه فى الكعبة ودعا الناس الى تعظيمه وذلك فى أول ملك سابور ذى الأكتاف ومن بيوت الأصنام المشهور غمدان الذى بناه الضحاك على اسم الزهرة بمدينة صنعاء وخربه عثمان بن عفان رضى الله عنه * ومنها نوبهار بلخ الذى بناه منوشهر الملك على اسم القمر * وكان لقبائل العرب أوثان معروفة مثل ود بدومة الجندل لكلب وسواع لبنى هذيل ويغوث لبنى مذحج ويعوق لهمدان ونسر بأرض حمير لذى الكلاع واللات بالطائف لثقيف ومناة بيثرب للخزرج والعزى لكنانة بنواحى مكة واساف ونائلة على الصفا والمروة * وكان قصى جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاهم عن عبادتها ويدعوهم الى عبادة الله تعالى وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل وهو الذى يقول

أربا واحدا أم ألف رب * أدين اذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا * كذلك يفعل الرجل الخبير

والله فوق الجميع المحيط بالعالمين علما يخاطب الناس بقوله فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون

ولما لم يكن عند المعاندين من العقل والمعرفة ما به يعرفون نظام هذا العالم ويدركون ان الاصنام لا تستحق العبادة أخذ يصف لهم ما جاء على لسان الرسول من البلاغة ويتحدى بما يعجزهم كأنه يقول اذا عجزتم عن ادراك ما أبدعته فى الأرض والسماء ولم تبلغ عقولكم كنهه وغلبت عليكم الجهالة ولم تفهموا الامادار فى أنديتكم من أحاديث البلاغة وآيات الفصاحة فاسمعوا لهذا القرآن والا فأتوا بمثله فلما عجزوا أوعدهم بالنار ووعد المتقين بالجنة وأخذ يصف نعيمها وحورها وجمالها وبهاءها وثمارها من بعد ما قدم وصف العالم الدنيوى ايماء الى أن علم الحكمة يدعو الى النجاة ولا يرقى الى عليين الا من نظر فى خلق العالمين

فقال (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) فتحرق الاصنام معهم فى جهنم نكاية بهم واذلالا لنفوسهم وتخييبا لآمالهم فقد كانوا يظنون أنها تشفع لهم فخاب فألهم وضل سعيهم وهذه هى الحسرات (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) أى ان الثمر الذى فى الجنة يشابه الذى كان فى الدنيا لان النفوس تواقة الى ما كانت تألفه وذلك أقرب الى نظم القرآن ونسقه والى علم الحكمة (وفى هذه الآية) مفتاح لعلوم الآخرة وأنها نتائج الدنيا والنتائج تتبع المقدمات فاذا كانت الثمرات التى يتناولها أهل الجنة أشبه بما كانوا يتعاطونه فى الدنيا يأنسوا به وليستلذوا بتناوله وليكون لهم نعيما وبهجة فذلك نموذج لما فى الآخرة والاولى من التناسب والتوافق والتشابه * وبيانه أنا نرى أن درجات الانسان فى حياته متناسبة متشابهة فدور الصبا يتبعه الشباب فالفتوة فالكهولة فان يكون شيخا فهرما وهو فى ذلك كله يحفظ صورته الاصلية وان اختلفت أحوالها من مرض وصحة وهزال وامتلاء وشباب وشيب وترى المتعلمين لا يدرسون فى الثانوى الا ما يناسب ما سمعوه فى الابتدائى والدراسة العليا تتبع الثانوية وترى علماء

فن التربية يحرصون الحرص كله أن تضرب الامثال للصبي في أول حياته في المدرسة بما يأنس به من هرة يداعبها وشاة يلعب بها وكرة يضرب بها وما أشبه ذلك ويقول علماء الحكمة ان أحوال النفس بعد الموت لاتعدو هذا المنهج ولا تعدل عنه بوجه فالجهال والفسقة وأهل الضغائن والمنافقون والكسالى وأهل الشره والحرص تكون أرواحهم بعد فراق الجسد في جو من نار تلك الاخلاق والاعمال والجهالات

وأهل الاحسان والفضل وأولوا الالباب والعلم وذوو الاخلاص والصدق والاحسان للناس في حال أشبه بما كانوا عليه في الدنيا وجو من الصفاء والنضارة والجمال نتيجة لما كانوا يعملون ولم يكن الله ليعذب الكافر والفاسق تشفيا وانتقاما كما ينتقم أهل الارض ويشفوا غيظهم الكامن في نفوسهم من أعدائهم (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) وانما جاء ذلك في القرآن ليفهم بالفاظ يعرفها الناس على قدر طاقتهم وانما ذلك العذاب جزاء من جنس العمل كما في قوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقوله تعالى (انما تجزون ما كنتم تعملون) وقوله (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وكقوله في أهل النعيم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وذلك بعد قوله (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) فكأنهم لما أنسوا بربهم وأحسوا بروح ولذة بالعبادة وذلك أمر لا يطلع عليه الا صاحبه كان جزاؤهم نتيجة ملازمة لعملهم ملازمة الظل للشبح والهواء لسكان الارض فقال (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) وترى في الدنيا ان أهل العلم يأنس بعضهم ببعض ويفرحون بالملاقاة والمحادثة والمشاكلة وترى قطاع الطرق والمجرمين يساقون الى السجون ويعاقبون على ذنوبهم في الدنيا كما تكون حالهم في الآخرة اذ قال تعالى (فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين)

ولذلك جاء في علم الاخلاق انه ينبغي للانسان أن لا يجالس أربع فرق من الناس الصبيان والنساء والجهال وذوي الاخلاق الفاسدة * اللهم الا للتعليم أو تأديب أو حكم عليهم أو انعام أو ما أشبه ذلك وورد في الحديث انما أنت مع من أحببت وفيه انما هي أعمالكم تعرض عليكم وجاء في الآية (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)

قال الامام الغزالي في الاحياء وكما أنك في الدنيا تجد من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والارض وسائر الامور الالهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر الى وجه الله تعالى على نعيم الجنة اذ يرجع نعيمها الى المطعوم والمنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من ايثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب وسائر الخلق مشغولون به * ولذلك لما قيل لرابعة ما تقولين في الجنة فقالت الجار ثم الدار فبينت أنه ليس في قلبها التفات الى الجنة بل الى رب الجنة وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة * اذ ليس يستأنف لاحد في الآخرة مالم يصحبه من الدنيا ولا يحصد أحد الا ما زرع ولا يحشر المرء الا على ما مات عليه ولا يموت الا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط الا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق اذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فان ذلك منتهى لذته وانما طيبة الجنة ان لكل واحد فيها ما يشتهي فمن لا يشتهي الا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره بل ربما يتأذى به فاذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فاصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالايمان اهـ

وبالجملة فما من حركة نفسية أو عمل أو خلق أو رأي الا لها آثار في نفوسنا ويقول الحكماء العلم والاخلاق الفاضلة تكون سعادة وروحا وريحانا والجهل وسوء الخلق رأس الشقاء في الدنيا والآخرة ولهذا الرمز يقول تعالى هنا (وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة) من دنس الاخلاق ورداءة الطباع وما يبتلى به نساء الدنيا من الحيض والنفاس

والمرض

والمرض مشاكلة لما كانوا يستلذون به فى الدنيا وان كان الفرق شاسعا بين الدارين أبعد مما بين السراج والشمس والذرّة والفيل

(ضرب الامثال)

واعلم أن فيما سبق من هذه السورة * أمثالا منها ماهو ظاهر * ومنها مايحتاج الى تأمل فاما ماهو ظاهر فقوله (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) وقوله (أوكصيب من السماء) ومن هذا القبيل قوله تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) وقوله (ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولواجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيأ لايستنقذوه منه) وهذه كلها أمثال مضروبة لاحوال الكفار * وأما مايحتاج الى تأمل فاوصاف الآخرة وأحوالها فان قوله (قالواهذا الذى رزقنا من قبل) فيه المشابهة والمماثلة وان عالم الآخرة يمثله بعالم الدنيا * ألاترى الى قوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى) فهناك صرح بأنها أمثال وان هذه التى فى الدنيا مضروبة مثلا لاحوال الآخرة ولقد تعالى المعنى فى آية أخرى الى مافوق هذا فى قوله تعالى (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين) وجاء فى الحديث (ان فى الجنة مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) وفى الحديث (أريت الجنة فاذا أكثر أهلها البله وعليون لاولى الالباب) وفسره علماؤنا بأن المفكرين فى خلق السموات والارض وذوى النفوس العالية هم الذين يزهدون فى الجنة الحسية ويرغبون فى جوار ربهم مع الارواح الطاهرة الخالصة من المادة المبرأة من عيبها العارفة بنقصها * فاما أولئك الذين لايعبدون الله الا لاجل الشهوات بعد الموت فان نفوسهم تحن هناك الى اللذات الحسية ومعلوم ان المرء يحشر على مامات عليه من خلق ورأى وعقيدة وأن العبادة الظاهرة الخالية من معرفة جلال الله وعظمته والتفكر فى هذا العالم وأن المادة سجن للذين فيها لاينال المرء بها الا الجنة المحسوسة التى يرغب فى أعلى منها الانبياء والحكماء وأصحاب النفوس الشريفة والى ذلك الاشارة بقوله تعالى (ولدينا مزيد) وبقوله (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) وقوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فالزيادة هى النظر لوجه الله الكريم وقد مثلوا لهذا بالقصر المشيد للملك وقد حضر فيه أقوام فذوو النفوس العالية والمقامات الشريفة لايفرحون الا بمجالسته * فاما الصعاليك فلا يهتمون الا بما يسد جوعهم ويفرج كربتهم لاختلاف الناس فى معارفهم وفى ﴿ الأمثال المضروبة ﴾ اعلم أن الناس مختلفو الاخلاق والمشارب والعادات والاحوال (ولكل وجهة هو موليها) ولولا اختلاف المشارب والاهواء ما انتظم هذا العالم فما يحبه زيد يكرهه عمرو وما يليق لاحدهما لايناسب الآخر * ولهذا الاختلاف كان النظام عجيبا ولولا زهد زيد فى التجارة والصناعة ونحوهما كان فقيرا عالة على الناس . الناس مختلفون فى أكثر الاشياء وعلى ذلك نرى أناسا نبغوا فى اختراع أوعلم أوتجارة أوعمل عام وقد كانوا قبل ذلك يستهزئ بهم أقرانهم ويسخر منهم أصحابهم ولم يكن نبى ولاعالم ولاصالح الا كان فى مبدأ أمره محل سخرية واحتقار وازدراء ذلك ان الناس قلما يفقهون مايفقهه هؤلاء فينالهم مقت واحتقار ومن هذا القبيل الانبياء (ومنهم خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) فكان عرضة للاستهزاء من الجاحدين والكافرين فلما سمعوا ضرب الامثال بالنار وبالماء وبالذباب وبالعنكبوت عدوها فرصة للسخرية وقالوا هل يضرب الله الامثال بهذه المحقرات وهو العظيم العلى الكبير هذا لايعقل ولو أن الاستهزاء توالى على فاضل ولم يكن له عزيمة لانحلت عزيمته واختلت أعماله ولذلك نجد النابغين قليلا لان الساقطين فى ميادين العمل المجندلين فى ساحات المناظرة والمباراة كثير وليس ينجو منهم الا القليل ومنهم الأنبياء فاخذ نبينا صلى الله عليه وسلم يثابر على الرد عليهم ونبذهم وقهرهم بالوحى ومنه ماجاء هنا اذ قال (ان الله لايستحيي أن يضرب مثلا ما) أى أى مثل كان واذا كنتم تستصغرون التمثيل بالذباب والعنكبوت فالله لايستحيي

أن يضرب مثلا بالبعوضة التي هي أقل من الذبابة بل بما هو أقل منها مقدارا وأعلى في تمثيل الحقارة عند ارادة تحقير الأشياء فالنبوّة وردفيها التمثيل بجناح البعوضة عند ذم الدنيا وأنتم أيها الناس قسمان * قسم يرى الأشياء بمنظار مظلم وعين عوراء وقد غشي على سمعه و بصره فيرى الخير شرا والشر خيرا * ولما رأيتم الرسول يعلمكم وقد دخل الحسد في قلوبكم وأكل الغل أفئدتكم أبيتم واستكبرتم وأخذتم تعيبون الكتاب وتسخرون من القول * والقسم الآخر متواضع لا يتعالى عن الحق فيقبله ويسعى للنجاة من الجهل والاثم والعار والهلاك في الدنيا والآخرة واذا سمع الأمثال اتعظ بها فهو من المفلحين

أقول ولأضرب لك مثلا تتبين منه اختلاف مشارب الناس في الفهم * فاعلم ان ما يراه الانسان في كل يوم من الأحوال الانسانية وغيرها فيه علوم جمة لمن تفكر وتدبر

فتفكر في حال امرأة جميلة فترى الناس في شأنها طرائق شتى ولأذكر لك شيأ من هذه الطرائق * فأمها تنظر اليها نظر الاشفاق والعطف والود والحنان والرأفة والحزن لحزنها والفرح لفرحها * وأبوها ينظر اليها نظر المساعدة الأبوية * والأخ أقل منه * وابنها نظره اليها من قبيل الالتجاء والاستعانة وانها حصنه ومأواه ومرجعه * وزوجها ينظر اليها نظرة أخرى بامتزاج المصالح والمشاركة والمعاونة * وخاطبها القديم ينظر اليها نظرة الحسرة والحرمان والغيرة والندامة وما أشبه ذلك فهذا مثل ضربته مما يراه الناس فهكذا كل حكمة وعلم ومحس ومعقول يدركها الناس على درجات شتى لاحصر لها وهذا سر الوجود فالامثال التي جاء بها الأنبياء وورد بها القرآن يعتورها ما يعترى الموجودات من اختلاف النظر فينظر الجاهل استهزاء و ينظر العاقل اعتبارا ولقد ورد من الامثال نحو ذلك من كلام العرب مثل أسمع من قراد وأطيش من فراشة وأعز من مخ البعوض * واذا اختلفت الانظار في كلام الله كغيره لاجرم يضل به قوم ويهتدي به آخرون كما أن من النبات ما يقتل ومنه ما يشفي ومنه ما يغذي وهو من فعل الله والقرآن من كلامه فكما يستضر الله بالسم ويشفي بالسنا ويغذي بالحنطة يضل قوما بالقرآن اذا نقص استعدادهم وخبثت نفوسهم كما يقتل الرجل بشرب الشهد اذا كان محموما ويزيد الضعيف المعدة مرضا بالامتلاء من اللحم والمآكل الغليظة وشرب الماء المثلوج * ومثال ذلك في القرآن أن يقرأ أربعة علماء هذه الآية (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) ثم تطرح أمامهم مسئلة السلاح في الحرب * فيقول أحدهم ان لنا في رسول الله اسوة حسنة فلانخالفه ورسول الله انما حارب بالسيف والرمح فحرام علينا أن نغير سلاحه كما أخبرت بذلك عن بعض علماء التركستان منذ سنين اذ استفتاهم أمير بخارى فاجابوا بذلك وأفتوا بقتل التاجر الذي حضر من الروس اذ ذاك وقال ان لهم مدافع فلنقلدهم فحكموا بقتله فقتله الأمير * ثم دخل الروس بعد خمس سنين * ويقول الآخر كلا فلنتوكل على الله والنبي صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن وقد أمره الله بالتوكل فعلينا أن نرضى بقضاء الله وقدره * ويقول الثالث كلا فلنقرأ البخاري وسورة يس وقد حصل ذلك في بعض الحروب منذ عشرات السنين وهذان رأيان لذوي الكسل والبلاهة * ويقول الرابع كلا فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يحارب بالسلاح الذي يحارب به أعداؤه ولو أنهم حاربوا بالمدافع والطيارات لحاربهم بها وهذا هو الفقيه النبيه فانظر كيف ضل ثلاثة واهتدى الرابع * ولما كثر الضلال في الأمة الاسلامية قل فيها النبوغ وساء مصيرها فليكن فيها المفكرون والمستبصرون والعقلاء المتدبرون فبذلك وحده تنجو من الخطر الداهم * ولقد زارني منذ عشر سنين أمير يقال له جمال الدين من مدينة مدراس على ما أذكر ومعه تراجمه فقال جئت لأسألك عن علم الجغرافيا والتاريخ فاني فتحت هناك مدرسة وقد حرم علماء الاسلام هناك أن يدرس هذان العلمان فعجبت كل العجب وكتبت له ان جميع العلوم والصناعات فرض كفاية على المسلمين * فمتى ترك المسلمون علما أو صناعة فالاثم واقع على جميعهم في الدنيا والآخرة * اما في الدنيا فبالذلة والاختلال والاحتلال واما في الآخرة فبعذاب النار (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) وهذا انما جاء من نقص العلم في بلاد الاسلام وهذا داخل في قوله (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) ولما كان أولئك الفاسقون منهم من يمكن اصلاحه أعقبه موبخا على عدم التفكر بقوله فى

(المقصد الخامس)

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم) ذكر الناس بما كان من عدمهم ثم حياتهم ثم يموتون ثم يحيون ثم يحاسبون هذه قصة الانسان ومبدؤه ومنتهاه ✽ وقص قصة العلم فذكر الأرض ومافوقها والسماء وزينتها ونظامها وكيف كانت هذه العوامل الكبيرة مسخرة للانسان ساعية لسعادته وهنائه فهل يجمل به أن يكفر بالله وهل يحسن بمن كان عدما فاصبح موجودا وهيئت له السموات والأرض وخدمته الأعوام والسنون وأفرغت النعم عليه ولم يكن له ملك ولا حياة هل يحسن به أن يكفر بالله ويقطع رحم الفضيلة وينسى المنعم ولا يشكر المتفضل وهل يليق أن يكون من الضالين والفاجرين

وقوله (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا) تسجيل على المسلمين فى أنحاء المعمورة فياليت شعرى كيف يخاطبنا الله بقوله (خلق لكم مافى الأرض جميعا) ونحن أجهل الأمم بالأرض والسماء وكيف تكون المعادن فى باطنها والجبال عليها والغابات والممالك وكيف تكون الكهرباء شاملة لاجزائها والاضواء والحرارة والخواص الطبيعية الكامنة فى هذه المخلوقات ونحن لانعرف منها الاما جادت به علينا يد الأمم الغربية فوالله ان العلوم التى كشفوها فى الأرض والسماء لتسجل علينا الخزى والعار أمام الله والناس

أيها الناس كيف يقر لكم قرار ويكون عندكم اصطبار وربكم يخاطبكم فيقول (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا) وأنتم لاتملكون قطميرا منها المرجان النابت فى البحر فى يد غيركم والدر يصطاده سواكم والغابات لغيركم فهل ظننتم أيها الناس أن الموجه له كاف الخطاب هم أمم الفرنجة فيقول (هو الذى خلق لكم) ياأمم الفرنجة أولستم داخلين فى كاف الخطاب أليس من العار عليكم أن تجهلوا نعمة ربكم ولعمرى ان هذا لكفر للنعمة وقلة عقل وغاية الجهل وكيف نقول انا لله شاكرون والشكر انما يكون باستعمال العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله والله قد صرح لنا بقوله خلقت لكم مافى الأرض جميعا واذا أنعم عليك الملك بنعمة حقرتها كان غضبه عليك شديدا وهاهو ذا المنار أى اعراضنا عن نعمه فازدريناها ونسيناها وتجاهلناها غضب غضبة فسلط علينا الأمم ✽ وهذا جزاء الكافرين بالنعم (ألم يأن لكم أن تخشع قلوبكم لذكر الله ومانزل من الحق) أفيقوا أيها المسلمون من غفلتكم واستيقظوا من رقدتكم ✽ واعلموا أن مافات فات وانقضى وان الزمان قد استدار وستكونون علماء بهذا الوجود وستنالون منه حظا عظيما بفهم القرآن (ليظهره على الدين كله ✽ فاستبقوا الخيرات) وانظروا فى الأرض وماحوت والسماء ومارعت وتأملوا ماأتلو عليكم فى مسئلة السموات اذ قال تعالى (ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم)

(الكلام على السموات السبع)

اعلم أننا على هذه الأرض محبوسون مغمورون فى حمأتها تحيط بنا أنواع الآلام والشهوات فتحجبنا عن معرفة العوالم وادراك حقائقها والتفرج على عجائبها ✽ ولما كان عالم السموات أعظم مانشاهد وفيه أنواع الجمال والضياء والبهجة والحسن اتجهت اليه أنظار العقلاء ورجال الدين ✽ وأقدم ماوصل الينا من العلم بذلك ماذكره اليونان وقفا على آثارهم علماء الاسكندرية أيام البطالسة واستقرت آراء هؤلاء على أن الارض فى مركز العالم وأن القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل سيارات حولها وكل واحد منها فى فلك دائر حول الأرض من الشرق الى

الغرب فاما السيارات فان لها سيرا خاصا بها تسير الى جهة الشرق عكس الحركة اليومية للافلاك السبعة وتكون تلك الكواكب على أفلاكها أشبه بحلقة دائرة على مجلة تسير فى طريق يخالف سيرها وبهذه الحركة الكوكبية يكون شهر القمر وسنة الشمس وسنون لسائر الكواكب ويقولون ان هناك فلكين آخرين يحيطان بالافلاك السبعة وهما فلك الثوابت فالاطلس وقالوا نحن علينا أن نفرض فلكا ثامنا لتكون فيه الكواكب الثابتة وفلكا تاسعا يكون مبدأ الحركة اليومية * وأما ترتيب الافلاك على هذا المنوال فله أدلة مطولة لكنها ضعيفة جدا حتى ان فلك الشمس لما جعلوه رابعا شبهوه بشمس القلادة فى جيد الحسناء لانها تكون فى الوسط * وأما بقية الافلاك فقد يستدلون عليها بان الكوكب الأسفل يكسف الأعلى والكاسف يكون تحت المكسوف هذا ملخص علم أولئك العلماء (ولقد ظهر أثر هذا فى انجيل برنابا) وهو أقرب الأناجيل الى الحق

(قال المسيح الحق أقول) ان السموات تسع موضوعة بينها السيارات التى تبعد احداها عن الأخرى مسيرة رجل خمسمائة سنة وكذلك الأرض على مسيرة خمسمائة سنة من السماء الأولى ولكن قف عند قياس السماء الأولى التى تزيد عن الأرض برمتها كما تزيد الأرض عن حبة رمل وهكذا تزيد السماء الثانية عن الأولى والثالثة عن الثانية وهلم جرا حتى السماء الأخيرة كل منها تزيد عما تليها * والحق أقول لك ان الجنة أكبر من الأرض برمتها والسموات برمتها كما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل * ثم قال فى الانجيل حينئذ جاء الملاك جبريل ليسوع واراه مرآة براقة كالشمس رأى فيها هذه الكلمات لعمرى أنا الابدى كما ان الجنة أكبر من السموات برمتها والأرض وكما ان الارض برمتها أكبر من حبة رمل هكذا أنا أكبر من الجنة بل أكثر كثيرا من ذلك عدد حبوب رمل البحر وقطرات الماء فى البحر وعشب الارض وأوراق الاشجار وجلود الحيوانات بل أكثر من ذلك كثيرا عدد حبوب الرمل التى تملأ السموات والجنة بل أكثر اه (هذا ما فى كلام القدماء وما فى الانجيل) ثم ان فلسفة اليونان نقلت الى العربية على يدى الفارابى والشيخ الرئيس ابن سينا وقررت ان الافلاك تسعة فوثق بذلك علماء الاسلام الذين درسوها وقالوا هى سبع سموات والكرسى والعرش فالسموات السبع تقدم ذكرها والكرسى فلك الثوابت والعرش هو الفلك المحيط الذى به الحركة اليومية لسائر الافلاك وبها الشروق والغروب

مضت قرون فاستيقظ أجلة العلماء وكبار الحكماء من الامة الاسلامية ورأوا ان هذا المذهب باطل لمخالفته الشرع والعقل وقالوا ان القول بان السموات سبع فى القرآن ليس حاصرا فالعدد ليس له مفهوم فاذا قال الرجل عندى فرسان لا ينافى أن يكون عنده ألف وهذه الافلاك القديمة لا يمكن فناؤها عندهم وكذلك الكواكب وهذا مخالف للعقل والدين معا وقالوا ان الارض تدور حول نفسها وليس هناك فلك أطلس ولا غيره وانما هذه الكواكب دائرات فى الفضاء

وهذه الآراء كانت فى القرن السادس والسابع أيام انقراض الدولة العربية وظهور الدول التركية وغيرها

ولقد كان ذلك توطئة للرأى الحديث الذى ملأ الآفاق وعرفه الخاص والعام وملخصه

ان هذه العوالم كلها من شموس وأقمار وأرضين كانت فى قديم الزمان كالدخان المنتشر سريعة الحركات فبسرعة الحركة آلاف آلاف من السنين تكونت الشموس ودارت ملايين من السنين ثم انفصلت عنها السيارات وشمسنا احدى تلك الشموس فولدت عطارد والزهرة والارض والمريخ والمشترى وزحل وأورانوس ونبتون فهذه ثمان سيارات ثم انهم وجدوا بين المريخ والمشترى نحو ٦٠٠ نجمة صغيرة جدا ولو اجتمعت كلها لم تصل لمقدار جرم القمر وأكبرها المسماة (سرس) لا يزيد قطرها عن خمسمائة ميل وبعضها لا يزيد قطره عن عشرة أميال وربما كان هناك نجمات أصغر منها لا يمكن رؤيتها

ثم ان هذه السيارات تدور حول الشمس فعطارد يتم دورته فى ٢٨ يوما من أيامنا والزهرة فى ٢٢٦ والمريخ فى ٣٢١ والأرض فى سنة والمشترى فى ١١ سنة و ٣١٣ يوما وزحل فى ٢٩ سنة و ١٦٧ يوما وأورانوس

فى ٤٨ سنة و ٧ أيام ونبتون فى ١٦٨ سنة و ٢٤٨ يوما ويظن أن هناك سيارات أخرى حول الشمس لم تظهر

ومن عجائب العلم وغرائبه أن علماء العصر الحاضر بحثوا عن تلك النجيمات الصغيرات التى بين المشترى والمريخ بسبب القاعدة التى وضعوها لبعد السيارات عن الشمس فانهم رأوا انها هكذا

	العدد	يضاف اليه	يكون المجموع	يضرب فى ٩	مليون ميل
عطارد	٠	٤	٤	× ٩ = ٣٦	»
الزهرة	٣	٤	٧	× ٩ = ٦٣	»
الارض	٦	٤	١٠	× ٩ = ٩٠	»
المريخ	١٢	٤	١٦	× ٩ = ١٤٤	»
٠٠٠٠	٢٤	٤	٢٨	× ٩ = ٢٥٢	»
المشترى	٤٨	٤	٥٢	× ٩ = ٤٦٨	»
زحل	٩٦	٤	١٠٠	× ٩ = ٩٠٠	»
أورانوس	١٩٢	٤	١٩٦	× ٩ = ١٧١٤	»
نبتون	٢٨٤	٤	٢٨٨	× ٩ = ٢٥٩٢	»

هذه هى ابعاد السيارات عن الشمس أى انها منظمة تنظيما تقريبيا * فاذا بعد عطارد عنها ٣٦ مليون ميل فقد فرضوا ان بعده ٤ بعد الصفر وهكذا الزهرة ٣ والارض ٦ والمريخ ١٢ بطريق التضعيف ويضاف لكل ضعف ٤ وهذا العدد يضرب فى ٩ مليون ميل فلما وصلوا الى ما بين المريخ والمشترى وجدوا هناك مكانا خاليا فكان يجب أن يكون فيه كوكب فلما وجدوا تلك النجمات المتقدمة ظنوها شظايا من تلك النجمة البائدة (واعلم) ان هذه الارقام الدالة على الاميال تقريبية فان بعد الزهرة ٦٧ وبعد الارض ٩٣ وبعد المريخ ١٤٣ وبعد المشترى ٤٨٤ وبعد زحل ٨٨٧ وبعد أورانوس ١٧٨٢ وبعد نبتون ٢٧٩٢ وهى تختلف عن الجدول السابق قليلا وهذه الاعداد ملايين الاميال

واعلم ان الزهرة وعطارد هما السياران الادنيان لان فلكهما ضمن فلك الارض أما بقية السيارات فتسمى السيارات العليا لان فلكها خارج عن فلك الارض هذا ما أردت ذكره فى المجموعة الشمسية

أما الكواكب الثابتة فانها لا يحصر عددها الا الله ولقد بحثها العلماء فوصلوا منها الى معرفة مئات الملايين بالمنظار المعظم وبالآلة الراسمة المسماة فتوغرافيا

واعلم ان نور الشمس يصل الى الارض فى ٨ دقائق و ١٨ ثانية ولو أن أسرع قطار جرى من الارض الى الشمس ليلا ونهارا لم يتمكن من وصوله اليها فى أقل من ثلثمائة وخمسين سنة وأنا ذكرت لك هذا لتعلم مقدار عظمة الله عز وجل وتفهم ما سأذكره لك فى أبعاد النجوم الثوابت

واعلم ان نور الشمس يسير فى الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل وفى السنة ٦ بليون

واعلم أن أقرب نجم يصل نوره الينا فى ٤ سنين نورية فاذا كان ضوء الشمس يصل لنا فى ٨ دقائق و ١٨ ثانية وبعدها عظيم جدا فما بالك باقرب كوكب ثابت وهو ٤ سنين وأين ٨ دقائق من ٤ سنين ومن الكواكب ما لا يصل ضوؤه الينا فى أقل من ألف سنة نورية والشعرى العبور يصل ضوؤها الينا فى ٩ سنين نورية والنسر الطائر يصل ضوؤه الينا فى ١٤ سنة نورية والنسر الواقع فى ٣٠ سنة والعيوق فى ٣٢ سنة والسماك الرامح فى ٥٠ سنة

واعلم انهم قسموا الكواكب الثابتة باعتبار ضوئها فما كان منها أضوأ سموه القدر الاول وما يليه القدر الثانى والقدماء أوصلوها الى ستة أقدار والمحدثون أوصلوها الى ٢٠

فالقدر الاول ضوؤه كامل وعدد نجومه ٤ منها الشعرى العبور والنسر الواقع والسماك الرامح
والقدر الثانى عدده ٢٧ نجما ومنها سعد السعود
والقدر الثالث عدده ٧٣ نجما منها الفرقدان
والقدر الرابع عدده ١٨٩ والقدر الخامس ٦٥٠ والقدر السادس ٢٢٠٠ وهكذا يتزايد العدد و يقل الضوء فيكون القدر العشرون ٧٦ مليونا وضوؤها ضعيف جدا ومجموع الذى علمه نوع الانسان الى الآن ٢٢٤ مليونا من النجوم
هذا هو الذى عرفه الانسان من السموات
فقايس رعاك الله بين ما ذكره علماء الاسكندرية وما جاء فى انجيل برنابا و بين ما عرفه الانسان الآن * ان عظمة الله تجلت فى هذا الزمان ألا ترى الى ما جاء فى الانجيل مما أشبه كلام القدماء ان بين كل سماء وأخرى خمسمائة عام * وذكر ان السموات تسع وهى عند المسلمين سبع يزيد عليها الكرسى والعرش فيكون مجموع المسافات ٤٥٠٠ سنة بسفر الانسان وهو قدر يسير جدا بالنسبة لما عرف الآن * ألا ترى ان هذه المسافة يقطعها الضوء فى أقل من أربع دقائق فكأن ملك الله المعلوم للناس فيما مضى لا يزيد عن نصف المسافة بيننا و بين الشمس البالغة ٨ دقائق وثوانى وأى شئ بعد الشمس ان بعدها يسير جدا ان الشمس لقريبة وأين ثمان دقائق من ٤ سنين التى هى لأقرب كوكب ثابت بل أين بعدها من بعد الكوكب الذى يستغرق ألف سنة فى وصول ضوئه الينا (تاهت العقول وزاغت الابصار وحارت الأفكار) فأين ما ذكره الأقدمون من عظمة الله تعالى التى عرفت وانك لو أردت أن تعرف مقدار الزمن الذى يصل فيه ضوء الكواكب الينا ونحن نشاهدها كل ليلة لم نشك ان كثيرا منها سافر ضوؤها الينا قبل خلق الارض حتى وصل الى أعيننا الآن ومنها كواكب قد بادت وهلكت قبل خلق الارض واندرست معالمها ومع ذلك نحن الآن نشاهد ضوءها الذى أرسلته قبل خفائها وهو مسافر الينا

(أسئلة وردت على المؤلف)

ولما وصلت الى هذا المقام زارنى عالم فاضل فاطلع على ما كتبته فسر وقال لله درك فقد أثبت جلال الله وجماله وعجائب صنعه ولكنك فى الحال قد خالفت القرآن فقلت وكيف ذلك
قال انك ترى ان الكواكب تسير فى الفضاء لأن هذا هو الرأى الحديث * فقلت ان من يقول ان الكواكب تسير فى الفضاء ليس عالما بالرأى الحديث ولا القديم * أما القدماء فانهم أثبتوا انه لا فضاء موجود وقالوا ان الخلاء مستحيل لأننا اذا تصورنا مكانا خاليا لا يخلو اما أن نتصوره مضيئا أو مظلما والضوء والظلمة اما عرضان أو جوهران أو أحدهما عرض والثانى جوهر فان كانا جوهرين فبها وان كانا عرضين فالعرض لا يقوم الا بجوهر وان كان أحدهما عرضا والآخر جوهرا فالامر واضح فثبت انه لا فراغ موجود فى الكون
وأما المحدثون فقالوا ان الضوء يصل من الكواكب الى الارض ولا بد أن يكون محمولا على جرم (وعلى هذه النظرية اخترعوا التلغراف الذى لا سلك له) فثبت انه لا فراغ فى الكون عند القدماء ولا عند المحدثين * فمن قال ان الكواكب تسير فى فضاء فانه جاهل بعلوم العالم أجمع وهم صغار الطلبة المغرورون فقال سلمت ان الكواكب تجرى فى أجرام موجودة ولكن كيف يقول الله ان السموات سبع فقلت له اذا أثبت وجود الجرم الأثيرى اللطيف الذى تجرى فيه الكواكب فما أسهل فهم القرآن * واعلم أن العدد ليس له مفهوم وبه قال أكابر المفسرين والحكماء فاذا قال الله سبع سموات فليس ذلك بمانع أن يكون العدد أكثر واذا عرفت أن هذا الجرم اللطيف العجيب الممتد الى أمد ينقطع الفكر دونه ومجال لا يصل اليه الوهم فيه من العجائب والبدائع والكواكب والمخلوقات ما لا يحصى فسواء أكان سبعا أم ألفا فذلك كله من فعل الله دال على جماله وكماله وهو تجلياته وأنواره المشرقة المتلألئة الفائضة من

مقام

مقام القدس الاعلى متنزلة فى العوالم وكل كوكب من الكواكب الجارية له مدار خاص به وكل شمس من الشموس التى ذكرناها لها مدار خاص وسياراتها كذلك والله هو الفاعل المختار مفيض الخيرات والجمال والحسن والاشراق

قال الامام الغزالى فى كتاب تهافت الفلاسفة

(اذا ثبت حدوث العالم فسواء أكان كرة أو مثمنا أو مسدسا وسواء أكانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة كما قالوا أو أقل أو أكثر فنسبة النظر فيه الى البحث الالهى كنسبة النظر الى طبقات البصل وعددها وعدد حب الرمان فالمقصود كونها من فعل الله فقط كيفما كانت)

أقول اياك أن يصدك أيها الفطن لفظ سبع عن البحث والتنقيب فالعدد ليس بقيد وتفرج على هذا الجمال ولا تكن من الخائفين الجبناء الذين يظنون ان هذا ينافى القرآن أو تكون من المساكين الذين يلحدون و يكفرون لسماع مثل هذا اللفظ وذلك لسخافة عقولهم وقلة علمهم وهذان الفريقان من الذين قال الله فيهم (يضل به كثيرا) فقال صاحبى اذن أنت تؤيد المذهب الحديث فقلت له حاشا لله أن أؤيد حديثا أو قديما وانما القرآن طبقناه على المذهب القديم ثم ظهر بطلان ذلك المذهب وجاء الحديث فوجدناه أقرب اليه والا فهو أعلى منهما وأعظم ومايدرينا أن يكون هناك مذاهب ستحدث فى المستقبل (فهل القرآن كرة بصوالجة يتلقفها رجل رجل) كلا انما هذا التطبيق الذى ذكرته ليطمئن قلب المسلم وليعلم أن عمل الله وصنعه لا ينافى كلامه فالتطبيق للاطمئنان

فقال ولم كان المذهب الحديث أقرب الى القرآن قلت

﴿أولا﴾ جاء فى القرآن (و يخلق مالا تعلمون) والمذهب الحديث أراناسعة مخلوقاته وانها لاتدرك

﴿ثانيا﴾ كان القدماء يقولون الكواكب والافلاك لا تفنى والرأى الحديث يقول ان الكواكب تتجدد وتفنى كالانسان والحيوان وقالوا انهم رصدوا كواكب لا تزال فى طور التكوّن وذكروا منها نحو ستين وأن كواكب قد فنيت يقول الله (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) ومنها ذلك الكوكب الذى بين المشترى والمريخ وصار كواكب صغيرة جدا فهذا أقرب الى القرآن لقوله تعالى (كل من عليها فان و يبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) وروى أنه عليه الصلاة والسلام حين عرج به الى السماء رأى ملائكة فى موضع بمنزلة سوق بعضهم يمشى تجاه بعض فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل وقال الى أين يذهبون فقال جبريل عليه السلام لا أدرى الا أنى أراهم مذ خلقت ولا أرى واحدا منهم قد رأيته قبل ذلك ثم سألوا واحدا منهم وقيل له مذ كم خلقت فقال لا أدرى غير أن الله تعالى يخلق كوكبا فى كل أربعمائة ألف سنة فخلق مثل ذلك الكوكب مذ خلقنى أربعمائة ألف مرة فسبحانه من اله ما أعظم شأنه وأجلّ قدرته

فقال صاحبى ماملخص مامضى فقلت

﴿أولا﴾ أن السماء يراها الناس واحدة

﴿ثانيا﴾ ان الدين جعلها سبعة والفلاسفة جعلوها تسعة

﴿ثالثا﴾ المسلمون القدماء جعلوا سبعة منها سموات والكرسى والعرش هما الفلكان الباقيان والانجيل برنابا قال تسع سموات والمذهب القديم أبطل

﴿رابعا﴾ أن المذهب الحديث أبان أن عظمة الله فوق ماذكره القدماء وأصبح ما كان عند القدماء بالنسبة للعلم الحديث أشبه بذرة بالنسبة للارض والجبال والبحار بل أقل كثيرا جدا

﴿خامسا﴾ العالم لافراغ فيه فالسموات موجودة فعلا ببراهين القدماء والمحدثين

﴿سادسا﴾ وهى سبع سموات وذلك حق لانها طباق بعضها فوق بعض

﴿سابعا﴾ المذهب الحديث يثبت فناء العالم وفناء الكواكب وهو موافق للقرآن

﴿ثامنا﴾ ان ماقلناه ليس القصد منه أن يخضع القرآن للمباحث فانه ربما يبطل المذهب

الحديث كابطل القديم فالقرآن فوق الجميع وانما التطبيق ليأنس المؤمنون بالعلم ولاينفروا منه لمخالفته لالفاظ القرآن فى نظرهم

فقال صاحبي قد أفدت افادة تامة ولم يبق عندى الاسؤال واحد وهو لم عبر الله بسبع سموات ولم يعبر بسماء واحدة مع ان الناس لم يروا غيرها

قلت اعلم أن الله لوذكر سماء واحدة لوقفت عقول المسلمين عليها ولم يبحثوا عن غيرها ولكنهم لما سمعوها أخذوا يقرؤن فلسفة اليونان ثم قرأنا الفلسفة الحديثة فعرفنا نعمة الله وحكمته والتعبير بالسبع امتحان وابتلاء من الله لانها تحير عقول الباحثين فمن كان مريض النفس صغير العقل ضئيل الفكر جبن وجزع وخاف وقال انى أخاف الله رب العالمين * فلايبحث فى العوالم ويظن أن الله يغضب على من بحث من المؤمنين فى جمال جلاله ومن قويت عزيمته وعلت همته وارتقت نفسه فانه يبحث و يعرف فعل الله عزوجل و يقول فى نفسه ان هذا فعل الله وأنا أقرأ كلامه وكلاهما دال عليه * وقوله لايناقض فعله الا عند الجاهلين

أما أنا فانى أبحث صنعته و بعد ذلك أطبقها على كلامه بهذا فليرتق المسلمون وليتعلموا فكم من ذكى مسلم قرأ العلوم الحديثة وكفر بالدين ظانا المسكين انه نال من العلم ماجهله الأنبياء وكم من غبى مسلم اطلع على هذه المباحث فنفر منها لاعتقاده أنها تنافى الدين ﴿والحق أقول﴾ ان قليلا من الأذكياء المسلمين من يصدقون بالدين مع العلوم وأكثر المصدقين بالدين من الجهلاء وعلماء الدين * أما أكثر المتعلمين العصريين فانهم يقولون الدين شئ والعلوم شئ

ولقد أفضت فى هذا المقام لدقته على الافهام ولانه فى أعظم النعم الالهية التى أنعم الله بها على الانسان وقد كفر بها مع وضوحها وظهورها فلذلك أعقبها بالكلام على قصة آدم فى المقصد السادس

(المقصد السادس)

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّى أَعْلَمُ مالا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْماءِ هٰؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ * قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ * وَقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فِيهِ وَقُلْنا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعًا فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ

تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

يقول واذكر اذقال ربك للملائكة الارضيين أو عموم الملائكة انى جاعل فى الارض خليفة وهو آدم وهكذا الانبياء فهم خلفاء الله فى سياسة العباد وهدايتهم لبعد مراتبهم عن الفيض الالهى فكان الانبياء واسطة القبول من الحق والايصال للخلق كما كان الغضروف موصلا للعظم الغذاء الذى يعجز اللحم أن يوصله اليه لتباعد ما بينهما من المناسبة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فتجعل أهل المعصية مكان أهل الطاعة والتسبيح تبعيد الله عن النقصان من سبح فى الماء والارض وكذلك التقديس من قدس فى الارض اذا ذهب فيها وأبعد وتعليمه الاسماء كلها بان خلق من أجزاء مختلفة وقوى متباينة وهو مستعد لادراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات وألهمه المعرفة والاختراع وسائر الصناعات وهو متى عرف الالفاظ كلها عرف المعانى كلها ثم عرض المسميات على الملائكة وقال لهم تبكيتا (أنبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) فمن لم يقدر على معرفة مراتب الاشياء لا يستحق أن يكون خليفة عليها (قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا) وهو اعتراف بالعجز وأمر آدم أن ينبئهم باسماء الاشياء كلها فلما علمهم قال الله لهم (ألم أقل لكم الخ) وقوله (وأعلم ما تبدون) أى من قولكم أتجعل فيها من يفسد فيها (وما كنتم تكتمون) من قولكم انكم أحق بالخلافة وسجود الملائكة لآدم تسخيرهم وانقيادهم للسعى لمنافع آدم وبنيه فى ما يكمل معاشهم فسجدوا وامتنع ابليس لانه لا يلهم بالخير كالملائكة ولا يسعى فى المنافع المعاشية فأبى امتنع باختيار وكان كفره فى علم الله ثم أمر آدم أن يسكن فى الجنة هو وزوجته وأن يأكلا رغدا واسعا حيث يشاآن ونهيا عن الاقتراب من شجرة لا يهم تعيينها للناس فحملهما الشيطان على الزلة بسببها فأخرجهما مما كانا فيه من الكرامة فأمر آدم وحواء وذريتهما بان يهبطوا الى الارض وهم متعادون ولهم فى الارض موضع استقرار وتمتع الى وقت الموت (فتلقى آدم من ربه كلمات)
منها أنه قال يارب ان تبت وأصلحت أراجعى أنت الى الجنة قال نعم فتاب آدم فتاب الله عليه رجع عليه بالرحمة وقوله (فمن تبع هداى الخ) أى بانزال الرسل فلا خوف عليهم الخ
ما أعجب هذه الآيات وما أبدعها أنا الآن فى أول سورة قرآنية من حيث النظام والترتيب ابتدأ بآدم أبى البشر وجعله مبدأ لنظام الانسان وتعجب لم يتقدم عليها غيرها ولم يصدر القرآن من السير الا بها ولعلك تقول انها قصة أبيهم والاب مقدم طبعا فقدم وضعا ﴿أقول هذه أدلة المصنفين المحدثين وأجوبة بعض الخلف الجاهلين﴾ وليست هذه النكات الصغيرة المبتذلة الضئيلة تليق برب الارباب العالم بالجزئيات والكليات فاصغ لما أقول السمع وارعه حق رعايته واعلم ان هذه القصة نموذج علم الاخلاق والحكمة ﴿ولنقدم لك مقدمة فنقول﴾
اعلم أن الحكمة تنقسم الى علمية وعملية والعلمية الرياضيات والطبيعيات والالهيات والعملية سياسة الشخص والمنزل والمدينة والطبيعيات قدم وصفها فى خلق الأرض والسماء والالهيات تلازمها ملازمة العرض للجوهر والظل للشبح والنتيجة للمقدمة والملزوم للازم * فاما الحكمة العملية وهى تدبير الشخص والمنزل والمدينة فلها أصول ثلاثة فى الانسان وهى القوة الشهوية والقوة الغضبية والقوة العقلية فبالشهوة الطعام والشراب والتزوج وبالغضبية الاقدام والحرب والكفاح والكبر والعجب والحسد وما أشبهها وبالقوة العقلية الحكمة والعلم * ومن أعجب العجب أن تشتمل قصة آدم على هذا العلم بحذافيره ألم تر الى حسد ابليس وطغيانه وتكبره واستعظامه واستطارة شرر النار من كبريائه وعظمته وكيف كان ذلك قبسا من القوة الغضبية وشررا من نارها ولهبها وسعيرا من جهنمها ثم كيف حرم آدم وحواء من الجنة بثمرة أكلاها وطردا منها بنار جوعة أطفآها واستمرأ مرعاها فخرجا منها نادمين وكانا فى الجنة منعمين أليس أولهما اشارة لغضب الانسان وثانيهما لشهوانه * وأما العلم فقد سطع نوره ونجم كوكبه وبزغت

شمسه فى منازل قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة) ثم سخرت له السموات والارضون والبر والبحر والروض والقفر والجبل والسهل فعلم الأسماء والصفات وخواص المخلوقات ليعرفها وتنفعه * ولذلك يقول (وعلم آدم الأسماء الخ) وحوى بمن سخرت له الافلاك وقامت بنظامها الاملاك ومن سجدت له العوالم سجود تسخير وقامت له تعظيما بالتدبير أن يتحلى بالعرفان ليفهمها وينطق باللغات وينظمها ودعت حاجته الى العوالم فهاله مبدعه فصورتها العقول وخزنتها القلوب ونطقت بها الألسن والشفاه فههنا ظهرت عجائب القرآن وبدائع الفرقان وكيف كان هذا القصص مبدأه انها لاية بديعة وحكمة عجيبة تدعو للنظر فى علم الاخلاق والبحث فى أغوارها والتنقيب عن أسرارها

(الله والملائكة وآدم خليفته)

اعلم أن فى هذه القصة عجبا عجيبا ذلك أنه ذكر الرب والملائكة وآدم وأنه خليفة فى قوله (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة) ـ فنحتاج أن نبين آدم وخلافته والملائكة فنقول ـ ان معرفة الله عز وجل وملائكته تجل عن العقول وتدق عن الأفهام وليس يتم ذلك للانسان الا بمثال يعرفه وشاهد يعقله ويحس به من نفسه لأننا فى هذه الدنيا محجوبون عن الملأ الأعلا وأقرب الأشياء الينا أنفسنا فمن فكر فيها رأى شواهد تشير بطرف خفى الى مافى هذا العالم المشاهد والمعقول لذلك كان الانسان خليفة الله ومتى أدركنا أنفسنا عرفنا خلافتها واقتربنا من فهم الملائكة وتدبير الله للخلق ـ ولقد اعتاد الفلاسفة أن يبينوا ذلك بشواهد كما قال سقراط لتلميذه وقد سأله ما الذى يعرفنا أن فى هذه العوالم عقولا فأجاب أليس جسمك مركبا من مواد ترابية وأخرى مائية وهواء وحرارة قال بلى ـ قال فاذا كانت تلك الأجزاء الضئيلة التى تركبت منها صحبها عقل وخاصها فكر فكيف يحرم من العقل والفكر تلك العوالم الكبيرة من الماء والتراب والهواء وعالم النور والنار ـ لاجرم ان من حكم بان له عقلا وقد علم انه من مواد ضئيلة لايستكثر على الأصول التى تركب منها أن يحكم انه يحيط بها عقل ـ أما فى القرآن هنا فقد ذكر خلافة الانسان لله والخلافة تحتاج الى شرح طويل وعلم غزير وانى سألخص لك أيها الفطن هنا قليلا من كثير لنكتفى به خيفة السآمة والتطويل

اعلم أن علماءنا السابقين شرحوا جسم الانسان ونفسه فجعلوه مشبها للعوالم المحيطة بنا والنفس متصرفة فيه تصرف الله عز وجل فى العوالم فقالوا ان الجسم أربع طبقات طبقة تشبه الأرض وأخرى تشبه الماء المحيط بها وأخرى تشبه الهواء وأخرى أشبه بضوء الكواكب واشراقها فاذا كانت الأرض أسفل والماء يحيط بها والهواء يحويه والضوء مشرق فوق الجميع سائر من الشمس والكواكب الينا هكذا نرى الرجلين والفخذين يستقر عليهما مافوقهما مما فيه الماء المخلوط بغيره وهى الامعاء والمعدة وفوق ذلك الهواء الداخل فى الرئتين وفوق الجميع نور العينين وسمع الأذنين وشم المنخرين وذوق اللسان ولمس اليد ونور الفكر وهذه هى المشرقات اشراقا على الجسم للاحساس والادراك كاشراق أضواء الكواكب بل هى أرق وأشرف واذا كان فى هذه العوالم بخارات ورياح وسحاب وأمطار وحيوان ونبات ومعادن هكذا نرى انه من هذا الجسد يخرج المخاط والدموع والبصاق وفيه الرياح والرطوبات فالجسد كالأرض وعظامه كالجبال والمخ كالمعدن والجوف كالبحر والامعاء كالانهار والعروق كالجداول واللحم كالتراب والشعر كالنبات ومنبته كالتربة الطيبة ومالا نبات فيه كالأرض السبخة وتنفسه كالرياح وكلامه كالرعد وأصواته كالصواعق وضحكه كالضوء وبكاؤه كالمطر وبؤسه وحزنه كظلمة الليل والنوم كالموت واليقظة كالحياة وأيام صباه كفصل الربيع وشبابه كالصيف وكهولته كالخريف وشيخوخته كأيام الشتاء ـ هذه نبذة من الكلام على جسمه وبنية هيكله ـ أما نفسه فاعلم أن للنفوس قوى كثيرة لايحيط بها العد ولايعرفها الا مبدعها وهى مختلفات

فترى ان النفس أشبه بملك له خمس فرق موكلات بالاخبار كل فرقة تأتى بأخبار ناحيتها لا تشاركها الفرقة الاخرى ولا تعاونها ولا تعرف عنها شيأ * فترى حاسة البصر تدرك الالوان والحركات والسكنات والظلمات والنور والكواكب البعيدة والاجرام المشرقة والاذن لا تعرف شيأ عنها ولا تدرك الا حركات الهواء المسماة أصواتا من حيوان أو نبات أو انسان أو غيرهما وحاسة الشم التى فى المنخرين ليست تعرف صورا ولا أصواتا ولكنها تدرك الروائح المنبثة فى الهواء الجارية فى الانف السارية فى الحاسة المتصلة بالمخ ثم حاسة الذوق التى تعرف الطعوم من الحلاوة والمرارة والحموضة والملوحة والدسومة والعفوصة والحرافة والقبوضة والعذوبة وهى لا تعلم شيأ من الصور والانوار والاصوات والروائح ــ ثم حاسة اللمس التى تدرك الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة وليست تعرف شيأ مما تقدم وكل حاسة من هذه توصل أخبارها الى أولئك الوزراء والكبراء والعظماء الذين هم متعاونون متشاركون متحابون فأولها القوة المتخيلة التى تجتمع عندها هذه الصور من المرئيات والمسموعات والمشمومات والمذوقات وتسلمها الى القوة المفكرة لتحكم بينها ثم تجعلها فى خزانة الى وقت الحاجة وهى القوة الحافظة ــ ثم يأتى الترجمان وهو اللسان فيعبر عنها جميعها بكلمات ــ ثم تأتى قوة أخرى أشبه بالوزير للملك وهى القوة الصانعة فى اليد بالكتابة والصناعة ــ فانظر أيها الذكى وتعجب أفلست ترى ان النفس الانسانية ذات ملك وسلطان على عالم جسمانى وآخر معنوى والجسمانى شابه العوالم المحيطة بنا وكأنه نموذج لها ــ ولست أقول انى أبنت لك كل شئ ولكنك تستدل به على الباقى بفكرك ودراستك واعلم أن الذين لم يمارسوا العلوم لا يعقلون ماذكرت الا تخيلا ولا يدركونه الا من وراء حجاب

(اجتماع خصائص الحيوان فى الانسان)

ان لكل نوع من أنواع الحيوان خاصية طبع عليها وكلها توجد فى الانسان فتراه يطلب المنافع * تارة بالبصبصة كالكلب والسنور * وتارة بالحيلة كالعنكبوت * وتارة بالغلبة كالأسد وتراه يفر من الهلاك كالأرانب والظباء والطير وقد يدفع بالسلاح كالقنفذ وقد يتحصن فى الارض كالفأر والهوام وهو شجاع كالأسد وجبان كالأرنب وسخى كالديك وبخيل كالكلب وعفيف كالسمك وفخور كالغراب ووحشى كالنمر وانسى كالحمام ومحتال كالثعلب وسليم كالغنم وسريع كالغزال وبطىء كالدب وعزيز كالفيل وذليل كالجمل ولص كالعقعق وتائه كالطاووس وهاد كالقطا وضال كالنعامة وماهر كالنحل وحليم كالجمل وحقود كالجمل وشموس كالبغل ومستحل كالذئب ومضر كالفأر وجهول كالخنزير وغير ذلك وهذه كلها راجعة الى أخلاقه التى اكتسبها بالبيئة والتعليم والميراث وغير ذلك ــ ثم اعلم ان القوى المنبثة فى الجسم السارية فى الاعضاء وأجزائها من اللحم والعروق والاعصاب والعظام والدم والشعر والظفر كثيرة لا يحصيها الانسان وأنها جميعها متصلة بالمخ الذى هو عرش النفس وسرير ملكها * ألا ترى انه لو قطع عصب العين فلم يتصل بالمخ لم ير الانسان الاشباح مع سلامة عينه وصحة جسمه * أولا ترى ان الذى به شلل لا يحس بوخز الأبر فى العضو الاشل ذلك لقطع الصلة بين ذلك العضو وبين المخ ــ هذه هى صورة الانسان الحسية والمعنوية وهو الخليفة لله وبمعرفة هذا الخليفة تتصور بعض صفات المستخلف وتدبيره وملائكته ــ النفس واحدة تشرف على الجسم كذلك الله واحد يشرف على العالم ــ النفس لها طبقات يابسة وأخرى مائية وأخرى هوائية وأخرى مضيئة هكذا كان لله أرض وماء وهواء وشمس وكواكب ــ النفس لها حواس كل منها له عالم مخصوص من العوالم وليس يدرك أحدها العالم الآخر * هكذا خلق الله عز وجل أمما ودولا وجعل ديانات ومذاهب ولغات مختلفات وأمما من الحيوانات وكل يعمل على شاكلته ولا يدرى الآخر ما لديه كما لا يدرى عالم الماء ولا عالم الارض عالم الكواكب الاخرى ولا عالم القردة مثلا عالم الفراش ونرى أهل الارض لا يعرفون سكان أى عالم آخر وكلها عاملة ناصبة راجعة الى ربها كما رجعت الحواس الى نفوسنا ــ هذا ولا أطيل عليك فى تعداد تلك المشاكلات فعقلك

يفكر ونفسك تستبصر - واذا كان فى سائر أعضاء الجسد قوى لطيفة معنوية منبثة سارية فى جميع الجسم مرتبطة بالنفس المستوية على عرش الجسم فى المخ هكذا نقول لله ملائكة مأمورون مقابلة لتلك القوى فى أجسامنا - وبيانه أنك ترى الطعام يصير فى المعدة كيموسا ثم ينقلب دما فلحما فعظما الخ * وتصور هنالك صور منتظمة بدقة كطبقات العين والمخ ودقائق تركيبهما وهذه تكون بقوى لطيفة هكذا جرى الكواكب والشمس والقمر ونحو النبات والحيوان كل ذلك بعالم خفى عن الابصار يسمى ملائكة مرسلة من الله فى العوالم كما ثبتت تلك القوى فى أجسامنا من عند أنفسنا - وكما أن النفس تحس بكل حركة فى الجسم وألم فى العظام وفكر فى النفس هكذا الله تعالى يحيط بالعالم ويعلم سره وجهره - هذا ولا كتنف بهذا القدر فقد أبنت لك كيف كان الانسان خليفة بما أبنت من تشابه جسمه ونفسه للعالم المنظور والملائكة وعرفت أنه مثال لعلم الله كل شئ وتدبيره للعالم ووحدانيته وذلك بما تحسه من نفسك - وانما ذكرت لك هذا لتكون نبصرة وذكرى عندما تصل الى آيات أخرى فى القرآن كقوله تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وقوله (بل الانسان على نفسه بصيرة) وكأن الانسان فى الارض عالم صغير يضاهى هذا العالم الكبير ولذلك سمى خليفة فكانت الخلافة المذكورة هنا مذكورة ليكون منها استنتاج التبصر فى عالم الملائكة ومعرفة الله ولتبنى المحاورة المذكورة عليها وهى (انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) الخ - واعلم ان هذه الآية كما جمعت ملخص علم النفس والتشريح فى لفظ خليفة جمعت علم الاخلاق فى هذه المحاورة وهى (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون)

(تفصيل الكلام على الملائكة)

هاأناذا قد أبنت لك طرفا من علم التشريح وعلم النفس وذكرت لك أن القوى التى فى نفوسنا تمثيل للملائكة وهذا ليس دليلا وانما هو استئناس بضرب الامثال والمشابهات ولا سمعك دليلا اقناعيا لا يقينيا على وجود عالم الملائكة قبل ذكر آراء نوع الانسان من الامم المختلفة والاجيال البائدة وهذا الدليل استنتجه العقلاء من المشاهدات ومن العوالم المحيطة بنا . انظر الى عالم المعادن والنبات والحيوان والانسان فانها كلما انحطت فى دركات الجهالة كانت منازلها فى الدركات السفلى وكلما ارتقت الى عالم العقل كانت فى أوج الكمال فخذ الحديد مثلا انه أدنى مرتبة من الحشرات والديدان وهى أقل مرتبة من الآساد والنمور وهى أقل كمالا من القردة وهى أنقص من المتوحشين من بنى آدم وهؤلاء يعلمهم النابغون من نوع الانسان وهؤلاء يسوسهم العلماء والحكماء والانبياء وهؤلاء أرقاهم مقاما وأحلاهم كلاما ولا جرم ان ذوى الشهوات من الانسان يشاركون نظائرهم من الغزلان والخنازير فى مآربهم ويعلوهم رجال الجيش والجنود المقاتلون لنظائرهم من الآساد والنمور * وهؤلاء يسوسهم الملوك والحكماء والانبياء فانظر كيف ترقى العالم المشاهد من حشرة الى غزال الى أسد الى قرد الى انسان الى حكيم عالم

واذا كان العلم والحكمة أقصى ماوصل اليه نوع الانسان وقد وجدنا الطرف الأدنى من المواليد فى غاية الخسة أفلا يقال على سبيل القياس ان الطرف الاعلى فى غاية الكمال وهى الملائكة ولابد أن تكون قوة الكمال الادراكى تامة فيهم كما انتهى النقص الى نوع الجماد * أو الى الدود الذى هو من أخس أنواع الحيوان وبالاجمال نقول انا وجدناها هنا شهوة بلا عقل فى البهائم ووجدنا شهوة وعقلا فى الانسان * أفلا نقول ان فى الوجود عقلا كاملا بلا شهوة تزرى به

(آراء أهل الديانات والحكماء فى الملائكة)

(فنهم) من ظنها أجساما هوائية لطيفة قادرة على التشكل باشكال مختلفة مسكنها السموات

(ومنهم) من ظن أنها هي المرسلات النحوس والسعود من الكواكب والكواكب أحياء ناطقة كالانسان ومدبراتها هي الملائكة كتدبير نفوسنا لاجسامنا

(ومنهم) من يرى الظلمة عنصر الشياطين والنور عنصر الملائكة

(ومنهم) من يرى ان الملائكة هي الارواح البشرية الصافية وان الشياطين هي الارواح الانسانية الخبيثة اذا فارقا أبدانهما

(ومنهم) من يرى أنها هي المدة لنفوسنا الناطقة ونسبتها اليها كنسبة الشمس الى ضوئها وهناك ملائكة مستغرقة في معرفة الله ونسبتها الى الاولى المدة للافلاك ولنفوسنا كنسبة الاولى الى نفوسنا وهناك مدبرات لاحوال العالم السفلي فان كانت للخير فهي الملائكة وان كانت للشر فهي الشياطين

* فالقول الاول لبعض علماء الاسلام * والثاني لطوائف من عبدة الاوثان * والثالث قول معظم المجوس والثنوية * والرابع للنصارى * والخامس للفلاسفة هذا

ومن الناس من قال لاسبيل الى اثبات الملائكة بالعقل * ومنهم من قال انهم به ثابتون والفلاسفة على هذا وقد ذكر أدلة اقناعية * منها ان الصناعات البشرية لن تتقن الا بصانع ذي عقل عالم بها * والعالم المشاهد حولنا وفيه ذلك الاتقان كالنبات والحيوان فلابد من نفوس تصورت تلك المصنوعات ونفوس أخرى علمت تلك الصناعة * فالاولى تسمى نفوسا * والثانية تسمى عقولا وذلك كما في أحوال الناس ان كل ذي علم أو صناعة لابد أن يكون له معلم أعلى منه أخرج ما في القوة منه الى الفعل

ويقول أصحاب المجاهدات انهم أثبتوها من جهة المكاشفة فهي في حقهم يقين وفي حق غيرهم اقناع * وقد يستدل بالرؤيا الصادقة

ولقد رأيت دليلا في كتاب يسمى راجايوقا بالانجليزية مترجما من الهندية * قال ان الناس يصدقون أصحاب العلوم وان لم يمارسوها لعلمهم انهم ان سلكوا سبيل أربابها وصلوا الى ماوصلوا اليه * ألا ترى ان علماء الطب موثوق بهم في عالم الحيوانات الصغيرة المسماة (بالمكروب) التي تفتك بالاجسام وتأتي بامراض الحصباء والجدري والطاعون كذلك يصدقون علماء الفلك في أبعاد ومقادير الكواكب وتحليلها بطريق الضوء هكذا يقال في أمر الملائكة فقد أجمع المصفون نفوسهم والمجاهدون من سائر الملل والنحل انهم كشفوا ذلك العالم وعرفوه ومن ذوي الحاجات من اعتقد ذلك بما وصل اليهم من بلوغ مقاصدهم عند الاستغاثة بتلك النفوس الشريفة * هذا ملخص ماقرأته من كلام أهل النظر * أما الدلائل النقلية فلا نزاع ان الانبياء متفقون على اثبات الملائكة فلنبسط الكلام عليها الآن لنرجع اليه عند الوصول الى مكرراتها * وحاصله انها مسوقة لعلم الاخلاق المرموز له بكبر ابليس وحرص آدم وحسد قابيل الآتي في سورة المائدة

(بيان علم الاخلاق من قصة آدم وقابيل وهابيل)

ان الاخلاق أربعة أشياء لاتزايل النفس بعد مفارقتها البدن وهذه الاربعة هي

* الاخلاق المكتسبة المعتادة * العلوم التعليمية * الآراء المعتقدة * الأعمال المكتسبة بالاختيار والارادة

والاولى منها وهي الاخلاق المكتسبة تنقسم الى قسمين رديئة وحميدة والاخلاق الرديئة جميعها ترجع الى ثلاثة أصول • كبر ابليس وحرص آدم وحسد قابيل وهذه الخصال الثلاث أمهات جميع الخبائث والمعاصي و بيانه ان الكبر من اشكاله ومشابهاته عجب المرء برأي نفسه والأنفة عن قبول الحق وترك الاقرار به والتعدي والخروج عن الحد والظلم والجور عند القدرة في الحكومة وترك الانصاف في المعاملة والتهاون في الواجبات والاعراض عن اللوازم من الحقوق والقحة والصلابة في الوجه في دفع الحق والفحش والسفاهة في الخطاب

والجدال واللجاج فى الخصومات والحزن والترق فى العشرة والحدة والبطش فى التصرف والغش والمكر فى المعاملة والاستصغار والاحتقار لأبناء الجنس والاستطالة عليهم والافتخار فى الامور بما خص من المواهب والانكار لفضل من فضل عليه والبغى والعدوان وماشابه ذلك هذا باب الكبر

أما الحرص وهو الخصلة الثانية فمن أشكاله وأمثاله ومشابهاته الطمع الكاذب وشدة الرغبة والطلب الحثيث والعجلة فى السعى وتعب البدن وعناء النفس وكدّ الروح فى الجمع والادخار والاستكثار والاحتكار من خوف الفقر والبخل والمنع والشح واللؤم والنكد وما يتبعها من الشؤم والخذلان وقلة الانتفاع بالموجود والحرمان للمذخور والمضايقة فى المعاملة والمناقشة فى الحساب وسوء الظن بالأمين والتهمة للثقات المؤتمنين والخيانة فى الامانة وطلب الحرام وهتك الحرم وارتكاب الفحشاء واضمار القلب على الاصرار واظهار الكذب والحيل فى أسباب الطلب من البيع والشراء والغش فى الامتعة وقلة النصيحة فى الصنائع والحلف واليمين الكاذبة عند الاعتذار فى الحكومات وأقاويل الزور فى أسباب الخصومات والعداوة والتعدى فى الحدود وماشاكلها من الخصال المذمومة والاخلاق الرديئة والأقاويل الباطلة والافعال القبيحة والأعمال السيئة هذا باب الحرص وأخواته

أما الخصلة الثالثة وهى الحسد فمن أشكاله الحقد والغل والدغل وهذه تدعو الى المكاشفة بالعداوة والبغضاء والبغى والغضب والحرص والتعدى والعدوان وقساوة القلب وقلة الرحمة والفظاظة والغلظة والطعن واللغو والفحشاء وهى تكون سببا للخصومة والشر والحرب والقتال ان أمكن جهرا والا كان بالحيل والخداع والغدر والخيانة والسعاية والغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب والمداهنة والنفاق والرياء فيكون سبب تشتيت الشمل وقطيعة الرحم والبعد من الاخوان ومفارقة الالف وخراب الديار ووحشة الوحدة والحزن والغم وألم القلب وهموم النفس وعذاب الارواح وتنغيص العيش وسوء المنقلب وخسران الدنيا والآخرة نعوذ بالله من هذه الخصال اهـ ملخصا من اخوان الصفا

وأنا أقول تعجب كيف فصل علماؤنا الاخلاق السيئة والأعمال القبيحة واستنتجوها من كبر ابليس وحرص آدم وحسد قابيل وانظر كيف كانت قصص القرآن لغايات سامية وعلوم عالية

هذه قصة آدم كيف تكرر ذكرها فى القرآن وجاء فى سور مختلفة ليتلوها المسلمون صباحا ومساء وغاية القصد منها تطهير النفوس وصفاء القلوب وسعادة الحياة واتحاد الأمة بمحاسن الأخلاق فأما العامة وصغار العلماء والقراء والفقهاء فانهم لا حظ لهم منها الا أن يسمعوها بصوت حسن و يعربوها و يعرفوا صرفها واشتقاقها وماحوته من البلاغة والفصاحة وأن القرآن معجز للبشر ﴿وانى لعلى ظن أن أمة الاسلام ستنظر عما قريب فى مقصود القرآن﴾ من هذه القصص وعجائبها ومافى باطنها من طهارة الاخلاق وجمال الشمائل فلعمرى لم أر فى بلادنا المصرية شركة تجارة ناجحة ولا معاملة صادقة ولا أمانة فى بيع وشراء الا قليلا

وأرى أمم الفرنجة هم أصحاب الحل والعقد فى البلاد سياسة وتجارة فتجارتهم رابحة وسياستهم قائمة وترى أماكنهم نظيفة وأسعارهم محددة ووجوههم باسمه ووعودهم صادقة فعلى العلماء الاسلاميين أن ينفضوا غبار الكسل عن أنفسهم ويدعوا الأمة الاسلامية للأمانة والصدق والاخلاص وعدم الحسد وطهارة القلوب هذا هو الطريق المستقيم لسعادتهم فى هذه الدنيا ثم الأخرى ولقد رأيت بعض المصريين المسلمين قد أخذوا يصدقون فى الموعد والمعاملة وسيقوم فى الأمة ان شاء الله رجال صادقون يرقون الاخلاق وسيظهر فضل الاسلام فى أقرب زمن والسلام

﴿ولما كان بنو اسرائيل﴾ من أقدم الأمم وهم بنو آدم أخذ يشرح حالهم و يذم صنعهم وهم ما اعتبروا بما أنزل على آدم من العبر وهم يقرؤن ذلك فى التوراة وماحلى جيده بها الا تذكرة لليهود وليعلموا ان من عصى وتكبر زالت نعمته ودامت حسرته

(المقصد

(المقصد السابع وفيه فصلان)

﴿ الفصل الأول ﴾

ما اقترفه قدماء بنى اسرائيل اليهود وما أوتوا من نعمة فلم يشكروها

﴿ مما جاء فى التوراة فى سفر الخروج وانزال القرآن مصدقا وهى عشرة يواقيت ﴾

(الياقوتة الاولى)

(نجاة بنى اسرائيل من عذاب المصريين فى قوله تعالى :)

يَابَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ * وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * يَابَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ *

(يابنى اسرائيل) أى أولاد يعقوب واسرائيل لقبه ومعناه بالعبرية صفوة الله ويقال عبد الله أيضا (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) من المال والولد والصحة والحواس وانى أنجيت آباءكم من فرعون وأغرقته وعفوت عنهم بعد اتخاذهم العجل ثم انى أرسلت لكم محمدا مصدقا للتوراة فتفكروا فى ذلك كله واشكروا النعمة بالقيام بما وجب فيها بالاعمال الصالحة والنصيحة والايمان بالنبى الذى أرسلته (وأوفوا بعهدى) بالايمان والعمل الصالح بما نصبت من الدلائل الكونية والمعارف الالهية وما أنزلت من الكتب السماوية لاسيما آخرها وهو القرآن (أوف بعهدكم) فأدفع عنكم ما أثقلكم من الاغلال وأحسن لكم الاثابة والكرامة والنعيم المقيم (واياى فارهبون) فى كل ما تتركون وما تفعلون فراقبونى فى حركاتكم وسكناتكم والرهبة خوف يصحبه احتراس (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم) وهو القرآن وهذا تخصيص بعد التعميم اهتماما بشأنه لانه أهم ما عوهدوا عليه فهو أولى بالوفاء به بان يكونوا به مؤمنين لانه مصدق للتوراة وللانجيل مطابق لاوصافه المذكورة فيهما وموافق لهما فى تحريم الحرام واباحة ما يحل مع مراعاة الزمان فى السابق واللاحق وفى التوحيد ونصب الدلائل وطلب الاستقامة وهداية الناس (ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) ولما كنتم أهل نظر وكتاب وقد بشرتم برسولى وجب أن تكونوا أول فريق

مؤمن به فلا تكفروا به فكيف تكونون أول من كفروا به من أهل الكتاب وكيف تشترون أى تستبدلون بالايمان عرض الدنيا من الهدايا والتحف التى تنالونها من الناس بسبب ما لكم من الرياسة عليهم فى الدين وعرض الدنيا قليل والايمان لا يدانيه شئ عندى (واياى فاتقون) بالايمان (ولا تلبسوا الحق بالباطل) ولا تخلطوا الحق الذى أنزلته بالباطل الذى تخترعونه (وتكتموا الحق) الذين تعلمونه عن الجاهلين به (وأنتم تعلمون) أنكم قد لبستم وكتمتم فان سكتم فمن الحق حتى لا يعرف وان نطقتم أتيتم بالباطل لتدحضوا به الحق وأنتم تعلمون أنكم فى الحالين حائدون عن الصراط السوى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) كما أمرتكم بالايمان بالنبى وبالقرآن آمركم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ولتكن الصلاة جماعة فانها أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة لاجتماع النفوس واتحادها فتكون أقرب الى الله (أتأمرون الناس بالبر) التوسع فى الخير (وتنسون أنفسكم) وتتركونها من البر (وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) كان أحبار اليهود ينصحون سرًّا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ويأمرون الناس بالصدقات أمامهم فكانوا لا يتبعونه خوفا على الرياسة ولا يتصدقون خيفة الفقر والتوراة بين أيديهم وفيها الوعيد الشديد على من ترك البر وخالف قوله فعله فهلا منعتهم عقولهم وصانتهم ألبابهم مما يعملون من مخالفة الأقوال للأفعال وليس المراد أن يمنع الفاسق من النهى عن المنكر كلا وانما تجب مطابقة الأقوال للأفعال والا فنحن مأمورون أن نترك المعصية وأن ننهى عنها وليس ترك أحدهما بمانع من القيام بالآخر فالآية تحضنا على الجمع بين الأمرين لا أنها تمنعنا عن أحدهما اذا تركنا الآخر واذا كنتم أيها الأحبار شق عليكم ترك الرياسة وخشيتم الذلة والفقر باتباع القرآن والايمان بمحمد فلتعلموا أن الصبر والصلاة بهما تنالون الفرج فالصابر المنتظر الفرج من الله الذى يدعو سبحانه وتعالى يجاب للطلب ما دام مضطرا كما قال «أمّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض» فى آية أخرى وذلك قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) فتكون الصلاة بمعنى الدعاء والدعاء مستجاب لمن صدقت نيته وعزيمته وقد يراد بهما الصوم والصلاة الشرعيان (وانها لكبيرة الا على الخاشعين) أى وان الاستعانة بالصبر وانتظار الفرج والدعاء مع توجه الهمة لثقيلة الا على المخبتين الخاضعين ويصح رجوع الضمير للصلاة (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون) أى يتوقعون لقاء الله تعالى (يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وهذا ظاهر مما تقدم (وأنى فضلتكم على العالمين) أى عالمى زمانهم أى تفضيل آبائهم على عالم زمانهم أيام موسى (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيأ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) أى لا يقبل من النفس العاصية شفاعة الشافعين ولا يؤخذ منها فدية ولا ناصر ينصرهم وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية لنفى الشفاعة عن مرتكب الكبيرة وخصها الجمهور بالكفار لما ورد من الآيات والأحاديث فى الشفاعة

ثم ان هذه الآيات فيها الكلام على العهد وعلى الشفاعة وعلى تفضيل بنى اسرائيل «فلنبسط الكلام عليها فنقول اعلم أن العهد الذى أمر اليهود أن يوفوا به اما أن يكون المقصود به فعل الطاعات واجتناب المعاصى واما أن يكون المراد به ما أثبت فى الكتب السماوية فى نبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم «ولقد ذكر تلك العهود المفسرون كالامام الرازى اذ أثبت ما جاء فى الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة وتبشير الملك لهاجر أن يكون لها ولد فوق الجميع «وما جاء فى الفصل الحادى عشر من السفر الخامس «وما جاء فى السفر العشرين من هذا السفر «وما جاء فى كتاب أشعياء فى الفصل الثانى والعشرين «ولما نظرت فى التوراة وجدتها قد حذفت منها تلك العبارات وطاحت تلك البشارات ولم يبق من الكتب السماوية كتاب لم تمتد اليه أيدى المغيرين الا انجيل برنابا الذى كان سرا مكتوما عند النصارى قديما (وقد ترجمه حديثا الدكتور خليل بك سعاده من الانجليزيه) ونشره صديقنا العلامة السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار

(قال فى الفصل الثانى والسبعين) قال يسوع لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا لأنى لست أنا الذى خلقكم بل الله الذى

خلقتكم بجميكم أما من خصوصي فاني قد أتيت لأهيء الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص العالم لكن احذروا أن تغشوا لأن مسيأتي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي وينجسون انجيلي حينئذ قال اندراوس يامعلم اذكر لنا علامة لنعرفه * أجاب يسوع انه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل انجيلي ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنا في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء يعرفه أحد مختاري الله وهو سيظهره للعالم وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الأصنام من العالم واني أسر بذلك لانه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدقي وسينتقم من الذين سيقولون اني أكبر من انسان الحق أقول لكم ان القمر سيعطيه رقادا في صباه ومتى كبر هو فليحذر العالم أن ينبذه لأنه سيفتك بعبدة الأصنام فان موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيرا ولم يبق يسوع على المدن التي أحرقوها وقتلوا الاطفال لان القرحة المزمنة يستعمل لها الكي وسيجيء بحق أجلى من سائر الانبياء وسيوبخ من لا يحسن السلوك في العالم وستحيي طربا أبراج مدينة آبائنا بعضها بعضا فمتى شوهد سقوط عبادة الاصنام الى الارض واعترف بأني بشر كسائر البشر فالحق أقول لكم ان نبي الله حينئذ يأتي

﴿وقال في الفصل الثاني والثمانين﴾ ثم التفت الى المرأة وقال أيتها المرأة انكم أنتم السامريين تسجدون لما لا تعرفون أما نحن العبرانيين فنسجد لمن نعرف الحق أقول لك ان الله روح وحق ويجب أن يسجد له بالروح والحق لان عهد الله انما أخذ في أورشليم في هيكل سليمان لا في موضع آخر ولكن صدقيني انه يأتي وقت يعطي الله فيه رحمته في مدينة أخرى ويمكن السجود له في كل مكان بالحق ويقبل الله الصلاة الحقيقية في كل مكان برحمته * أجابت المرأة اننا ننتظر مسيا فمتى جاء يعلمنا * أجاب يسوع أتعلمين أيتها المرأة ان مسيا لا بد أن يأتي * أجابت نعم ياسيد حينئذ تهلل يسوع وقال يلوح لي أيتها المرأة انك مؤمنة فاعلمي اذن أنه بالايمان بمسيا سيخلص كل مختاري الله اذن وجب أن نعرف مجيء مسيا قالت المرأة لعلك أنت مسيا أيها السيد * أجاب يسوع اني حقا أرسلت الى بيت اسرائيل نبي خلاص ولكن سيأتي بعدي مسيا المرسل من الله لكل العالم الذي لاجله خلق الله العالم وحينئذ يسجد لله في كل العالم وتنال الرحمة حتى ان سنة اليوبيل التي تجيء الآن كل مائة سنة سيجعلها مسيا كل سنة في كل مكان حينئذ تركت المرأة جرتها وأسرعت الى المدينة لتخبر بكل ماسمعت من يسوع

﴿وقال في الفصل السادس والتسعين﴾ ولما انتهت الصلاة قال الكاهن بصوت عال قف يايسوع لانه يجب علينا أن نعرف من أنت تسكينا لامتنا * أجاب يسوع أنا يسوع بن مريم من نسل داود بشر مائت ويخاف الله وأطلب أن لا يعطى الاكرام والمجد الا لله * أجاب الكاهن انه مكتوب في كتاب موسى ان الهنا سيرسل لنا مسيا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله وسيأتي للعالم برحمة الله لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت مسيا الله الذي ننتظره * أجاب يسوع حقا ان الله وعد هكذا ولكني لست هو لأنه خلق قبلي وسيأتي بعدي الى أن قال لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي اني لست مسيا الذي تنتظره كل قبائل الارض كما وعد الله أبانا ابراهيم قائلا بنسلك أبارك كل قبائل الارض ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بان يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله فيتنجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الاصنام وعبدة الاصنام وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا الى أن قال ولكن تعزيتي هي في مجيء الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب في وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره لانه هكذا وعد الله أبانا ابراهيم وان مايعزيني هو أن لا نهاية لدينه لان الله سيحفظه صحيحا وبعد أسطر قال حينئذ الكاهن ماذا يسمى مسيا وما هي العلامة التي تعلن مجيئه * أجاب يسوع أن اسم مسيا عجيب لان الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي قال الله اصبر يامحمد لاني لاجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجما غفيرا من الخلائق التي أهبها لك حتى ان من يباركك يكون مباركا ومن يلعنك يكون ملعونا ومتى أرسلتك الى العالم أجعلك رسولي

للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى ان السماء والارض تهنا ن ولكن ايمانك لايهن أبدا ان اسمك المبارك محمد حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين ياالله أرسل لنا رسولك يا محمد تعال سريعا لخلاص العالم

﴿وقال فى الفصل السادس والثلاثين بعد المائة﴾ وبعد هذه السنين يجيء الملاك جبريل الى الجحيم ويسمعهم يقولون يا محمد أين وعدك لنا ان من كان على دينك لا يمكث فى الجحيم الى الأبد فيعود حينئذ ملاك الله الى الجنة وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقص عليه ما سمع * فحينئذ يكلم الرسول الله ويقول ربى والهى اذكر وعدك لى أنا عبدك بان لا يمكث الذين قبلوا دينى فى الجحيم الى الابد فيجيب الله اطلب ما تريد يا خليلى لانى أهبك كل ما تطلب

﴿وقال فى الفصل السابع والثلاثين بعد المائة﴾ فحينئذ يقول رسول الله يارب يوجد فى الجحيم من لبث سبعين ألف سنة أين رحمتك يارب انى أضرع اليك يارب أن تعتقهم من هذه العقوبات المرة فيأمر الله حينئذ الملائكة الاربعة المقربين لله أن يذهبوا الى الجحيم ويخرجوا كل من كان على دين رسوله ويقوده الى الجنة وهو ما سيفعلونه ويكون من مبلغ جدوى دين رسول الله أن كل من آمن به يذهب الى الجنة بعد العقوبة التى تكلمت عنها حتى لو لم يعمل عملا صالحا لانه مات على دينه اهـ أقول وهذا القول وأمثاله ان ثبت يكون مؤولا والا فالله عز وجل يعلم كل شئ * ونحن انما نقلنا هذا لاثبات ما رأينا فى الانجيل

﴿وجاء فى الفصل الثانى والاربعين بعد المائة﴾ قال الكتبة والفريسيون لرئيس الكهنة ماذا نفعل لو صار هذا الرجل ملكا حقا ان ذلك يكون وبالا علينا فانه يريد أن يصلح عبادة الله على حسب السنة القديمة لانه لا يقدر أن يبطل تقاليدنا فكيف يكون مصيرنا تحت سلطان رجل * هكذا حقا اننا نهلك نحن وأولادنا لاننا اذا طردنا من وظيفتنا اضطررنا أن نستعطى خبزنا أما الآن فالحمد لله لنا ملك ووال أجنبيان عن شريعتنا ولا يباليان بشريعتنا كما لا نبالى نحن بشريعتهم ولذلك نقدر أن نفعل كل ما نريد فان أخطأنا فان الهنا رحيم يمكن استرضاؤه بالضحية والصوم ولكن اذا صار هذا الرجل ملكا علينا فلن يسترضى الا اذا رأى عبادة الله كما كتب موسى * وأنكى من ذلك أنه يقول ان مسيا لا يأتى من نسل داود (كما قال لنا أحد تلاميذه الاخصاء) بل يقول انه يأتى من نسل اسمعيل وان الموعد صنع باسمعيل لا باسحق * فماذا يكون الثمر اذا تركنا هذا الانسان يعيش * من المؤكد ان الاسماعيليين يصيرون ذوى وجاهة عند الرومانيين فيعطونهم بلادنا ملكا وهكذا يصير اسرائيل عرضة للعبودية كما كان قديما فلما سمع رئيس الكهنة هذا الرأى أجاب انه يجب أن يتفق مع هيرودس والوالى لان الشعب كثير الميل اليه حتى انه لا يمكننا اجراء شئ بدون الجند وان شاء الله نتمكن بواسطة الجند من القيام بهذا العمل

﴿وجاء فى الفصل الحادى والتسعين بعد المائة﴾ فقال من ثم الكاتب لقد رأيت كتيبا قديما مكتوبا بيد موسى ويشوع (الذى أوقف الشمس كما قد فعلت) خادمى ونبيى الله وهو كتاب موسى الحقيقى ففيه مكتوب ان اسمعيل أب لمسيا واسحق أب لرسول مسيا وهكذا يقول الكتاب ان موسى قال أيها الرب اله اسرائيل القدير الرحيم اظهر لعبدك فى سناء مجدك فاراه من ثم رسوله على ذراعى اسمعيل واسمعيل على ذراعى ابراهيم ووقف على مقربة من اسمعيل اسحق وكان على ذراعيه طفل يشير باصبعه الى رسول الله قائلا هذا هو الذى لاجله خلق الله كل شئ فصرخ موسى من ثم بفرح يا اسمعيل ان فى ذراعيك العالم كله والجنة اذكرنى أنا عبد الله لاجد نعمة فى نظر الله بسبب ابنك الذى لاجله صنع الله كل شئ

﴿وجاء فى الفصل الثانى والتسعين بعد المائة﴾ لا يوجد فى ذلك الكتاب ان الله يأكل لحم المواشى أو الغنم ولا يوجد فى ذلك الكتاب ان الله قد حصر رحمته فى اسرائيل فقط بل ان الله يرحم كل انسان يطلب الله خالقه بالحق ولم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله لان رئيس الكهنة الذى كنت فى مكتبته نهانى قائلا ان (اسماعيليا قد كتبه) فقال حينئذ يسوع انظر أن لا تعود أبدا فتحجز الحق لانه بالايمان بمسيا سيعطى الله الخلاص للبشر ولن يخلص أحد بدونه اهـ هذه هى البشارات الواردة فى انجيل برنابا وانما أثبت هنا هذه البشارات لان هذا الكتاب قد ورد الامر بعدم نشره

و بالحواشى فى بلادنا المصرية فانتهزت فرصة الاطلاع عليه ليبقى تذكرة لمن بعدنا ولقد طبع سنة ١٣٢٥ هجرية سنة ١٩٠٧ ميلادية ولم يبق منه الا نسخ تمحى بعد قليل من الوجود وتنساه الاجيال المقبلة * ولقد اضطربت آراء الباحثين فى هذا الانجيل وقد ثبت ثبوتا لا شك فيه ان المسلمين جميعا من عصر النبوّة الى العصور الاخيرة يجهلونه حق الجهل ولم يتعرض له أحد من الباحثين الذين يردون على المسيحيين بكتابهم وقد جاء ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فيه صريحا مرارا ويقول بعض المعترضين ان هذا هو الذى يورث الشك لان الصراحة الى هذا الحد غير معروفة عن الكتب السماوية فى أمثال هذه البشارات ويقول المؤيدون له انه لم يكتبه مسلم بدليل انه لم يكن له ذكر فى فهارس مكاتب المسلمين ويقولون ان البابا جلاسيوس الاول الذى جلس على الاريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية أصدر أمرا يعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها وفى عدادها كتاب يسمى (انجيل برنابا) فيكون هذا الانجيل موجودا قبل ظهور الاسلام بزمن طويل

وأجمع الباحثون على أنه انجيل ملئ علما وحكمة وأخلاقا وعفة يضىء النفوس البشرية بانواره وهو أفضل من الأناجيل ولقد قالوا أيضا ان المسيح ليست عنده هذه الملكة العلمية والحكمة العالية الدقيقة وبالجملة فالكتاب نافع من حيث الاطلاع عليه والله أعلم * ثم اعلم ان برنابا من حوارىّ عيسى وفى انجيله مخالفات للاناجيل مثل ان المسيح لم يصلب انما هو يهوذا الخائن الذى شبه به فجاء مطابقا للقرآن (وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم) ومثل قوله انى لست الها ولست ابن الله وفى تصريحه بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

(أما الشفاعة) فاعلم ان أهل السنة قالوا باسقاط العذاب عن المستحقين للعقاب اما بأن يشفع لهم يوم القيامة فى العرصات حتى لا يدخلوا النار وان دخلوا النار يشفع لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة وقالت المعتزلة انها تكون للمستحقين للثواب بأن تحصل لهم زيادة المنافع على قدر ما استحقوه واتفقوا على انها ليست للكفار * وقد كتبت فى هذا الموضوع مقالا مقتبسة أصوله من كلام الاستاذ محيى الدين بن عربى والامام الغزالى فأحببت ذكره هنا تذكرة للعقلاء وتبصرة للمسلمين وتقوية للتربية الاسلامية فى مستقبل الزمان

(مبحث الشفاعة)

اعلم ان الأمة الاسلامية قد أجمعت أنه صلى الله عليه وسلم يشفع فى أمته وهذا أمر مجمع عليه لا فرق بين السنية والمعتزلة والفلاسفة منهم ولكنهم اختلفوا فى المقصود منها وها أنا ذا أذكر لك الحقيقة واضحة جلية خالصة ظاهرة ثم أطبق عليها سائر الأقوال والآيات والأحاديث بحيث يتفق المشرب الدينى والمنهج القويم للتربية الاسلامية وهذا هو الذى انشرح له صدرى وصرت موقنا به تحقيقا (فاعلم) أرشدك الله أن النبى صلى الله عليه وسلم كالشمس المشرقة كما قال تعالى وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا والشمس مشرقة على اليابسة والبحار والآكام والغياض والنبات والشجر والارض السبخة والارض الطيبة وكل من تلك المواضع يأخذ حظه من ضوئها على مقدار استعداده * فأما البحر فانه يزجى السحب باشراق الشمس على أرجائه فيكون بخار فسحاب فمطر يحيى الارض *وأما الجبال فان ما على بعضها من الثلوج المتراكمة تنزل ماء شيئا فشيئا الى باطنها ثم تخرج ينابيع فتحيى الارض *وأما الهواء فيتمدد وتكون منه الرياح والأعاصير والزعازع *وأما الارض الطيبة فتخرج زرعا مختلفا ألوانه *وأما الارض السبخة فلا تخرج شيئا وقد تخرجه نكدا هذا هو المثل الذى أردت ضربه لحال النبى صلى الله عليه وسلم مع الناس * فلنشبه القلوب النقية الطيبة بالبحار اذا سمعت الدين أزجت السحب ونفعت الناس وأحيت قلوبهم * ولنجعل القلوب الطيبة كالصالحين والارض السبخة كالفجار الذين لا يرجى نفعهم والملوك والامراء ورجال الدولة والوعاظ كتلك الرياح التى يهتز لها جميع ما على الارض وفى الجو فتعتدل وتجود وتستقيم وتحوط الملوك العلماء والشعب بالجيوش محافظة عليهم فكما اختلف الزرع لونا ورائحة وطعما وهكذا الشجر والبر والبحر والشمس واحدة هكذا تختلف الامة التى تتبع نبيا فى أطوارها وأحوالها

الدينية على حسب أمزجتهم وأخلاقهم وعوائدهم وبيئتهم فالله نور السموات والارض أشرق نوره على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مشرق على الناس فلا جرم يختلفون فى قبوله لاختلاف أحوالهم وتكون أحوالهم فى الآخرة على مقتضى ذلك الاختلاف فالمرسلون واسطة التعليم والناس المرسل اليهم هم الذين يختلفون فى الاتباع باختلاف أطوارهم واستعدادهم وهم مسؤلون يوم القيامة عن أعمالهم على مقتضى ما بلغهم الواسطة فاذا كانت الارض الطيبة والارض اليابسة والبحر اختلفت فى القابلية والسبخة هكذا سيكون الناس فى أحوال الآخرة على مقتضى ما كسبوا من الواسطة الشفيع لهم عند الله تعالى (وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون) و يقرب من هذا ما ورد فعن أبى موسى عبد الله بن قيس الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به * فهذا الحديث أفادنا ان اختلاف النتائج علما وعملا وجهلا لاختلاف الناس فى أطوارهم كما اختلفت الارض لما ورد عليها الماء فى كيفية قبوله * وكما قلنا باختلاف أحوال الارض وما عليها باختلاف قبولها الضوء الشمس فالفيض من الشمس ومن الغيث كامل غير منقوص والاختلاف انما جاء من الجهات القابلة للضوء والغيث (واعلم) ان الشفاعة بذور ونبات وثمر فبذورها العلم ونباتها العمل وثمرها النجاة فى الآخرة فالانبياء عليهم الصلاة والسلام علموا الناس فى الدنيا وفيها غرسوا البذور والناس اذا عملوا بما سمعوا منهم ولم تكن تلك الشرائع منسوخة فقد استعدوا للنتيجة و يوم القيامة ينالون تلك الثمرة وهى النجاة والارتقاء ولكن تلك الثمرات تختلف باختلاف أعمالهم وجدهم وحبهم للخير وأخلاقهم فبادىء الشفاعة العلم وأوسطها العمل ونهايتها الفوز والرقى فى الآخرة بل كثيرا ما تظهر بعض الثمرات فى الحياة الدنيا بالتوفيق والنصر والعز * وفى الحديث يشفع يوم القيامة ثلاثة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء فهذا يفيد أن الشفاعة تابعة للاقتداء فالانبياء علموا العلماء والعلماء علموا الناس وأفضل الناس بعد الانبياء العلماء فالشهداء وهم بما قدموا أنفسهم فى سبيل الله أصبحوا اقدوة للناس وأعطوهم درسا نافعا يتبعونهم فيه فكانوا بعد العلماء فى هداية الناس لان العلم أوسع والشهادة أقل ولكنها أنجع * فمن لم يعمل بما أنزل الله وتجافى عن الحق فقد عطل ما وهب له من بذر الشفاعة ولم يسقه ولم يربه ولم ينمه بالعمل فيحرم ثمرته مع انه ساوى جميع المسلمين فى حصول البذر عنده وخالفهم فى قعوده عن استثماره ساواهم فى نوال بذر الشفاعة وخالفهم ونقص عنهم فيما بعد ذلك وعلى هذا يحمل قوله عليه الصلاة والسلام فى رواية أبى هريرة (لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك) فانظر فى قوله صلى الله عليه وسلم قد بلغتك كأنه يقول له التبليغ بذر الشفاعة وعليك العمل يتبعه النجاة

وعن أبى هريرة أيضا قال قال عليه الصلاة والسلام (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته رجل أعطى بى ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل أستاجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجرته)

وروى عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (يا كعب بن عجرة يا كعب أعيذك بالله من امارة السفهاء انه سيكون أمراء من دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم وصدقهم بكذبهم فلست منه وليس منى ولن يرد على الحوض ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو منى وأنا منه وسيرد على الحوض يا كعب بن عجرة الصلاة قربان والصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار يا كعب بن عجرة لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت)

وروى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة أنه عليه الصلاة والسلام (دخل المقبرة فقال السلام عليكم دار

قوم

قوم مؤمنين وانا ان شاء الله بكم لاحقون وددت انى قد رأيت اخواننا قالوا يارسول الله ألسنا اخوانك قال بل أنتم أصحابى واخواننا الذين لم يأتوا بعد قالوا يارسول الله كيف تعرف من يأتى بعدك من أمتك قال أرأيت ان كان لرجل خيل غر محجلة فى خيل دهم بهم فهل لا يعرف خيله قالوا بلى يارسول الله قال فانهم يأتون يوم القيامة غرا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض ألا فليذادن رجال عن حوضى كما يذاد البعير الضال أناديهم ألا هلم فيقال انهم قد بدلوا بعدك أقول سحقا فسحقا)

وهذه الاحاديث هى المناسبة لقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ولقوله تعالى اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا

فهؤلاء الذين أعانوا الامراء على ظلمهم وأولئك الذين بدلوا بعد نبيهم وأولئك الذين جاؤا يحملون شياها قد ظلموا فى حملها كل هؤلاء قد بذرت لهم بذور الشفاعة ولكنهم حرموا أنفسهم ثمرتها بتفريطهم فيها جزاء وفاقا * فاذا قيل انه يشفع فى أهل الكبائر أو فى زيادة الحسنات للمحسنين فقد دخل ذلك كله فى هذا الذى أوضحته لك * واذا سمعت عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال قلت يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة قال لقد ظننت أن لا يسألنى عن هذا أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه أخرجه البخارى فاذا سمعته فاعلم ان هذا قد نال من الشفاعة بذرها وهو العلم والعلم يتبعه العمل والثمرة نتيجة وهى النجاة فى الآخرة ولاجرم أن العمل لا يكون الا بعد العلم فاذا كان العمل مبنيا على جهل فلا يستحق شفاعة * وأما صاحب العلم فان لديه أقوى ركنى الشفاعة وهو العلم ولم يبق الا استثماره فعلى هذا فقس فيما يرد عليك من الأحاديث * واعلم ان هذا المعنى أخذت أصوله من الفتوحات المكية لمحيى الدين بن عربى وكذلك يفيده كلام الامام الغزالى وبعض الأقوال التى أوردها الفخر الرازى

(قال الامام الغزالى فى الاحياء)

فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج اليه وهو سوق الماء اليه فى أوقاته ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل مايمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمى انتظاره رجاء وان بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منه سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء وان بث البذر فى أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا سمى انتظاره تمنيا لا رجاء فاذا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بماء الطاعات وطهر القلب عن شوك الاخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا فى نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الايمان فى اتمام أسباب المغفرة الى الموت وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور * قال صلى الله عليه وسلم الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وقال تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) وقال تعالى (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا) وذم الله تعالى صاحب البستان اذ دخل جنته (وقال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا) فاذا العبد المجتهد فى الطاعات المجتنب للمعاصى حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة الا بدخول الجنة وأما العاصى فاذا تاب

وتدارك جميع مافرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة اذا كان كارها للمعصية تسوؤه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشتاق اليها فحقيق بان يرجو من الله التوفيق للتوبة لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي الى التوبة وانما الرجاء بعد تأكد الأسباب ولذلك قال تعالى (ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لان غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقي ولا تنقية اهـ

فهكذا ينبغي أن يقرر في الأمة الاسلامية تعليم الأخلاق حتى يشب الشبان مجدين وليعلموا أن الانسان تابع لعمله وأخلاقه وهذا هو الموافق للفطرة ولمقصود الاسلام ففي الحديث أنت مع من أحببت والأنبياء يتبعهم العلماء حبا في مناهجهم ويتبع العلماء العامة فهؤلاء على مقدار اتصالهم في الحياة الدنيا يتصلون يوم القيامة فلا يرد الحوض على النبي صلى الله عليه وسلم الا من كان به في الدنيا متصلا أي عاملا بشريعته سائرا على منهجه والناس يحشرون على حسب الأخلاق التي ماتوا عليها لأن الثواب والعقاب كما قاله المحققون نتائج وثمرات وليس الله عز وجل يريد أن يشفي غيظه وانما هو رب العالمين وتعالى الله عن صفات المحدثين والحياة الآخرة تابعة للحب ولا يحب المرء الا من كان على شاكلته * ومثل الآخرة كمثل الدنيا فكما أنك لا تعيش مع السمك في البحر ولا يقدر السمك أن يعيش في البر ولا يستطيع حيوان البحر وحيوان البر أن يطيرا في جو السماء ولا يستطيع الطير أن يعيش في البحر هكذا بنو آدم في الآخرة كل يوضع في المكان الذي استحقه ولا يقدر أن يتجاوزه على حسب الاخلاق التي اكتسبها وفي الحديث يحشر المرء على ما مات عليه وفي الآية (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) وهذا التفسير الذي اخترته للشفاعة كما جمع بين الأقوال كلها والأحاديث ونظام الله عز وجل في ملكه وآيات القرآن وعدل الله سبحانه وتعالى هكذا يناسب ما يجب أن يكون عليه الأمة الاسلامية في مستقبل الزمان فان الأمم كلها قد ارتقت بالعلم والحكمة وبقي المسلمون في مؤخرهم بسبب جهل الوعاظ وتسهيلهم على الناس ولعمري ان هذا ليجدد النشاط والجد والعمل في الأمة ويرقي المسلمين علما وعملا * واذن يفهمون قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ويعرفون انه عز وجل عدل ولن يخرج من بذر القمح الا القمح ولا من النواة الا ما كان من جنسها فالصدق مشاهد في العالم الذي أمامنا ولولاه لاختل نظام الحياة فاذا زرعنا البرسيم للدواب أو الحنطة والتفاح للانسان جنينا الثمر على مقتضى البذر فأكلت الدواب والانسان ولو كان الأمر فوضى فاخرج البرسيم بدل التفاح والتفاح بدل الحنطة لحار الناس في أمورهم ولضلوا سواء السبيل ولم تكن لهم حياة رشيدة وتخبطوا في ديجور المذلة وسوء الحال وكانت الفوضى والناس لا يشعرون بهذا العدل وحسن النظام لانهم فيه مغمورون لا ينظرون فيه وانما كل منهم مهتم بما يشبع بطنه ويروي في شهوته مشغول بجمع ذلك ليلا ونهارا وهم عن العلم بما حولهم غافلون (وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) وها نحن أولاء نرى طلوع الشمس وغروبها وكذلك القمر والكواكب الأخرى بنظام مرتب في جداول يطلع عليها الناس وأكثرهم لا يتعجبون من حكمته عز وجل في اتقان الحساب وحسن النظام الذي لو اختل لحظة لهلك الحرث والنسل ولو أن الشمس تأخرت عن موعدها وقت الظهر دقيقة واحدة يوما ما فقط لضاع من نوع الانسان مئات الالوف ومن أموالهم مئات آلاف الآلاف فان هذا التأخير يحدث تصادما في القطرات الجارية بالسكك الحديدية فيموت الراكبون وتختل مواعيد الاعمال في التجارة صادرها وواردها فنحن هنا على الارض مغمورون في نظام تام لا يعقله الا العالمون واذا كان هذا في الدنيا فان الآخرة أتقن نظاما والمنظم للدارين واحد * أفلا تكون الاعمال لها نتائج كنتائج النبات والشجر أولا يكون الانبياء والعلماء الذين اتبعوهم أشبه بضوء الشمس وقطرات الغيث على العقول

فتكون

فتكون الاعمال فالنتائج هذا ما فتح الله به وانشرح له صدري

(حكاية) قد قدمت الى مصر سيدة روسية كانت تغشى الجمعيات العلمية في برلين وباريس وفينا وسائر عواصم أوروبا وكانت من أهل العلم تحسن لغات كثيرة وكان أكثر ميلها الى علم التصوف وقد أشار عليها أستاذها ماركس الألماني أن تترجم كتابا في علم التصوف الى اللغة الفرنسية واختار من بين الكتب رسالة القشيري التي ألفها في القرن الرابع في هذا الفن لصوفية المسلمين * ولما جاءت الى مصر طلب مني وزير المعارف اذ ذاك أن أساعدها فساعدتها في فهم الكتاب عند الترجمة تسع سنين وكانت تعجب بعلوم المسلمين وذوقهم وآدابهم وفي أواخر المدة قبيل الحرب الكبرى قالت لي يوما انني بعد ان سافرت هذه السنة الى أوروبا تبين لي ان الدين الاسلامي على خلاف ما كنت أظن نعم هو حق ولكنه أقل من الدين المسيحي وهذا الاعتقاد خلاف ما كنت أعتقده من قبل فقلت ولم ذلك فقالت قابلني شاب من الذين يتعلمون من الرهبان في طور سيناء وعنده شهادات عالية من ألمانيا ويجيد بعض اللغات الاوروبية فأخذ يحدثني عن الاسلام وهو يعرف ميلي اليه فقال ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان وهو صغير تلوح عليه مخايل النبوة ولما رآه بحيرا الراهب وأدرك فيه هذا المعنى قال في نفسه اذا كان هذا نبيا فخير لنا أن يكون مسيحيا فعلمه الدين المسيحي وأخطأ بحيرا في بعض تعاليمه فانه أفهمه أن عيسى لم يصلب لجهله باللغة لان بحيرا صالح ولكنه ليس مدققا في اللغة فجاء دين الاسلام وليس فيه الصلب مع ان المسيح أول من مات فأحياه الله فيكون هذا برهانا على حياة الناس يوم القيامة فالمسيح الذي يفدي الناس قد صلب لهذه الحكمة قالت فانا على ذلك أصبحت أرى أن الاسلام حق ولكنه أقل من المسيحية التي آمنت بمن صلب ثم حيي فلما أتمت قولها قلت لها هل تحبين أن نسمي رأيي فقالت نعم واني ما ذكرت لك هذا الا لاسمع رأيك * فقلت أما قول صاحبك ان المسيح أول من مات ثم حيي فهذا لا حظ له من الحقيقة لان في التوراة ان قوما ماتوا ثم أحياهم الله لانهم كانوا قد فروا من الطاعون فليس المسيح على زعم من آمن بالصلب أول من حيي وفي التوراة من ذلك كثير

* وأما قوله ان عيسى يفدي الناس فهذا كلام له معنى غير ما يفهمه الجهلاء من المسيحيين فقالت وكيف ذلك فقلت أرأيت لو أن رجلين أحدهما يعلم أولاده الأدب والثاني يقول كونوا أحرارا يا أبنائي واقتلوا واسرقوا وأنا أدافع عنكم فأي الأبوين أفضل قالت الاول قلت هكذا يطلب مناعلم التربية الحديثة والقديمة قالت نعم قلت فهل المسيح باعتبار كونه الها أو ابن اله على ما تعتقدون أو نبيا على ما نعتقد نحن معاشر المسلمين يقل في العلم والتعليم عن أفضل الأبوين المذكورين قالت كلا بل هو أفضل منهما وهو معلمهما والمعلم أفضل من المتعلم وأعلم منه قلت اذن لا يجوز في علم التربية أن يقول نبي عن ربه افعلوا ما تشاؤن وأنا أكون فداء لكم وبعبارة أخرى ينقض شريعته بنفسه فأخذ منهم بالشمال ما أعطاه باليمين قالت والله ان كلامك لحق ومعقول فقل لي اذن ما يقصد بكون المسيح يفدي الناس في نظرك فقلت أما ديني فينكر الصلب وأما ما قرأته في كتبنا الاسلامية عن أكابر حكمائنا الاسلاميين فانهم قالوا ان الصلب يقصد به ان الامة يجب عليها أن تقتدي بالمسيح في أخلاقه فانه بذل مهجته في سبيل الله وانقاذ الناس من جهلهم وخطيآتهم حتى صلب فلتقتد الامة به فهو بهذا المعنى يكون منجيا لهم لانهم يجاهدون لرقي أخلاقهم ونفع أممهم حتى ينالوا الشهادة في سبيل الله هذا هو الذي قرأته عن أكابرنا في فهم أكابر المسيحيين لمسئلة الصلب * أما العامة فانهم يتكلون عليه في تخليصهم من يد القضاء يوم القيامة ويكون الدين اذ ذاك هادما للانسانية مؤخرا للمدنية راجعا بالانسان القهقرى وهذا بعينه هو السبب فيما بلغنا لهذا العهد عن الاحصاء في فرانسا لاحكام القضاة فانهم وجدوا أن الملحدين الكافرين بالله هناك أكثر صدقا وأقرب للعدل من المتدينين لانهم كانوا يسألونهم لم فعلتم ذلك فكانوا يقولون رجونا أن تشفع لنا العذراء أو القديس فلان وهكذا ولذلك نرى ان الديانات التي طال عليها الأمد ولم تجد لها من يجدد أمرها تولاها الخور وقعد بتابعيها عن الرقي وساؤا مصيرا * وانما كان الملحدون في فرانسا أرقى أخلاقا من المتدينين لان الاولين أثاروا عواطفهم وعقولهم وفطرهم التي فطرهم الله عليها وفيها أصول الاخلاق

* أما الآخرون فانهم تركوا فطرهم وسلموا أنفسهم للدين والدين دخله التحريف والتخريف فنزل باخلاقهم فسفلت فكانوا من الخاسرين فرأيتها أشرقت سرورا وأبرقت أسرتها واستبشرت ضاحكة وقالت نعم لقد أفدت وأحسنت ونطقت بعلم اه

فتأمل أيها المسلم فى هذه الحكاية فانى ماقلتها لك اعتباطا وانما ذكرتها لتنظر سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وآدابه ومعاشرته وسيره للحرب ومقارعته الابطال وغزواته ثم تتبعه فى أخلاقه وفى القرآن الذى أنزل عليه فاما اذا ظننت أن الشفاعة ترجع الى المعنى الذى يفهمه العامة فان ذلك يقود الأمة الى الانتكاس على أم الراس ويبقى الدين من أسباب التأخر لا الرقى وقد آن أوان أن يعرف الناس مقام النبوة الشريف ويتبعوا النبى صلى الله عليه وسلم فى أعماله وأخلاقه وسيرته الصالحة وآدابه العالية ومعارفه الواسعة ودينه السمح المرشد الى السعادة والاعمال الشريفة وهذا أوان ارتقائه وزمان اسعاده والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

(ايضاح للشفاعة)

اعلم أن الناس اعتادوا أن يتقربوا للملوك والامراء والاغنياء بمن لهم عندهم جاه ومنزلة فيكونون شفعاء لهم فى ايصال الخيرات من وظائف ومال * وأصل هذه الكلمة من الشفع الذى هو ضد الوتر كأن صاحب الحاجة كان فردا فصار الشفيع له شفعا أى صار زوجا وهذا فى الأمور المادية التى يقدر عليها الناس * أما العلوم والمعارف فلو أن أعظم الملوك قدرا وأكثر الأغنياء مالا أحضر أساطين الحكماء وأكابر العلماء لولده الغبى وأغدق عليهم النعم ليصير عالما لم يقدروا على ذلك أما هو فيقدر أن يفيض المال على أى فقير فيصير غنيا فى الحال فشفاعة الأنبياء ليست من قبيل الهبات المالية ولا الوظائف الادارية وانما هى نفحات علمية وأخلاق حكمية وآداب نبوية فمن فقه ماقالوه واتبع مارسموه واستثمر من بذور الشفاعة مابذروه تمت له الشفاعة ودخل مع الجماعة أما أولئك الكسالى الجبناء المتواكلون فانهم يظنون ان مجرد الاتباع اللفظى مع النوم والكسل الفعلى يجديهم نفعا كبيرا ويحسن لهم صنعا جميلا كلا انهم لمخدوعون وليس هذا القول بمخالف أهل السنة ولا المعتزلة فان خروج العاصى من النار بالشفاعة أو ابعاده عنها قبل الدخول وكذلك زيادة الحسنات فى الأعمال للصالحين كل هذا جاء من شفاعته صلى الله عليه وسلم واتباعه بل كل ثواب فانما هو بسبب ذلك وهكذا كل نجاة فانه صلى الله عليه وسلم لولم يأت لنا بالشريعة لكنا أقرب الى الحيوان فصرنا باتباعه داخلين فى شفاعته لانا به صرنا شفعا ولا يكون ذلك الا باتباعه ولا ننال الا ما استعددنا له

﴿ ولأضرب لك مثلا بما عرفناه فى زماننا ﴾

أمة تألبت عليها الجيران ووثبت عليها أمم الفرنجة من كل جانب وهى قليلة العدد ضعيفة العدد قل فيها المال والولد فاستسلموا للعدو خاشعين وانقادوا له صاغرين فقام منهم رجل من قواد جيوشهم فهب فيهم صارخا وقال قوموا من مراقدكم والله ناصركم واجمعوا صفوفكم فـ(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) فأجاب دعاءه الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والشبان وقاموا قومة واحدة فانهزم العدو المغير ورجع وهو حسير فرجعت الأمم المغيرة الى الخلف وثبت للضعفاء النصر تلك الأمة هى الأمة التركية فى هذه الايام * أفترى أيها الذكى ان ذلك النصر يكون بالاتكال على ذلك القائد المرشد النصيح فيقولون له أيدك الله قاوم العدو بهمتك وحاربه ببأسك وقوتك انا مادحوك وداعون لك بخير وتابعوك * أم يقومون معه قومة رجل واحد ويتبعون سننه فى العمل فيهزمون العدو بتضافرهم وتآزرهم * لاجرم أنك تعلم أن النصر تابع لخير الأمرين وهو الوجه الأخير فهكذا يكون الانبياء مع أممهم فالانبياء قواد فوق كل قائد يقودون الناس الى سعادتهم وشفاعتهم لهم على خير الوجهين السابقين * فاذا سمعت قوله تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وقوله (ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) وقوله (ولا يؤخذ

منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) وقوله (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون)

فاعلم أنها تلك الشفاعة الأولى فى المثال المتقدم وهى أن يتكلوا على الانبياء وينامو انومة الاغبياء ولو كان الله يريد منا أن نتكل نفوسنا اليهم لاطال آجالهم جميعا وأنت ترى أن فى أمتنا من طالت أعمارهم أكثر من نبينا فمن حكمة موته فى سنه المعروفة أن تستقل الامة فى شؤونها وتقوم بأعبائها ولعلك تقول مالى أراك تخص الانبياء بالاعظام والاجلال والاكبار وما أراك الامسايرا للجمهور * ولقد رأينا فى هذه الاعصر من أضاءت الكهرباء باختراعهم وابتدعوا فى الحروب ماشاؤا بذكائهم ومدوا الاسلاك البرقية بعقولهم وفى الارض فلاسفة وحكماء كسقراط وأفلاطون وروسو الفرنسى فكيف تخصون النور بالانبياء والارشاد بالمرسلين وكيف تخصون نبينا بأنه سراج منير وان العلماء يتبعون وأنه يشفع فى الناس بالمعنى الذى قررته مع أن كل الناس يعلمون ويتعلمون

أقول اعلم ان الله عز وجل مشرق نوره فى العالمين فكما أن الشمس والقمر والكواكب والكهرباء والبخار الناجم من الفحم وكذلك الزيت والشمع تكون منها الانوار الحسية التى أودعها الله فى المواد المحسوسة هكذا أودع نورا أتم وجمالا أبهى وأكمل واشراقا أتم وأعظم فى نفوسنا الانسانية وعقولنا وحواسنا وادراكنا وفى سائر الحيوان فلكل حيوان هداية تمت بها سعادته والانسان من بين الحيوان هداه الله هداية أعلى وجعله فى مقام أتم وأكمل وألهم طوائف منه فكانوا أكمل من غيرهم فيرشدون اخوانهم الى ماهو أكمل وأشرف

فقولك ان فى الناس من هدوهم الى الكهرباء والى مد أسلاك البرق وما شاكل ذلك فانى أقول لك ليست الهداية خاصة بهؤلاء فالهداية عامة فى الحيوان والانسان فاما ارشاد الناس الى الأمور المعاشية بالانوار وسرعة النقل وما شاكل ذلك فهى لم تخرج عن الهداية العامة فان الشمس مشرقة مبذولة فاذا زاد المخترع أنوارا للناس فهو خير من جنس مابذل لهم فى الطبيعة المعلومة الجسية * وأنت تعلم أن الهداية النفسية أرقى من الحسية فانه لولا ادراكنا وعقولنا لم نستفد من المادة شيأ * والذين يهدون الناس بهذا المعنى أربع فرق الحكام من الأمراء والملوك والوعاظ والحكماء والانبياء فالوعاظ للعامة والحكماء للخاصة والأمراء للحكم على أجسام الناس لاعقولهم * أما الانبياء فانك تراهم قد اتبعهم الخاصة والعامة والوعاظ وكانوا أعم من الجميع

وأنا لا أقول لك الا ماهو حاصل فى النوع الانسانى وماهو واقع فعلا فسقراط لا يعقل حكمته ولا يفهم رأيه الا الخواص *وأما العامة فهم فى واد سحيق والوعاظ لا يكلمون الا الجهال *ونحن نرى ان الانبياء اتبعهم من سائر هذه الطوائف فاذا كان الناس يهتدون بحواسهم وبعقولهم وبحكمائهم وبمخترعيهم وبقواد جيوشهم فانا نرى ان سائر الانبياء قد اتبعهم كل هؤلاء * وها أنا ذا قلت لك ماتراه واقعا كما قدمنا اذا علمت هذا فهمت قوله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم (انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) وقد جاء فى سورة النبأ (وجعلنا سراجا وهاجا) متلألئا وهو الشمس (وأنزلنا من المعصرات) السحائب (ماء ثجاجا) منصبا بكثرة (لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا) ملتفة بعضها على بعض * وانما ذكر السحب بعد الشمس لانها ناجمة من اثارة الحرارة للبخار من البحار فيكون مطر افيحيى النبات كما قدمنا هذا فى العالم المشاهد المحسوس فهكذا جاء فى هذه السورة تشبيه القرآن بالمطر النازل من السماء * وجاء فى سورة أخرى ان النبى سراج منير وجاء فى حديث البخارى المتقدم ان مثل العلم الذى أنزل عليه عليه الصلاة والسلام كمثل الغيث الخ فتشابه العالم الحسى والعالم المعقول * فالعلم العام النبوى ينزل على صدور العلماء والعامة والخاصة فهو كالشمس ومن سواه لهم أعمال خاصة فالشفاعة العامة لهم مشرقة على الجميع ولكل امرئ ما اكتسب (ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين)

(تفضيل بنى اسرائيل)

وأما الكلام على تفضيل بنى اسرائيل فان الله يقول يابنى اسرائيل انى قذفت فى قلوب أبنائكم الحمية والشهامة والعز بما أوحيت الى موسى أنه يقول لهم أنتم شعبى وأفضل العالمين كما هى السنة المرغوبة فى تمدين الشعوب أن يبتدأ بادخال الامل وطرد اليأس وافهام الابناء انكم ذوو شرف وعز وفضل * ولعمرى ان هذا هو السنن الوحيد والعلاج المفيد الناجع لاثارة الحركات العلمية والعملية فى الامم التى أخلها الاهمال وأضاعتها يد الزمان وأنامها الحدثان كما كان فى بنى اسرائيل اذ ذبحت أبناؤهم واستحييت نساؤهم ابتلاء من الله وامتحانا وهذا هو المذكور فى الاصحاح الاول فى سفر الخروج

وكلم ملك مصر قابلتى العبرانيات اللتين اسم احداهما سفرة واسم الاخرى فوعة وقال حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسى اذا كان ابنا فاقتلاه وان كان بنتا فتحييانه * وفى الاصحاح الثالث عشر انهم خرجوا من مصر فى شهر أبيب * وأمرهم الله فى الاصحاح الثانى عشر والثالث عشر بعيد الفصح أن لا يأكلوا مخمرا سبعة أيام ويكون السابع عيد الفصح شكرا لله تعالى كل سنة على نعمة أغدقها عليهم اذ اخرجهم من دار الهوان الى دار الحرية والكرامة أليس من عجب هذا التهييج والحث على الحرية للتنائى عن مقام الذل وليربؤا بانفسهم أن يردوا ماء الحياة اذا مازجه صاب المذلة وعلقم الهوان

وللموت خير من حياة دنيئة * وللموت خير من مقام على الذل

ثم تعجب كيف جاء فى التوراة مروءة هاتين القابلتين ولم تخونا ولم تقتلا ولدا كيف خافتا ربهما وحفظتا أبناء بنى اسرائيل فتولى فرعون ذلك بنفسه وأمر المصريين فقتلوا ورموا كل مولود ذكر فى البحر

ولما كان شأن الله أن يجعل من كل ضيق فرجا وأن بعد العسر يسرا نجاهم وأغرق فرعون وجيشه

(الياقوتة الثانية * والثالثة * والرابعة * والخامسة)

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ

يقول الله واذكروا اذ فلقنا بسببكم البحر لتهربوا من عدوكم فيه وقوله (فأغرقنا آل فرعون) أى وهو معهم وقوله (أربعين ليلة) أى لنعطيه التوراة عند تمامها وفيه مايجب عليكم عمله (ثم اتخذتم العجل) وقد صاغه السامرى فعبدتموه من بعد ذهاب موسى الى ميعاده به ثم محونا ذنوبكم من بعد ذلك الاتخاذ لعلكم تشكرون النعم

﴿وإذ آتينا موسى كتاب التوراة الفارق بين الحق والباطل لعلكم تهتدون من الضلال * وإذ قال موسى لمن عبدوا العجل منهم انكم تجاوزتم الحد بعبادة العجل ولتكن توبتكم أن يقتل البرئ منكم المجرم ذلك القتل خير لكم عند خالقكم فقبل توبتكم * واذكروا اذ قلتم لموسى لما قبل الله توبتكم وقد أخذ منكم سبعين رجلا ليعتذروا عمن عبدوا العجل فسمعوا كلام الرب في الطور) لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتكم الصاعقة أي النار فاحرقتكم وأنتم تنظرون ما حل بكم * ثم بعثنا كم أي أحييناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون النعم وسترنا كم بالسحاب الرقيق في التيه من حر الشمس أبان الله في هذه اليواقيت ما قصه في سفر الخروج في التوراة وكيف أغرق فرعون وجنوده ونجى موسى وقومه كما جاء في الاصحاح الرابع عشر من السفر المذكور فدفع الرب المصريين في وسط البحر فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر ولم يبق منهم ولا واحد وأما بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وشمالهم اه بالحرف

وقال في الاصحاح الثاني عشر فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس وهي بلدة قريبة من السويس الى سكوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الاولاد ثم قال وأما اقامة بني اسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة ولقد حثهم على تذكار يوم الخروج ليستديموا الحرية تذكرة للعاقلين وتبصرة للمسلمين الغافلين وقد قال تعالى لنا وكذلك جعلناكم أمة وسطا عدولا وقال كنتم خير أمة أخرجت للناس

فليبحث المسلمون عن أنفسهم ولينظروا أهم تلك الأمة التي عناها الله بالخطاب أم قوم غيرنا سلفوا أم سيخلفونا وليعتبروا كيف فرع الله بني اسرائيل ووبخهم اذ آتاهم التوراة على لسان موسى وقد دخل في وسط السحاب وصعد الى الجبل وكان موسى في الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة فاتخذوا العجل وعبدوه كما وضح في التوراة في نفس هذا السفر ومامثل اليهود في نبذ التوراة والعمل بها الا كمثل المسلمين اليوم وجهلهم بما تضمنه القرآن من الحكم العجيبة والآيات البديعة ولما أعرضوا عن الصراط السوى عذبوا وأذيقوا طعم الموت فقتل المؤمنون الصابرون تلك الفئة التي عبدت العجل

وفي التوراة ان القتلى ثلاثة آلاف لا سبعون ألفا كما يقول بعض المفسرين قال في الاصحاح الثاني والثلاثين وقف موسى في باب المحلة وقال من للرب فالى فاجتمع اليه جميع بني لاوى فقال لهم هكذا قال الرب اله اسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب الى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل

(الياقوتة السادسة * والسابعة)

قوله : وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ مارَزَقْناكُمْ وماظَلَمُونا وَلكِنْ كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ * وإِذْ قُلْنا ادْخُلوا هٰذِهِ القَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلوا البابَ سُجَّدًا وقُولوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلى الذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّماءِ بِما كانوا يَفْسُقُونَ *

يقول وأنزلنا عليكم في التيه المن والسلوى وقلنا كلوا من هذه الطيبات ولا تدخروا فكفروا النعمة وادخروا فمنع عنهم ذلك الرزق وماظلمونا الخ واذ قلنا لهم بعد خروجهم من التيه على لسان يوشع ادخلوا بيت المقدس الخ وقوله

رغدا أي واسعا لا حجر فيه سجدا أي متواضعين خاشعين لله عز وجل والرجز العذاب وهو هنا الطاعون بسبب فسقهم والمنّ هو الترنجبين كان ينزل كالندى من الفجر الى طلوع الشمس والسلوى هو طير السماني

قال في الاصحاح السادس عشر من سفر الخروج فكلم الرب موسى قائلا سمعت تذمر بني اسرائيل كلمهم قائلا في العشية تأكلون لحما وفي الصباح تشبعون خبزا وتعلمون أني أنا الرب الهكم فكان في المساء ان السلوى صعدت وغطت المحلة وفي الصباح كان سقيط الندى حوالى المحلة ولما ارتفع سقيط الندى اذا على وجه البرية شئ دقيق مثل قشور كالجليد على وجه الارض ثم قال لهم موسى هو الخبز الذي أعطا كم الرب لتأ كلوا هذا هو الشئ الذي أمر به الرب لتعطوا منه كل واحد على حسب أكله اه وهذا قادهم الى سوء فعلهم وأضلهم جهلهم فبدلوا قول الله عند دخول باب القبة التي كانوا يصلون بها (قولوا حطة) أي مسألتنا حطة أي ان تحط عنا خطايانا فاستهزؤا وقالوا (حنطة في شعره) يريدون أنهم لا يعنيهم شأن الذنوب والخطايا ولا التوبة وما أشبهها وانما همهم الطعام والغذاء ومستلذات الحياة فهذه المخازي الفاضحة والعيوب الواضحة سجلت عليهم في التوراة والقرآن وحفظها لهم في سجل الزمان عبرة للذكرين وتبصرة للمسلمين

(الياقوتة الثامنة والتاسعة)

وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ *

لما أسلف الله ذكر اظلالهم بالغمام واغداقه النعم عليهم بالغذاء وكيف أعرضوا كافرين وتولوا مشركين أخذ يشرح ما أسبغ عليهم من ضروب نعمه وأوسع من كرمه وفضله وعظيم جوده فقال

(واذ استسقى موسى الخ) طلب السقيا (لقومه) وقد عطشوا في التيه وقوله (فانفجرت منه الخ) كان ينبع من الحجر اثنتا عشرة عينا لكل سبط عينهم التي يشربون منها وقوله (لا تعثوا) لا تفسدوا وقوله (واذ قلتم يا موسى الخ)

سيأتي

سيأتي تفصيله وقوله (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) أي أخذناعهدكم بالعمل بما في التوراة وقد اقتلعنا الجبل من أصله عليكم لما أبيتم قبولها وقوله (فجعلناها الخ) أي جعلنا العقوبة عبرة للامم المعاصرة وللامم التي بعدهم وموعظة للمتقين من كل أمة* أبان الله في هذه الآيات كيف فجر لهم ينابيع الماء من الصخر وكيف تولوا بعد ذلك الانعام باظلال الغمام من الحر وانزال المن والسلوى وتفجر الماء اذ ضرب موسى بعصاه ثم كيف سئموا النعمة و بطروا الفضل وجهلوه فلم يشكروه فطلبوا أن يستبدلوا الذل بالحرية وطعام المدن بما أكرموا به في البدو وهم في أمن ودعة وراحة وكيف كفروا بالرحمن وقتلوا المصطفين الأخيار من الأنبياء والمرسلين وكيف عصوا أن يقبلوا التوراة فأرغموا على قبولها ورفع الطور فوق الرؤس فذلوا صاغرين وقبلوها مكرهين وكيف ضل منهم فريق أيام داود عليه السلام في مدينة أيلة (العقبة) فصادوا السمك يوم السبت بحيلة دبروها وقشور شرعية من الجهل استخرجوها فمسخوا قردة في أعمالهم وصاروا في صورة انسانية ونفوس قردية* كما هو شأن المقلدين في الباطل الغافلين الذين لا يفكرون

و يقولون قد أفتانا شيخنا فلان وما هو بمغن فتيلا ولا قطميرا (اذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد) فليعتبر المسلمون اليوم وليعلموا انه لن ينفعهم أضاليل الدجالين ولا أكاذيب المرجفين لهم المسهلين طرق الكسل حتى ناموا على وساد الراحة وخمدوا خمود النار ضربها البرد بما ازجاه المثبطون للهمم لينيموا الناس على مهد الرجاء فاصبحوا لا ترى إلا جسومهم وهم غافلون عن الأعمال محرومون من الآمال

(ايضاح الكلام)

﴿ في قوله تعالى اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم الآيات ﴾

اعلم أن هذه القصة وغيرها تعليم للمسلمين وتربية وتذكير لهم لان بني اسرائيل انقضى أمرهم وذهب ريحهم وفات دورهم *ذلك أنهم لما كانوا في التيه وهواؤهم طلق وهم في البادية وشظف العيش تبرؤا من رجس المدنية وخبث المدن وفسق أهلها ومرضهم و بطنتهم وجشعهم وقلة أدبهم وسقوط أخلاقهم وكذبهم ونفاقهم وحقهم وحرصهم وادخارهم وكدحهم ليلا ونهارا فالشهوات الحارة تلدغهم وتحرقهم فيصطلون بنارها و يقارفون الفجور ويأكلون أكلا لما ويحبون المال حبا جما و يتخبطون في دياجير الذنوب والمعاصي والعيوب ويكون رؤساؤهم أخسهم مقاما وأردأهم أخلاقا وأشدهم نفاقا وأقربهم الى الشرور وأبعدهم عن الخيرات وتقل بينهم الأمانات ولا يخافون رب العالمين بل سطوة الحاكمين وتكثر أمراضهم لكثرة الألوان في طعامهم ويكونون جبناء هلعين فزعين ان فاجأهم عدو فروا خائفين وولوا هاربين * هذا شأن المدن وهذه مسجية أهلها ولا نستثني منهم أحدا * الا أن الممالك الكبيرة تكون لها جيوش مدربة على الحرب يحرسون بلادهم ويحاربون أعداءهم وهم في أنفسهم خوارون قتلتهم شهواتهم فلا ينفعهم في قتال عدوهم الامضاء أسلحتهم ووفرة مدافعهم وكثرة الطيارات في جيوشهم * فأما أهل البادية الذين تنزهوا عن رجسهم وخلصوا من بطشهم وتجافوا عن جبنهم وقربوا من الفضيلة وابتعدوا عن الرذيلة وقويت أبدانهم وعظمت نفوسهم وهم شجعان كرماء فاولئك اذا أعطوا سلاح أهل المدن قاتلوهم فغلبوهم واستأصلوهم ولذلك ترى ان الامم التي في المدن اذا طال عليها الأمد غلبتها على أمرها تلك الأمم البدوية وورثت أرضها وديارها وحلت مكانها ثم يتناسل هؤلاء في المدن جيلا بعد جيل و يتبعون سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ثم يأتي آخرون فيغلبونهم على أمرهم (وتلك الأيام نداولها بين الناس) على ذلك درج الأمم قديما وحديثا * فدولة الرومان لما استفحل أمرها وعلت كلمتها وخضعت لها الرقاب وذلت لها الأعناق هجمت عليها الأمم الوحشية البدوية العاتية الجاهلة العارية من سابغ

الرغد ونعيم الحياة ففتكت بهم وورثت أرضهم وديارهم وأموالهم وها هم أولاء اليوم أصحاب الحول والطول في أوروبا وقد مضى على ملكهم نحو ألف سنة وكأنهم أيضاً أصبحوا وقد ملك رقابهم الترف وانغمسوا في اللذات وغرقوا في بحر لجي من الظلم والمعاصي والفتك فأصبحت مدارسهم لتعليم الاجرام والفتك والاغارة على الأمم وقد آن أوان أن نبيدهم أمم أبعد عن الترف وأقرب الى حال البداوة وتحل محلهم كما فعل آباؤهم مع دولة الرومان * وهكذا ترى أن الأمة العربية لما نزل عليها القرآن أنار بصائرها وأغلى مراجلها وبعث الحرارة الدينية في نفوس أبنائها فأخذت تمتد الى سائر الجهات فلكت دولة الفرس التي قتلتها البطنة والنعيم وامتدت من جهة أخرى الى بلاد الروم وأحاطت بها وحلت محل الأمتين * ثم طال على الأمة العربية الأمد وأسكرها النعيم فجاء اليها التتار من المشرق والفرنجة من المغرب فجالوا بساحتها وساء صباح المنذرين وصارعوها فصرعوها فنامت الى حين * ثم هي الآن تريد أن تأخذ مكانتها * وبالجملة ليس للأمم من سعادة الا بالتجافي عن اللذات والتباعد عن الشهوات والاقلاع عن البطنة والاقلال من دواعي الترف والنعيم فهؤلاء بنو اسرائيل لما كانوا في مصر ذاقوا حلاوة المدنية ونعيم العيش فأنسوا باللذات واستخذوا للشهوات فذبح فرعون رجالهم واستحيا نساءهم فأمر موسى أن يخرج بهم فخرجوا وبعد ما أمروا بقتال الجبارين ضلوا في التيه وتاهوا في بيدائه وجالوا في فسيح هوائه الطلق وعاشوا في صحراء قاحلة تعلموا فيها ضروب الشجاعة والعفة والاعتماد على النفس فتربوا هناك أربعين سنة * يقول العلماء حضانة الاخلاق أربعون وحضانة العلم عشرون فلما أنسوا من أنفسهم القوة وأحسوا بالمنعة وأنهم أقوى من آبائهم الذين ختم الترف ونعيم العيش في مصر على قلوبهم راموا أن يتمتعوا بلذيذ العيش ونعيم المدن فقالوا (ياموسى ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها) وهو ما نبتته الأرض من الخضر والمراد أطايبه التي تكون بها اللذات (وقثائها وفومها) حنطتها (وعدسها وبصلها) قال الله لهم على لسان موسى (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) يقول الله أتدرون ما هو خير وتأخذون ما هو أدنى وكيف ترضون أن تتركوا عيشة البادية الهادئة الحرة النقية الصافية التي تقل فيها الأطعمة فتصح الأبدان وتطول الأعمار وتقوى النفوس وتطوحون بأنفسكم الى المدن التي تسقم الأبدان وتذل النفوس بالمرض واذلال الحكام وموت الشجاعة والاتكال على الجماعة وتكون حراسة المدن بطائفة من الجند والأمة كلها عالة على حكامها عارية عن المنعة والقوة يسامون الخسف ويلبسون لباس الذل * اذا أبيتم الا ذلك (فاهبطوا مصراً من الأمصار فان لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله) ثم ان جميع ما خاطب الله به بني اسرائيل لم يقصد به الا نحن أبناء العرب ومن معنا من الأمم وان جميع قصص الأنبياء تنبيه وارشاد قال تعالى (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقال (اتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم) وقال (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) وروى أن قتادة قال ذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول قد مضى والله بنو اسرائيل وما يغني ما تسمعون عن غيركم فليكن للمسلمين عبرة في هذه القصة * وفي التاريخ فان بني اسرائيل لما دخلوا أرض كنعان واستفحل ملكهم مئات السنين أخذهم الترف وجاءهم بختنصر فأسرهم وأجلاهم وأخرب ديارهم ثم رجعوا بعد حين فأجلاهم الروم مرة أخرى بعد المسيح وها هم أولاء في الأرض متفرقون شذر مذر (في كل واد يهيمون)

(الفوائد الطبية في هذه الآية)

لقد أظهر الطب الحديث في هذا العصر مخزيات المدنية ومصائبها الطبية وأبان أن الاكثار من اللحم وشرب الخمر والتدخين بالتبغ وشرب القهوة والشاي والكاكاو واضرابها من الممرضات والقاتلات

وقال أساطين الأطباء ان معيشة المدن اليوم أصبحت لا تطاق * فعلى الناس أن يقللوا من الأدوية التي في الصيدليات المسماة (أجزاخانات) بل قال أكابرهم ان هذه ستمحى من الوجود لما فيها من الضرر بنوع الانسان وأثبتوا أن

الماً كل المركبة والتى هى كثيرة الغذاء ضررها كثير ومنعوا شرب الماء على الطعام وأكل الطعام وشرب الشراب الحارين لضررهما بالأسنان والحلق واللسان * وقالوا ان أهل البادية أقوى أجساما وأصح عقولا لاقتصارهم على الحنطة والتمر وطلبوا من الناس الاقتصار على الحبوب والفاكهة وأن يقللوا ما استطاعوا لذلك سبيلا

ويقول هؤلاء الأطباء العصريون ان العناية الالهية تكفلت باصلاحنا * ألا ترى ان الجرح يأخذ فى الاندمال شيأ فشيأ بلا عمل من الانسان وهل ذلك الا للعناية الالهية التامة فى الطبيعة فعلينا اذن أن يكون جل عنايتنا بالهواء النقى والرياضة والغذاء الصحى معرضين عن الاغذية المهيجة وعن اكثار اللحم ولنقصد العمل المعتدل ولنستحم بالماء البارد أو الفاتر حتى يقوى المريض على مكافحة المرض ونترك الادوية المعتادة ما وجدنا الى ذلك سبيلا * وقد منع التداوى بالعقاقير المتراكمة فى الصيدليات الدكتور (غرانبشتاتن) وهو من عظماء الاساطين فى الطب بألمانيا * ومن العجيب انه منع المداواة بها سواء أكانت جيدة أم رديئة ويقرب منه فى ذلك الدكتور كيسر الذى قال يجب أن يعزل المريض عن الطبيب كما يجتنب السم القتال * وقال الاستاذ سقيفنس الاستاذ بالكلية الطبية فى نيويورك كلما كثر تجارب الاطباء قل اعتقادهم فى تأثير العقاقير وزاد اعتقادهم فى قوى الطبيعة ويقرب منه الدكتور سميث وقد قال مثل هذه الاقوال ما يربو على ثمانين عالما من الامم المختلفة فى زماننا

واعلم أنى كنت فى زمن الشباب قد اعترانى مرض ولم أجد طبيبا يداوينى لانى كنت فى بلاد الريف فوقع فى يدى كتاب يسمى الطب النبوى للشيخ الذهبى فكنت أستخلص منه فوائد أعمل بها * ومن عجب ان ما نقلته لك عن أطباء أوروبا صورة مكبرة له ولست أقول انهم نقلوا عنه كلا وانما رأيت تشابه الاقوال فلقد قرأت فى هذا الكتاب ان الادوية ضارة الا عند الاضطرار وان المرض له نمو كنمو النبات ودور انحطاط بميقات معلوم والطبيب لا عمل له الا تلطيف المرض وفيه اياك أن تقرب المسهل الا عند الضرورة واذا قدرت أن تتداوى بالغذاء فاحذر أن تتداوى بالعقاقير وحرم الشرب على الاكل وقد عملت به اذ ذاك وانتفعت به وصح جسمى ولقد كنت أيام تلك الحمية ربما لا أشرب بعد الطعام الا بعد أربع ساعات أو ثلاث ونفعنى ذلك ولله الحمد * ولكن لما طال الزمن لم أجد من الاطباء من يؤيد هذا فى عصرنا الا قليلا حتى قرأت هذا عن أطباء أوروبا فأوضحوا مناهجهم أوليست هذه المناهج هى التى نحا نحوها القرآن أوليس قوله (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) رمزا لذلك كأنه يقول العيشة البدوية على المن والسلوى وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما مع الهواء النقى والحياة الحرة أفضل من حياة شقية فى المدن بأكل التوابل واللحم والاكثار من ألوان الطعام مع الذلة وجور الحكام والجبن وطمع الجيران من الممالك فتختطفكم على حين غفلة وأنتم لا تشعرون بمثل هذا تفسر هذه الآيات وبمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله وبهذا فليعملوا وليوصوا الابناء بالاقلال من اللحم وتحريم شرب غير الماء الا فى أحوال خاصة وأن يستنشقوا الهواء النقى ويروضوا أجسامهم بالتعاليم العسكرية وليكن جميع الشبان متمرنين عليها وذلك لا يمنعهم من مزاولة أعمالهم فى الحقول والمدارس ولتتعلم جميع الامة الاعمال العسكرية وليست فرق الكشافة فى المدارس بمغنية عن ذلك وليقللن من الاسراف والشهوات فالنعيم فى ترك النعيم والا فليخافوا من قوله تعالى (اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله) وتعاليم القرآن والسنة تنحو هذا المنحى والا فلم يقول الله (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) أفلست ترى ان الطيبات وان كانت حلالا لنا اذا أكثر الناس منها كما قال الاطباء فى هذا المقام يصيبهم المرض فى الاجسام والذل فى المدن والعذاب فى الآخرة والقرآن عبر عن هذا كله بقوله (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق) أوليس قوله (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ينحو هذا المنحى وهو أن نفوسهم تمرض وتجبن وأجسامهم ينهكها الضعف وعدوهم يقتلهم * وهذا سر تلك المحاورة المشهورة بين ابن زياد وسيدنا عمر رضى

الله عنه اذ قال ابن زياد ما معنا لو اتخذت لك يا أمير المؤمنين طعاما طيبا والخاطر يا لكان أوفق لك فقال يا عبدالله لو شئت لاتخذت طعامى من الرقاق والصناب (وهو الزبيب المصنوع مع الخردل يقوى شهوة الطعام) ولكنى رأيت الله عير قوما فقال (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الآية)

وأقول كرة أخرى على المسلمين فى أقطار المسكونة أن يتعلموا الفنون الحربية تعليما اجباريا وأن يمنعوا من الكسل ويلزموا العمل وأن يربوا أبناءهم على الشهامة والمروءة والقناعة * ألم تر الى أسلافنا العباسيين والامويين اذ كانوا يرسلون أبناءهم فى صغرهم الى البادية تقوية لابدانهم واجادة اصحتهم ونموا لعقولهم * أوليس أهل أمريكا اليوم يرسلون أبناءهم الى الحر المتوحشين يعيشون معهم فى الجبال مكشوفين لضوء الشمس ونور القمر وجمال الكواكب هكذا فليفعل المصريون من أهل النعيم وليرسلوا أبناءهم الى اخوانهم العرب المصريين ليتربوا هناك قبل دخولهم المدارس ليعيشوا فى جبال مصر وأوديتها لتقوى أبدانهم ويكون منهم شجعان أقوياء * ولينح هذا المنهج جميع المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ولقد بلغنا أن اخواننا الفرس بلغوا فى ذلك مبلغا عظيما فى هذا الوقت الحاضر وأنهم يمرنون أبناءهم من ابان صغرهم على الفروسية والاقدام وهذا من أعظم مقاصد الدين

أما الاستخذاء للشهوات والرضوخ للترف والنعيم فانما هو الاستعباد بعينه والاسترقاق فان الترف داع الى المعاصى والمحرمات وتجاوز الحدود والاعتداء وهذه تدعو الى ترك نصح الناصح والتمادى فى الضلال بل ربما قتلت العصاة عن نهاهم عن القبيح واسترسلوا فيه بل ربما قتلوا العلماء والحكماء ونفوهم عن الاوطان وشردوهم كل مشرد كما ترى فى زماننا ان الفسقة والفجار يخلعون العذار ويذمون الابرار واذا قدروا على سجنهم أو نفيهم أو قتلهم كان ذلك لامحالة وهذا قوله تعالى (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فهى مراتب ثلاث بعد المعيشة فى البادية الاولى الاسراف فى الترف الثانية العصيان والتعدى الثالثة قتل الانبياء وللاولى الاشارة بقوله (اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم) وللثانية الاشارة بقوله (ذلك بما عصوا) الخ وللثالثة بقوله (ويقتلون الأنبياء بغير حق) والله يقول الحق وهو يهدى السبيل اهـ

(ايضاح الكلام)

﴿ فى قوله تعالى ان الذين آمنوا والذين هادوا الآية ﴾

يقول (ان الذين آمنوا) بدين محمد بألسنتهم وفى قلوبهم الشك (والذين هادوا والنصارى) جمع نصران (والصابئين) وهم عبدة الملائكة فالكواكب فالاصنام وأنها شافعة فالاصنام تقوم مقام الكواكب والكواكب كأنها أجسام أو محال التصرف للملائكة والملائكة شفعاء عند الله كل هؤلاء من (آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) أى استكمل قوتى العلم والعمل (فلهم أجرهم عند ربهم) الخ والمراد باليهود والنصارى والمجوس الذين اتبعوا دينهم قبل النسخ أما اذا نسخ الدين فانه يتنزل بمن اتبعه الى أسفل

واعلم ان هذه الآية ترشدنا الى مكارم الاخلاق فى معاملة الناس فان الجاهل يحقد على من آذاه ولا يعفو وينتقم ولو بعد حين أما العاقل فانه اذا رجع المذنب عن ذنبه وانضم الى جانب من أذنب اليه قبله وانتفع به فالمنافقون وأهل الكتاب المعادون للانبياء متى آمنوا وتابوا كان لهم مالنا وعليهم ماعلينا * ومن عجب ان هذا نفسه تفعله الدول فاى دولة غيرت سياستها مع أخرى بعد ان ذبحت رجالها واستحيت نساءها وقالت لها ان مصلحتى أن أكون معك تبدلت العداوة بالمحبة وتصافتا وتضامنا وهذه السياسة التى يقوم بها السواس فى المدن التى يسير عليها مجموع كل دولة وقد قال علماء الاخلاق لتكن سياسة الانسان مقيسة على سياسة الامة فالفرد كالامة هذا كلام علماء الاخلاق فاما هنا فهى السياسة العليا والمثل الاعلى والمقام المحمود مقام النبوة المنبثق نوره من الجلال الأقدس والنور الأعلى والجمال الأجلى والكمال الذى ليس فوقه كمال فتى تاب المرء ذهبت خطيئته كائنة ما كانت فلنسر على ماسنه الله

ولا

ولا تحمل الحقد على من قدم لنا توبة خالصة ولنعامله ذلك هو السنن والصراط المستقيم اهـ

(الياقوتة العاشرة من الفصل الأول)

قصة البقرة وما أودع فيها من الحكم :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

روى المفسرون حكاية عن بنى اسرائيل كانوا يتوارثونها كابرا عن كابر تهذيبا للنفوس وحبا للوالدين وطاعة لله تعالى ونحن نذكرها مختصرة لفائدة النافعة

حكى انه كان رجل صالح فى بنى اسرائيل وكان له طفل وله عجلة فانطلق بها الى غيضة وقال اللهم انى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر فلما مات الرجل وكبر الولد كان بارا بأمه يقسم ليله ثلاثة أقسام يصلى ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا وفى النهار يحتطب فيتصدق بالثلث ويأكل الثلث ويعطى أمه الثلث فقالت له أمه يوما يا بنى انطلق الى غيضة كذا ففيها العجلة التى تركها لك أبوك وأفهمته علاماتها فلما ذهب الى الغيضة عرفها وقادها ورجع الى أمه فقالت له بع البقرة فى السوق بثلاثة دنانير على شرط أن تشاورنى فذهب الى السوق فاعطى أكثر من ثلاثة فلم يرض الا باستشارة أمه وقال لطالبها لو أعطيتنى ملء جلدها ذهبا لم أبعها الا باذن أمى فلما رجع الى أمه قالت لا تبع هذه البقرة فسيكون لها شأن * واتفق أنه كان فى بنى اسرائيل شيخ موسر فقتل بنو أخيه ابنه طمعا فى ميراثه وطرحوه على باب المدينة ثم جاؤا يطالبون بدمه وسألوا سيدنا موسى فقال (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) فقالوا أتقابل الجد بالهزل وتستهزئ بنا فقال معاذ الله أن أفعل فعل الجاهلين الذين يستهزؤن فى مقام الجد ثم قالوا (ادع لنا ربك يبين لنا ماهى قال انه يقول انها بقرة) لا مسنة ولا فتية (عوان بين ذلك) أى نصف بفتحتين ووسط بين الفارض والبكر * وقال نبينا عليه الصلاة والسلام لو ذبحوا أى بقرة أرادوا لاجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم

فشدّد الله عليهم ثم سألوا عن لونها (فقال انها بقرة صفراء فاقع لونها) أى ناصع أى صفراء شديدة الصفرة (تسر الناظرين) ثم زادوا فى سؤالهم وقالوا (ان البقر تشابه علينا) الآية قال (انه يقول انها بقرة لا ذلول) غير مذللة ومدربة على العمل لا تحرث الأرض (ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها) والشية اللون المخالف للون جلدها (قالوا الآن جئت بحقيقة وصف البقرة ولم تكن بقرة فيها تلك الصفات الا بقرة اليتيم التى ذكرناها آنفا فاشتروها من اليتيم وأمه بملء جلدها ذهبا فذبحوها ولم يفروا من الفعل حتى انتهت أسئلتهم ثم أخذ الله يذكر بنى اسرائيل فقال (واذ قتلتم نفسا فادّارأتم) أى اختصمتم (فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون) ثم أمرهم الله بان يضربوا القتيل بقطعة منها فضربوه فحيى وقال قتلنى فلان وفلان ثم سقط ميتا وظهر أن القاتل هو أبناء عمه الوارثون الذين كانوا يطالبون بدمه فحرم القاتلون الميراث * ثم قال الله كما أحيينا القتيل كذلك نحيى الموتى ويريكم الله آياته لعلكم تعقلون ثم قرع اليهود بعد ذلك بأنهم يبست قلوبهم (فهى كالحجارة أو أشد قسوة) من الحجارة مع أنه من الحجارة تتفجر الأنهار وتنشق العيون الصغار ومنها مايهبط منقادا لأمر الله المعبر عنه بالخشية فينزل من أعلى الجبل الى أسفله * أما اليهود فقلوبهم لا تلين ولا تخشع هذا تفسير الآيات اجمالا

(ايضاح هذه الآيات وعجائبها)

خالط بنوا اسرائيل الأمة المصرية وأشربوا فى قلوبهم العادات الوثنية والاخلاق الفرعونية فعبدوا عجولهم وقدسوا أصنامهم والصقت بهم عاداتهم ورسخت فى طباعهم رذائلهم كما هو شأن المغلوب مع الغالب والضعيف مع القوى والولد مع الوالد والتلميذ مع الاستاذ والجاهل مع العالم والفقير الضعيف مع القوى الغنى وكما هو شأن الأمم التى استضعفتها الاقوياء واستذلها الباطشون وشأن ضعاف الأمم الشرقية مع الأمم الغربية فانظر كيف غلب على بنى اسرائيل ماعلق بأذهانهم ورسخ فى طباعهم من عبادة العجول حتى اتخذوا العجل وعبدوه كما كانوا يرون ابيس معبود المصريين وهذا شأن البشر يتخذون أوهام الغالبين الذين استوسق لهم الأمر وتم لهم النصر عليهم وماحال بنى اسرائيل فى التيه العابدين للعجل الا كمثل من أذلهم المستعمرون الغاصبون فتعلقوا باذيال ظالميهم وغرهم سرابهم الخادع وهذا شأن البشر فى كل قبيل وكما يقول المتعلم الشرقى قال المسيو فلان والسير فلان وهم قد ضربوا بيد من حديد

فلم يكن للنبى موسى عليه السلام بد من انتهاز فرصة القتيل الذى اشتجروا عليه وتخاصموا وكان من الاغنياء الموسرين فقال ذبحوا بقرة واضربوه ببعضها فضرب بحجرين ورمى الجهل بسهمين فاساهم عبادة العجول وأراهم ان للاموات حياة وبعثا بعد أن أرهقهم بامر الله بما وصف من البقرة النادرة العزيزة النظير بعد أن عبدوا العجل الذهبى وكيف وصف قلوبهم بانها كالحجارة أو أشد قسوة وفضل الحجارة عليها بان قال (وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء)

لقد سبق أن ذكر الحجر المضروب بالعصا وهو معجزة نادرة الوقوع صارت على يدنبى ولقد ألمع فى هذه الى رحمة الله الواسعة وفضله العميم وخيره الجسيم اذ كانت الجبال كلها مخازن للماء الذى سلكه فى باطنها مما أمطره السحاب فاصابه البرد فصار ثلجا يكسر الحجر الصلد والصفا الملد وتتفجر الينابيع

يقول الله لئن ضرب موسى الحجر بعصاه فعصاى التى أضرب بها ذلك الناموس العجيب والابداع الغريب والنظام البديع اذ جعلت للماء اذا جمد خاصة لا يشركه فيها سواه وطريقة لا يسلكها عداه ذلك انه اذا جمد فصار ثلجا أكبرت حجمه فكسر الصم الصلاب وفجر الانهار تلك عصا ربك التى يكسر بها الاحجار وهو عام الجود دائم المعجزات ماتوالى الحدثان وتناجى الفرقدان فالمعجزات الالهية لانهاية لعددها ولا آخر لمددها دائمة لاتبيد وقائمة لاتفنى خفيت على الجهلاء وظهرت للعلماء والحكماء (لا يعقلها الا العالمون) ولا يدرك كنهها المغفلون ذلك داع حثيث

الى

الى النظر فى العلوم الطبيعية وعار على أئمة الاسلام أن تجهل عصا الله الناموسية المفجرة للأنهار الكاسرة للأحجار كل ليل ونهار وكل صباح ومساء فى مشارق الارض ومغاربها والا فكيف اختص الحجر بالضرب أليس ذلك تنبيها للغافلين وتذكيرا للجاهلين من المسلمين والأمم أجمعين وعدم نسيانهم مجد آبائهم وعلومهم كما نسى بنو اسرائيل التوراة المنزلة على موسى وهو رجل منهم ان الانسان ظلوم جهول (يقول) الله ان الماء مخزون فى الاحجار ومنها تنفجر الانهار فهلا ضرب بشجرة أو بقرة أو خيمة إنما هداه الله بالوحى الى ما يبعث فى النفوس حكمة وفى العقول فهما ليجد الناس فى العلوم هذا هو السر فى قوله تعالى وما نرسل بالآيات (خوارق العادات) الا تخويفا ثم يقول (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)

بمثل هذا تكون الذكرى و بمثل هذا يستيقظ المسلمون و يأخذون حظهم المنشود ويومهم الموعود

تفجر الانهار من الجبال والاحجار انما كان بما اختصت به المياه من حكمة الانتفاخ اذا جمدت كما علمت وتعجب كيف ضربت الشمس الرياح وأرسلت عليها أشعتها فأجرتها فأخذت تعدو وتموج فى مخارق الجو وفسيح باحاته وهى تحمل قطرات الماء الخافية المسماة بالابخرة الغاديات الرائحات حتى اذا اصطكت بالجبال الراسيات صدتها وأرجعتها فبست ورجعت وكونت سحابا فسقت الحقول والرياض فأحقل النبات وأثنى وأثلث وتشعب الشجر وفرش وأورق وأزهر وأثمر وأينع وما أشبه الجبال بالحبوس (أى السدود) لتحفظ الماء حتى يسقى الحقل

الجبل حبس الماء فاذا رده وهو بخار نزل ودقا فسلك فى باطن الارض أياما حتى اذا أصابه برد تفجر ينابيع

عجب الماء وأى عجب تجريه فى الجو الحرارة الشمسية وتزجيه الرياح و يحبسه الجبل ثم يخزنه فى كهوفه والمغارر المستكنة تحته والبرد يخرجه

أليس من عجب ان الحرارة تجريه بخارا والبرد يجريه ماء

هذه هى المعجزات وهذه هى الآيات فياحسرة على المسلمين نسوا حظهم من الحكمة ونسوا حقهم فى الوجود ياحسرة على بلاد الاسلام جهلوا العلم وناموا فى المهود وسكنوا اللحود قوموا من مراقدكم وانظروا ما أبدع القرآن وكيف يقول (وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون)

فان كنت جاهلا فلا تعد حجر موسى وعصاه وان كنت عالما فما أحراك أن تتغلغل فى الحكمة وتنظر فى العالم وما حواه وتردد الطرف وتعلم أن الجبال كلها حجارة الله والنواميس الطبيعية عصيه واقرأ الطبيعة فلقد نبهك القرآن من ذكر الحجارة وتفجر الانهار منها أن تنظر نظرات ولا تكن من أولى الجهالات

(عجائب القرآن وغرائبه)

ان هذه القصة المحكية عن بنى اسرائيل معجزة لنبى الله موسى عليه السلام ذكرت هنا فى القرآن كسائر قصص الانبياء وهنا يتساءل الانسان قائلا أى فائدة نجنيها من هذه القصة اللهم الا أن تتلى فى المحافل والمجالس الدينية ولكن القرآن انما جاء ذكرى وعلما وحكمة فاين العلم وأين الحكمة هنا فنقول بما يجاب كما أجبنا ان فيها فائدتين * الأولى ان البقرة عبدها المصريون فقد أراد سيدنا موسى أن يظهر لهم ان ما يذبح ليس بمستحق العبادة * الثانية ان الارواح أحياء بعد الموت فيكون ذلك دليلا على بقاء النفوس حية كما قلناه هنا ولكن هاتان الفائدتان ليستا بمقنعتين لان عبادة البقر ليست شائعة الآن فى الاسلام واحياء الميت بضربه ببعض البقرة أمر سماعى يأخذه المؤمنون بالتسليم فلابد اذن أن يكون وراء هذا القصص أمر نافع * أقول اعلم ان معجزات الانبياء لابد أن يكون لها عند الناس مبادئ بها نقبلها * ألا ترى ان الامام الغزالى يقول لولا ان الناس يرون رؤيا صالحة بأنفسهم أو يسمعونها من غيرهم وانها وقعت كما رأوها ما صدقوا الأنبياء فى اخبارهم بالغيب * فاعلم ان هذا القرآن جاء للناس وهو يتلى صباحا

ومساه وتمر عليه السنون والأعوام والناس يؤمنون به تقليدا وتصديقا واتباعا ولايجرأ أحد من المؤمنين أن يقول لم كان كذا فيما لم يدركه فهمه حتى اذا جاء من يدرك المقصود منه عرفه فابرزه للناس * ان فى هذه السورة أربع عجائب عجيبة الربا وعجيبة الخمر وعجيبة احضار الأرواح وعجيبة التنويم المغناطيسى * أما عجيبة الربا فستأتى فى آخر السورة وقد ظهر هناك ان الحرب الكبرى بين الألمان ودول أوروبا والشرق كانت من أجل رؤس الأموال التى كانت (البنوك) المصارف والربا أهم مقوم لها وهكذا استعباد الدول القوية للأمم الضعيفة وظهر (البلشفيك) فى بلاد الروس وقلبوا حكومتهم من أجل رؤس الأموال وأبطلوا الربا فسيأتى هناك فى الآية المذكورة فى الربا وقد كنا فسرناها قبل الحرب بثلاث سنين وقلنا قوله (فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) يفيد أن الحرب ستكون بين الدول لأجل رؤس الاموال * وبالاجمال أقول ان الربا ظهر ضرره بأوضح معنى فى هذا العصر وقامت الروس بتحريمه ومنعه بتاتا والمسلمون فى جميع العصور لم يقدروا أن يستأصلوه بل انى رأيت من أفاضل المصريين المعاصرين لى من كانوا يرون ان القرآن فى تحريمه للربا كان من أسباب تأخر المسلمين فلما سمعوا بانقلاب دولة الروس وتحريم الربا ألجمت أفواههم بالاحجار

* وأما الخمر فسيأتى تحريمه فى هذه السورة وأنت ترى ان المسلمين كانوا يختلفون فى بعض أنواعه وهو النبيذ وترى الأطباء قد يبيحون تعاطيه لمرض والمسلمون فى أقطار الارض يخالفون ومنهم من كانوا يتعجبون من القرآن ولم حرمه وأوروبا وهى أعلم منا تشرب به حتى قامت أمريكا فى هذا العصر فمنعت شربه بجميع أنواعه وأسكتت جميع الأمم واتبعتها الحكومة التركية ببلاد الاناضول التى يرأسها الغازى مصطفى كمال باشا وقد استولوا على الاستانة وحرموا فيها الخمر تحريما باتا فى هذا الشهر عند كتابة هذه الأسطر فانظر كيف كان الخمر محرما ألف سنة وثلثمائة فأكثر والناس منهمكون فى شربها والشعراء المسلمون يترنمون بها ولا تمنعهم الحكومات الاسلامية ولم تظهر الثمرة المطلوبة الا على يد أمم أخرى بمعرفته بعقولها لا بأديانها

* أما مسئلة التنويم المغناطيسى الذى عم الكرة الارضية وصار علما يدرس رسميا ويستعان به فى علم الاداب فسيأتى عند الكلام على هاروت وماروت

* وأما علم تحضير الارواح فانه من هذه الآية استخراجه ان هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الارواح بأمريكا أولا ثم بسائر أوروبا ثانيا (فلأذكر نبذة منه) لتعرف كيف كان مبدأ هذا العلم وكيف كان انتشاره بين الامم وفائدة هذا العلم ان من صحت عنده أحوال الارواح وظهورها أيقن بالآخرة وبالحياة بعد الموت ايقانا تاما * وأما من لم تصح عنده فانه مقلد كسائر الناس ولتعلم ان هذا العلم متشعب اختلط فيه الحق بالباطل والصدق بالكذب وصار الناس فيه طائفتين طائفة مكذبة وطائفة مصدقة ولكل حجج ليس هذا محلها ولكن بالاجمال أقول ان فى العلم التباسا كثيرا وشكوكا بسبب الاحوال الطارئة على المشتغلين به وكان الاولى بأمة الاسلام أن تكون السابقة فى مضماره المجدة فى تعلمه المتقدمة على سائر الامم فى تحصيله لتهدى الناس الى سواء الصراط * أفلا يرى المسلم ماجاء فى هذه السورة فى قوله تعالى (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم) وفعل ابراهيم ذلك وقطع الطير ودعاها فاجابت فاطمأن وهل نحن أكثر ايمانا من ابراهيم كلا فاذا كان ابراهيم يطلب اليقين بالمعاينة فنحن أولى والانبياء أعلم منا فكان يجب على المسلمين أن يكونوا هم البادئين بعلم احضار الارواح لا أمريكا لان الله ذكر لنا فى سورة البقرة انهم ضربوا القتيل فحيى وأخبر بمن قتله وهو الذى كان وارثا له فحرم الميراث واذا صح هذا فى نفس واحدة فجميع الانفس يجب أن تكون كذلك وانها حية بعد الموت وليس يمكن أن يكون هذا يقينا الا اذا رأيناه بأنفسنا فى زماننا بلا شك وأنى لنا ذلك الا بالكد والنصب والتعب والسهر ليلا ونهارا فى العلم والعمل (ولقد ألفت كتابا سميته كتاب الارواح ضمنته) ما ورد الينا من أوروبا وأمريكا من كيفية

احضارها وهكذا ما يقابل ذلك مما ورد فى القرآن والحديث وكلام الصالحين فرأيت اتفاقا بين الامتين فلأنقل لك الآن ماجاء فى التوراة من احضار الارواح مثل ما فى عصرنا تماما ثم أتبعه بنبذة مما فى كتاب الارواح الذى ألفته فى تاريخ هذا العلم ولست أريد بذلك أن تقلد ما أقول ولكن أقول يجب أن يكون فى المسلمين جماعة صادقون مخلصون قاصدون وجه الله والدار الآخرة لا عرض الدنيا ينقطعون لهذا العلم ويحضرون الارواح لاجل العلم والمعرفة ولا يتكلون على أوروبا وأمريكا ويميزون الخبيث من الطيب * وطرق التحضير واضحة فى كتاب الارواح المذكور فلأبتدئ لك الآن بما جاء فى التوراة فى سفر صموئيل الأول واليهود والنصارى معترفون بنبوّته مصدقون به ويذكر فى هذا السفر أنه نصب لليهود ملكا يقال له طالوت وأمره الله بقتل العماليق ففعل الا أنه خالف من قبل مواشيهم وسقط عن مرتبة الملك ومات صموئيل وأقبل طالوت على قتل السحرة والعرافين فقتل من قتل وهرب من هرب وأقبل أهل فلسطين لمحاربته فجمع العرافين لهم ودخل الرعب من كثرة الجيوش المنصبة عليه ولم يجد من يسكن الى قوله كعادته من نبي ولا ساحر ولا عراف ولا حاكم فقلق لذلك * قال فى التوراة ولما رأى جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جدا فسأل من الرب فلم يجبه الرب لا بالاحلام ولا بالأنبياء فقال لعبيده فتشوا لى على امرأة صاحبة جان فأذهب اليها وأسألها فقال له عبيده هاهو ذا امرأة صاحبة جان فى عين دور فتنكر طالوت ولبس ثيابا أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاؤا الى المرأة ليلا وقال اعرفى لى بالجان وأصعدى لى من أقول لك فقالت له المرأة أنت تعلم ما فعل طالوت كيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الارض فلماذا تضع شركا لنفسى لتميتها فحلف لها طالوت بالرب قائلا حيّ هو الرب لا يلحقك اثم فى هذا الأمر فقالت المرأة من أصعد لك فقال اصعدى لى صموئيل فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم وكلمت المرأة طالوت قائلة لم خدعتنى وأنت طالوت فقال لها الملك لا تخافى فماذا رأيت فقالت المرأة لطالوت رأيت شيخا مهيبا مثل ملائكة الرب مشتملا بيرنس قد صعد من الارض فعلم طالوت أنه صموئيل أرسله الله فدخل اليه وسجد بين يديه فقال صموئيل يا طالوت لم أزعجتنى وأحييتنى قال لما ضاقت بى الارض من أهل فلسطين ومحاربتهم اياى وزوال عناية الله عنى ومنعه الاحلام منى فدعوتك لاشاورك فى أمرى فقال صموئيل ان الله تعالى قد نقل الملك منك الى صاحبك داود وغضب عليك وعلى بنى اسرائيل بما فعلتموه فى مواشى العماليق وهو ناصر فلسطين عليكم ومديلهم فتصير معى غدا فى الاموات فخر مغشيا عليه وعرفته الساحرة فأقبلت اليه ومن كان معه ولم يزالوا به حتى أفاق وألحت عليه المرأة والعبدان أن يأكل وهو يمتنع منتظرا الموت حزينا كئيبا فلم يزالوا به حتى رضى فذبحت عجلها المسمن فى البيت وصنعت فطيرا فأكل * ولما طلع النهار التحمت الحرب فوقعت الهزيمة على العبرانيين فأكثر القتل فيهم وقتل طالوت وبنوه الثلاثة وكان قتله هو انه اتكأ على حربة فأخرجها من ظهره فاجتمع بنو اسرائيل على تمليك داود فدافع بهم من ناوأهم * هذا ما قرأته فى كتب أسلافنا عن التوراة وقد وضعتها بين يدى عند كتابة هذه الحكاية فرأيت الموافقة تامة الا فى بعض عبارات لا تضر بالمقصود جاءت من تحريف الناسخين هذا هو تحضير الارواح فى التوراة

أما ما جاء فى العصر الحاضر الذى يناسب مسئلة القتيل الذى ضربوه ببعض البقرة ومسئلة ابراهيم الخليل وقوله لله (ولكن ليطمئن قلبى) ومسئلة صموئيل النبى مع طالوت المعبر عنه بلفظ شاول فى التوراة الذى ذكرنا قصته الآن فها كه * قلت فى كتاب الارواح

قال شير محمد هل يذكر لى الاستاذ كيف كان بدء هذه الحركة فى العالم الحديث * قلت ان هذه الحركة بدأت مع الانسان على ظهر الارض وعاشت مع الأمم دهورا وأحقابا فلما كانت هذه القرون الحاضرة وأظلمت الدنيا واسود وجه الحقيقة وأخذ الناس يجهرون بالالحاد أرسل ربك لهم عجائب وبث لهم من الارض غرائب انبعثت لهم من عوامل الغيب وسطعت الحقائق وأشرقت الارض بنور ربها فى سنة ١٨٤٦ م ذلك انه سمع فى تلك السنة طرقات متوالية فى بيت رجل يسمى (فيكمان) من قرية (هيدسفيل) فى نواحى ولاية نيويورك وتوالى

ذلك ليالي ذوات عدد فذعرت تلك الأسرة وقذف في أفئدتهم الرعب فهجروا المكان بعد أشهر فسكنت الدار أسرة (جون فوكس) المؤلفة من الرجل وامرأته وابنتيه فعادت الطرقات وتوالت الضربات وهرع الجيران لينقبوا عن تلك الاصوات المزعجة ثم اهتدوا الى سبيل الرشاد اذ علموا ان تلك أفعال ناجة عن عقل فاصطلحوا مع مصدرها على لفظ نعم ولفظ لا بطرقتين وثلاث ففهموا أنها روح أصابها شر قد قتلها رجل في هذا البيت والذى كشف ذلك (مدام فوكس) والقتيل الطارق يدعى (شارل ريان) قتل منذ أعوام عديدة في ذلك البيت وكان في حياته دوّارا قتله من كان يبيت عنده لسلب ماله وكان عمره احدى وثلاثين سنة ثم شاع الخبر وذاع واستهزأ الناس بذلك وسخروا منها وقالوا ان هذا لكذب مبين وانتقلت عائلة فوكس الى قرية (روستر) من الولايات المتحدة وشاع الخبر وذاع وثار علماء الدين والملحدون وسائر الشعب على المرأة وابنتيها وتعرضن للموت مرارا فعين القوم لجنة من العلماء لكشف الحقيقة فأعلنت أنه لا أثر للشعوذة ولا للاحتيال فهاج الشعب وعين لجنة أخرى فقررت كالأولى وعينوا ثالثة فأذعنت كسابقتيها فهم الطغام باهلاك الابنتين وسبوا وشتموا علماء اللجان المذكورة ولكن الابنتين لم يصبهما ضرر وقامت الجرائد والمجلات تنشر مقالات الهزؤ والسخرية بهذا العمل ومن العجب أنه لم يمض أربع سنين حتى فشا المذهب في سائر الولايات المتحدة حتى لم يكن يخلو بيت من وسيط أووسيطة تخابر القوم على يده الارواح وقد يجلسون حول منضدة ويتلون أحرف الهجاء وعند وصولهم الى الحرف المقصود تطرق المائدة برجلها ولم تمض سنة ١٨٥٤ أى بعد الحادث بثمان سنين حتى أصبح أمر هذا الحادث من أعمال دار الندوة ومجلس الاعيان الملتئم في مدينة وشنطون فقد رفعت عريضة طويلة مذيلة بخمسة عشر ألف اسم هاك صورتها صفحة ١٦ من كتاب المذهب الروحاني

نحن الواضعين أسماءنا بذيلها أبناء جمهورية الولايات المتحدة الامريكية نعرض لمجلسكم الموقر ان حوادث طبيعية وعقلية لا يعرف لها مبدأ ظهرت منذ قليل في هذه البلاد وفي أكثر أنحاء الاوروبية وتكاثرت هذه الحوادث السرية في شمالي الولايات المتحدة وغربيها ومتوسطها حتى أقلقت الرأى العام ولما كان الموضوع الذى نلتمس من جمهوركم الموقر الالتفات اليه لا يمكن شرحه في هذه العريضة على اختلاف أنواعه نلخصه لكم بوجيز من الكلام فنقول

﴿ أوّلا ﴾ ان ألوفا من العقلاء المدركين شهدوا قوة خفية تحرك أجراما ثقيلة وترفعها وتخفضها وتنقلها وتقلبها على أنواع مختلفة مناقضة في الظاهر للنواميس الطبيعية ومتجاوزة حدود الادراك البشرى ولم يتوصل أحد حتى الآن الى ايجاد علة خصوصية أومقاربة لهذه الحوادث

﴿ ثانيا ﴾ ان أنوارا مختلفة الشكل والألوان تظهر في الحجر المظلمة من دون أن يجد القاعدون فيها مادة قابلة لتوليد عمل كيماوى أوتنوير فسفورى أوسيال كهربائى

﴿ ثالثا ﴾ ان نوعا غريبا من هذه الحوادث نلتمس من مجمعكم الموقر الانتباه له وهو اختلاف الاصوات في تكرارها وأنواعها وأهمية معناها فبعضها طرقات سرية تدل على وجود عاقل غير منظور وبعضها تحاكى الأصوات التى تدوى في بعض المعامل الميكانيكية أوتتحول الى دوى أشبه بصرير الريح العاصفة تتخللها فرقعة صوارى المراكب وملاطمة الأمواج لجدرانه حين هبوب العواصف وأحيانا تصير الاصوات شبيهة بقصيف الرعد واطلاق المدافع وترتج عندها الاشياء المجاورة بل البيت ذاته الذى تقوم فيه تلك الحوادث وفي بعض الاوقات تكون الاصوات شجية تماثل تارة الصوت البشرى وتارة آلات الطرب كالمزمار والطبل والبوق والقيثارة والعود والارغن تصدر اماجلة واما على حدة وتارة مع عدم وجود الآلات المذكورة وطورا مع وجودها ولكن تضرب من نفسها دون مس يد بشرية لها وتصدر هذه الاصوات وفقا للمبادئ العلمية المنوطة بقوة السمع أى حدوث تموجات هوائية تلتطم باعصاب السمع وانما لم يتوصل الباحثون رغما عما بذلوه من الجهد في استجلاء مصدر لهذه التموجات الهوائية

ونرى من المناسب أن نشير الى المبدأين اللذين افترضا فى حل هـذا المشكل فالاول اعزاء الحوادث الى أرواح الاموات وفعلهم فى العناصر الدقيقة الاولية المالئة والسارية فى كل الاشكال الهيولية وهذا ماشرحه العامل السرى ذاته حين طلب اليه ايضاح ذلك وقد وافق على هذا الزعم عدد عديد من أبناء وطننا الممتازين بآدابهم وقوة ذكائهم ومركزهم الرفيع فى السياسة والهيئة الاجتماعية وأما أصحاب المبدأ الثانى ولأكثرهم أيضا رفيع المنزلة فى القوم فهم ينكرون الزعم الاول ويذهبون الى أن مباحث العلماء لابد من أن تنير بقوة المبادئ المعروفة من العلوم النظرية العقول بايجاد سبب حقيقى مستوفى الشروط لكافة الحوادث المنوه عنها

على اننا وان كنا لانوافق على رأى هؤلاء وقد توصلنا بقوة البحث الى نتائج مخالفة لكل علة طبيعية للحوادث التى نحن بصددها نؤكد لجهوركم الموقر ان الحوادث جارية حقا وصدقا وان مصدرها السرى وغرابة وقوعها وأهمية تأثيرها فى صوالح الجنس البشرى تستوجب بحثا علميا مدققا لا يعتريه الكلال

ألا يستطيع كل عاقل أن يفكر مامقدار الحوادث التى نحن بصددها من الاتيان للشعب الامريكى بنتائج مهمة ثابتة تتعلق باحواله المادية والعقلية والأدبية ثم ماذا يكون لها من التأثير فى أصول الصحة والحياة ومبادئ الفكر والعمل حتى يمكنها أن تؤول الى تغيير أصول معيشتنا واصلاح مبادئ ايماننا وفلسفة عصرنا وتبديل هيئة ادارة العالم

واذا كان من اللائق والمناسب لروح نظامنا أن نقصد دائما نواب الشعب فى المسائل التى يصدر عنها اكتشاف مبادئ جديدة تأتى بنتائج مدهشة للهيئة الاجتماعية

أتينا نحن أبناء الوطن نلتمس بالحاح من جهوركم الموقر انارة بصائرنا فى هـذه الظروف الغريبة وذلك بتعيين لجنة كاملة مهما يلزم لها من النفقات فى سبيل استجلاء هذه الغوامض واننا لمعتقدون ان صوالح الهيئة الاجتماعية سينالها الحظ الأكبر من نتائج أعمال اللجنة التى التمسنا اقامتها ولنا مزيد الثقة فى استصواب طلبنا واجابة ملتمسنا من لدن مجلسكم الموقر — مذيل بخمسة عشر ألف اسم اهـ

ثم اعلم ان هذا العلم عم الولايات المتحدة حتى صار المذهب يتبعه سنة ١٨٩٥ نحو ٢٠ مليونا فى الولايات المتحدة وعدد الشركات الروحانية سنة ١٨٧٠ عشرون شركة روحانية عمومية ومائة وخمس جمعيات خصوصية و(٢٠٧) خطباء و ٢٢ وسيطا عموميا ومن علمائهم الحاكم (أدمون) كان رئيس القضاة وانتخب مرارا فى مجلس الاعيان والعلامة (روبرت هير) الامريكى الطائر الصيت وألف كتاب أبحاث عرفية فى ظهور الارواح والعلامة (روبرت دال أوين) وألف كتابا سماه (عثار فى حدود عالم الغيب) وكان فى تلك البلاد فى آخر القرن الماضى نحو ٢٢ جريدة ومجلة تنقل الى القراء أخبار أعمالها

ولم يكن ليبحث أحد من العلماء هذا البحث الا لينقذ الناس من الضلال بما آتاه الله من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ولما ملأ هذا الحادث أرجاء الولايات المتحدة بلغ صدى صوتهم آذان الانجليز فقام العلماء والفلاسفة فيها للبحث والتنقيب عسى أن يخرجوا العالم الانسانى من الظلمات الى النور بتفنيد هذا السحر وابعاد هذا الظلام وقشع السحاب الذى غشى على الانسان فحجب عنه نور العلم وأذاع فيه الخرافات والاكاذيب فقام العلامة الطائر الصيت (وليم كروكس) من أعظم الكيماويين والطبيعيين المكذبين بهـذه الاساطير والعلامة الفرد (روسل والاس) قرين داروين الشهير والمساعد له فى أعماله فقال شير محمد قرين داروين قرين داروين فقلت نعم فقال أف للمقلدين كيف يصبح والاس قرين داروين مؤمنا بالبعث وهؤلاء الذين يدعون أنهم قرؤا مذهب داروين ينسبون كفرهم اليه ألا تعس الجاهلون الذين لايعقلون ثم قلت ومنهم العلامة (أوجست) دى مرجان رئيس جمعية الرياضيات فى لوندره وكاتم أسرار المجمع العلمى الفلكى ثم السير (فارلى) مخترع آلة المستودع الكهربائى

والمجمع العلمى المنطقى الذى تأسس فى لوندره سنة ١٨٦٧ قرر فى جلسته المنعقدة فى ٦ كانون سنة ١٨٦٩ وجوب اقامة لجنة للنظر فى الحادث الروحانى والوقوف على صحة الامر ودرسته ١٨ شهرا متوالية ولقد دهشت الامة الانكليزية لما بلغها قرار اللجنة بصحة الحادث ولقد ألف والاس الآنف الذكر كتابه الذى سماه (عجائب الروحانية الحديثة) ومن العلماء الذين كانوا من أشد المعاندين الدكتور (جورج ساكستون) الخطيب المصقع الذى بعد أن عابها أخذ يدرسها ١٥ سنة وقال لقد أيقنت بالروحانية وحادثت أقاربى وأصدقائى المتوفين وكذا الدكتور (شامبرس) والدكتور (هوغسون) والعلامة (ميرس) وهناك جمعية المباحث النفسية ولها مجلة تسمى (أشباح الاحياء)

ولقد حصل فى فرنسا مثل ما كان فى أمريكا وانجلترا فقد قام بالامر منهم البارون (جيلدنستوبه) وألف كتابا سماه حقيقة وجود الارواح ظهر فى سنة ١٨٥٧ أى بعد الحادث الامريكى بنحو ١١ سنة وأجيست فاكبرى ألف كتابا سماه (شتات التاريخ) على ذكر الامتحانات الروحانية وكذلك (فكتور هوجو) شاعر الفرنسويين اذ قال أن من أعرض عن الحادث الروحى فقد أعرض عن الحقيقة وكذا المؤرخ (أوجين بوشير) والعلامة فلاماريون الفلكى الطائر الصيت والعالم موريس لاشاتر مؤلف القاموس الذى باسمه والدكتور جيبيه الطبيب الشهير

ثم فشت الروحانية فى ألمانيا وروسيا وايطاليا والبلجيك واسبانيا والبورتوغال وهولانده وأسوج ونروج (هذا ملخص ماجاء فى كتاب المذهب الروحانى) الذى هو خير كتاب ألف بالعربية لعلم الارواح فى هذا الزمان قد أبنت لك كيف كان انتشار هذا الحادث فى النصف الثانى من القرن الماضى

هذا ما فى هذه العصور من العلوم الخاصة بالارواح وتعجب من القرآن كيف ذكر مسائل الحياة بعد الموت فى قصة الخليل كما ذكرناه وانه أمر بتقطيع الطيور وخلط لحمها بعظمها وريشها ثم يدعوها فتحيا فى أواخر هذه السورة وأنت تعلم أننا عن هذا عاجزون وهذه معجزات لنبى وذلك النبى أراد أن يطمئن قلبه بالمعاينة بعد الايمان ولاجرم ان ايماننا أقل من ايمان الأنبياء فنحن أولى بطلب المعاينة وطريق الخليل فيها مقفل بابها علينا فمن فضله تعالى ذكرهنا أن القتيل قد حيي بضربه ببعض البقرة وهذا فتح باب لاحضار الارواح فكأنه يقول فى مسئلة ابراهيم اطلبوا الحقائق لتطمئنوا وهنا يقول اسلكوا السبل التى بها تستحضرونها ولا تنالون شيأ من هذا الا بجدكم وكدكم فالعلم لاينال الا بالمشقة والنصب فاذا وجدتم ان طريق موسى فى احياء الموتى يصعب عليكم فالتمسوا غيره (وأن ليس للانسان الا ما سعى) هذا ما بدا لى فى هاتين الآيتين للخليل وموسى الذى سار على قدم جده فى البقرة فحيي الميت على يديه * وفى السورة آيتان أخريان فى احياء الموتى وهما (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) والآية الأخرى نزلت فى العزير اذ قال فى بيت المقدس (أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام) ثم نظر الطعام الذى كان معه والشراب فرآهما على حالهما لم يتغيرا وصار ينظر الى حماره وهو يحيا وتتصل العظام ببعضها وتكسى لحما فعلم (أن الله على كل شئ قدير)

فالمسلم اذا قرأ هذه الآيات التى حكيت عن بنى اسرائيل يقول فى نفسه أنا آمنت فان كان من العامة لم يطلب المزيد وان كان من الخاصة قال أنا أطلب المعاينة والمشاهدة والمشاهدة باحدى طريقتين * الطريقة الأولى ماسلكه المجاهدون الزاهدون ولكنها محفوفة بالخطر ومن شاهد منهم شيأ لا يمكن لغيره التصديق به * الطريقة الثانية طريقة استحضار الارواح وهى عامة كما تقدم فى هذا المقام ولكن استحضار الارواح أيضا على ما يقولون صعب المنال ويقولون ان الأرواح النقية لاتخاطب الا قلوبا نقية خالصة فرجع الامر عند الصوفية وعند علماء العصر الحاضر من أوروبا الى أن المدار على الاخلاص والصدق وطلب الحقيقة والتوجه لله فهذا هو الأصل عند الجميع * ولذلك

ترى الذين يظنون أنهم استحضروا الأرواح متى غلب عليهم حب الدنيا تحضر اليهم أرواح كاذبة خاطئة على مقدار هممهم. وتكلمهم بالأكاذيب والمواعيد العرقوبية كما ان المجاهد من الصوفية لاينال الزلفى الا باحتقار العالم الفانى ولما كانت السورة التى نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته وكذلك حماره ومسئلة الطير وابراهيم الخليل ومسئلة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون فماتوا ثم أحياهم وعلم الله أننا نعجز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة فى السورة ما يرمز الى استحضار الأرواح فى مسئلة البقرة كأنه يقول اذا قرأتم ماجاء عن بنى اسرائيل فى احياء الموتى فى هذه السورة عندأ واخرها فلا تيأسوا من ذلك فانى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة (واسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون) ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقى خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزير وابراهيم وموسى فهؤلاء لخلوص قلوبهم وعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة ليطمئنوا وأنا أمرت نبيكم أن يقتدى بهم فقلت (فبهداهم اقتده) فاقتدوا بهم فى تعلم ماتطمئنون به وتوقنون ولكن قبل ذلك اقتدوا بالأنبياء فى طهارة القلوب وزوال الرجس من النفوس فان هذه الأمور انما تعرف بالتجربة والعمل لا بالقياس العقلى ولا بالنظر والحدس الفكرى

(مراتب التصديق أربعة)

الايمان * البحث العقلى بطرق الحكماء * طريق الصوفية * طريق استحضار الأرواح وأعمها الايمان وأهمها طرق الصوفية

ولعل قائلا يقول لقد اتبعت طرق الصوفية فلم أزدد علما ويقول آخر لقد أخذت فى طرق استحضار الأرواح فلم أحصل على طائل (أقول) أنتما تلميذان سقطا فى الامتحان وقد سمعت عن آلاف مؤلفة نالوا جوائز وأخذوا شهاداتهم بأيديهم فنحن الى الأخذ بأقوالهم أميل وليس لكما الآن تسلكا سبيل النظر والتعقل بطرق الحكماء فان قالتما أيضا ليس لنا بهاطاقة أقول لم يبق الا الايمان والأذكياء وأنتما منهم عليهم أن يبحثوا فليس لكما الا الالحاد والكفر اللذان انما أنبتهما الكسل واللذات فأثمرا أمانى وضلالات ويأسا من الحياة * ولعل قائلا آخر يقول مالنا ولهذه المباحث التى لاطائل تحتها ولاتجدى نفعا ولا تنفع جارا ولاتورى نارا * أقول له ليس لنا ماتهتم به الا دوام حياتنا والناس ان لم يبحثوا فى هذا لم يفعلوا شيأ وكانت علومهم وممالكهم ودولهم ودياناتهم وفلسفتهم هباء منثورا فى الهواء ألم تر الى قوله تعالى (عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون) والنبأ العظيم هو البعث وبعبارة أخرى حياتنا بعد موتنا أعظم الأنباء والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

(الفصل الثانى)

الى هنا قد أتممنا القول فى الفصل الأول ويواقيته وقد آن أن نشرع فى الفصل الثانى وجواهره وهو شرح حال اليهود المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم وهو خمس جواهر

(الجوهرة الأولى * والثانية * والثالثة قوله تعالى)

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ

إلا أمانيَّ وإنْ هُمْ إلا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ * وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مالا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

يقول (أفتطمعون) أى لا تطمعوا أيها المؤمنون أن يؤمن اليهود لكم وقد كانت طائفة منهم وهم الاحبار يسمعون التوراة ثم يحرفون كلامه من بعد ما فهموه وهم يعلمون انهم مفترون واذا لقى منافقوا اليهود الذين آمنوا قالوا آمنا ان محمدا نبى كما ورد فى التوراة واذا رجع بعضهم الى بعض قال الرؤساء للذين نافقوا أتحدثون المؤمنين بما عرفتم فى التوراة من نعت محمد ليقيموا عليكم الحجة به عند ربكم يوم القيامة فى ترك اتباعه مع علمكم بصدقه أفلا تعقلون انهم يحاجونكم ثم قال أيلومونهم ولا يعلمون الخ ثم قال ومن اليهود عوام لا يعلمون التوراة الا أكاذيب وماهم فى جحد نبوّة النبى وغيرها من المسائل الا يظنون ولا علم عندهم ثم قال فويل أى شدة عذاب لليهود الذين غيروا صفة النبى صلى الله عليه وسلم من كونه ربعة جعد الشعر أكحل العينين الى كونه طويلا سبط الشعر أزرق العينين وقد كتبوه فى التوراة بأيديهم وينسبونه لله ليشتروا به ثمنا قليلا من المال فويل لهم من ذلك الاختلاق وويل لهم من المكسب وقالوا (لن تصيبنا النار الا أياما) قليلة أربعين يوما مدة عبادة آبائنا العجل قل لهم يا محمد على سبيل الاستفهام أتخذتم عند الله عهدا والهمزة هنا للاستفهام وهمزة الوصل محذوفة والعهد الميثاق أم تقولون أى بل أتقولون على الله الخ وقوله (بلى) أى تمسكم النار وتكونون خالدين فيها من كسب شركا وأحاطت به خطيئته فاستولت عليه من كل جانب فمات مشركا الخ

لاجرم ان لكل أمة ثلاث طوائف (١) كبراء سادة (٢) أميون (٣) ذو ولسن ماكرين وبعبارة أصرح علماء وذو ومكر وأميون هكذا اليهود فان طوائفهم الثلاث من الاحبار والاميين وذوى الدهاء قاموا قومة رجل واحد لايذاء النبى ومعارضة دعوته كانهم فى حربهم السيلمة بنيان مرصوص فأضل العلماء بالتحريف فى معانى التوراة التى أيدت النبى صلى الله عليه وسلم وكاد الماكرون ونافق الخادعون وقلد الاميون الذين تلقوا الأكاذيب فوعوها وسمعوا من الافواه أراجيف فرعوها أتباع كل ناعق واشياع كل غالب ووقود كل حاطب

ولما كان العلماء قدوة الحزبين شدد النكير عليهم وأنزل الصواعق من سحاب الغضب بهم ورماهم بشرر من عذابه فقال (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) الآية وكرر الويل تكريرا وأعدلهم عذابا سعيرا

فكر أيها القارىء فى هذه الآيات وتدبرها وكررها وتأمل كيف يضل علماء الدين أممهم لتسهيل الذنوب وتهوين القبائح والعيوب فيتخذون الشهوات ويرتطمون فى اللذات اذ يقولون لن ندخل النار الا أربعين يوما اذ عبدنا العجل فيها أوسبعة آلاف سنة مدة عمر الدنيا فيغتربها الجهلاء ولعمرى أين المناسبة بين عبادة كفر بها قدماؤهم وبين ذنوب اجترحوها وسيآت نكروها ولقد كذبوا فى الدعوتين كما كذبوا فى تحديد مدة الدنيا وهى أضعاف أضعاف ماقالوا وقد آن أوان أن نفسر آيات الاخلاق التى عليها نظام الأمة الاسرائيلية

(الجوهرة الرابعة)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ *

لكل أمة ثلاث أحوال أيام سعادة وهناء وأيام اضطراب وعناء وأيام زوال وفناء هذا قانون عام وناموس لا يتبدل وهو سنة الله (ولن تجد لسنة الله تحويلا) وقد أوضحتها هذه الآية وأبانتها وكشفت عنها القناع

﴿ الحالة الأولى ﴾ أيام السعادة والهناء وذلك ثمانية أصول عبادة الله وإكرام الوالدين وصلة الرحم وإكرام اليتيم وبر المسكين وحسن العشرة بالقول الجميل مع سائر الناس وإقامة الصلاة داعية للائتلاف وكذلك الزكاة وهما عماد الائتلاف والمحبة فضلا عن القرب من الله

﴿ الحالة الثانية ﴾ أيام الاضطراب ثم أنتم هؤلاء تقتلون ويأسر فريق منكم فريقا ثم تفدون الأسرى فاضطربت أحوالكم وتناقضت آراؤكم أو تأسرون وهو حرام وتفدون وهو مرغوب وههنا لا مناص من خراب الديار وحلول الدمار وهي الحالة الثالثة

﴿ الحالة الثالثة ﴾ (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) الا تشتيت جمعهم وتخريب دورهم ونهب أموالهم وضياع بلادهم ذلك لاضلال العلماء وظلم الكبراء

لطيفة

لما كنت تلميذا بمدرسة دار العلوم في السنة الرابعة أمرني أستاذي المرحوم الشيخ حسن الطويل أن أكتب في تفسير هذه الآيات مقالا فصدعت بأمره وكتبت نحو ما يأتي فلما عرضته عليه أقره ونشرته بعد ذلك في جريدة اللواء ثم في المؤيد وصارت في ضمن المقالات التي في كتاب النظام والاسلام فأحببت نشرها هنا لانها بهذا المقام أليق فأقول

(كيف تجتمع الامة وكيف تتبدد)

من تأمل في آيات القرآن وما في القصص وفضونها من الأسباب والنتائج وكيف تجتمع الأمة وكيف يتبدد شملها رآها

صرحت أو أوحت بكل ما يشاهد فى الغالبة والمغلوبة الآن * ولنذكر منها آية ذكر فيها أخذ العهد على بنى اسرائيل وأمرهم باثنى عشر أمرا فلم يعملوا بها الا قليلا ولنقدم قبل ذكرها مقدمة فنقول

لكل أمة ثلاث درجات * الأولى أن تقوى بينها الوحدة وتلتئم بعواطف المودة والمحبة بصلة الارحام والوالدين والأقربين والعطف على ضعفاء الأمة من الفقراء والمساكين وحسن المعاشرة مع جميع الناس حتى يكون ذلك ملكة راسخة فى النفوس فتحب حكامها العدل محبة طبيعية وملكة راسخة ﴿ الدرجة الثانية ﴾ أن تقطع الأرحام من الوالدين والأقربين وتذهب العواطف القومية كما فى آية (فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ويدب فى الأمة داء الفساد فى القلوب ولكن تبقى فيها بقية من العقل العملى فتحافظ على كيانها العمومى ونظامها الدستورى فلا يقتلون ولا يتخذون الأعداء أولياء ولا يفعلون ما يخل بالنظام العمومى ﴿ الدرجة الثالثة ﴾ ان تذهب منهم عاطفة القلوب ورابطة الأجسام معا فيسفك بعضهم دماء بعض ويوالون الأعداء ويخربون بيوت اخوانهم بأيديهم وهذه الحالة تورث الخزى فى الدنيا بتفريق الجامعة ووقوعها فى سلطان من يسومهم الخسف (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) ولنتل عليك الآية الآن وهى (واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فهذه الصفات الثمانية اشارة الى الدرجة الأولى فى الأمة ورفعة مكانتها بالتوحيد والاعتقاد والمحبة بين الأفراد وتوجه القلوب الى ربهم بالعبادات والعطف على أبناء قومهم والشفقة والرحمة بهم ثم أعقبه بقوله (ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى لا يسفك بعضكم دماء بعض ولا يخرج فريق الآخر (ثم أقررتم وأنتم تشهدون) وهذه اشارة الى الدرجة الثانية ثم أعقبها بذكر الحالة الثالثة وهى تفريق الجامعة بعد ذهاب العواطف القومية ودثور النظامات الدستورية والأحكام العادلة فقال (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) ألا وان اختلال الأعمال الناشئ من تفرق القلوب موجب لوقوع الأمة فى سيطرة غيرها وهو بلا ريب موجب للخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة مع انه من تمام نظام الحياة الدنيا اذ لا يجوز أن تبقى الحكومة أمدا طويلا على الظلم والتخبط فى الاحكام اذ للناس رب أراد بقاءهم الى أجل مسمى فمن لم يقوموا بما عهد اليهم من الملك وتركوا الناس يبغى بعضهم على بعض قيض الله لهم من يزيل الظالمين ويعدل بين الناس مهما كان دينهم (ان ربى على صراط مستقيم) فمثل الامة الجاهلة بتدبير شؤونها كمثل الدواب التى لا علم لها بنظام نفوسها فسخر الله لها الانسان العاقل فقام بأمرها * ولما كانت تلك سنة الله فى خلقه ومقتضى نظامه وطبيعة عمرانه أردف ما تقدم بقوله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) ومحصل ذلك أنهم عملوا ببعض الكتاب وهو فك الاسرى من اخوانهم وتركوا البعض الآخر وهو النهى عن القتل والمظاهرة والاخراج من الديار وهذه كانت حال طائفتين من اليهود وهم بنو قريظة والنضير وكانوا حلفاء الانصار فى المدينة وهم الاوس والخزرج فكانت قريظة حليفة الاوس والنضير حلفاء الخزرج فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه فيقتلون معهم اخوانهم ويخرجونهم من ديارهم ويعينونهم عليهم ظلما وعدوانا ثم يفدون الاسرى بعد ذلك فتناقضت أفعالهم فقد آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض فكان جزاؤهم ما قصه الله تعالى وليس ذلك خاصا بأمة اليهود بل هو مقتضى نظام الكون وليس أمرا من الخوارق

(صفة حكام الامم الظالمة وعلمائها)

وصف الله حكامها وعلماءها بأخذ الرشوة والاتكال على الله فى غفران الذنوب اتكال جهالنا اليوم على الله بان

بحسن حالهم و يأتى لهم برزقهم رغدا من كل مكان وتقوم جامعتهم وهم ناءون حيث قال (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه الآية) وصفهم بالاتكال على المغفرة بالتوبة ومخالفة عهد الكتاب

(وصف حربهم)

قال الله تعالى (لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) وصفهم بتفرق القلوب فلا يبرزون لعدو يقاتلونه حتى يدهمهم فى أماكنهم وهم لبعضهم مبغضون وذكر سببه فقال (ذلك بانهم قوم لا يعقلون) والمراد به العقل العملى لا النظرى المراد عند ذكر خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار.

(الصفة العامة بعد الانحلال)

قال الله تعالى (واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) ومن العجيب ان أمة اليهود المرادة بهذه الآية لم يبق لها شوكة ولا ملك فى الارض بعد ذكر هذه الآية فى القرآن وهذا الامر ظاهر لمن عرف الاحوال الحاضرة والغابرة ـ فهذه نبذة يسيرة ذكرناها تبصرة للقراء وذكرى لقوم ينظرون فى شريعتهم ولتعلموا أيها المسلمين ان هذه القصص لم تذكر فى القرآن لنا الا تذكرة واعتبارا لا مجرد حكاية كما يظنه الاغبياء وهذا اجمال تفصله العقول وتوضحه النقول (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)
وازن ما سمعت فى الآيات بما ترى من أحوال المسلمين اليوم اذ غلبت على العقول ترهات وخرافات تلقفها الناس وكيف يسندون ظلمهم للقضاء و يتكلون على الغفران وهل ذلك الا كتكل اليهود أذاع ساداتهم فيما بينهم ان مدة العذاب أربعون فظلوا للشرور يسارعون هكذا عبد المسلمون اليوم الأوهام فنسوا أنفسهم فحاق بهم العذاب الهون وقرؤا القرآن وهم لا يعقلون ووقفوا من العلم على قشوره وعدموا الحكمة ونبذوا علم الكائنات فى الأرض والسموات فسبقهم الغربيون وهم متقاطعون فحل عذاب الخزى بهم فى الحياة وما أشد عذاب الممات ولما أبان هلاك بنى اسرائيل وقد حاق بهم الخزى فى الحياة الدنيا أخذ يبين أسباب حلول العذاب بهم تفصيلا و يحذر المسلمين من اتباع خطواتهم فقال

(الجوهرة الخامسة : وفيها عشر زبرجدات)

« الزبرجدة الاولى »

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ

أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

الكتاب التوراة وقفينا أتبعنا * والبينات المعجزات الواضحة * وروح القدس أى الروح المقدسة قيل جبريل أو الانجيل (ففريقا كذبتم) كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام (وفريقا تقتلون) كزكريا ويحيى (قلوبنا غلف) جمع أغلف مغطاة بأغطية (لعنهم الله بكفرهم) خذلهم بكفرهم فابطل استعدادهم لقبول الحق (كتاب من عند الله) القرآن * يستفتحون يستنصرون على المشركين اذا قاتلوهم وكانوا يقولون اللهم انصرنا بالنبى الذى يبعث فى آخر الزمان ونجد نعته فى التوراة * فكفروا به لما جاءهم واشتروا باعوا * بغيا حسدا (فباؤا بغضب) لكفرهم بمحمد (على غضب) لكفرهم بعيسى وقوله نؤمن بما أنزل علينا هو التوراة ولا يؤمنون بسواه * وقوله وهو الحق أى القرآن ثم قال واذا كنتم آمنتم بالتوراة فكيف قتلتم الأنبياء من قبل وهل هذا مقتضى الايمان بها أخذ الله عز وجل فى تعذيبهم وتخويفهم والتنديد عليهم والتشنيع بأفعالهم اذ قتلوا المصلحين من النبيين فان كانت نصيحة نبذوها أو فضيلة تركوها فكم من نبى كذبوه كعيسى وكم من نبى قتلوه كزكريا ويحيى عليهم السلام وهاهم أولاء أخذوا يكذبونه صلى الله عليه وسلم ولعمرك لن تسعد أمة الا أن تأخذ بيد مصلحيها وتعظم مرشديها فياحسرة عليهم اذا أهملتهم وشؤونهم والويل كل الويل لها ان ناصبتهم العداوة وراشت سهام الحرب لنزالهم وضيقت سبل العمل عليهم فمابالك اذا جرعتهم كاس المنون كما فعل اليهود الا أن الميزان الصالح ومعيار الأمة أن تنظر فى تقديرها المرشدين فان رأيتهم لهم مكرمين وعلى اتباع ارشادهم مكبين فاعلم أنها سائرة للعلاء متقدمة الى الامام ساعية الى الفلاح * وان كان الآخر والعياذ بالله فهناك الدمار ولكنى أرى فى أمة الاسلام اليوم نزعة شريفة ونفوسا عالية وعقولا راقية وفى ظنى انهم سيستردون مجدهم ويرفعون ذكرهم وما شهدت الابما علمت لما أرى من اقبالهم على الحكمة واجلالهم للمصلحين وأخذهم بالتى هى أحسن * ألا وانى أفخر بأمتى وأفرح بشعبى وأعلن على رؤس الاشهاد ان السعادة قادمة عليهم والفلاح ناشر رايته اليهم فلقد بدأ الاصلاح وسينتهى الى غايته ويصل الى كماله ونهايته رغما عما بدا من سحابة الغرور والشرور وستنقشع السحابة وترجع الى الغيابة

« الزبرجدة الثانية »

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

البينات الآيات التسع منها قلب العصا حية (ثم اتخذتم العجل الخ) أى عبدتموه بعد ذهاب موسى الى الطور فآباؤكم كانوا يكفرون بموسى وأنتم تكفرون بمحمد وقوله (رفعنا فوقكم الطور الخ) هددهم الله بان يقع الطور عليهم اذ رفعه فوق رؤسهم ان لم يقبلوا التوراة قالوا اسمعنا قولك وعصينا أمرك (وأشربوا فى قلوبهم العجل) أى تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب وقوله (قل بئس ما يأمركم به ايمانكم) تشكيك فى ايمانهم

وفضح فى عقيدتهم هذه الرذيلة سبق ذكرها وأعيد تقريعا وتوبيخا ليرشد أمة الاسلام الى التفكر بعقول غيرها ولا تنظر بعيون أعدائها كما فكر اليهود فى العجل بعقول قدماء المصريين الا أنهم ضلوا اذ أمرهم علماؤهم بتقديس العجول لبقاء نسلها لتنمية الزرع والانتفاع بالحرث فغلوا فى دينهم وطغوا فى غلوهم وعبدوا ما كانوا احترموا فقلدهم بنو اسرائيل فيما جهلوا وان كانوا لهم أعداء هكذا حال المصريين اليوم على الضد من القدماء اذ جهلوا أمر الحيوان النافع للزراعة فساءت الحال وجاء الوبال وعم الدمار ففقدوا الطير المسمى أبا قردان آكل الدود والحشرات مبيد الاذى مغيث الزرع من الفاتكات جهل المصريون اليوم بالتفريط والاهمال كما أهمل أسلافهم بالتفانى والاسترسال فغلب الفريقان وأهين الاولون والآخرون فأولئك بالوهم الذى أضناهم فى واقعة فغيز وهؤلاء بعموم المودة فى هذه الأيام اللهم انى أضرع اليك أن ترجع العلم لبلادى وتردهم الى الهدى وتبعد عنهم عاديات الدمار انك أنت الحليم الرحيم ولا تجعلهم كاليهود وعلمهم يارب ان الحيوان مكرم مصون وأن الطير فى الجو يعوزه الشجر فليغرسوه وليحفظوا الطير ولا يقتلوه

واعلم انى كنت كتبت هذا التفسير كما قدمت فى أول الكتاب وأنا مدرس بدار العلوم فى نحو سنة ١٩١١ ومن عجيب صنع الله عز وجل انى فى تلك السنوات كتبت فى مجلة الملاجئ العباسية التى كانت تنشر هذا التفسير مقالا مطولا فى اجمال تفسير يوسف قلت فيها ان الفراعنة كانوا أغزر علما من حكام مصر ومن علماء أوروبا الذين يحكم رجالهم بلادنا فشرحت من رؤيا الملك سبع بقرات سمان وسبع سنبلات اهتمامه بالزراعة وعطفت على مسئلة الطيور ونبهت الحكومة والأمة فصدر الأمر عقبها سنة ١٩١٢ م بمنع صيد الطيور النافعة ومن أهمها أبو قردان المذكور وها أنا ذا أكتب تمام التفسير الآن سنة ١٩٢٢ للطبع وقد رأيت بعينى رأسى ان الحكومة قد ربت أبا قردان وانتشر فى البلاد المصرية انتشارا كما كان سابقا فأحمد الله عز وجل على هذه النعمة وعلى حفظ الطيور ببركة الآيات القرآنية وآثارها فى النفوس وحرام على من عنده نصيحة أن يمسكها حجبا عن الجمهور فانها لابد نافعة عاجلا أو آجلا وان شاء الله اذا طال الأجل ووصلت الى سورة يوسف أثبت تلك المقالات هناك اه

« الزبرجدة الثالثة »

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *

يقول من أيقن بالسعادة فى ميعاده فما أحراه أن يلوى له العنان ويجد فى السعى لحصول المراد وينبذ الدنيا ويحرص على الأخرى وأنتم أيها اليهود أحرص الناس على الحياة بل المشركون من العرب أزهد منكم لها وكيف يطلب الآخرة من يتمنى عمرا طويلا ألا وان الحياة الآخرة أسها الحب وعمادها الشوق وسقفها الرحمة وأى محبوب بعد مفارقة المادة الا الله والملائكة والصديقون وأنتم تكرهون النفوس المجردة وهى

« الزبرجدة الرابعة »

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

وهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ *

دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدارس اليهود يوما فسألهم عن جبريل فقالوا ذاك عدونا يطلع محمدا على أسرارنا وأنه صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل صاحب الخصب والسلام فقال وما منزلتهما من الله قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره و بينهما عداوة فقال لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ولانتم أكفر من الحمير ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الآخر والله ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقال عليه الصلاة والسلام لقد وافقك ربك ياعمر * هذا ولا جرم ان بين الملائكة والانبياء صلة وودادا فلم يكن الكفر قاصرا على الملأ الأعلى واذا كفروا وتعدوا الطور في أولئك الذين اصطفاهم رسلا بينه و بين أنبيائه فما أحراهم بالكفر بمن هم بشر مثلهم وذلك في الزبرجدات ٥ و ٦ و ٧ .

» الزبرجدات : الخامسة * والسادسة * والسابعة «

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ * أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *

ولقد أنزلنا اليك الخ) والخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم الفاسقون المتمردون من الكفرة نبذ فريق الخ هم اليهود * كتاب الله هو التوراة لعدم اتباعهم النبي الذي بشر به * كأنهم لا يعلمون كتاب الله وقوله (ولقد علموا لمن اشتراه الخ) أي من استبدل ما تتلوا الشياطين * والخلاق النصيب * وشروا أنفسهم باعوها والمثوبة الثواب

يقول كما كفروا بالملائكة كفروا بالأنبياء فلم يؤمنوا بمحمد ولا بعيسى وان عاهدوا نقضوا وان وعدوا غدروا وحولوا العقول عن فطرتها وأخذوا في الخرافات ورجعوا للترهات ونبذوا علم الحقائق وفهم الدقائق وصدقوا ما أذاعته الشياطين عن ملك سليمان وانه ما عظم الا بالسحر ولا علم الا بالعزائم والأباطيل وانما كفرت الشياطين كهاروت وماروت بجعلهما بدلا من الشياطين على رأي فهما اللذان علما الناس السحر * وما أنزلناه على الملكين ان الملائكة منزهون عن الذنوب مبرؤن من العيوب على ان هذين نصحا الامة فقالا للمتعلمين انما نحن فتنة فلا تكفروا وحاشا أن يكون مضلا للناس وهو نبي كريم فاتبع اليهود ما تلت الشياطين من الانس والجن على عهد ملك سليمان من

الافك

الافك والسحر وأضلوا ونسبوها له وهو مبرأ من العيوب والاضلال والذنوب وانما الشياطين هاروت وماروت وغيرهما هم الكافرون لانهم يعلمون الناس السحر وليس من الملائكة مضلون فسليمان والملائكة مبرؤن وهاروت وماروت مضلان اذ يضلان الناس ابتلاء وامتحانا من الله فأخذ اليهود يشيعون الأحاديث الملفقة ونبذوا الوحي والدين كما يفعل المسلمون اليوم فانهم لايزالون يقرؤن العلوم السحرية ويخضعون للدجالين الغاوين الكذابين الذين يدعون انهم يفتحون الكنوز ويستخرجون الذهب من العناصر وقد خلط السحرة القرآن بالعزائم فضل المتعلمون سواء السبيل فى هذه الأمة كما ضل اليهود من قبلهم كذلك تراهم يقولون خاتم سليمان عليه السلام و ينسبون له ولد انيال وارمياء وعلى بن أبى طالب ماليس لهم به علم فاستخفت الأمة للاباطيل واستوثق النصر للعدو المبين عليها جزاء بما كانوا يجهلون * فاما ماحكى اليهود من أن الملائكة حقروا بنى آدم وأمرهم الله أن يختاروا اثنين ليكونا كبنى آدم فى الصورة فكان هاروت وماروت ونزلا من السماء وقضيا بين الناس وأضلتهما امرأة وعرفت منهما الاسم الاعظم وصارت نجمة الزهرة وعذبا فى مدينة بابل الى يوم القيامة وهما يعلمان الناس السحر فذلك رمز يفقهه أولوا الالباب وليس ينبغى أن تحمل الآية عليه ولا على غيره مما يذكر الا ما اخترناه * ومقصود القرآن الكريم أن الأمم حين تتدهور فى الهاوية ترجع عقولها القهقرى وتأخذ فى الدين الى الوراء وتتبع ماتملى عليهم الشياطين من الانس والجن فيكون الاستاذ هو الوسواس والدجال هو الفقيه ويذرون العلم والعلماء والدين والأنبياء ألم تر الى حكم سليمان فلننقل لك منها لتعلم قول الله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق الخ)

قال فى التوراة فى سفر الامثال فى الاصحاح الثالث طوبى للانسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم لان تجارتها خير من تجارة الفضة وربحها خير من الذهب الخالص هى أثمن من اللآلئ وكل جواهرك لا تساويها ثم قال هى شجرة حياة لممسكيها والمتمسك بها مغبوط

الرب بالحكمة أسس الارض وأثبت السموات بالفهم بعلمه أنشقت اللجج وتقطر السحاب ندى

ومنها لاتمنع الخير عن أهله حين يكون فى طاقة يدك أن تفعله * ومنها اذهب الى النملة أيها الكسلان تأمل طرقها وكن حكيما * ومنها الى متى تنام أيها الكسلان

الرجل اللئيم الرجل الأثيم يسعى باعوجاج الفم يغمز بعينه يقول برجليه يشير باصابعه فى قلبه أكاذيب يخترع الشر فى كل حين يزرع خصومات لأجل ذلك بغتة تفاجئه بليته يكسر ولاشفاء

وقال ليمدحك الغريب لافمك الاجنبى لاشفتاك * وقال لاتفتخر بالغد لانك لاتعلم ماذا يلده يوم * وقال أيضا فى الجامعة باطل الاباطيل الكل باطل ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس دور يمضى ودور يجىء والارض قائمة الى الأبد والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع الى موضعها حيث تشرق الخ وهذه كلها حكم دائرة على الزهد فى الدنيا واحتقارها واليأس منها * ومن هذا أخذ عمر الخيام رباعياته المشهورة فى أمريكا وأوروبا وترجمت حديثا الى اللغة العربية وهكذا أيضا اشعار أبى العلاء كلها تزهيد فى الدنيا كما فى الجامعة المذكورة لسيدنا سليمان عليه السلام فان شئت فاقرأها فى نفس التوراة نحو ١٢ صفحة اهـ

فوازن رعاك الله هذه الحكم البديعة والامثال العجيبة التى أبرزها النبى سليمان عليه السلام وهى تتلى فى التوراة الى يومنا هذا بما نسبه له اليهود من السحر وهو صفة العاجزين فهذه بعض أمثاله وهى طرق حكمه ومنها نعرف قوله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) فاقرأ وتعجب وقايس حال المسلمين اليوم بحال اليهود زمن النبوة وكيف أصبح المسلمون كثيرى العدد قليلى الحكمة يأمر القرآن بحوز وفهم الحكمة والنظر فى العوالم ونظام المدن واعلاء شأن الزراعة والتجارة والصناعة كما نشير اليه سورة سبأ وترى كثيرا من الذين يقرؤن الدين يجهلون نظام

العالم وحكمة الله كأنهم لا يعلمون وسطا الدجالون من المغاربة والساحرين على عقول المترفين فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم وهل أتاك حديث المغربي الذى ذهب الى بلدة الصعاوجى قرب بلدة الزقازيق وقال لرجل هناك انى أجعل القطعة من الذهب أضعافها لجمع الرجل حلى النساء وأسلمه فأعطاه عمودا مطليا بالذهب فلما حكه وجده نحاسا فسقط فى يده وضاعت ثروته وهى تساوى ألف جنيه أوتزيد وآخرون يدعون احضار الجان و يضحكون على الاذقان ويغرون النسوان بحيل دبروها ومكايد نصبوها وأشراك وضعوها ذلك والله عرفناه فى كتبهم قرأناه اللهم أزل الجهل عن هذه الأمة واكشف الغطاء عن أبصارها وأنر بالعلم بصائرها انك أنت الرحيم الغفور

اعلم أنى بعد ما كتبت ما تقدم فى تفسير الآية ظهر لى وجه آخر فى اعرابها أقرب مما ذكرته وذلك أن هاروت وماروت جعلا بدلا من الشياطين فهما مذمومان فيما تقدم وهذا الوجه الذى سأذكره هو المختار عند أفاضل المفسرين فيقال واتبع اليهود ماتلت الشياطين من الانس افتراء على ملك سليمان وعلى ما أنزل من السحر على الملكين ببابل هاروت وماروت

أما سليمان فانهم نسبوا اليه أمورا سحرية هو منها براء وقالوا ما كان ملكه الا بسببها ترويجا لدعواهم فبرأه الله مما قالوا فقال (وما كفر سليمان) بعمل السحر وانما هم المفترون عليه بعمل السحر وهم الكافرون وذلك قوله (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) وأما افتراؤهم على ما أنزل على الملكين ببابل وهما هاروت وماروت فذلك انهما نزلا فى صور رجلين ليعلما الناس السحر تفريقا بينه و بين المعجزة كما يتعلم رجال الجيش اليوم الموادّ الخانقة والمعمية وغيرها و يؤمرون بكتمها دفاعا عن حربهم وعظمة دولهم ولا يطلع عليها عامة الشعب وهكذا الموادّ السمية يتعلمها الأطباء ولكن يحرم عليهم استعمالها أو اعطاؤها لأحد من الناس الا فى أحوال خاصة قال الشاعر

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

هكذا الملكان أخذا يعلمان السحر الذى أنزل عليهما حتى اذا جاء ساحر وادعى النبوة عارضوه وكذبوه ولذلك كان هذان الملكان يقولان للمتعلمين انما نحن فتنة واختبار لكم لننظر أفى الخير أم فى الشر تستعملون السحر وذلك مثل جميع النعم الواردة على البشر فانها صالحة للخير وللشر كالقوة والجمال والمال والولد والعلم والملك والحكم بين الناس كل هؤلاء مبتلون ومختبرون آخيرا يصنعون أم الشر ولكن السحر المذكور أشد فتنة فأما اليهود فانهم أخذوا بشر الامرين (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) وذلك بنوع من التضليل والتلبيس وهو تعليق القلب. فيدعى الكاذب انه عرف اسم الله الأعظم وان الجن يطيعونه و ينقادون اليه فى أكثر الأمور فاذا كان السامع ضعيف العقل قليل التمييز والقوى الحساسة تمكن ذلك الكذاب منه فانام بصيرته وأيقظ خبله وغفلته والتعلق بحبال الخيال والخبال فخدرا عصابه وأحدث فى نفسه نوعا من الاستهواء وهو أشبه بالتنويم المغناطيسى * ولقد ظهر هذا النوع باجلى مظاهره فى ذلك التنويم فى عصرنا حتى ان الأمم الغربية حرمت العمل به الا فى الأعمال الجراحية فانهم رأوا ان الاستهواء وأخذ الالباب قد كثر فى ديارهم فاذا قال المنوّم للمنوّم بالفتح بعد استيقاظك بثلاث ساعات مثلا اقتل فلانا فانه لابد فاعل ذلك وهكذا اذا قال لامرأة كونى معى بعد كذا وكذا فانها لا تعصى للقائل أمرا وهى لا تدرى من أين جاءها هذا الغرام ولا تعلم من الذى أوحى اليها بذلك * ولما كان المؤثر والمتأثر خاضعين لله قال تعالى (وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله و يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم)

(ايضاح الكلام على السحر)

لقد ذكرت لك ان السحر المذكور كان من نوع تعليق القلب وانه من أنواع التنويم المغناطيسى وأقول الآن انى رأيت هذه الأعمال فى المراسح العامة اذ كان المنوّم يوحى الى المنوّم بالفتح بما يشاء فلا يجد الا الطاعة عمياء فاذا أعطاه

السكر وقال هو علقم لفظه من فيه لشدة تأثر حاسة الذوق من البشاعة واذا أعطاه الحنظل وقال هذا سكر استمرأه
واستحلاه وهكذا تراه فيما تملك عليه سمعه و بصره ونحن نشاهد ذلك عيانا وكان يقول الرجل أنت امرأة راقصة
فيرقص يرقصها و يقول له أنت ملك فيفعل فعل الملوك وذلك اليوم شائع ذائع فى أوروبا ووصل الينا فى الشرق بعضه
وهذا الذى ذكرته بعض ماوصل وكان فى تلك المجالس أطباء يمتحنون المنوّمين بالفتح لينظروا أهم نائمون فكانوا
يشهدون بنومهم على مقتضى حركات النبض وهكذا كان معنا العلماء وكبار الأمّة وعظماؤها وأمراؤها ومهندسوها
وأنا أشاهد ذلك بنفسى * ثم ان فى هذا العلم غرائب فوق هذا حتى ان الطبيب قد ينيم المريض و يعمل فيه أكبر
عملية جراحية و يستيقظ ذلك المريض وكأنه شخص آخر و يساعد الطبيب وهو لايعلم انه هو نفسه يساعد فى تقطيع
لحمه و بتر عضوه بالسكين * وهناك غرائب تجاوزنا عن ذكرها و بحار من العلم واسعة لاسبيل الى ذكرها هنا وانما الذى
يهمنا فى تفسير الآية أن نقول يجب على الحكومات الاسلامية وجوبا شرعيا أن تأمر طائفة من الأطباء بتعلم هذا
الفن من التنويم كما فعل هاروت وماروت الذان قصدا التفرقة بين السحر والمعجزة والا لادعى الكذابون النبوة
وأتوا بشرائع فاجرة خاطئة * ولقد بلغنا ان علم الكذابين قد عثر عليه الأمريكيون فى تلك البنايات الخربة فى بابل
ونينوى وفى آثار الآشوريين والبابليين فانتشر هذا العلم كرة أخرى فى الشرق والغرب ولولا ان الأمم اليوم مستيقظة
لادعت طائفة ممن يمارسون هذه العلوم النبوّة ولكنهم اقتصروا على مايدعونه من الاخبار بالحوادث وعلى أمور
أخرى لانطيل بذكرها وفيها الضرّ والنفع فوجب أن تقوم طائفة لدرء المفاسد التى يلقيها هذا العلم على الناس وهذا
هو السرّ فى ذكر هذه الآية فى القرآن بقيت ألفا وثلثمائة سنة لتكون تذكرة للناس وليحترسوا من الوقوع فى شرك
المضار الناجمة من تلك العلوم * وتعليمها فرض كفاية كما فى سائر الصناعات والعلوم * ومنها الصناعات الحربية والعلوم
جميعها و يحرم على من تعلم هذا العلم أن يستعمله الا فيما فيه الخير للأمّة * ولقد حصل فى هذه الأيام أثناء تأليف هذا
التفسير ان طبيبا فى مصر استهوى فتاة يهودية فقيرة ونومها تنويما مغناطيسيا وصار يسأل هذه الجاهلة الأمية
الصغيرة الخادمة فى حال ذلك النوم عن أمراض المرضى والعلاج الناجع فكانت تجيبه بأجوبة تامة فكان هو يعمل
بها و يداوى المرضى وأراحته من النصب والتعب فى البحث والتنقيب فى الكتب الطبية ثم ان نفسه الخبيثة سوّلت له
أن يهتك سترها فطاوعها ثم افتضح أمره وانكشف سره وفشا خبره والبنت غافلة لا تعلم شيأ لأنه كان فى حال النوم
يوحى اليها أن الفاعل الظالم انما هو الجن وليس هذا من فعل الآدميين ورفع الأمر أهلها الى الحكومة المصرية
فأمرت الحكومة الطبيب المصرى فنوّم الفتاة وجاء القضاة والأمراء وكذلك المفتشون من الانجليز وأخذوا
يمتحنون الفتاة وهى نائمة فيقول أحدهم ماالذى فى يدى فتقول كذا وكذا و يقول الثانى من أنا فتقول أنت
المفتش وفى كيسك كذا وفى يدك كذا وهكذا فلما علموا صدق أخبارها ووثقوا بما تقول فأخذت تقص قصص
الطبيب معها وفسقه وفجوره وحيله وهى نائمة فحكموا عليه بالفسق وعاقبوه عقاب المجرمين

وقد ألف الطبيب المذكور فى هذه الحادثة كتابا منتشرا بين الناس اليوم فى بلادنا * ومن عجب ان الفتاة اذا
استيقظت لاتعرف شيأ مما جرى وماقالته وترجع كما هى ساذجة غافلة

فتعليم هذا العلم واجب كما قلنا على كل حكومة مرت بها علوم أمريكا وأوروبا ليحترس بعلماء الفن من الفاسقين
الذين يفرّقون بين المرء وزوجه وهذا سرّ ذكر هذه الآية كما قلنا والا فبنو اسرائيل كما قال عمر رضى الله عنه مضى
أمرهم وانقضى خبرهم ولم يبق الا الأحياء الآن فاليهم يساق الحديث * ولننقل لك شذرة فى التنويم المغناطيسى من
كتاب الأرواح الذى ألفته قلت

قال شبر محمد قد عرفنا احضار الأرواح ونريد أن نعرف التنويم المغناطيسى فقلت — اعلم ياشبر محمد ان ذلك علم
آخر يسمى السبات المغناطيسى أو التنويم وهو أن ينام الانسان بدرجات مختلفات لأسباب طبيعية أوكيماوية
أوحيوية . فالأسباب الطبيعية كالنور والصوت بأن يسمع صوتا متساوى اللحن . والسائل الكهربائى

الخفيف . والقطع الزجاجية اللامعة التى تنوم من حدق نظره اليها والمؤثرات الكيماوية . هى الأثير والكلوروفورم والازوت وهى تلقى آخذها فى النوم وتفقده الاحساس . والمؤثرات الحيوية أخصها الارادة بأن يأمر باللسان أو السيال العصبى أو يحدق ببصره الى الشخص المنفعل أو يبادئه بالاشارات والحركات المغناطيسية . هذه هى أسباب التنويم اجمالا . أما درجات النوم فهى ثلاث

﴿ أوّلا ﴾ أن يفقد الاحساس و يلبث شاخص العين يتلقى أوامر المنوّم وتلوح عليه الأمارات الدالة على قبوله لكل ما يريد المنوم بالكسر وفى هذه الحالة لو أدخل رجل المنوم بالفتح فى ماء مغلى أو قرص جسمه لم يحس كما جرب به العلامة دى بوكانه فى باريس لتلاميذه (وكما شاهدته هذه الليلة ليلة السبت السابع من شهر فبراير سنة ١٩٢٠ وأنا أكتب هذه القطعة عند اعادة طبع الكتاب فان المنوّم قد أنام فى دار التمثيل العربى شبانا وصار يلعب بحواسهم فيطعمهم الموز و يقول لهم هو حنظل فيلفظونه و يطعمهم الطماطم باسم التفاح فيستلذون طعمها و يسمى أحدهم باسم غير اسمه فيصدق ويتسمى به وقد قال لشاب أنت اسمك لبيبة فأرنا رقصك ففعل وأمر أيضا بقلب النوم الصناعى طبيعيا ففعل وأبرز صورة الجرائم من المنومين وكيفية اقرارهم وما أشبه ذلك . وكان يبكيهم تارة و يفرحهم أخرى و يلفق لهم تهمة ثم يفهمهم انهم آثمون ظالمون فيندمون و يبكون بصوت عال الخ — ولا جرم ان هذا مبدأ التنويم وقد صدق ظنى ان بلادنا ستنال حظها من علم الأرواح وهذا كتابنا فيه تجارب الأمم من حيث الثمرات وأنا لا أشك ان العقلاء سينظرون لثمرات التنويم واحضار الأرواح لارتقاء نوع الانسان كما نقلناه فى هذا الكتاب

﴿ ثانيا ﴾ أن يفقد الاحساس تماما و يغلق عينيه كالحال الاولى ولكن تمتاز هذه انه يسمع و يبصر و يتكلم و يجيب بمعزل عن الحواس و يقرأ و يكتب كما يأمره المنوّم

﴿ ثالثا ﴾ أن يحصل انخطاف روحى بأقصى درجاته واذن يعرف النائم نفسه معرفة تامة و يصف علل جسمه والعلاجات الملائمة و يشاهد أفعال الناس و يسمع كلامهم عن بعد سحيق و ينبئ عن حوادث مستقبلة و يتكلم بلغات شتى و يرى أرواح الأموات و يصف هيئتها و ينقل الى الجالسين أقوالها وهذه الدرجات الثلاثة تسمى هكذا بالترتيب

الكاتالبسيا . الليثارجيا . السونابولزم

وهاك بعض الحوادث لاثبات ما تقدم

(١) قال العلامة شاردل فى تأليفه المدعو بالمغناطيسية الحيوانية انه نوّم ابنة صحيحة البنية و بينما هى تلقنه وصف العلاج الذى يداوى به سألته ألا تسمع كيف يأمرنى بذلك فقال لها لا أسمع أحدا فقالت نعم لأنك نائم وأنا يقظانة حرّة فقال لها وا عجبا لك أين حريتك وأنت مسخرة لارادتى . قالت له أنت تعرف ظاهر الشئ الخشن الغليظ أما أنا فأرمق باطنه البهى . فان نفسى منحلة من القيود مؤقتا . فأرى ما لا تراه أنت وأسمع ما لا تسمع أذناك وأدرك ما لا تقوى على ادراكه وأرى النور يشع من أطراف أصابعك وأنت تمغ نسنى وأسمع أصواتا من بعيد جدا وحديث من يتكلم فى بلد آخر فأنا أذهب الى الأشياء وليست هى التى يؤتى بها الىّ . وحالى الآن يقظة تحاكى يقظة الانسان بعد الموت

﴿ المثال الثانى ﴾ وصفت فتاة كان ينوّمها العلامة شاردل المذكور له الحال التى كانت عليها حين نومها فقالت أحس ان جسمى يتمدد شيأ فشيأ حتى أفارقه وأراه بعيدا عنى باردا كجسم ميت وأرى نفسى كبخار وأدرك ما لا أقوى على ادراكه فى اليقظة والنوم المغناطيسى الذى هو أقل من هذا وهذه الحال لا تدوم أكثر من ربع ساعة ثم يرجع الجسم البخارى شيأ فشيأ الى جسمى الغليظ ثم أفقد الشعور

﴿ المثال الثالث ﴾ أعمال الأكاديميا الطبية الفرنسية اذ خصصت لجنة طبية للنظر فى الحوادث المغناطيسية

ولنذكر حادثة واحدة من حوادثها لتطلع ياشبير محمد على عجائب العلم والحكمة ولتكون نموذجا من أعمال تلك اللجنة فى أشهر الممالك الأوروبية

اجتمعت اللجنة فى ٦ تشرين الأول وقت الظهر والمريض هو المسيو كازو المصاب بداء الصرع والمنوم هو المسيو فرواساك وجلس فرواساك فى حجرة أخرى ولم يعلم كازو انه حضر وأرسلوا لفرواساك أن ينوم كازو وعينوا له النقطة المحاذية له فى الحجرة فنام كازو بعد أربع دقائق . فسألوه عن النوبات التى ستنوبه فعين منها اثنتين بدقائقهما وساعاتهما وأيامهما والنوبة الأولى بعد أربع أسابيع . والثانية بعد خمسة أسابيع . فكتبوا التقرير وأعطوه ملن ينومه وهو المسيو فرواساك مبدلين المواعيد قصدا فلما نومه بعد أيام ليشفيه من ألم الرأس أخبره بمواعيد للنوبة غير التى أخبرت اللجنة بها . فرجع الى اللجنة وأخبرهم ان التقرير الذى قدموه له محرف . فأصروا على قولهم ثم تمت النوبات فى الأوقات المعينة بالضبط على مقتضى ما أخبرهم كازو فى نومه . ثم أخبر بنوبتين أخريين فى موعدين معينين حصلت احداهما فى وقتها . أما الأخرى فقد سقط قبل وقوعها وهو يهدى حصانا وتهشمت رأسه على العجلة فمات اهـ

وقد فصل القول العلامة هيسون من أعضاء اللجنة المذكورة فقال ان المريض أنبأ بحوادث النوبات قبل حدوثها فلم يخطئ والمغناطيسية الحيوانية أصلحت حاله وأزالت عنه أوجاع الرأس وكان يصف العلاجات وصفا دقيقا . وكان يقول ان هذه النوبات تصيبه مالم ينومه قبل وقت حلولها . ومع ذلك لم يخطر بباله ان حادثة ستصيبه فتقطع عليه حياته . وهذه أشبه بأمر الساعة فان الانسان يعرف مقادير قطع العقارب للميناء فيحددها بالتحقيق ولكنه لا يدرى متى يفاجئها كسر أو تهشيم فتقف حالها

(ذكر ماقاله القدماء فى علم السحر)

نذكر هذا ليطلع القارئ على ما مضى وانقضى من أنواع السحر على سبيل الرواية التاريخية * السحر يطلق شرعا على كل ماخفى سببه و يتخيل على غير حقيقته و يجرى مجرى التمويه والخداع وعند الاطلاق يفيد ذم صاحبه قال تعالى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم) وهو أنواع

﴿ أولا ﴾ سحر الكلدانيين فى قديم الزمان كانوا يعبدون الكواكب ويزعمون أنها مصادر النحس والسعد وكانوا يتوسلون اليها و يتقربون بالبخور والاستحمام وألوان الملابس المناسبة فى زعمهم لتلك الكواكب والساعات المعينة كذلك

﴿ ثانيا ﴾ سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية كالتى تحدث الاصابة بالعين فتؤثر فى الأشخاص وتحدث الضرر فى الأجسام كما ذكره كبار الفلاسفة ويقررون ذلك بأن تصور الانسان مؤثر فى نفسه ألا ترى أنه يؤثر فى جسمه حزنه وفرحه ورجاءه وخوفه وعشقه وغيره فهذه آثارها الحاضرة عندها فيجوز أن النفس اذا قويت أثرت فيما بعد عنها اذا تركت المألوفات ونبذت الشهوات كما هى عادة أولئك الذين يزعمون أنهم سحرة فتخلو نفوسهم من شواغل الجسد وتلم شعثها وترجع الى عالمها الروحانى وتفعل الشر فتكون ممقوتة عند الله والناس * وللوهم آثار كمن يرى يمشى على جذع فوق الأرض فانه يسهل عليه واذا وضع هذا الجذع بين حائطين أو عمودين مثلا لم يقدر على المشى عليه و يخر صريعا لليدين والفم وما صرعه الا وهمه * ونقل ابن سينا عن ارسطو ان الدجاجة اذا تشبهت بالديكة فى الصوت وفى القتال معها نبت على ساقها مثل الشئ النابت على ساق الديك وأيضا ان الدعاء مظنة الاجابة عند سائر الأمم

﴿ ثالثا ﴾ الاستعانة بالأرواح الارضية وهذا أقوى أنواع الخرافات

﴿ رابعا ﴾ سحر التخيلات كما يفعله المشعوذ المسمى بالحاوى فى بلادنا المصرية

﴿ خامسا ﴾ قد جعلوا مما يسمى بالسحر الآلات المتحركة بضروب هندسية وعجائب علم الكيميا كظهور

نار الفصفور الموضوع فى الماء وكالحبر الصخرى المعلوم الذى وضعته أنا وأنا مدرس فى دار العلوم على النار فلم يحترق وهو كلما وضع عليها ازداد نظافة وكان ذلك فى الدرس أمام التلاميذ وهم يتعجبون وكالآلات البخارية الجارية الآن وأنت تعلم ان هذه كلها اليوم أصبحت فى عداد العلوم وخرجت من مسمى السحر لشيوعها وقد كان بعضها عند المتقدمين سرا مكتوما

(سادسا) الاستعانة بخواص الادوية كما حدث فى حرب الألمان المبتدأ سنة ١٩١٤ انهم كانوا يلقون البخار على الأعداء فتارة يعمى أعينهم وتارة يخدرهم وتارة يحدث فيهم جنونا وقد كان القدماء يقولون ان مخ الحمار اذا أكله انسان أورثه البلادة وهذا منقول عن الكلدانيين وأنا أرى أن هذا القول خرافة والا فالناس تأكل مخ سائر الحيوان فما بالهم لم يصيروا كالغنم وكالدجاج

(سابعا) تعليق القلب الذى تقدم ذكره وقد أطلنا فيه وهو من فن التنويم المغناطيسى

(ثامنا) النميمة والوشاية وضروب الأكاذيب المحولة للقلوب المضلة للنفوس التى يستعملها الضالون من الناس ليفرقوا بين زيد وعمرو * و بعض هذه الأنواع أصبحت لا تسمى سحرا اليوم وهى ٨ و ٦ و ٥ و بعضها أصبح خرافة و بعضها يجوز فى نفسه فاما وقوعه فى الخارج فيحتاج الى عيان ونحن لم نشاهده والله أعلم

هذا وان اليهود كما آذوا سليمان بنسبته الى السحر تعمدوا الحط على النبى فنسبوه للرعونة استهزاء وسخرية

« الزبرجدة الثامنة »

يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا وَاسْمَعُوا وَلِلْكافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مايَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

هذه واضحة انهم كانوا ينطقون بالكلمة محرفين المعنى الشريف الى معنى زائف اذ يقول المؤمنون راعنا أى راقبنا وتأن بنا حتى نفهم ما تلقيه علينا و يقولها اليهود لتكون من الرعونة يريدون سبه بالكلمة العبرانية التى كانوا يتسابون بها وهى راعينا فنهى المؤمنون عنها وأمروا بما يفيد تلك الفائدة من غير لبس وهو انظرنا أى انظر الينا وقوله اسمعوا أى أحسنوا الاستماع فلا تحتاجوا الى أن تعودوا الى ما نهيتم عنه

« الزبرجدة التاسعة »

ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ * أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسٰى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا

الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *

النسخ ازالة الحكم امامع اللفظ أولا وقوله أو ننسأها أى نؤخرها فلا نزل حكمها ونرفع تلاوتها وفى قراءة أو ننسها وهي المشهورة أى ننسكها أى نمحها من قلبك نأت بخير منها وهو الانفع للعباد فى سهولته أو كثرة الثواب عليه أو مثلها فى التكليف والأجر وقد نزلت هذه الآية لما طعن الكفار فى النسخ وقالوا ان محمدا يأمر أصحابه اليوم بأمر وينهى عنه غدا ان الله بعد أن أمرهم بان يقولوا انظرنا بدل راعنا لما فى الثانية من المضار ولما فى الأولى من السلامة أخذ يبين فوائد النسخ ومزاياه فاذا بدل آية بآية أو حكما بحكم كآية الميراث بعد الوصية وكنحو خمس رضعات معلومات يحرمن بعد عشر رضعات ونحو ذلك بين ان ذلك كان لحكمة تقتضيه وهكذا فعل الله فى الارض والسموات

ألم تر الى أغذية الشتاء والصيف وأشجار الربيع والخريف والليل والنهار والصباح والمساء واذا نسخ آية الحب ففلقها والنوى فأنبتها والعامرات فخربت والخربات فعمرت هكذا ينسخ آية بآية وحكما بحكم فهذا فعله وهذا قوله وكيف يراعى المصالح فى أفعاله ويدعها فى أقواله ولذلك قال (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض)

(الناسخ والمنسوخ)

النسخ يطلق بمعنى الازالة ومنه قوله تعالى فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته وبمعنى التبديل ومنه واذا بدلنا آية مكان آية وبمعنى التحويل كآية المواريث فيحول الميراث من واحد الى واحد وقد أكثر العلماء من الكلام فى الناسخ والمنسوخ والحق ان ذلك لا يصح الا فى قليل من الآيات ألا ترى الى آيات الصفح والعفو والتجاوز فقد أكثر العلماء من قولهم انها منسوخة بآية القتال مع ان الصفح كان مؤقتا بزمن الضعف وقلة المسلمين فاذا كثروا وقووا جاز لهم مالا يجوز فى حال الضعف من القتل ألا ترى الى قوله تعالى فى هذه السورة هنا (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) ولقد جاء الأمر بالقتال فلم تنسخ الاولى بل جاءت لزمنها وجاءت آية القتال منسأة أى مؤخرة وليس ذلك من النسخ كما فى قوله هنا (ماننسخ من آية أو ننسأها) نؤخرها وقد حصر صاحب الاتقان هذه المسائل فجاءت عشرين موضعا فى بعضها خلاف

	المنسوخ	الناسخ
آيات البقرة	(١) كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت	آية المواريث
	(٢) وعلى الذين يطيقونه فدية	فمن شهد منكم الشهر فليصمه
	(٣) كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم (مقتضى ذلك أنه يحرم الوطء والاكل بعد النوم	أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم
	(٤) يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه	وقاتلوا المشركين كافة
	(٥) والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجهم الآية	يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا
	(٦) وان تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله	لا يكلف الله نفسا الا وسعها
آية آل عمران	(٧) اتقوا الله حق تقاته	اتقوا الله ما استطعتم

النساء	(٨) والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم	وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض
	(٩) واذا حضر القسمة أولوا القربى	آية الميراث
	(١٠) واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم	آية النور
المائدة	(١١) ولا الشهر الحرام	أبيح القتال فيه بقوله وقاتلوا المشركين كافة
	(١٢) فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم	وأن احكم بينهم بما أنزل الله الآية
	(١٣) وآخران من غيركم	وأشهدوا ذوى عدل منكم
الأنفال	(١٤) ان يكن منكم عشرون صابرون	الآن خفف الله عنكم الآية
براءة	(١٥) انفروا خفافا وثقالا	ليس على الأعمى حرج الآية وآيات أخرى
النور	(١٦) الزانى لا ينكح الا زانية الآية	وأنكحوا الأيامى منكم
	(١٧) ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم	نسخت وقيل تهاون الناس فى العمل بها
الاحزاب	(١٨) لا يحل لك النساء من بعد	انا أحللنا لك أزواجك
المجادلة	(١٩) اذا ناجيتم الرسول	الآية بعدها
الممتحنة	(٢٠) فآتوا الذين ذهبت أزواجهم	آية السيف
المزمل	(٢١) قم الليل الا قليلا	بآخر السورة ثم بالصلوات الخمس

فهذه احدى وعشرون منها

آية وعلى الذين يطيقونه * قيل انها محكمة أى وعلى الذين لا يطيقونه بحذف لا فهى مقدرة

وآية اتقوا الله حق تقاته * قيل انها محكمة

وآية واذا حضر القسمة أولوا القربى * قيل محكمة وتهاون الناس فى العمل بها

وآية ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم * قيل محكمة وتهاون الناس فى العمل بها

وآية فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا * قيل انها من المحكم

فالآيات التى فيها النسخ بغير خلاف تبلغ ١٦ وقد ضم الى المنسوخ عند ابن عباس قوله تعالى (فأينما تولوا فثم وجه الله) وقال هو انها منسوخة بقوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام)

وقد نظم هذه الشيخ السيوطى فى الاتقان فقال مختارا عشرين منها

قد أكثر الناس فى المنسوخ من عدد * وأدخلوا فيه آيا ليس تنحصر

* وهاك تحرير آى لا مزيد لها * عشرين حررها الحذاق والكبر

آى التوجه حيث المرء كان وان * يوصى لاهليه عند الموت محتضر

وحرمة الأكل عند النوم مع رفث * وفدية لمطيق الصوم مشتهر

وحق تقواه فيما صح فى أثر * وفى الحرام قتال للالى كفروا

والاعتداد بحول مع وصيتها * وان يدان حديث النفس والفكر

والحلف والحبس للزانى وترك أولى * كفر واشهادهم والصبر والنفر

ومنع عقد لزان أو لزانية * وما على المصطفى فى العقد محتظر

ودفع

ودفع مهر لمن جاءت وآية نجـ * واه‍كذلك قيام الليـل مستطر
وزيد آية الاستئذان ماملكت * وآية القسـمة الفضـلى لمن حضروا
هذا ماخصته لتعلم أيها الفطن الناسخ والمنسوخ فلايشذ عنك شئ مما اتفق عليه القوم

(لم كان الناسخ والمنسوخ)

وهنا يرد سؤال فيقال مافوائد الناسخ والمنسوخ للأمم الاسلامية ولو أن الآيات وردت بلا ناسخ ومنسوخ ماضر ذلك ولكفينا مؤونة الرد على اليهود وعلى المعترضين من الأمم على الاسلام وشريعته ولم يكن سبيل لوجوب الرد عليهم بقوله تعالى (ماننسخ من آية الآية) ومالا يحتاج الى جواب خير مما يحتاج الى جواب وهذا كلام الله وهو سبحانه وتعالى أعلم من عباده واذا كان عباده يريدون مالاحيرة فيه فهو قادر على اقناعهم وتعليمهم بلاسؤال وجواب * هذا الاعتراض يدور فى عقول الأذكياء وان كانوا لا ينطقون به

الجواب

اعلم أن الناسخ والمنسوخ من أعظم الأسرار وأبهج الأنوار الالهيـة المشرقة على بنى آدم بل هما سر الترقى ومناط السعادة العصرية (وبيانه) أنه سبحانه وتعالى علم أن النوع البشرى ضعيف مغرم بالتقليد لايتزحزح عنه الا بعوامل عظيمة فاراهم أولا أن الليل والنهار ينسخ كل منهما الآخر * ثم بين لهم اختلاف الزرع باختلاف الفصول فان أكثر العشب والكلأ والحشيش ينبت فى أيام الربيع لاعتدال الزمان وطيب الهواء وكثرة الامطار المتقدمة فى الشتاء * فاما الفصول الثلاثة فيزرع الناس فيها زرعا موافقا للزمان * فالحنطة والشعير والباقلا والعدس وغيرها تزرع فى الخريف وتحصد فى الربيع * والقثاء والخيار والباذنجان تزرع فى الشتاء وتدرك فى الربيع * والجزر والشلغم والكرنب والقنبيط تزرع فى الخريف وتستحكم فى الشتاء * والسمسم والذرة والأرز تزرع فى الصيف وتحصد فى الخريف * والقطن والقنب وأمثالها تزرع فى الربيع وتستحكم فى الخريف

هـذا كتاب الله المسطور فى رقه المنشور على سطح الأرض بحروف بارزة يراها جميع الناس والحيوان ولا يفهمها الا الحكماء بان يحكموا عقولهم وآراءهم فى أمور الدنيا فيعطون كل زمن حكمه وكل مكان مايلائمه فاذا وجدوا أن الناس قد تقلدوا السلاح الأقوى بالطيارات والمدافع فليكونوا على استعداد لزمانهم وليقوموا بذلك واذا رأى المسلمون ان بلاد (الارجنتين) فى أمريقا الجنوبية مثلا قد اتخذوا آلات مدهشة للزراعة جارية بالسائل المسمى (بترول) تحصد القش وتصعده بنفسها الى أعلاها وتدرسه وتنزل القمح فى ناحية والتبن فى أخرى فى مخازن فى نفس الآلة و بينما هى تدرس وتميز التبن من القمح وتخزنها فى مخازنها تحرث الأرض وهى عاملة هذا كله ثم تذهب الى الضيعة فتضع أحمالها وتنزل أثقالها وترجع عاملة ناصبة حتى تتم الحقل كله فى يوم أو بعض يوم فتجد آخر النهار المزرعة التى كانت مزروعة أوله محروثة فى آخره ومعدة المزراعة أخرى

واذا رأى المسلمون أيضا ان هؤلاء القوم لهم عناية بالماشية لم تعهد عند المسلمين حتى أن البقر له سلالات كريمة لايهملون أمرها حتى ان الثور منها قد يباع بار بعين ألف جنيه و يحرصون عليها حرص العرب على كرائم الخيل وسلالاتها وانهم اعتنوا بترقية جميع المواشى و برعوا فى اراحتها حتى انهم قد استعملوا فى حلبها الكهرباء فتقف الاناث من البقر صفا واحدا و يوضع حبل طويل من الكاوتشوك المجوف وله شعب وضعت فى كل ندى من هذا البقر وقد اتصل الطرف الآخر بخزان كبير وفى هـذا الطرف (طلمبة) أمامية كابسة اتصل بها تيار كهربائى وهناك يبتدئ عمل الجهاز يقوم بعملية الحليب و يصل باللبن الى ذلك الخزان فيسمع له خرير كخرير الماء فى الغدران اذا رأى المسلمون ذلك ورأوا غيره فليفكروا وليعلموا (كما سيأتى ايضاحه عند قوله تعالى فى هذه السورة لتكونوا

شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) أنهم خير أمة أخرجت للناس وانهم هم الذين يقومون بسعادة النوع الانسانى عاجلا أو آجلا فقد شهد الله لهم بالرقى وكأنه يقول أى عبادى أنا جعلتكم خير أمة أخرجت للناس وأنتم شهداء عليهم كما أن رسولكم شهيد عليكم وقد كتبت بحروف كبيرة فى آفاق السماء وأقطار الارض فى الليل والنهار والمزارع والحقول ان كلا منها ينسخ الآخر ويحل محله * ثم انى ألهمت أقواما فى العالم فأخذوا ينسخون الأعمال الانسانية العتيقة ويحلون محلها أعمالا أرقى فقد نسخوا القديم البالى بالحديث القويم القوى فهذه ثلاث درجات قرأتموها فى السماء والأرض وأعمال البشر ان النسخ فى أعمالكم من سنتى القويمة لانى لا أنام وأزيد فى الخلق ما أشاء * ولما علمت أن الاسلام سيهبط الى أمم عقولها لا تهضم هذه المشاهدات ولا تقوى على فهمها ويقولون بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا ويجمدون على البالى العتيق أسمعتهم فى كتابى بحروف لفظية تعيها آذانهم وأنزلت على رسولى آية فى زمن ما كالآيات التى تمنع القتال لزمن الضعف فلما كانت القوة نسخت الاولى وأنزلت آية السيف وأمرتكم بقراءة الآيتين لتكون تلك الآيات حجة أمامكم ونبراسا لتعرفوا الحكمة وتقوموا بأعمالكم الدنيوية بما هو الأصلح ولا تتقيدوا بما فعله الآباء مع حفظ مجدهم وشرفهم والتمسك بفضائلهم كما أبقيت الآية المنسوخة تقرأ صباحا ومساء

واذا كنتم خير أمة أخرجت للناس وأنتم شهداء الله على الناس فذلك سيدعوكم الى ماهو أعظم من ذلك فاذا قامت أوروبا وأمريكا بهذه الأعمال العظيمة فى الزراعة والتجارة والصناعة فلا جرم انكم أنتم ستعلمون علمهم ثم تفوقونهم على مدى الأيام ويتحقق اذ ذاك معنى كونكم شهداء على الناس وأنكم خير الأمم

فتبين من هذا أن حكمة الناسخ والمنسوخ فوق ما يتصوره كثير من الناس لان الحقول والكواكب وأعمال الأمم الحاضرة فى الرقى كانت بقدرة الله والقرآن من الله فالله كما نسخ فى أعمال القدرة فى كل حين نسخ فى التعليم ونشره بين المسلمين ليرتقوا فى الأسباب ولا يقفوا

ولما جهل المسلمون ذلك وجدت قرائحهم وناموا نوم أهل الكهف سلط عليهم الفرنجة فملكوا أكثر بلادهم والتجارة فى أيديهم وهكذا السياسة فاذا لم يعرفوا ما تلوناه عليهم فى هذا المقام فلتبيدنهم الأمم المحيطة بهم كما أفنت أوروبا أهل أمريكا الاصليين لانهم لا يصلحون لهذا الزمان لقصور عقولهم واقتصارهم على تقاليد آبائهم الجاهلين ونبذ عقولهم كأنها لم تكن شيأ مذكورا فأبادهم الفرنجة الا قليلا منهم لعل المسلمين يتعظون هكذا الأمم الاسلامية ان لم تساو الفرنجة فى جميع أنواع الحياة فلا بد من انقراضهم جزاء جهلهم فان الله لم يترك لهم بابا الا فتحه لهم فى الحقول والكواكب والاضواء وأعمال الامم وانقراض أهل أمريكا وقد أسمعهم فى كتابه آيات النسخ ونسخ هو بنفسه لنقتدى به فأحجمنا عن ذلك ولم يكتف بذلك بل ألهم نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسمع ما قاله سلمان الفارسى فى مسئلة الخندق وفعل ما فعله الفرس من الاخذ بالاحسن ونسخ خطة حربية بخطة حربية والمسلمون مع هذا كله نائمون غافلون كأن هذا الدين ليس دينهم وكأن النبى ليس نبيهم والعقول نائمة وهذا أوان استيقاظهم وقيام مجدهم ورقى بلادهم وسعادتهم (ولتعلمن نبأه بعد حين) وسيقرأ هذا خلفنا ويرون أن ما أقوله عن المستقبل محقق لا شك فيه بطريق الالهام فى نفسى (والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم)

هذا ولما كان اليهود لا يفتؤن يعادون النبى صلى الله عليه وسلم قالوا له أنزل علينا كتابا من السماء تعنتا (كما قال العرب) من قبلهم وقد كانوا تعنتوا على سيدنا موسى كذلك فقالوا أرنا الله جهرة نزل قوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) أى بل أتريدون وسواء السبيل الطريق الحق وقوله (ود كثير من أهل الكتاب الخ) سبب نزول هذه الآية ان حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضى الله عنهما بعد وقعة أحد قابلهما اليهود وقالوا لو كنتم على الحق ماهزمتم فارجعا الى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم فقال عمار بن ياسر كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال انى عاهدت أن لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ماعشت قالت اليهود اما هذا فقد صبأ وقال حذيفة اما أنا فقد رضيت

بالله ربا و بمحمد رسولا و بالاسلام دينا و بالقرآن اماما و بالكعبة قبلة و بالمؤمنين اخوانا ثم انهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصبتما الخير وأفلحتما فانزل الله ودّ كثير من أهل الكتاب الآية وبقية الآيات واضحة

« الزبرجدة العاشرة »

وَقالوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلّا مَنْ كانَ هودًا أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ * بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنونَ * وَقالَتِ الْيَهودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهودُ على شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلونَ الْكِتابَ كَذَلِكَ قالَ الذينَ لاَيَعْلَمونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فيما كانوا فيهِ يَخْتَلِفونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللّهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسْمُهُ وَسَعى فى خَرابِها أُولَئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلوها إِلّا خائِفينَ * لَهُمْ فى الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فى الآخِرَةِ عَظيمٌ * وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَليمٌ * وَقالوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فى السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتونَ * بَديعُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْرًا فَإِنَّما يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكونُ * وَقالَ الذينَ لاَيَعْلَمونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنا اللّهُ أَوْ تَأْتينا آيَةٌ كَذَلِكَ قالَ الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلوبُهُمْ قَدْ بَيَّنّا الآياتِ لِقَوْمٍ يوقِنونَ * إِنّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشيرًا وَنَذيرًا وَلاَ تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الجَحيمِ * وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهودُ وَلاَ النَّصارى حَتّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدى اللّهِ هُوَ الْهُدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الّذى جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مالَكَ مِنَ اللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصيرٍ * الّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخاسِرونَ * يابَنى إِسْرائيلَ اذْكُروا نِعْمَتِيَ الّتى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَإِنّى فَضَّلْتُكُمْ عَلى الْعالَمينَ * وَاتَّقوا يَوْمًا لاَتَجْزى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرونَ *

يقول الله ان أرباب الديانات شغفون بالاضطراب مغرمون بالاخذ بالاذناب متعصبون لاهوائهم نابذون لنصائح أنبيائهم فتزعم اليهود كفر النصارى و يعكس النصارى عليهم القضية والتوراة والانجيل يدحضان الحجة و يزيلان الشبهة ومشركو العرب كفروا الطائفتين وكرهوا الحزبين كما فعل ذلك من قبل بختنصر اذهدم بيت المقدس ومنع أن يذكر فيه اسم الله وهكذا أهل مكة صدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يحجوا عام الحديبية وهل من الأدب طغيانهم أم من الحكمة فعلهم وكان الاجدر أن يدخلوها خاشعين

فلتخيفوهم بالجهاد ولتمنعوهم من ذلك الظلم ولقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بعد الفتح فنادى في الناس أن لا يطوف بالبيت عريان وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك * ولما فتح عمر الشام ومدينة بيت المقدس منع المشركين من دخول بيت المقدس فهؤلاء لهم في الدنيا خزي بالقتل والسبي والجزية ولهم في الآخرة عذاب النار * ولما طعن اليهود في نسخ القبلة وقالوا ان محمدا يأمر أصحابه اليوم يأمر وينهى عنه غدا فقد صلوا لبيت المقدس ثم الى الكعبة نزل (ولله المشرق والمغرب) أي وما بينهما (فأينما تولوا فثم وجه الله) أي جهة رضاه وليس الله مختصا بمكان بل هو واسع الفضل عليم بتدبير خلقه فقد جعل لنا الارض كلها مسجدا وتربتها طهورا فكيف يجعل كالعباد يتخذ ولدا كما زعمت النصارى واليهود ومشركوا العرب بزعمهم ان ولده المسيح وعزير والملائكة بناته سبحانه تنزيها له وكيف يصح ذلك وله ملك السموات والارض كل له مطيعون والولد لمن هو في حاجة اليه على انه مبدع السموات والارض فضلا عن ملكه لها يتصرف كما يشاء (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله) أي هلا يكلمنا الله وهؤلاء هم كفار مكة يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم متى نعلم أنك رسوله والاصح ان ذلك منسوب لليهود لان السورة مدنية أو تأتينا آية نقترحها عليك برهانا على صدقك فأجاب الله عز وجل تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ليثبت قلبه (كذلك قال الذين من قبلهم) من الامم لانبيائهم (مثل قولهم) في التعنت تشابهت قلوبهم في الكفر والعناد ثم قال (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) بك ولا يتعنتون فلا تحزن * ثم قال (انا أرسلناك) يا محمد (بالحق) أي الهدى (بشيرا) من أجاب بالجنة (ونذيرا) من لم يجب بالنار (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) ان عليك الا البلاغ (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تكون على ملتهم (قل ان هدى الله) وهو الاسلام (هو الهدى) وما عداه ضلال (ولئن اتبعت أهواءهم) فرضا (بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي) يحفظك (ولا نصير) يمنعك وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) أي باقامة لفظه وتدبر معناه والعمل بمقتضاه مدحهم بأنهم المؤمنون وهذا عام لكل مؤمن هذه صفته ولا يختص بالسبب الذي ورد وهو انها نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه وكانوا أربعين رجلا اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا الراهب وختم هذه الزبرجدة بأن ذكر بني اسرائيل بالنعمة فانظر كيف بدأ نصحهم بأن فضلهم على العالمين وختمه بذلك * ثم قال واتقوا يوما أي خافوا يوما لا تغني نفس عن نفس شيأ ولا يقبل منها فداء ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون أي يمنعون من عذاب الله وقد تقدم الكلام على الشفاعة في أوائل السورة اهـ

(تأمل المقصد السابع)

وكيف كان بدؤه أن يذكروا انهم ما اتصل لهم ملك أيام مجدهم ما ينوف ألف سنة الا بما أودع في قلوبهم من الحمية والشهامة وحب الامة واعتقادهم العظمة في نفوسهم والشرف في قبيلهم وكيف أنفذ ذلك في قلوبهم على لسان موسى والانبياء بعده وسلكها في أفئدتهم لتكون تلك العقيدة لهم نبراسا يهتدون بها عند الظلمات ايذانا للامة الاسلامية انهم لن يقوموا من نومتهم ولن يستيقظوا من غفلتهم الا أن يؤملوا في الشرف أملا ويقدموا له عملا

انظر فيما في الفصلين من تقريع اليهود بتلك اليواقيت والزبرجدات والجواهر وهي تنوف عن ٣٥ سجلها عليهم القرآن وعيرهم بأنهم ما صرفوا للعمل عنايتهم وقد سجلت التوراة عليهم ظلمهم فبكتهم الله في القرآن وسفه أحلام أسلافهم وأخذ أنفاس خلفهم وختم بتذكير النعمة وأي ان هذه معجزة وأي معجزة فكيف عرف ما في التوراة وكيف أخذ ينتقدهم ويقرعهم عالما بمنزلته وشرفه موقنا بصدق دعوته * ألا ترى كيف جاء يحاسب أمة على ما اقترفت ويناوئها على ما اجترحت هذه حقيقة صفة الرسالة والرسول مرسل ليحاسب الامم على جهلها والافراد على ظلمها ولن يكون هذا من تلقاء النفس كيف لا ونحن نرى المرء تمر عليه السنون والايام وهو يتعلم ثم لا يخرج لعلم خلاصة ولا ينشئ أمة

(الكلام على قوله تعالى)

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم ﴾

خصصت هذه الآية باقاضة الكلام فيها بعدما ختمت تفسير هذه الآيات لما فيها من الجمال والبهاء والعجائب وان كان الناس يمرون عليها مر الكرام فأقول ورد ذكر المشرق والمغرب هنا وفي آية (رب المشرقين ورب المغربين) مشرق الصيف والشتاء ومغربهما وفي أخرى رب المشارق والمغارب باعتبار ان كل يوم له مشرق ومغرب خاص كما يعرفه من زاول علم الفلك بأدنى تأمل ﴿ والناس ثلاث درجات ﴾ * جهال لا يعرفون من الشروق والغروب الا اسمهما فلا يفكرون في تنوعهما وتصرفهما وانتقالهما * ومتوسطون فكروا بعض التفكير فعرفوا بعض التغيرات واعتبروا بها * وفضلاء أدركوا ان لكل يوم مشرقا ومغربا خاصا بالتحقيق لا بالظن * وكلامنا الآن في هذا المقام لماذا خص المشرق والمغرب ولم لهج القرآن بذكر الانوار والظلمات فتراه يقول الشمس والقمر بحسبان * ويقول (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل) ويقول (والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها) ويقول (والضحى والليل اذا سجى) ويقول (ومن الليل فسبحه وادبار النجوم) ويقول (وجعل الظلمات والنور) وهكذا من تلك الجواهر المتلألئة الباهرة البهية المشرقة ﴿فأقول﴾ جوابا على هذا

(العرائس النفائس)

تأمل عروسا مشرقة جميلة بهية المنظر حسنة الشكل معتدلة القوام قد لبست سبع جلابيب ذات ألوان أحمر وبرتقاليا وأصفر وأخضر وزمرديا وبنفسجيا وأزرق وهذه الجلابيب من أرق ديباج وألطفه حتى ان العقل ليدهش حينما يسمع أنها كلها أصبحت حلة واحدة ألطف من الهواء وأرق من النسيم ثم ان هذه العروس قد ازينت بأحسن زينة واتسمت بأبهج الحلى وبهرت ناظريها بجميل صنعها فانها فوق هذا الجمال والحسن والزينة والحلى قد أعطت من زينتها زينة لكل غادة حسناء وجميلة هيفاء حتى تتزين للناظرين وتقر بها أعين الرائين فهي الواهبة لهن الحسن والجمال والحلل النفائس والعطايا والمواهب بل ان كل جمال أشرق أمامها فانما هي له مسدية فهي مصدر الجمال والكمال والحسن والاحسان * ثم انها لا تهرم ولا تشيب ولا يستغني عن جمالها الشبان والشيب لا يذبل في الظاهر بهاؤها وشبابها ولا يقل احسانها وعطاؤها * فانظر لو أن عروسا هذا وصفها لكانت من أجل النعم وأبهر العطايا ولكان ذكرها يولد في النفس حبا وغراما بمن جلاها لنا وأبرزها وأفرغ عليها الجمال والكمال ولكانت أجل مظهر من مظاهر الاحسان ممن زفها الينا وساقها لنحظى بجمالها وكلما ذكرت تهللت القلوب فرحا واشتاقت أن تشكر من أبدعها ورزقنا بها

فاعلم أن تلك العروس هي الشمس وجلابيبها السبعة هي الالوان الاحمر والبرتقالي والاصفر الخ * وقد ثبت في علم الطبيعة بالمشاهدة ان لون الشمس المشرق علينا الذي غشى وجه الارض انما هو مجموع تلك الالوان متعاشقة متداخلة * ألا ترى قطرات الماء ورشاشه في ضوء الشمس يلمع بهذه الالوان هكذا البلور فان النور يحلل داخلا فيه الى هذه الالوان وتراها جلية في قوس قزح الذي لا يكون الا في مقابلة الشمس فان كانت مشرقة كان مغربا وان كانت مغربة كان مشرقا دلالة على أن ضوءها حلله ماء المطر الى ألوانه السبعة كما كشفه علماء العصر الحاضر وكاد يعرفه القدماء لولا قلة الآلات العلمية فهذه الالوان السبعة صارت لونا واحدا فقد اتحدت فيه فاشرق على الارض والماء والهواء والسهل والجبل * وقولنا ان العروس وهبت كل عروس الحسن والجمال وأعطتها زينة وحليا فذلك ان الكواكب السيارة التي تقدم ذكرها كسبت نورها من الشمس وأشرقت وبهرت الناس بنورها في طلوعها

وغروبها وهكذا يقول علماء العصر الحاضر ان النبات والحيوان والانسان وكل ماعلى وجه الارض لالون لها وانما ألوان الخضر والحمر والبيض والصفر من اشراق الشمس عليها وهى فى أنفسها لالون لها وبرهنوا على ذلك بتجارب لامحل لذكرها مثل أن يأتوا بضوء أصفر يضىء على لباس أحمر فوجدوا ان ذلك الاحمر مسود الصفحة عديم اللون لان النور المشرق عليه خال من النور الاحمر وعلى ذلك تكون ألوان الناس والمرجان والدر والعقيق وسائر الجواهر الجميلة وخضرة النبات وكل مايعجبنا نقشه ورقشه وتزويقه فانما هو أثر من آثار ضوء الشمس وهكذا كل عروس وماعليها من الحلى والحلل لا نظير لها بريق ولا جمال منظور الا باشراق نور الشمس والانوار الاخرى تابعة لها وما الكهرباء الا أثر من آثار الشمس لان الارض منها وكذا بخار الفحم الحجرى الجارى فى الانابيب فانما ذلك كله من نور الشمس أشرق على الفحم الحجرى قديما فخزن فيه وظهر الآن * فهذا ايضاح ان الشمس مصدر ماتراه من البهجة والجمال والهناء والسعادة فاذا أشرقت فهذا دأبها واذا غربت ظهرت عرائس الليل فأبهجت الناظرين تلك النجوم الباهرات المشرقات فى دجى الليل المطلات على عالمنا الارضى وهن قبلة النظار وهدى السارين وكعبة الصادرين والواردين فهذه المشارق والمغارب للشمس والكواكب مظاهر الانوار الساريات فى الكائنات بها ينمو النبات ويعيش الحيوان ويجرى السحاب والبحار والرياح فهى اذن المظهر الالهى فى العالم العلوى والسفلى فالحرارة بها الحياة والانوار بها الهدى والجمال فلا عجب اذا قال تعالى (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) واذا قال (ومن الليل فسبحه وادبار النجوم) واذا قال (وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا) واذا قال (وأشرقت الارض بنور ربها) واذا قال (فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم)

ههنا اجتمع ارتقاء الفكر مع أفضل العبادة وههنا يتجلى النور العلمى الاسلامى وتشرق العقول ببدائع الحكم وروائع الفكر وغرائب العرفان ههنا يكون منشأ الحكماء والكبراء فى أمة الاسلام

تأمل النجوم والكواكب والشمس واشراقها يرفع العقول الى أعلى مستواها فبينما هى فى معراجها صاعدة اذا هى فى محرابها الفكرى عابدة اذا هى فى مناهج المدنية وسلم الحضارة شاخصة وبهذا ترقت الأمم الفرنجية حولنا ونحن نائمون

ولألق عليك ماذكره اللورد افبرى فى كتابه جمال الطبيعة لتنظر كيف كانت عناية الفرنجة بهذه البدائع العلمية ونحن ساهون لاهون

قال لايعرف الناس جمال الطبيعة لانهم فيها مغمورون ولو أن الشمس تطاول عهدها بالشروق فطال الأمد والناس مشتاقون اليها ثم بعد اللتيا والتى طلعت عليهم أفلا تراهم يفتتنون فى محاسنها ويسحرون بجمالها ويغرمون بجانبها * ألا وان تلك الاشعة الذهبية البراقة الوضاحة الجبين كنز ثمين من الذهب وثروة طائلة أغدقت على الناس فاصبحوا لايفطنون لها (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) ثم قال ضاربا مثلا أشبه بما قاله أفلاطون فى كتابه المسمى (جمهورية أفلاطون) تصور قوما كانوا فى كهف تحت الأرض واسع الارجاء فيه القصور الفخمة والتماثيل وقد نقشت حيطانه وازدانت بزينة ورياش وزخارف وقد انعكس عليها أضواء من خارجها أرسلتها أنوار مشرقة من نار وقد سمعوا باله خفى عن الأبصار وغاب عن العيان * ثم أتيح لهم أن خرجوا من ذلك المكان فجأة كأن زلزلت الأرض فاذا هم فى متسع الفضاء وهناك شمس مشرقة وسحاب ورعد وبرق فيذهلون لجمال الشمس ونورها فاذا غابت عن الأبصار وتوارت بالحجاب ظهرت الكواكب اللامعة طالعة فيعتريهم الذهول لجمالها وتتولاهم الدهشة لتلألئها ويرون القمر ظاهرا مشرقا حسن الطلعة فكيف يكون تعجبهم لهذه المحاسن البديعة ويقرون باله عظيم نظم هذه الدرارى فى آفاق المشرقين ورصعها فى عقود المغربين وسيرها فى الابراج وفى المنازل اه

هذه مقالة اللورد افبرى وهى وان كانت جميلة اجل منهاما كتبه أفلاطون فى الجمهورية فانه فصلها تفصيلا أدق ولكن جوهر المعنى محفوظ

أليس هذا المقال يدلك على ماللفرنجة من قدم راسخة فى هذه العلوم ونظر ثاقب فى مواقع النجوم ولعلك تقول ماذا يهمنا من مقال رجل افرنجى* أقول انما ذكرته لغرضين (الاول) ان رقى العقل الانسانى موقوف على استيعاب هذه المباحث النفيسة وهؤلاء القوم قد برعوا فيها (الثانى) أن كثيرا من الشبان الذين درسوا اللغات الافرنجية استكبروا واستكبارا وأعرضوا وقالوا لا نؤمن بالله لان الفرنجة لا يؤمنون وقد تركوا الديانات وعكفوا على درس السياسات وناموا عن العبادة وأنكروا الله ونحن لا نعرف الا ماتراه الأبصار وننكر ماوراء المادة لان الفرنجة لذلك منكرون

وأنا أقول لقد اطلعت على كتب أعاظم الفرنجة وحكمائهم فوجدت هؤلاء الشبان المارقين فى دعواهم كاذبين فان هذا البعض منهم قد درس قشور العلوم ولم يتجاوز كراسة معلمه وخرج من درسه مغرورا يقول قد عرفت علوم المشرقين وطالعت حكمة المغربين فلم أجد أهدى سبيلا ولا أقوم قيلا من جحود الاله والكفر بمالأراء فدعهم يعيشون عيشة البهائم ويكتفون من العلم بدعواهم انهم ممتازون صم بكم عمى فهم لا يعقلون (ومن عجب) ان هذا المثال الذى اتخذه اللورد افبرى من كتاب أفلاطون هو الذى يقوله علماء الصوفية فى تمثيلهم وهو المذكور فى سورة الانعام (واذقال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين) (وملخصه) انه لما جن عليه الليل رأى كوكبا فظنه ربه ثم رأى القمر بازغا فبهره جماله فقال هذا ربى ثم رأى الشمس بازغة فرآها أجل فقال هذا ربى هذا أكبر ثم لما أفلت رجع الى الله وقال (وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين)

أيها المسلمون هذا التمثيل الذى ذكره أفلاطون وقفى على آثاره اللورد افبرى وجد فى نفس القرآن وهو الانتقال من جمال المشرقات الى بدائع السموات * فكيف اذن يسود الفرنجة فى هذه العلوم ونحن عنها غافلون العلم علمنا والدين ديننا بل الشمس شمسنا أليس اشراقها فى بلاد الشرق أبهج ضوءا وأوضح نورا ومن ذا يقيس سناء الشمس فى انكلترا بسنائها على ضفتى النيل والاهرام وبلاد الشرق وكيف يفرم هؤلاء الذين يدعى صغار العقول من الشبان انهم منكرون للاله بهذه العجائب والتوراة والانجيل وهما الكتابان الدينيان لهم ليس فيهما من محاسن الطبيعة الاماظهر من الفلك على جرم السمك أثر ضئيل ونور حائل

ألا فليستيقظ أهل الشرق فقد آن أن تبزغ شمس المعارف فى آفاقه وأن يتهيأ الشبان لزمان العرفان وأيام الهناء والسعادة وكانى بالنابغين منهم وقد برعوا فى الفنون وذاقوا من أفاويقها مابه يسعدون

ولعمرك لم أطل فى هذا المقام اعتباطا ولم أذكر ذلك الا لتعلم كيف كان ارتباط قوله تعالى (فأينما تولوا فثم وجه الله) بقوله (ولله المشرق والمغرب)

أولست ترى أن حكاية الخليل وقد رأى النجم والقمر والشمس ثم اهتدى الى مبدع العالمين وكيف كان علماء الأمم يذكرون مبدع الكائنات بعد النظر فى الكواكب ان الكواكب والشمس والقمر باشراقها على الارض تغشيها بملاءة بيضاء فأينما نولى وجوهنا يشرق النور علينا واذا كان المخلوق هكذا حاضرنا فى كل مكان فأحرى بنا أن نوقن أن الله الذى هو نور السموات والارض وهو الذى أبدع النور معنا أينما كنا

فبهذا فلنفهم كيف يقول تعالى (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) واياك أن تظن أن التسبيح ما يكرره الجاهلون وهم لا يعقلون وانما ذلك المقرون بالفكر والعلم والنظر والحكمة كما قال تعالى (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا

بالملا) فانظر كيف كان القرآن يدعو حثيثا الى هذه العجائب وصغار العقول نائمون و بعض العلماء غافلون والمغرورون
من متعلمى اللغات الافرنجيــة مفتونون وقد أقمت الحجة على الجميع من الكتاب وكلام الفرنجة عسى أن يكونوا من
المفكرين والى هنا آن الشروع فى قصص الخليل عليه السلام وهو

(المقصد الثامن)

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي
قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ
إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ
مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ
النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ
وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ * وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ *
وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي
قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

ابتلى اختبر كلمات أوامر ونواه أتمهن أداهن تامات قال أى الله اماما قدوة فى الدين قال ابراهيم ومن ذريتى أى أولادى
اجعل أئمة لا ينال عهدى أى بالامامة الظالمين الكافرين منهم البيت أى الكعبة مثابة مرجعا يرجعون اليه من كل
جانب وأمنا مأمنا لهم من الظلم والاغارات كان الرجل يلقى قاتل أبيه فيه فلا يهيجه مقام ابراهيم هو الحجر الذى قام عليه
عند بناء البيت مصلى مكان صلاة بان تصلوا خلفه ركعتى الطواف وعهدنا الى ابراهيم الخ أى أمرناهما بان طهرا بيتى
أى من الاوثان العاكفين المقيمين فيه والركع السجود جمع راكع وساجد وقوله اجعل هذا أى المكان آمنا ذا أمن
وقد استجيب الدعاء فجعل حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده اضطره ألجئه والمصير المرجع
والقواعد الاسس أو الجدر يقولان تقبل منا مسلمين منقادين أمة جماعة وأرنا علمنا مناسكنا شرائع عبادتنا أو
حجنا وابعث فيهم فى أبناء ابراهيم من اسمعيل رسولا وقد حقق الله الدعاء بنبينا منهم آياتك القرآن والكتاب القرآن

والحكمة مافيه من الأحكام ويزكيهم يطهرهم من الشرك العزيز الغالب الحكيم في صنعه ولا يرغب عن ملة ابراهيم الامن استخف بنفسه وامتهنها ولقد اخترناه في الدنيا بالرسالة والخلة وانه في الآخرة من الذين لهم الدرجات العلى واذ كر اذقال له ربه أسلم انقد لله وأخلص له دينك الخ ووصى بالملة ابراهيم بنيه ويعقوب يابني ان الله اصطفى لكم الاسلام . وقوله شهداء أي حضورا او الهلك بدل من الهلواحدا في لقد مضى ذكر آدم وحواء وابليس وما كان من وضع أساس علم الأخلاق والنفس وتعقيب ذلك بما فعل اليهود السابقون واللاحقون وتقريعهم وتوبيخهم ان ذلك لاشبه بالتخلية ولم يبق الاالتحلية بذكر العلم والحكمة والأخلاق والفضيلة التي تحلى بها ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ذلك الأب الأكبر الذي ولد القبيلتين العرب واليهود وفرع الشعبين الاسرائيليين والاسماعيليين * ابراهيم أبو اسحق واسماعيل واسحق فولد يعقوب وهو اسرائيل أي عبدالله وأبناؤه الاسباط واسماعيل فولد العرب ومنهم النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان العرب يدينون بدين ابراهيم فجاء النبي بدينه فطفق الله يذكر الأمة بدين أبيها ابراهيم بعد ان هدم بناء أسس على الجهل والتحريف فقال واذا بتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن * ان أقصى ماذكره المفسرون وقصارى مادونوه في الكلمات يرجع الى العبادات والأخلاق الظاهرة والباطنة التي ترفع الرجل الى رتبة الامامة وتزين الانسان وتسمه بالحكمة ولن يكون الاخصال شريفة ولا قدوة الابآداب عالية يعلو بحسبها ويشرف بقدرها

وابراهيم أمر بآداب ظاهرة كالخمسة التي في الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وخمس في الجسد من تقليم الأظافر ونتف الابط وحلق العانة والختان والاستنجاء وهكذا ثلاثون خصلة خلقية وهي المفهومة من آية (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) وآية (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) وآية (قد أفلح المؤمنون الذين في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الاعلى أزواجهم أوماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون) وهكذا مناسك الحج وابتلاء بالنظر في الكوكب والشمس والقمر فأحسن النظر فيها وبذبح ولده فصبر وبالهجرة وبفراق الوطن فاحتسب وبالنظر في العوالم السفلية كمسألة الطير وكيف يحيي الله الموتى فأحسنها وبلغ النهاية فيها فرجع أمره الى صدق النظر في العوالم العلوية والسفلية من كوكب وقمر وشمس كما في آية الانعام وابادة الاصنام وتكسيرها وابانة الحجة على صحة الحياة الاخرى بالنظر في العلوم الطبيعية ثم الاخلاق الظاهرة من المضمضة وماعطف عليها والباطنة من الايمان والصدق وماعطف عليهما وكذا الصبر على فراق الولد والوطن والالقاء في النار (صفات عالية ونفوس شريفة وآداب كريم وشنشنة فاضلة) ذلك تضمنه معنى الكلمات التي ابتلاه الله بها فليست الكلمات حروفا يتحرك بها اللسان وتضطرب بها الشفتان * وهذه احدى نكبات المسلمين اليوم فلقد يغرهم الجاهلون ويضحك على أذقانهم المغرورون فيقولون لهم من قرأسورة كذا غفر الله له وأعطاه كذا فظن الناس ان المسألة كلمات تكرر وحروف تصور * كلا والله فقد أجمع المفسرون على ان ذلك عمل وأي عمل ان أكثر المسلمين أبناء ابراهيم * ومن المحزن انهم جهلوا سبيله وضلوا طرقه وماقدروه قدره * وكيف يموتون وهم لاحظ لهم من نظره ويهلكون ولا نصيب لهم من عمله * أين مدارس الحكمة أين علم الفلك أين الصدق والوفاء أين الفضيلة هذا دين أبيكم ابراهيم دعا كم له عربى مثلكم وهو النبي صلى الله عليه وسلم ولو رجع الخليل للدنيا لا نكر ذريته وقال لاينال عهدى الظالمين فليس الظلم قاصرا على التعدى على العباد كلا بل أقبح منه الجهل بنظام السموات والارض والفضائل النفسية * وما أجهل المسلمين اليوم فاذا لم يكن لولد ابراهيم اليوم عهد الامامة والرياسة فلا يلومون الا أنفسهم فقد أصبحوا عن عمله معرضين وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم

قبل أن ينزل الوحى عليه يتعبد فى غار حراء بالنظر والفكر والتأمل فى بدائع السموات ومحاسن العالم وهو دين الخليل عليه السلام فمن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه وجهل قدرها

ويرجع ما فى هذه الآيات الى عشر زمردات الزمردة الاولى طلب الامامة لبنيه والخلافة لذريته بقوله (قال ومن ذريتى) فأجيب بأنه لا يدركها من جهلوا وظلموا

(الزمردة الثانية)

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى

أنت تعلم ان الخليل عليه السلام تحلى بالحكمة والعلم وازدان بالآداب والأخلاق فامرنا باتخاذ الأماكن التى أمها مصلى لنا وقبلة كالحرم والكعبة وأماكن المناسك كلها للسير فى سبيله ونأخذ العهد بعده والمراد بالصلاة ما يشمل الدعاء فى تلك الاماكن فليس الحج حركات عضلية كما ان الصلاة ليست كلمات وأفعالا بلا فكر ولا روية فهذا من عجائب القرآن وبدائع الفرقان وصلاة ركعتى الطواف من تلك الصلوات فلا تحجبك الاقوال

(الزمردة الثالثة)

وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

وهى ظاهرة والعاكفون المقيمون فيه والركع السجود مفهومان

(الزمردة الرابعة والخامسة)

دعاؤه لابنائه وهو قوله تعالى

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ

هذا الدعاء ظاهر واضح دعا ابراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا لا يراق فيها دم ولا يصاد صيدها وان يرزق أهلها المؤمنون الثمرات احتراسا من أن يقع فيما وقع فيه نوح من الدعاء للابن الكافر فأراه الله أن الكافر لا يحرم من النعمة والصحة والحياة وله عذاب مهين يوم القيامة ۞ أليس من العجب أن يحرم الصيد بمكة ويحرم على رب الدم أن يقتل واتره ذلك أساس وضعه ابراهيم الخليل عليه السلام فى مكة بأمر الله عسى أن تهتدى الأمم يوما ما الى السلامة وحفظ الأنفس من الهلاك والأجسام من سفك الدماء ان فى الاسلام لبذورا ستنمو وتفرخ وتتشعب وتفرش اذا جاء أجلها وحان حينها

ثم بنى ابراهيم وابنه اسماعيل البيت ودعوا ربهما أن يتقبل البناء ويسمع الدعاء وأن يجعلهما مخلصين وأن يكون منهما ذرية تتبع آثارهما وتهتدى بهداهما وهذه القصة واردة فى حديث البخارى وفيه وجاء بها أى سارة وبابنها اسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل وكان ما كان من تفويض أمرهما الله ووقوفه مستقبلا القبلة عند الثنية وقوله (ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وهكذا ظمئت وظمئ ولدها وسعت بين الصفا والمروة طلبا للماء فشرع السعى وسمعت صوتا اذا هو جبريل يبحث بجناحه فظهر الماء وشربت فمرت رفقة من جرهم من طريق كداء وحلوا وحالهم حول زمزم وترعرع اسماعيل ومر أبوه ببيته وهو ذو أهل مرتين وفى المرة الثالثة قابلهما واعتنقا ثم بنيا البيت فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة وابراهيم يبنى ووضع الحجر الاسود وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم

أخلص ابراهيم لله فدعا أن يتقبل دعاءه و يجعله مخلصا لله و يتخذ من ذريته أئمة و يرسل لهم رسولا منهم يعلمهم و يطهرهم فهذا الدعاء شامل لخيرى الدنيا والآخرة

ان أبناء اسمعيل هم العرب يقطنون اليوم أرض الحجاز واليمن وتهامة وأكثر جزيرة العرب والشام والعراق ومصر وشمال أفريقية طرابلس وتونس والجزائر ومراكش وهل اتخذوا حظهم من علمه وقسطهم من حكمته هاهم أولاء أبناؤك يا أبانا ابراهيم اليوم فى شمال أفريقية وفى مصر وفى الشام وجزيرة العرب أجهل الأمم بعلمك وأبعدهم عن فكرك نظرت السموات وكواكبها والارض ومناكبها والمناسك وفوائدها وحللت المركبات لتقف على أسرارها فى مسألة الطير وصبرت على النار وسعيرها والولد وفراقه والوطن وحبه وهاجرت لارض الحرية بعد يأسك من ايمان الأمة التى أرسلت لها جاءهم الرسول الذى طلبت والكتاب الذى به دعوت فوحق شيبتك ووقارك ماعرفوهما الا معرفة الجاهلية وانما قدسوهما غافلين ولا حظ لهم من القرآن الا حظ الجائع من النسيم والحار من البرسيم فداستهم الأمم وأصبحوا المحين الطامين ولم ينالوا الخلافة ولم يحظوا بالامامة فهم مأموموين لا أئمة وتابعون لا متبوعون انهم ظالمون لا لظلم المعاصى الظاهرية ولا الامور الأخلاقية وانما ظلموا بجهل العلم والصناعات وما أبدعه الله فى الارض والسموات فلا تجزع يا أبانا ابراهيم فان أبناءك جهلوا قدرك وسفهوا أنفسهم ألا ترى انهم أعرضوا عن علومك وغفلوا عن نظرك * نظرت السموات وأغمضوا وفكرت فى الطبيعة وأعرضوا وصبرت على مايشرف قدرك وماصبروا وأحببت ذويك وكرهوا * لا تأسف على أبنائك يا أبانا الخليل ولقد صدق قول الله فينا ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه فأبناؤك اليوم جهلوا أنفسهم فلا تبتئس بما كانوا يعملون وعسى الله أن يبدلهم بعد جهلهم علما وبعد خوفهم أمنا ألا وان هذا زمان الانقلاب وأيام الاضطراب ودوران الفلك بالعجائب والغرائب فقد انتعشت الافئدة وأشرقت الارض بالنور وسيتبوأ أبناؤك فى القريب العاجل مقامهم الرفيع وينالون عزهم الشامخ وسيدركون معنى بنوتك وملتك * المسلمون جميعا أبناؤك من ترك وكرد وصينيين وجاويين وهنود وغيرهم من الأمم والأجناس أبناؤك فى العلم والدين و بنوة العلم أشرف وأبقى من بنوة النسب هؤلاء الأبناء جاء فيهم على لسان أفضل أبنائك نبينا صلى الله عليه وسلم فى القرآن (ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) فلقد سميتنا مسلمين فى الكتب السابقة وفى القرآن وأننا نكون شهداء على الناس ويكون الرسول علينا شهيدا فتكون نسبتنا الى الناس كنسبة الرسول لنا نحن شهداء الله على خلقه نحن هداة الأمم هكذا يجب أن نكون كما رسمت لنا أيها الأب الوقور

لقد وقف الرسول الذى أرسله سعد بن أبى وقاص فى مجمع من الفرس فى حضرة الشاه تارة وفى حضرة رستم القائد العام تارة أخرى وهو يقول (لقد بعثنا لنخرج الناس من جور الاديان الى عدل الاسلام ولا يتخذ بعض الناس بعضا أربابا من دون الله) لعمرى لقد فهم أولئك السلف حقيقة الاسلام وان المسلم شهيد على الناس كما أن رسوله أرسل رحمة للعالمين (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) ولن نكون رحمة للعالمين الا اذا اتبعنا ملة أبينا ابراهيم فقرأنا سائر العلوم وأحطنا بالفنون كما شرحنا فى علومك السابقة * نظرت فى النجوم وصبرت و بحثت فى علم الحقائق واستبصرت فى كل شئ هكذا فليكن أبناؤك الذين هم أتباع دينك وكيف يكونون شهداء على الناس الا اذا درسوا العلوم وأطوار الأمم وأحوال الشعوب فالشاهد على قوم يكون عالما بما بين أيديهم وما خلفهم ولم يقتصر القرآن على اتصافهم بالشهادة على الأمم بل جعلهم ذوى اشراف على الجميع فى الارض اذ قال (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم) وقال فى آية أخرى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا) الأمة الاسلامية جعلت ديارها بين ديار الأمم تتاخم الروم من جهة الغرب باوروبا وتصل بالصين والهند واليابان وماوراءها من أمريكا من جهة الشرق فكانها وسط بين الامكنة ورجالها وسط يعدلون فى قولهم وحكمهم فاهل الحل والعقد من هذه الامة متى جاء وقت منعتها وعزها ومجدها

سيكونون مرجع المظلومين ومأوى الخائفين وأمان المذعورين وهم يكونون الآمرين الناهين وكما أرسل رسولهم رحمة للعالمين يكونون هم رحمة الأمم تبعا لنبيهم وهذا معنى (ليظهره على الدين كله) فالمسلمون بمنطوق هذه الآيات خير أمة أخرجت للناس ولا جرم ان هذا خبر لا بد من تحققه و يظهر لى أنه قد آن أوانه و بدا كوكبه وانفلق عمود صباحه وانشق فجره

ان أول اصلاح اسلامى فى الارض أن زلزلت الأمم القديمة كفارس والروم وماج الناس بعضهم فى بعض وداخل الغربيون الشرقيين والشرقيون الغربيين وامتد الفتح الاسلامى الدينى فتعارفت الأمم واستفحل الاسلام فقام الملوك ببعض العدل فى حكمهم الأمم على قدر طاقتهم وما سمحت به أيامهم ثم دالت الدول الاسلامية وذهبت عنهم عزة المدنية * فدلف اليوم من الشرق المغول والتترو ورثوا الارض والتحقوا بالدين وهذا من ثمرات الاسلام وجاء الغربيون ليحاربوا الدين فحملوا على قومهم قناديل تضىء على ديارهم وقبسا من العلم يهديهم الى هدى ويردهم عن ردى فظهر لوثر المصلح الدينى الشهير وصرخ فى قومه قائلا أيها الناس ان رجال الدين قد عثوا فى الارض فسادا وأدخلوا فى الدين مالم ينزل الله به سلطانا فلا تجعلوا لكم ربا الا الله وذلك انما كان صدى قول الله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا) فلا اقرار لقسيس ولا طغيان فى معاملة ولا غفران لرئيس بل العبد يحاسب ضميره و يعلم أن الله مطلع عليه فأخذت العقول الغربية فى الهدى والعقول الشرقية فى الضلال والاضمحلال و بهذه الحرية الاسلامية تحررت عقول الغربيين من الجهل الذى كان مخيما عليها أجيالا وقرونا فأخذوا ينظمون البريد والقطر للمسافرين و يمدون الاسلاك فاتصل الغربى بالشرقى وعرف كل منهما بعض ما عند أخيه وانقلبت ممالك فى الشرق والغرب وتقاربوا بعد التباعد وتعارفوا بعد الجهالة فاقتتلوا وأخذ القوى منهما يدوس الضعيف بسنابك خيله و يذله و يشاركه و يعده وما يعد الشيطان الا غرورا وقد أحكمت حلقات التجارة فكانت أقوى رابطة فدعا ذلك التصادم فى المصالح أن يحتدم بينهم القتال و يتراشقوا بالنبال و يتباروا فى النضال ثم يكون الصلح العام والمسلمون فى هذا كله وسط بين الجميع فعليهم اليوم أن يأخذوا دورهم فى ترقية أنفسهم والشعوب الأخرى ونستأنف دورنا ونكون كما أخبر ربنا (وللآخرة خير لك من الأولى) ولتكونن نهضة الاسلام الآتية مبناها العلم وأسها البحث والتحقيق

فليأخذ المسلمون مكانتهم فى أنفسهم أولا ثم ليعلموا اشعنهم فليأ تواصفا وقد أفلح اليوم من استعلى بالعلم والعرفان واذن يأمرون الأمم بالمعروف و ينهونهم عن المنكر لانهم خير أمة أخرجت للناس فأمة الاسلام شهداء الله على خلقه لانهم عدول وفوق ذلك يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر

أبونا ابراهيم حمد الله على أن وهب له على الكبر اسمعيل واسحق ولا جرم أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا فكيف ذلك وكيف يكون أبو الانبياء وقدوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مغرما بزينة الحياة الدنيا فحمده اذن على الولد أدنى مرتبة بل مراتب من حمد المسلم الذى يحمد الله على تربيته للعالمين كما قدمنا فى سورة الفاتحة فأقول انما حمد ابراهيم الله على ولدين هما نبيان فاسمعيل مرشد مرب للعالمين واسحق أبو الانبياء المرشدين المربين للأمم * وقد جاء من ذرية اسمعيل نبينا فالحمد لله من ابراهيم على تربية الأمم وسعادتها بابنائه * ومنهم أمة الاسلام ألا تراه يقول هنا (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) وأكدها بقوله (انك أنت السميع العليم) حمد الله ابراهيم على أن رزق اسمعيل واسحق وقدم اسمعيل لان الحمد عليه أوفر * فان من ذريته من اتبعته هذه الأمة المسلمة وهى خير أمة أخرجت للناس وهى وسط ورجالها يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر هذه حقيقة الأمة الاسلامية المستقبلة

أيها المسلمون ارفعوا الايدى الضاغطة عليكم لتكونوا جميعا أمة واحدة ثم لتنظروا فى أحوال الأمم * ان الغربيين انقاد قادتهم الى العامة الذين ينوبون عنهم فى مجالس أهل الحل والعقد فيهم فهدوهم الى استعباد الأمم الاسلامية

واستحلوا دماءنا وأموالنا . فاذا جاء يومكم المعهود فلتكونوا خيرا منهم لتكونوا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر وارفعوا حيف الأمم القوية عن الضعيفة على أى دين كانوا وأى ملة وأى لون انما أنتم رحمة العالمين . تؤدبون الظالمين بجيوشكم وسلاحكم ويجب أن يكونا أقوى من أسلحة الأمم وجيوشها حتى يخشوا بأسكم ولا تظلموا أحدا وكونوا قادة وسادة وانظروا كيف كان نبينا شاهدا على الأمم فذم اليهود والنصارى بمخالفة كتابهم كما ترونه فى هذه السورة من اتخاذ اليهود العجل معبودا مثلا ومن اتخاذ النصارى المسيح الها فعيرهم بذلك وبغيره وأدبهم فكان من ذلك ما نرى من هذه المدنية الناجحة من الانقلاب الدينى فى الارض هكذا فلتكونوا شهداء على الأمم تفعلون ما فعل نبينا من الشهادة على الناس والأمر بالمعروف لهم والنهى عن المنكر بعد أن توطدوا أركان النهضة داخل بلادكم . ذلك هو الذى لنشرح له صدرى فى هذه الآيات وهذا الذى يطلبه القرآن والا فلماذا نسمع قصة ابراهيم أبمجرد التاريخ أم الحكاية تقال وتلاوة تسمع * كلا والله ان ذلك الحكمة قد أوضحناها ونعمة سطرناها فمن قرأ هذا فلينشره بين المسلمين (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز)

وهذا سر تكرار الصلاة والسلام على ابراهيم وآل ابراهيم لنذكر الحكمة والآداب الظاهرة والباطنة التى ذكرت عنه فى القرآن اهـ

أيها المسلمون انى أقول لكم لقد اقترب يوم نصركم وأوان عزكم وهل يكون أمركم للامم بالمعروف ونهيكم عن المنكر وأنتم أذلة * ان الله خلق الحيوانات فى الارض على قسمين قسم عزيز وقسم ذليل فالعزيز كالغزلان والآساد والذئاب والفيلة وهى الحيوانات التى تعيش فى القفر والفضاء الواسع فجدت لأنفسها وسعت لمعاشها واتكلت على ربها ولم يكفلها غيرها . الا أنها تمتع بالحرية والاستقلال التام

والقسم الذليل تلك الحيوانات التى أغدقنا عليها نعمنا وكفيناها العمل وأحطناها بقوتنا وأرحناها من السعى لانفسها والبحث عن كل ما يرجعها وينفعها من الغنم والبقر والابل والخيل وأمثالها فتلك تمتع بالنعيم وتتقلب فى العذاب تحت رحمتنا وعذابنا ان الله أعطى القسم الاول كالآساد قوة المحافظة على أنفسها والحيلة لجلب ما تحتاج اليه وسلب القسم الثانى تلك المواهب فزادنا ما نقصها وأعطانا ما منعها فان كل موهبة استعملها الحى نمت وكل موهبة تركها ذهبت ولم تبق . هذه قاعدة عامة ألا يبقى الا النافع

فنقول أيها المسلمون أنكون كالفريق الاول أم نكون كالفريق الثانى . ان الفريق الثانى لا يملك لنفسه نفعا انه ذليل ضعيف فاقد الحيلة . أما الفريق الاول وهو الحر المستقل فهو أهل أن يحفظ نفسه وينفع غيره * المسلمون ما داموا تحت رحمة الأمم فليسوا خير أمة أخرجت للناس ولا عدولا لان الأمة التى تكون خير الأمم وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر تكون حرة وهل للذليل أمر أونهى أم هل له من علم وهو فى طاعة ساداته المالكين لامره الذين يسخرونه لمآربهم . فما داموا تحت وصاية غيرهم فان الرجاء فيهم مفقود وانما هم أشبه بادنى الحيوان الذى يقوده الانسان ويذبح أولاده ويشوى لحمه ويجز صوفه ويكون زينة له ومتاعا الى حين * فهل مثل هؤلاء يكونون خير أمة أخرجت للناس أم مثلهم يسميهم الخليل مسلمين أم يكونون شهداء على الناس وهم لا يعرفون الناس ولا أنفسهم فليخرج المسلمون من مأزقهم الذى وقعوا فيه وليرجعوا الى سنن السلف الصالح من الحرية والنجدة والنخوة والشمم والاباء وحينئذ يكونون خير أمة أخرجت للناس

(الزمردة السادسة)

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، إلى قوله : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

ابراهيم أبو العرب واليهود وأبو نبي النصارى لانه ابن مريم وهي من بني اسرائيل

ابراهيم ولد اسحق وولد اسماعيل اسحق أبو اليهود واسماعيل أبو العرب ودعا ابراهيم لابنائه العرب بالبركة والنماء والعز والعلم والكتاب والحكمة * وهاهو ذا يذكر وصيته هو ويعقوب بعده كلاهما يقول لبنيه ولا تموتن الا وأنتم مسلمون * ههنا وضح الحق واستبان السبيل وتجلى الامر وسطع نور العلم وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب * وهاهو ذا ابراهيم يدعو للعرب ويوصي اسحق ويوصي اسحق يعقوب أن يتبعوا ملة ابراهيم وهي ما عرفت من النظر في العالمين والآداب الظاهرة والباطنة فهل يجمل بعد هذا البيان أن يتقهقر الناس الى الوراء ويدينون بالنصرانية واليهودية تلك أمة قد خلت أي ابراهيم والمذكورون معه أمة قد سلفت لها ما كسبت من العمل ولكم أيها اليهود ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون كما لا يسألون عن عملكم فلا تفتخروا بهم

(الزمردة السابعة)

وهما فرعان لأصل وغصنان لشجرة ولا أصل الا دين ابراهيم وهو قوله تعالى

وقالوا كُونوا هودًا أَوْ نَصارَى تَهْتَدوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

وقال اليهود كونوا هودا وهم يهود المدينة وقال نصارى نجران كونوا نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم مائلا عن الاديان كلها الى الدين القيم وقوله وما كان من المشركين تعريض لليهود والنصارى بأنهم مشركون . الا أن الطريق المثلى والمثل الأعلى والحكمة المشرقة أن يرجع نوع الانسان الى الدين العام بلا قيد ولا شرط وهو

(الزمردة الثامنة)

السلام العام بمشرق شمس الهداية ونور الحكمة من أفق الشرق وتبلج نور ابراهيم الخليل وحكمة ذلك الوفور الجليل وهي قوله تعالى

قُولوا آمَنَّا بِاللَّهِ وما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقوبَ وَالأَسْباطِ وَما أُوتِيَ موسٰى وعِيسٰى وما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمونَ * فَإِنْ آمَنوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ في شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

هذا خطاب للمؤمنين يقول قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وهو القرآن وما أنزل الى ابراهيم من الصحف العشرة وما أوتي موسى من التوراة وعيسى من الانجيل لا نفرق بين أحد منهم كما فعل اليهود * وقوله فان آمنوا أي اليهود بمثل ما آمنتم به وشقاق خلاف معكم فسيكفيكهم الله يا محمد شقاقهم وهو السميع لاقوالهم العليم بافعالهم وقد كفاه اياهم فقتل قريظة ونفي النضير وضرب الجزية هذه حجة الاسلام الباهرة وسيفه القاطع ونوره الساطع فنحن نؤمن بالمرسلين والنبيين ولا نكذب ما ورث عنهم من حكمة وما أوتوا من علم لا نفرق بين رسول ورسول ولا بين نبي ونبي نحن نأخذ الحكمة أين وجدناها ونعظم سائر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين عقولنا ميزان تزن ما ورد بالقسط وتبين بالحق كما في آية فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب اذا آن أن ينبلج صبح ذلك اليوم المنشود ويعلم المسلم ما في هذه الآية يكونون أرقى الأمم والآن هم في غطاء عن الذكر وقلوبهم في أكنة الا من رحم ربك فمثل هذه الآيات لا تلج القلوب ولا تدخل الآذان هذا وقد أكد هذه الحكمة

بما يقوم بها وز كاها بما يدعمها و يسميها وهو قوله عز وجل

صِبْغَةَ اللّٰهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابدونَ * قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللّٰهِ وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ وَلَنا أَعْمَالُنا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصونَ *

أى صبغنا الله صبغته وهى فطرة الله التى فطر الناس عليها وهدانا الله هدايته ولا صبغة أحسن من صبغته الظاهرة الأثر فينا ظهور الصبغ على المصبوغ ونحن له عابدون تعريض لهم بانهم مشركون * وروى ان أهل الكتاب قالوا الانبياء كلهم منا فلو كنت نبيا لكنت منا فنزل ما معناه قل أتجادلوننا فى شأن الله فالنبوة اما اختصاص من الله فهو ربنا وربكم فكما يختص منكم من يشاء يختص منا من يشاء وان كان ذلك بالاعمال فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن مخلصون له فى الايمان والطاعة صبغ النصارى بماء المعمودية الذى اتصل بما غمس فيه المسيح عليه السلام فذلك حجر للنفس عن السلام العام ودين الحق أن يرجع الناس للسلام العام بالدخول فى الاسلام و يصبغوا بصبغة الاسلام لا يتقيدون بالقيود الموهومة صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ليس امام المسلم الا ربه وعمله (هو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) والناجون المفلحون هم المخلصون ونحن له مخلصون

(الزمردة التاسعة)

أَمْ تَقُولونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقوبَ وَالْأَسْبَاطَ كانوا هوداً أَوْ نَصارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّٰهِ وَما اللّٰهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلونَ عَمَّا كانوا يَعْمَلونَ *

أى بل أتقولون وقوله أأنتم أعلم أم الله أى الله أعلم وقد برأ ابراهيم من اليهودية والنصرانية بقوله ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا له ولا أحد أظلم ممن أخفى شهادة عنده كائنة من الله وأولئك هم اليهود وكتموا شهادة الله لابراهيم بالحنيفية وقوله وما الله بغافل عما تعملون تهديد لهم وتخويف وتكرار هذا اليعلم اليهود وجميع العالم الاسلامى ان الاحتجاج بالآباء أو الافتخار بهم ضرب من الجهالة وباب العماية فليس من حق اليهود الاحتجاج بالتاريخ الذى زوروه ولو كان حقا لم يفدهم فلكل امرىء ما كسب وعليه ما اكتسب وكل امرىء عن عمله مسئول * وملخص ذلك أن يقال ليس ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا وانما دينه مطلق القيود خال من لسيئات أبيض ناصع على انه لا عبرة بالمجد القديم والفضل الموروث الا انما المجد كل المجد ان يعمل الانسان بنفسه تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون

(الزمردة العاشرة)

القبلة ومناسك الحج كالصفا والمروة التى كانت مناسك ابراهيم لتقتفى الناس أثره فى أعماله الظاهرة وآدابه الباطنة ونظره العام فى السموات والارض وهو قوله تعالى

سَيَقولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كانوا عَلَيْها قُلْ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ * وَكَذٰلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا

شُهَدَاءَ على النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَما جَعَلْنا القِبْلَةَ التى كُنْتَ عَلَيْها إلّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ على عَقِبَيْهِ وإنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إلّا على الّذِينَ هَدَى اللهُ وما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمَانَكُمْ إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ * قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فى السَّماء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإنَّ الّذِينَ أُوتوا الكِتابَ لَيَعْلَمونَ أنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وما اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الّذِينَ أُوتوا الكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ماتَبِعوا قِبْلَتَكَ وما أنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ماجاءَكَ مِنَ العِلْمِ إنكَ إذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الّذِينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفونَ أبْناءَهُمْ وإنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمونَ الحَقَّ وهُمْ يَعْلَمونَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فاسْتَبِقوا الخَيْرَاتِ أيْنَ ماتَكونوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَإنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلّا يَكونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلّا الّذِينَ ظَلَموا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدونَ * كَما أرْسَلْنا فِيكُمْ رَسولاً مِنْكُمْ يَتْلو عَلَيْكُمْ آياتِنا وِيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مالَمْ تَكُونوا تَعْلَمونَ * فاذْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ واشْكُروا لِي ولاَ تَكْفُرُونِ * يا أيُّها الّذِينَ آمَنوا اسْتَعِينوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * ولاَ تَقولوا لِمَنْ يُقْتَلُ فى سَبِيلِ اللهِ أمْوَاتٌ بَلْ أحْياءٌ وَلكِنْ لاَتَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ والجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأمْوَالِ والأنْفُسِ والثَّمَرَاتِ وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الّذِينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالوا إنّا للهِ وإنّا إلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ * إنَّ الصَّفا والمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُناحَ عَلَيْهِ

أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ *

لما كان الشعور بالمكروه قبل حصوله كالمرض يتقدم الموت يطمئن به القلب و يسهل المكروه قال الله تعالى سيقول الجهال من اليهود والمشركين أى شئ صرف النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن استقبال قبلتهم التى كانوا عليها وهو بيت المقدس قل يا محمد لله الجهات كلها مشرقها ومغربها وما بينهما فأى اعتراض عليه أن يأمر بالتوجه الى أى جهة شاء يهدى من يشاء هدايته الى طريق مستقيم أى دين الاسلام ومنه أنتم وانا كما هدينا كم الى هذا الدين جعلنا كم يا أمة محمد أمة خيارا عدولا لتكونوا شهداء على الناس فى الدنيا والآخرة وسيأتى توضيحه كما سبق بعض ذلك ويكون الرسول عليكم شهيدا أنه بلغكم وما صيرنا القبلة لك الآن الجهة التى كنت عليها من قبل وهى الكعبة اذ كنت تصلى اليها فلما كانت الهجرة أمرناك باستقبال بيت المقدس تألفا لليهود الا لنعلم علم ظهور من يتبع الرسول فيصدقه ممن ينقلب على عقبيه راجعا الى الكفر شكا فى الدين فيظن من فى قلبه مرض ان الرسول متحير فى أمره متردد فى فعله * ولقد ارتد جماعة لذلك وانها أى التولية لشاقة على الناس الا على الذين هدى الله منهم * ولما قال حيى بن أخطب من عظماء اليهود للمؤمنين ان استقبالكم لبيت المقدس لا يخلو اما أن يكون هدى فقد انتقلتم الآن الى الضلال واما أن يكون ضلالا فلم أقركم عليه ثم ان من مات قبل التحويل مات على الضلال وضاعت أعماله فشق ذلك على أقارب من ماتوا قبل التحويل فشكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى (وما كان الله ليضيع ايمانكم) وهو صلاتكم الى بيت المقدس (ان الله بالناس لرؤف رحيم) أما بالمؤمنين ففى انه لم يضيع صلاتهم الى بيت المقدس وأما بالرسول فانه أجاب دعاءه وأعطاه طلبته اذ كان وهو يصلى الى جهة بيت المقدس نشم من اليهود الكره وكانوا يقولون ان محمدا يفارق ديننا و يصلى لقبلتنا وكان صلى الله عليه وسلم يحب أن يصلى للكعبة حتى نزل عليه جبريل يوما فقال يا جبريل أود أن الله يحولنى لقبلة أبى ابراهيم فسل ربك ذلك فقال أنت أكرم على الله منى ثم صعد الى السماء فصار رسول الله صلى عليه وسلم ينظر لجهتها منتظرا للاذن فى ذلك فنزل عليه جبريل بعد ركعتين من صلاة الظهر فى رجب بالأمر بالتحويل للكعبة فتحول وتحول الناس معه وكان يوما مشهودا افافتتن اليهود وأهل النفاق ونزل قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك) الآية أى قد ترى تصرف وجهك فى جهة السماء متطلعا الى الوحى ومتشوقا للاذن باستقبال الكعبة لانها قبلة أبيك ابراهيم ولأن العرب يألفونها فيسلمون فلنولينك قبلة تحبها فاستقبل فى الصلاة نحو المسجد الحرام وأنتم أيها المؤمنون حيثما كنتم فولوا وجوهكم فى الصلاة شطره وان الذين أوتوا الكتاب وهم اليهود ليعلمون ان التولى للكعبة الحق الثابت من ربهم فان ذلك جاء فى نعت النبى أنه يتحول اليها وما الله بغافل عما تعملون أيها المؤمنون من امتثال أمره ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية على صدقك فى أمر القبلة ما يتبعون قبلتك عنادا منهم لك وما أنت بتابع قبلتهم لطمعه فى اسلامهم ولطمعهم أن يكون هو صاحبهم الذى كانوا ينتظرونه مؤيدا لهم وما اليهود بتابعين قبلة النصارى وهى مطلع الشمس التى ابتدعها لهم بولس القسيس ، انه بعد رفع عيسى قال لقيت عيسى عليه السلام فقال لى ان الشمس كوكب أحبه يبلغ سلامى فى كل يوم فمر قومى ليتوجهوا اليها فى صلاتهم ففعلوا ذلك وما النصارى بتابعين قبلة اليهود وهو بيت المقدس ولئن اتبعت يا محمد اهواءهم التى يدعونك اليها من بعد ما جاءك من الوحى الآية ، الذين آتيناهم الكتاب يعرفون محمدا كما يعرفون أبناءهم كعبد الله بن سلام اذ قال لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ومعرفتى بمحمد أشد فان الابن مظنون النسب أما محمد فمعرفته عن الله فى الكتاب وان فريقا منهم ليكتمون نعت محمد وهم يعلمون ومعنى الممترين الشاكين ولكل فريق من الناس قبلة هو موليها وجهه فى صلاته ، فبادروا الى الطاعات أينما تكونوا يجمعكم الله يوم القيامة ومن حيث خرجت لسفر الآية وقوله لئلا يكون للناس أى اليهود أو المشركين مجادلة فى التولى الى غير الكعبة أى لينتفى قول اليهود يجحد ديننا ويتبع قبلتنا وقول العرب أى المشركين منهم يدعى ملة ابراهيم و يخالف قبلته الا الذين ظلموا منهم لانهم يقولون ما تحول اليها الا ميلا منه الى دين آبائه فلا تخافوا جدالهم واخشونى بامتثال أمرى

وعطف على قوله لئلا يكون قوله ولاتم نعمتي عليكم بالهداية الى معالم دينكم ولعلكم تهتدون الى الحق اتماما كاتمامها بارسالنا فيكم رسولا منكم وهو محمد وقوله يزكيكم يطهركم ويعلمكم الكتاب القرآن والحكمة ما فيه من الأحكام فاذكروني بالطاعة كالصلاة والتسبيح أذكركم بالثواب وفي الحديث عن الله من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه وفي الحديث أيضا ان الله اذا أحب عبدا نادى جبريل فقال له يا جبريل اني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الارض ثم قال تعالى واشكروا لي نعمتي بالطاعة ولا تكفرون بالمعصية يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر عن المعاصي وحظوظ النفس والصلاة اما أن تكون الدعاء واما أن تكون الصلاة المعروفة ان الله مع الصابرين بالنصر واجابة الدعاء * ثبت بالتجربة التي قرأتها في بعض الكتب واختبرتها أنا ان التوجه لله بالدعاء مع الثقة بالاجابة واقناع القلب الدائم ان مطلوبه سيتم مع المواظبة في ذلك لابد من الاجابة له دعائه ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هم أموات بل هم أحياء ولكن لا تشعرون وحياتهم ليست جسدية من جنس حياة الحيوان والآية نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر وهذا دليل على ان ما قاله الفلاسفة من أن الارواح جواهر قائمة بأنفسها باقية بعد الموت حق وصدق وهنا اتفق الشرع والعقل وسيأتي في هذا المقام تفصيل أوسع من هذا

ولنبلونكم اصابة المختبر لأحوالكم هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والانفس والثمرات والخوف امامن الأعداء بالاغارة والايذاء أومن الله والجوع بالقحط أو الصيام في رمضان والنقص من الأموال اما بالجوائح والمهلكات واما بالزكاة والصدقات ونقص الانفس بالامراض والقتل والموت والثمرات بالآفات العارضة وانما فعلنا ذلك لننظر أتصبرون وبشر الصابرين على البلاء بالجنة الذين اذا أصابتهم مصيبة وبلاء قالوا انا لله ملكا وخلقا وعبيدا يفعل بنا ما يشاء وانا اليه راجعون في الآخرة فيجازينا والاسترجاع باللسان وبالقلب بحيث يتصور ما خلق لاجله وانه راجع الى ربه ويتذكر نعم الله عليه فيهون على نفسه ويستسلم له وفي الحديث من استرجع عند المصيبة آجره الله فيها واخلف عليه خيرا وفي الحديث أيضا ان مصباح النبي صلى الله عليه وسلم طفئ فاسترجع فقالت عائشة انما هو مصباح فقال كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة أولئك عليهم صلوات من ربهم أي تزكية ومغفرة ورحمة أي لطف واحسان وأولئك هم المهتدون للحق اهـ التفسير اللفظي ههنا استقام الأمر واستوثقت الحجة وقام البرهان ووضح الدليل ان الدين الحق هو الحنيف الخالص من الكهانة واليهودية وغيرها ولا سبيل لذلك الا برجوع الناس لدين الخليل ومن آدابه الظاهرة أن يؤموا في الصلاة الكعبة التي بناها والقبلة التي اصطفاها والأمة التي تتبع قبلته وتؤم طريقته وتسلك سبيل ملته من النظرات في السموات والتغلغل في الطبيعيات والكيماويات والتنائي عن الأوهام كالاصنام والصبر على ما به تعلو الهمم وتسمو الأمم لاجرم تكون وسطا وعدولا ورجالها خيارا وهداتها ممكنين بالعلم العالي والعمل الشريف والفضل المنيف اذ يعلمون ان الله ما خلق الخلق سدى (وان من أمة الاخلا فيها نذير * بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) فيشهدون على الأمم جملة من خلا قبلهم ومن سيلحق بهم بعدهم ومن هم لهم معاصرون ذلك شأنهم في الآخرة ان أمة محمد يشهدون على الأمم أن أنبياءهم بلغوهم فيؤتى بالنبي فيشهد أن أمته عدل ذلك حالهم في الآخرة لاجرم ان الآخرة ثمرة الدنيا فعلى المسلمين اليوم أن يسموا الى مرتبتهم ويقوموا بما وجب عليهم فلقد صدقوا كل رسول ونبي * المسلمون اليوم وسط بين المشارق والمغارب وسط بين الغرب والشرق الأقصى وأمريكا المسلمون أمة بين المسيح وبوذا جعلهم الله بين الأمتين الغربية والشرقية انهم يؤمنون بما أنزل الله على الأنبياء ومنهم من قص علينا ومنهم من لم يقصص وكأنهم أولى الأمم وأجدر الناس بالتغلغل في العلوم والترقي في المعارف يدعوهم دينهم وملة أبيهم ابراهيم لعلم كل شيء والنظر في دين كل أمة لانفرق بين أحد من رسله فمركزهم انما هو الاشراف على العالمين والنظر نظرة عامة للناس في الدارين فالعدل خبير بأحوال من شهد عليه وعلى الشاهد أن يؤدي الشهادة عن عيان * ولئن قام بالأمر آباؤنا السابقون وأسلافنا المؤمنون فهل ورثنا مجدهم وصرنا

عدولا

عدولا مثلهم وأنا أشك فى قضيتنا وأسال العلم والحكمة لأمتنا حتى تنال صفة العدالة وترث أن تكون شاهدة عن عيان ووجدان فليكن من المسلمين اليوم سياح وعلماء وليقرؤا علوم المغارب والمشارق ويجدّوا فى الصناعات وبناء السفن الماخرات حتى يجوسوا خلال البلاد هذا مقتضى وصفهم بالعدالة ولئن أعرض المسلمون اليوم عما رسمناه واتكلوا على ماسمعناه أصبحوا كأمة اليهود بشروا بانى فضلتكم على العالمين فلما أن أعرضوا قيل لهم كونوا قردة خاسئين فلا يظن المسلمون ان الأمر فوضى وان المسلمين ينالون تلك العدالة والشرف بلا ثمن ولا عمل كلا فان لم يقوموا بالعلم مجدين وللعمل شاكرين قلب الدهر لهم ظهر المجن وأبدل جنتهم العرفانية بذلة الأبد وفقد الولد وضياع البلد وقلة العدد ولقد ذكرنا قبل هذا فى الآيات السابقة عند ذكر الخليل عليه السلام ما كان من اخبار الله تعالى قائلا (كنتم خير امة أخرجت للناس) وان المسلمين غفلوا وذكرت انهم شهداء على الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

(بشرى للمسلمين)

ما كنت وأنا أكتب ما تقدم وأنا مهتم بالأمم الاسلامية لائم لأهل العصر الحاضر على التوانى والكسل أظن ان فيهم من نبذوا الانزواء وظهروا فى الميدان وعرفوا قيمة أنفسهم أفلا أعجب من حكمة الله عزوجل ٠ أكتب هذا القول وأنا آسف على الأمة اذا الخبر السار الوارد فى الجرائد عن أهالى طرابلس وبرقة ينادون بالأمير محمد ادريس المهدى السنوسى أميرا على القطرين ٠ وهذا نص ما كتبوه الى سمو مولانا الأمير الجليل السيد محمد ادريس حفظه الله ورعاه

تحية تليق بالمقام الرفيع والجناب الأسنى المنيع وبعد فانه غير خاف على سموكم ان الخلاف لم يزل قائما بيننا وبين الحكومة الايطالية ذلك لانها وجهت عزمها الى العبث بجميع حقوقنا شرعيها وسلميها وادار يها وجعلت من قوتها مبررا للتصرف فى مصيرنا وحقوقنا الطبيعية (ونحن خير أمة أخرجت للناس) لا نتحمل ضيما ولا نرضى أن تضمحل شريعتنا ولا أن يتطرق الخلل الى ديننا القويم الخ اهـ المقصود منه قرأت هذا اليوم وأنا أعجب سرورا وابتهاجا اذ أكتب هذا القول ومداده لم يجف وأرى ان هذه الأمة اليقظة الشريفة النبيلة المضيئة العريقة المجد الكريمة المحتد قد أخذت تضىء ويبهر سناها وتشرق على العالمين ٭ يا أيها العقلاء ان هناك نورا أشرق من السماء وتقبله كثير من العقول السليمة فى ديار الاسلام واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه تلك كهرباء سرت فى قلوب استعدت للحكمة فى مشارق الاسلام ومغاربه ان توافق الخواطر يبشر بالنجاح سيرجع المسلمون لمجدهم ويكونون رحمة للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين انى لما ألفت التاج المرصع منذ نحو ١٨ سنة كنت أقول فى نفسى ستنبغ فى الاسلام دول قبل ثلاثين سنة أما فى هذا الكتاب فانى أرى نور الله قد أشرق على القلوب وتواردت الخواطر (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) وما كنت لأظن أن يقول أحد هذه الآية (كنتم خير أمة أخرجت للناس) مستشهدا بها على الاستقلال السياسى هذه نزعة شريفة تبشر بالنجاح والفلاح وهذا وحده منشأ عجبى وسرورى اهـ

(ايضاح الكلام فى أمر القبلة)

ههنا بسط الله المقال فى أمر القبلة ولما تشوف النبى صلى الله عليه وسلم لقبلة ترضيه وكانت الأمم تمتاز بقبلتها واحتج العرب واليهود على استقبال بيت المقدس وعابوا المسلمين والنبى فى استقباله كرر الأمر بالتولى ثلاث مرات لكل من الاسباب واحدة مقرونة بقوله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء الخ) والثانية مقرونة بقوله (ولكل وجهة هو موليها) والثالثة بقوله (لئلا يكون للناس عليكم حجة) ثم أبان أن ذلك الرسول الموعود والنبى المنشود الذى دعا به ابراهيم انما هو محمد صلى الله عليه وسلم بقوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا) وههنا أخذ يعطى ملخص دين الاسلام الذى جاء به محمد وأصوله الشريفة التى هى النقية البيضاء وهذه الاصول توافق دين ابراهيم الخليل وهو الدين العام فقال فاذكرونى أذكركم يقول ها أنا اذا ذكرتكم بارسال محمد الذى وعدت على لسان

ابراهيم فـكاد كرتـكم بذلك فاذ كرونى أذ كركم وههنا أخذ يعدد تلك الأصول المرضية والحـكم الشرعية فـكان حاصلها يرجع الى علم وعمل وأخلاق نفسـية فالعلم ـو الهكم اله واحـد لا اله الا هو الرحمن الرحيم ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار الآية) وهى تقابل ماجاء فى سورة الأنعام من نظرات ابراهيم للعلويات والزهرة والقمر والشمس واستخراج الحـكمة البالغة منها وهو التوحيد . والعمل أشار له بالامر بالصلاة وبالسعى بين الصفا والمروة لانهما من شعائر الله اتباعا لدين الخليل اذ كان يحج و يصلى وهذه الاماكن مصلاه ومناسكه وللاخـلاق أشار بالصـبر على البلوى من القتل والخوف والجوع ونقص لأموال كما تجرع ابراهيم مرارة فراق الوطن وقاسى الابتلاء والمحنة بالولد اذ أمر بذبحه وذاق الامرين اذ ألقى فى النار وابتليت هاجر بنقص الثمرات والجوع فلم يكن للمسلم بدمن التغلغل فى العلوم الشرعية من علويات وسفليات ومن امتطاء غارب الجد فى فهم الـكيمياء التى أشار لها تقطيعه للطير وتحليله لاجزائها فيما يمر عليك فى هذه السورة وليكن المسلم مخلصا لله فلا يرهب الموت فى سبيل الله ولا يتحاشى نـكبة فراق الوطن العزيز اذا سيم خسفا وأرغم على الذلة فالصابرون لهم البشرى فى الدارين حياة المؤمن الحنيفى بين نعمة يشكرها ونقمة يصبرلها والشكر يشمل ترقيه العقول بالعلوم والنظر والعلم والعمل والصبر فى الأخلاق كالملح فى الطعام فيه الشجاعة فى الجهاد والعفة للفقراء والقناعة للاغنياء وسكون النفس وثبات الجاش . الصبر اما عن مرغوب أو على مكروه أو فى عمل ونصب فالاول نقص الثمرات والاموال والجوع والثانى هـلاك الانفس والثالث الصلاة والنظر فى السموات والارض والعلوم والحـكمة

(الـكلام على قوله تعالى فى هذه الآيات)

(ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولـكن لا تشعرون ومامناسبتها لما قبلها ومابعدها وايضاح هذا الموضوع الذى ذكرت فيه هذه الآية)

(اعلم) أن الانسان فى هذه الحياة خلق محبا لان يعلو الى اقصى مقام من السعادة والشرف والراحة وأعظم السعادة أن يكون الحى مناشابا لا يهرم وغنيا لا يفتقر وصحيحا لا يمرض وحيا لا يموت وجيلا لا يقبح وهذه مركوزة فى جبلة كل حى من بنى آدم وان لم ينطق وأبها وقد خلقنا فى الارض وليس فيها ذلك فنحن عرضـة للمرض والفقر والموت ونقص المال والانفس والثمرات وموت الاولاد وفقد الاحباب وكل ذلك محن و بلايا ونحن اذا احتملنا فـكالحيوان يموت ولده فيهلك حزنا عليه حتى اذا طال الامد نسى الوالد الولد فذكرنا الله بهذه الآيات وقال (و بشر الصابرين) الذين يفكرون فى أمر الدنيا و يعلمون أن الله هو المعطى وهو الآخـذ هـذا هو ظاهر القول ولـكن سره الذى عرفه حكماء الاسلام وان كان ماخفى عليهم أعظم ان الانسان يتحمل هذه المصائب و بتوالبها عليه تقوى نفسه وترتفع وان لم نشعر بذلك ومن لم تصبه المصائب يكون أشبه بالذهب الذى لم تهذبه النار ولم تصفه حليا ولا دينارا بل هو تبر فى التراب مدفون وعن الأنظار مكنون أما الرجل الذى أدبه الدهر فانه تقوى عزيمته و يتخذ من الحوادث درعا تقيه العاديات ومجنا يقيه الـكارثات ويرتقى الى ما استعدله من الدرجات وكلما كان الاحتمال أكثر كانت الروح أعلى وأشرف ٭ واعلم ان هذا التقرير الذى ذكرته لك ملخص كتب قرأتها عن اليونان والاورو بيين واسلافنا والله انى لأعجب للقرآن كيف يأتى بتلك الثمرات الناضجة بحيث يتسنى للعامة أن يفهموها وللعلماء أن يبحثوها بقول الله و بشر الصابرين وهذا هو الذى بحث عنه علماء الخافقين قبل نزول الانجيل فضلا عن القرآن وقال أكابر الحكماء السـعادة منوطة بالمصائب وتحملها وقال ارسطاطاليس فى كتابه الذى أرسـله الى الاسكندر ما معناه ان الناس يتحمـلون المصائب ولـكنهم لا يحتملون النعم ان النعم ثقيلة على الناس تتعبهم ثم أوضح ذلك فقال اذا رأيت أمة أغـدقت عليها النعم وجانبها النصب والتعب وأبطرها الرخاء فلتعلم أن ساعتها قد اقتربت وأجلها قد أوشك أن ينتهى فأما تلك الأمة التى أصابها الجهد بسبب الحرب ومقارعة الأبطال فى الميدان بعدوها الغادر الفاتك فانها تنشط من عقالها وتستعد لسعادتها وتبنى مجدها ومادامت

عاملة

عاملة ناصبة فان اتسع لها العيش واستراح بالها جرعتها الراحة كأس العذاب وذاقت من الذلة أنواعا ومن الهموم أوفى نصيب وأنت ترى ان الذين ناصبهم دهرهم العداء فى أول حياتهم هم الذين قارعوا الأمم بأسهم ورفعوا أممهم والامثال على ذلك كثيرة يعرفها كل ذى عقل وفكر منير * ثم تعجب كيف ذكر آية الذين قتلوا فى سبيل الله وانهم ليسوا أمواتا بل أحياء فى غضون الكلام على الصبر على المكاره والابتلاء بالجوع والنقص فى الاموال والانفس والثمرات فما الحكمة فى ذلك * واذا قلنا ان أمر القبلة انما هو لتصحيح عبادة وهى الصلاة وأن الصلاة وما معها من أركان الاسلام يقصد بها تهذيب النفس وان الصبر والابتلاء بالجوع وما معه مقويات للنفس فوق العبادات فأى مناسبة لذكر أن الأموات أحياء * أقول اعلم أن هذه الآية ذكرت هنا لأمرين * الاول ان يتعزى المؤمن وهو فى حال الشقاء والنصب والبلاء والمصيبة ويقول أنا الآن وان كنت فى بؤس ونقص فى الاموال والنفس وفى المصائب فان يوم الموت يكون سعادتى ويكون حظى موفورا فلا أحتاج للمال ولا يفارقنى الولد ولا يفاجئنى العدو وأكون بعيدا عن المصائب والبلايا وهو يوم سعادتى * والثانى ان هذه المصائب أشبه بالأجنحة تطير بها الروح فى عالم السعادة فى الدنيا والآخرة كما أذكره فى لغز قابس فلماذكر الروح حالها بما يقويها من جانبيها كالطائر يطير بجناحيه * فتأمل فى هذا الكلام كله تجده مخالفا للمألوف عند العامة * فبينما العامة يقولون ان الرخاء سعادة يقول الحكماء والكتاب السماوى كلا فالبشرى للصابرين على المصائب * و بينما الناس يقولون ان الموت مصيبة يقول الحكماء كلا فالموت خلاص من أسر الطبيعة وذل المادة * ويقول القرآن بل أحياء عند ربهم * ويقول فى آية أخرى فرحين بما آتاهم الله من فضله الآية * ولعلك تقول وهل فى هذه السورة من دليل أوشبه دليل يرجع اليه العقل عند ارادة التحقيق بالحكمة والبرهان العقلى * أقول اعلم أنه قد كنز الله لذلك فى هذه السورة كنزين عظيمين خبأهما عن الجهلاء وأراهما للعلماء هذان الكنزان متى كشف غطاؤهما أبصرت البرهان فيهما * هذان الكنزان يكتنفان هذه الآية من بعد كما خبأ الله الكهرباء وأسرار العناصر الأرضية والتنويم المغناطيسى حتى جاء أجلها فابرزها للناس هكذا هنا فى هذه السورة أودع كنزين لسر الروح * وقد أراد فى هذا الزمان ابرازهما والكشف عن حقيقتهما ليرتقى المسلمون فى أنواع العلوم الشريفة

(ماهما الكنزان)

أما أحد هذين الكنزين فهو فى أوائل السورة فى قصة البقرة وقوله هناك فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى * وقد قدمت هناك فى تفسير الآية ملخص علم استحضار الارواح فلا أعيد ذكره ولذلك قال عقبها ويريكم آياته أى ان هذا العلم سيظهره الله للناس متى جاء وقته والا فلماذا يقول ويريكم آياته عقب احياء الموتى ثم يقول لعلكم تعقلون أى تدركون ان الأرواح حية بالمعاينة التى تعرف عقولكم بها حقيقة أن الأرواح حية * وأما الكنز الثانى فهو ماسيأتى قبل آخر السورة وهى مسألة العزير وحماره وانه قال الله له وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس الخ * ومسألة الخليل اذ قال رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى * ثم أمره أن يبحث ويجد فى تشريح الطيور وتقطيعها وخلط لحمها بدمها * وذلك أشبه بالتحليل والتركيب الكيماويين الدالين على نظام هذه المركبات وانها مبدعة متقنة * وفى ذلك من العجائب والبدائع مايصير الناظر حتى يقتنع بأن الذى أبدع هذه الصور وهى منظمة لايخلق هذه الأرواح سدى فيخلقها ثم يفنيها الى الابد فذلك وان لم يكن وسيلة فى عمل الخليل الى رجوع الارواح الى أجسادها ثم حييت الطيور فان تلك الوسيلة التحليلية من الدلائل الاقناعية وان لم تكن يقينية

ولعلك تقول هذان ليسا كنزين لأن الناس جميعا يقرؤنهما ومعناهما ظاهر * أقول على رسلك وهل يدور فى خلد أكثر الناس ان الآية الأولى وهى التى فى قصة القتيل والبقرة ذكرت كالدليل العقلى على ان الأرواح

أحياء كلا وانما هي من الأمور السمعية المروية عن بني اسرائيل وهذه لايعرفها العقل ألبتة فلما انتشر خبر استحضار الارواح في العالم المحيط بنا قلنا هذه تشير الى الدليل العقلي لأن الاستحضار في العالم الانساني منتشر بطرق غير ماجاء في القرآن فلننظر في ذلك وهكذا من ذا الذي يدور بخلده من المتوسطين ان مسألة الخليل وتقطيعه للطير كالدليل الاقناعي على علم بقاء الأرواح باعتبار ان هذه الصور المتقنة لايتصور العقل ان تخلق عبثا فلا بد من بقائها والآيتان متباعدتان عن آيتنا احداهما قبلها والأخرى بعدها مع البعد الشاسع حتى لايفطن لهما الامن هداهم الله فثبت أنهما كنزان لمن يعقلون * واعلم ان هذه الآيات المكنونات من أسطر تعد على الأصابع لايعرف قدرها الاقليل * وأقول ان القرآن لن يعرف قدره الا أحد رجلين رجل اطلع على كتب أكابر الحكماء ورجل صفت سريرته فأدرك الحقيقة ناصعة نقية * والدليل على ذلك ان هذه الآية احتوت على ماأطال به قابس اليوناني في لغزه مع ان الآية أسهل لفظا وأقرب متناولا يدركها الخاص والعام

(لغز قابس وهو فيلسوف يوناني عاش قبل الميلاد بخمسمائة سنة)

(محصله اللغز) أن هذا الفيلسوف صوّر صورا ترمز الى مايعانيه الآدميون من الآلام والآمال * فمنها امرأة بكماء خرساء صماء رعناء جاهلة جالسة على حجر مربع وحولها قوم تأخذ من هذا وتعطي ذلك بلا عقل ولا روية فيفرح الآخذ ويحزن المعطى * ومنها نساء جميلات حاليات بهيات قد حظي بهن اناس من أولئك الذين أخذوا من تلك الرعناء على سبيل المصادفة ومنها نساء باكيات حزينات لابسات ثيابا باليات ينتفن شعورهن و يلطمن خدودهن وقد نحلت الابدان وتغيرت الألوان وحالت الاحوال * ومنها نساء غير جميلات ولا عابسات يشرن الى طريق في الجبل ليهدين الناس الى ارتقائه * ومنها أناس قليلون طالعون هذا الجبل * وقوم آخرون لم يقدروا على العروج اليه فرجعوا خائبين * فاما المرأة البكماء فقال انها الحظ فانه يكون للناس بلاقانون ولاقاعدة والحظوظ هي الاموال والولد والجاه والصحة والاصحاب والقدرة فكل ذلك يأتي و يذهب فمن حاز فرح ومن حرم من ذلك حزن * واما النساء الجميلات فانها تماثيل للذات والشهوات التي يتلبس بها من أعطته تلك الحمقاء حظا مما سلبته من غيره * واما النساء البائسات فانهن تمثيل لأولئك الذين أضاعوا المال والصحة في نيل أوطارهم ثم أصابهم الفقر أوالمرض أوالذل فانهم يندمون و يحزنون ثم يصيرون دجالين كذابين فهذه صورة ندمهم على أيام قدرتهم * واما النساء اللاتي يشرن الى طريق في الجبل فانه سماهن الأدب المزوّر أي ان النساء تمثيل له والادب المزوّر هو جميع العلوم التي يقرؤها الناس في المدارس من فلك وطبيعة وأدب وشعر * قال لأن أهل العلم لم يزيدوا عن أرباب المال شيئا * وانما العلم نوع من الثروة قال بدليل انا نرى الشعراء وعلماء الفلك وعلماء الادب واللغة وأمثالهم يكذبون و يغشون و يعثون في الأرض فسادا فلنسمه الادب المزور * فاذا عمل العلماء بما علموا وصبروا في هذه الدنيا على ماأصيبوا أصبحوا أحرارا وهذا هو المقصود من السعادة * واما الاشارة الى طريق الجبل فان قليلا من أهل العلم من يعمل بما عمل * والمراد مماذكرنا ان الصبر والتحمل والاستهانة بالمصائب هي التي تسعد المرء في الدنيا فمن كملت نفسه ارتقى الجبل ولبس تاج السعادة ومن سئم العمل والمشقة رجع من نصف الطريق التي سلكها باشارة أولئك اللاتي هدينه اليها فصار التحمل والصبر سبيلي السعادة وقد يدركها الجاهل ويحرم منها العالم * اما الصحة والمال والجاه وامثالها فانها كالليل والنهار والشتاء والصيف تأتي على البر والفاجر والسعادة ماقررناه فانظر كيف أغنى الله المسلمين عن ذلك بهذه الآيات وجعل تلك السعادة قوله أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة فتعجب من العلم في القرآن اهـ

(هذا تحقيق في شأن الصفا والمروة)

الصفا والمروة جبلان بمكة عليهما صنمان فعلى الصفا اساف وعلى المروة نائلة وكانا يعبدان في الجاهلية

فتخرج

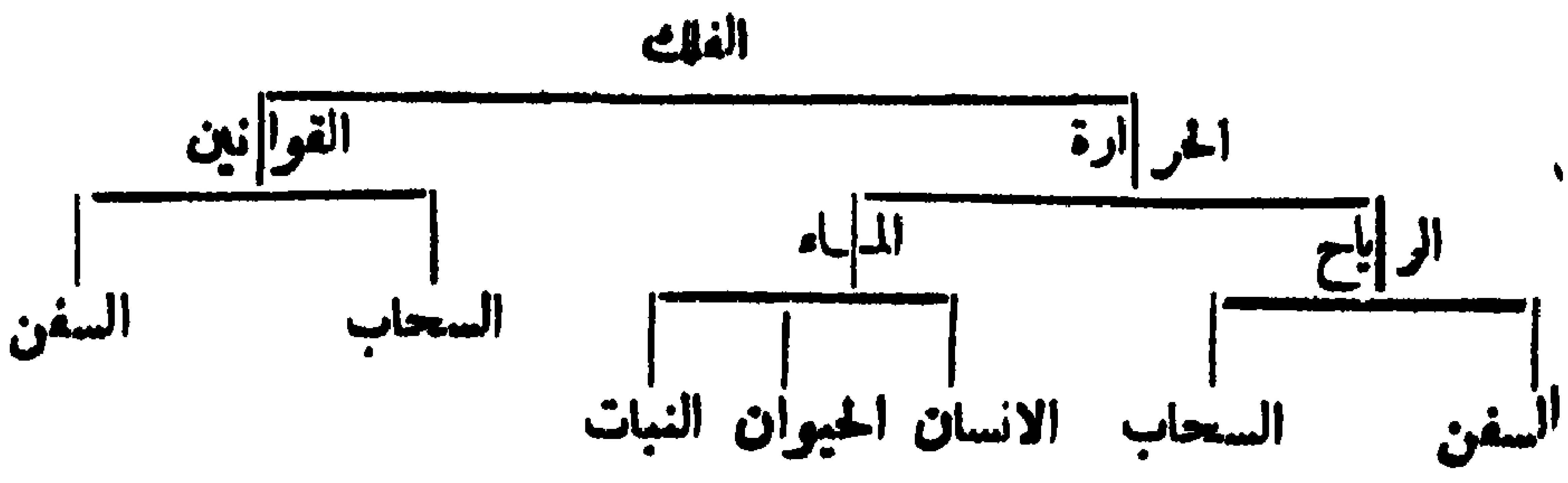
فتحرج المسلمون أن يسعوا بينهما ويجاوزهما الانصار من قبل ذلك * فلقد كانوا يهلون لمناة التي بحذاء قديد وهو موضع في منازل طريق مكة ومناة كانت للانصار والصفا والمروة كانا لأهل مكة وكان الانصار لا يتطوفون بالصفا والمروة كراهة ما عبد غيرهم فنزلت الآية للفريقين * ان الصفا والمروة من شعائر الله الآية واجماع الأمة ان السعي مشروع في الحج والعمرة وقال احمد انه سنة وبه قال أنس وابن عباس رضي الله عنهما لقوله فلا جناح عليه فانه يفهم منه التخيير وعن أبي حنيفة انه واجب يجبر بالدم * وعن مالك والشافعي انه ركن لقوله صلى الله عليه وسلم اسعوا فان الله كتب عليكم السعي

(المقصد التاسع)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *

يقول ان الذين يكتمون ما أنزلنا كأحبار اليهود من البينات كالآيات الدالات على أمر محمد (والهدى) ما يهدي الى وجوب اتباعه (من بعد ما بيناه للناس) لخصناه (في الكتاب) التوراة (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) أي من يتأتى منهم اللعن من الملائكة والثقلين (الا الذين تابوا) عن الكتمان وسائر الذنوب (وأصلحوا) ما أفسدوه بالتدارك (وبينوا) ما بينه الله في كتابهم (فأولئك أتوب عليهم) بالقبول والمغفرة (وأنا التواب الرحيم) المبالغ في قبول التوبة (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) أي ومن لم يتب من الكاتمين حتى مات (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) استقر عليهم اللعن من الله ومن يعتد بلعنه من خلقه (خالدين فيها) أي في اللعنة أو النار (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) يمهلون (والهكم اله واحد الخ) * ظاهر (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) تعاقبهما كقوله تعالى جعل الليل والنهار خلفة واختلافهما بالطول والقصر والزيادة والنقصان بحيث يزيد النهار ما نقص من الليل وبالعكس كما ستراه * ومن عجب ان النهار في السنة كلها والليل يتساويان أي ان ساعات أحدهما في السنة تساوي ساعات الآخر (والفلك) السفن ويطلق على الواحد والجمع وقوله من السماء أي السحاب لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء * وقوله وتصريف الرياح أي في مهابها وأحوالها * والسحاب المسخر المذلل * وعنه صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها أي لم يتفكر فيها * في هذه الآيات وجوب نشر الفضيلة والعلم وذكر الوعيد على من كتم العلم فمن كتمه فهو ملعون محروم مطرود من رحمة الله عز وجل ثم أعقبه بأجل العلوم وأشرف الحكمة

وهوان فى خلق السموات والأرض * ولقد شرحنا هذه الآية فى كتاب التاج المرصع وأبنا كيف ابانت نظام العالم العلوى والسفلى وارتباطهما وتعاشقهما وكيف بدأ بالفلك وثنى بعلم الطبيعة وجعلها منظمة كأنها انسان واحد وحيوان واحد ونبات واحد * فترى كل كائن مستمدا من سواه * فاختلاف الليل والنهار بقرب الشمس و بعدها فى البروج الشمالية والجنوبية يدعو الى اختلاف الحرارة والبرودة فى الأقطار المتباينة وهبوب الرياح فترى الأمطار تتساقط من السماء تبعا لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لناموس الأفلاك وسير الشمس فى البروج فتنشأ ممالك النبات والحيوان والانسان من ذلك الماء وتهب الرياح فتسير السفن كما تسير السحب ولكل قوانين فى سيره فترى السفن لن تتجاوز مارسم الملاحون فى رسومهم من الخطوط البحرية ولن تعدو السحب طريقها المرسوم لها بالنواميس الطبيعية رحمة للناس وهذا جميعه مرتبط بالعلويات وكيف تسير السفن الا بالقوانين البحرية المستخرجة من علم الأفلاك ومراقبة الاطوال والعروض والنجوم وسير الشمس وملاحظة الاجرام العلوية وتغطس الابرة المتجهة الى القطبين أم كيف يتحرك السحاب الا بالرياح وهى المسخرة بالحرارة المنبعثة من الاجرام العلوية فرجع الأمر كله الى أصل نجم عنه فرعان كلاهما له فروع * الأصل اختلاف الليل والنهار بالحركات الفلكية * والفرعان القوانين المودعة فى الاجرام العلوية والحرارة المنبعثة على الكرة الارضية * ومن الأول نشأ فرعان سير السحب وسير السفن بالقوانين البحرية لاجل التجارة وتبادل المنافع بين الامم فيأخذ الشرق ما نبت فى الغرب ويأكل الغربى ما نبت فى الشرق * ومن الثانى فرعان اثارة الهواء والماء فحرك الهواء السحاب والسفن وتبخر الماء بالحرارة فعلا فى الجو فهبط ماء على اليابسة وكان الحيوان والنبات منه وهذه صورته



فترى هذا العالم على هذا النسق كرة واحدة وشكلا واحدا يحتاج أدناه الى أعلاه والاعلى مفيد للاسفل والاسفل مستمد من الاعلى مستفيد منه كما ظهر فى هذا الشكل * واذا كان هذا شكل النظام الذى فى عالمنا فمن الاقرب للعقول أن نهج النظامات الاخرى على هذا النمط وعليه أصبح هذا العالم لدى العلماء والمفكرين كجسم واحد له روح وقلب وأعضاء متحركة وحرارة وهل دورة المياه والرياح المسخرات ودورات الشموس والاقمار الا كما يدور الدم فى أجسامنا فاذا أبصرنا بعقولنا أدركنا العالم كانسان واحد وحيوان واحد له رأس وأعضاء رئيسة ومرؤسة (ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) ولا يعقل هذا الامن درس من كل فن طرفا ثم مزج العلوم وربطها ثم وازنها فهناك يدرك هذا القول ولاجرم ان الجسم الواحد مدبره واحد فارتباط العوالم واستمدادها يدل ان مدبرها واحد

وتأمل كيف يقول (والهكم اله واحد الخ) ثم يعقبه بهذا الشكل المنتظم من الكائنات الصائرة مزاجا واحدا فها هو ذا يقول الهكم واحد ولن تستشعروا هذه الوحدة الا اذا قرأتم العلوم وعشتم بها وصورت فى عقولكم شكلا منظما كما وضعناه فتدركون مزاجه وجسده ومنه تعرفون ان المدبر واحد * ولقد رأيت علماء اليونانيين يطنطنون بان العالم واحد ويبرهنون ببراهين قاحلة يابسة خلت من العلوم والحكمة على عادتهم فى مثل ذلك وقسموه اعراضا وأفلاكا وجواهر ثم يقولون لن يمكن فى العقل وجود سوى ما رأيناه فاذا كثرت العوالم فهى من هذه الأجزاء

ولم

ولم أرهم يحومون حول ارتباطه الطبيعي * هاهنا دعا الله الناس الدين بالعلوم الكونية كما دعاهم أولا بها في قوله يا أيها الناس اعبدوا ربكم وما بينهما كان مناضلة اليهود بالحجة وتأسيس دين الاسلام على قواعد ابراهيم

ومن هذا الحكم كيف أصبح المسلمون أبعد الأمم عن مطالب القرآن ومقصوده

(ايضاح الكلام على قوله تعالى والهكم اله واحد الخ)

اما الوحدانية فقد عرفناها فيما رأيت من النظام في أحوال العالم فيما ذكرته في هذا المقام واما الرحمن الرحيم فقد مر الكلام عليها في أول الفاتحة * واما الكلام على السموات فقد تقدم في الكلام على قوله تعالى ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات * أما الكلام على الأرض

فاعلم ان كرة الارض طبقات ساف فوق ساف متلبدة مختلفة التراكيب والخلقة

فنها صخور وجبال صلبة وأحجار وجلاميد صلدة وحصى ملس ورمال جريشة وطين رخو وتراب لين وسباخ وشورج كل منها مختلط بالآخر أو مجاوره * قال تعالى وفي الأرض قطع متجاورات * وهذه القطع مختلفات الألوان والطعوم والروائح والمنافع ومن طينها وترابها وأحجارها وجبالها حمر وبيض وصفر وخضر وزرق اختلفت اختلاف الألوان المكونة للون الشمس المشرق عليها فتقبل بعضها الحمرة وبعضها الصفرة وهكذا كما قبل قوس قزح تلك الألوان خلالها * قال تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور) * ومن طينها وترابها ماهو عذب المذاق ومر الطعم أومالح أوعفص أوحلو أوحامض * ومنها ماهو طيب شمها ومنتن رائحتها ثم ان الأرض بجملتها كثيرة التخلخل والتجاويف والعروق والجداول والانهار داخلها وخارجها كثيرة الأهوية والمغارات والكهوف وهذه مملوءة من المياه والبخارات وتكون طعوم تلك المياه وروائحها وغلظها ولطافتها وثقلها وخفتها بحسب تربة بقاعها وطين مكانها ووجود قرار مستنقعاتها وفيها من المعادن ما يتكون في الطين والتراب ويتم نضجها في سنة أو أقل كالكبريت والملح والشب والزاجات وماشاكلها ومنها ما يتكون في قعر البحار ولا يتم نضجها الا في سنة أو أكثر منها كالدر والمرجان * ومنها ما يتكون في كهوف الجبال وجوف الأحجار وخلل الرمال ولا يتم نضجها الا في السنين الطوال كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص * ومنها ما لا يتكون الا في آماد طويلة كالياقوت والزبرجد والعقيق وماشاكلها

واعلم ان الناس على قسمين خاصة وعامة فالعامة لا يعرفون من المطالب الا ما يحتاجون اليه من طعام وشراب ولباس ومسكن ودواء فالجوع والعطش والعرى والمرض التي تحدث لهم تلجئهم الى طلب تلك المطالب * وذلك الالجاء بما جبلت عليه النفوس الحيوانية عامة من الاحساس بالآلام لفقد ما يحفظ الحياة من غذاء ودواء وحرارة وما أشبه ذلك * وهذه الآلام يظنها الجاهل نقمة وهي في الحقيقة نعمة وموهبة لسائر الحيوان لتحفظ أجسامها وتبقى كيانها وهذه المطالب اشترك فيها الحيوان والانسان وكذلك النبات (وهناك) مطالب شريفة ومنازل عالية نام عنها الحيوان والجهال وأغرم بها وعشقها الحكماء وأكابر الرجال ألا وهي مطالب العقول من العجائب والبدائع والنظام الجميل والجمال الابداعي فهذه المطالب غابت عن أبصار الجهال واشتاقها العلماء ولاضرب لك مثلا بالأرض التي ذكرنا بعض عجائبها * ان الجاهل لا يعبأ بها ويراها أمرا لا قيمة له من دراته لانه لا يفرح الا بالممنوع عنه أما المبذول له الحاضر بين يديه فانه مبتذل مكروه منبوذ * وكلما كثرت النعم وحضرت كان الشكر عليها أقل والفرح بها معدوما وكلما تباعدت المطالب وعزت طرقها كان الفرح بها والشكر عليها موفورين * فالأرض والهواء وضوء الشمس وجمال النجوم والانوار حاضرة عند الناس وهي النعم العظيمة والمواهب الكبيرة * بل السمع والبصر والشم والذوق والعقل والبصر كلها نعم مبذولة ولكن أكثر الناس لا يعدونها نعمة ولا يفرحون بها ولا يشكرون الا بما تعسر ثم نالوه من

طعام وشراب ودينار وامتياز الانسان عمن حوله بثوب أوملبس أوصاحب أوحبيب أوسلطة عليهم الى غير ذلك وعلى ذلك ترى الأرض لا يلتفت اليها الجهال ولا يعدونها نعمة وغاب عنهم هذا الجمال البديع الذى يخرج منها وما يصدر عنها فتلك المروج والنباتات وألوانها وبدائعها وتلك المعادن واختلافها والمياه وأنواعها كلها من نعمة الله فى خلق الأرض ولا يزال العالم يبحث فى عجائب أحجارها ومعادنها ويستخرج منها مواد البناء ومواد الصباغة والمعادن والأحجار النفيسة حتى تشرف نفسه بالعلم وتتحلى بالعرفان فالأرض منها الغذاء ومن النظر اليها العلم والعرفان والشكر للمنعم الحكيم العليم ولا يزال يرتقى فى العلم حتى يعرف انها كوكب من الكواكب جارية كما تجرى تلك الكواكب السيارة * واذذاك يعرف ان ضوء الشمس اذا أشرق عليها انعكست أشعتها على عوالم أخرى بل ان ضوء الارض المنعكس منها على القمر يزيد عن ضوء القمر المنعكس منه على الارض نحو أربع عشرة مرة وتصنع الارض مع القمر من استقبال وتربيع وتثليث ومحاق ما يفعل القمر مع الارض * فانظر كيف ارتقى العالم من النظر فى أحجارها ورمالها وألوانها وأنهارها وبحارها ومعادنها واختلاف مزارعها الى أن أدرك انها من السيارات وعرف انها مضيئة مشرقة اشراق الكواكب ورأى ان غيرنا ينظر اليها ونحن ويشتاق أن يرى ذلك الضوء البديع المنعكس منها الذى عكسه الماء المحيط بها والحصى والرمال والجبال فان الارض عبارة عن كرة أحاط بها الماء * وما اليابسة الا ثلاثة أعشارها وهذه اليابسة فيها رمال وأحجار وثلج متراكم فوق الجبال وفى مناطق القطبين وكل ذلك يعكس ضوء الاسماء الى الكواكب الاخرى

اتحاد المطالب الدينية والدنيوية فى هذا التفسير

اعلم أن هذا الذى أذكره فى تفسير القرآن قد اتحدت فيه مطالب الدين والدنيا والعقل والنقل كما اتحدت أضواء الشمس السبعة فصارت لونا واحدا فأشرقت الأرض بها ولقد أكثر الناس من قولهم هذا ينافى الدين وهذا ينافى العقل وذلك ناجم من قلة العلم ووفرة الجهل فمن جهل شيئا عاداه فالمتبحر فى العلوم ينفر من الدين لجهله به ظنا انه ينافى علمه والعالم بالدين الجاهل بما حوله الغافل عن خلق السموات والارض وعجائبها يظن المسكين ان من عرف هذه العجائب كان عدو الله وان الله يغضب عليه وما درى المسكين ان هذه السموات وهذه الارض من خلق الله والله لا يحب المعرض عن التفرج على صنعه ويحب المفكرين ويقول ان فى خلق السموات والارض الخ فانظر أيها الفطن كيف غفلت الأمم وعميت البصائر ووقع فى القلوب خلاف الحقائق ونام كثير من العقلاء احقابا فى غفلاتهم تائهين فى سكراتهم كأنهم لا يشعرون * وذلك النظر قد جمع المطالب الدينية والمطالب الدنيوية فاصبح ارتقاء الامة فى دينها ودنياها وسعادتها بين الامم ومغالبتها للفرنجة فى أوروبا ولاهل اليابان والامم الشرقية ولامريكا موقوفا على التبحر فى تلك المطالب وهى بعينها المخرجة للحكماء والعلماء العارفين والاولياء وهى هى دين الاسلام * فيا حسرة على المسلمين ووا أسفا على ماضاع من شباب وشيب فى هذه الامة وعلى أمم داستها الفرنجة وأذلها الطامعون لجهالة وعاظهم وظلم ملوكهم وغفلة عقولهم ونومهم أجمعين اكتعين أبصعين

الكلام على اختلاف الليل والنهار

أما اختلاف الليل والنهار فانه ظاهر خفى ظاهر للعقلاء خفى عن أنظار الغافلين يختلف الليل والنهار باختلاف الطول والعرض وذلك ان الشمس فى شروقها وغروبها تأتى على الاماكن الشرقية قبل الغربية * وهناك يكون الاختلاف العجيب فاذا أشرقت أوغربت على الاقطار المصرية أولا مثلا فانها تفعل ذلك بعدها ببلاد مراكش فبحر الظلمات فامريكا فالاقطار الشرقية كالهند والصين وهكذا ولكل دائرة (٣٦٠) درجة تقسم باعتبارها وللارض درجات طول ودرجات عرض فدرجات الطول هى المشرقة المغربة * ودرجات العرض تعتبر من خط الاستواء الى القطبين ثم ان خط الاستواء الذى يقسم الكرة بقسمين متساويين جنوبى وشمالى تقطعه دائرة وسط

فلك البروج وهي دائرة عظمى مائلة على خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف وهذه الدائرة تمتد الى دائرتين متوازيتين موضوع كل منهما على البعد بثلاث وعشرين درجة ونصف عن دائرة الاستواء وتسميان المدارين وهناك دائرتان قطبيتان تبعدان عن القطبين بثلاث وعشرين درجة ونصف وبهذه الدوائر تنقسم الارض الى خمس مناطق منطقة شديدة الحرارة ومنطقتان معتدلتان ومنطقتان شديدتا البرودة * فالحارة هي التي بين المدارين مدار السرطان ومدار الجدى وهؤلاء يسمون أرباب الظلين لان الشمس تارة تكون شمالهم كاولئك الذين في السودان المصرى فيكون ظلهم اذذاك جنوبيا وتارة تكون جنوبهم وراء خط الاستواء فيكون ظلهم شماليا * والمنطقتان المعتدلتان هما ما بين الدائرة القطبية الجنوبية ومدار الجدى جنوبا وما بين دائرة القطب الشمالى وما بين دائرة السرطان شمالا وهؤلاء لا تكون الشمس فوق رؤسهم ألبتة فيسمى هؤلاء أرباب اختلاف الظل لان أرباب المنطقة المعتدلة الشمالية يرون الشمس في الجنوب كأهل مصر وتونس ومراكش وأهل أوربا وأرباب المنطقة المعتدلة الجنوبية كبلاد الرأس التابعة للانجليز وما والاها من البلدان يرون الشمس في الشمال أبدا

فاما أرباب المنطقتين القطبيتين فيسميان أرباب الظل الدوّار وحركة الشمس عندهم كدوران الرحا والظل في زمن صيفهم يدور حولهم

والمهم في هذا المقام أن نبحث في اختلاف الليل والنهار * انك اذا نظرت الى حركة الشمس الظاهرية من المشرق الى المغرب ألفيت ما كان صبحا عند قوم هو نفسه ظهرا وعصرا ومغربا وعشاء ونصف ليل عند أقوام آخرين فالشمس في كل لحظة في غروب وشروق وزوال وضحى ونصف ليل فاليوم بكله موجود أبدا وهذا يعرف بأدنى تأمل عند من درس قليلا من مبادىء علم الجغرافيا أو علم الهيئة واذا نظرنا الى حركة الشمس السنوية بحسب الظاهر وهي تنقلها في البروج وانها تبعد تارة وتقرب أخرى منا فانها تعطي أياما على طول السنة مختلفة باختلاف الاقطار فاقصر الايام قد يكون ساعة أو أقل * وأطول الايام يكون نصف سنة وأعدل الايام (١٢) ساعة فالاعتدال في الايام عند خط الاستواء وأطول الايام في المنطقتين القطبيتين فالليل عند هؤلاء ستة أشهر والنهار ستة أشهر وبعبارة أخرى السنة يوم وليلة فهي ستة أشهر مظلمة وستة أشهر مضيئة فاما الايام فيما بين خط الاستواء وما بين الدائرتين القطبيتين فانها تختلف من ١٢ ساعة الى ٢٤ ساعة فتكون ١٢ ساعة عند خط الاستواء و ٢٤ عند الدائرة القطبية ثم تأخذ الزيادة في الدائرة القطبية من ٢٤ ساعة الى شهر فشهرين الى ستة أشهر عند القطبين أنفسهما

أوليس من العجب العجاب ان الشمس اذا جرت الارض حولها تنظم حركاتها بنظام يتبعه هذا الحكم العجيبة فترى الصيف عند أهل الشمال كأهل مصر وأوروبا يكون شتاء عند أهل الجنوب كبلاد الناتال فترى السنة كلها في وقت واحد حاضرة الصيف والشتاء والربيع والخريف كما كان في ملاحظة الايام فجر ومغرب وعشاء ثم يترتب على هذا الاختلاف في الحر والبرد من النبات والحيوان والسحب والامطار والرياح * ومن المنافع والعجائب ما تخر له العقلاء سجدا وانظر لو ان الشمس بقيت في مكان واحد لاحترق ولم يعش فيه حي وتأمل ذلك وكيف يقول الله (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) ولأذكر لك جدولا تعرف منه كل نهار وكل ليل من خط الاستواء الى القطبين مع ملاحظة ان أقصر وأقل مدة للنهار هي بعينها تكون لليل في ذلك المكان وكذلك في الاطول

(أقاليم يقع فيها التفاضل بنصف ساعة)

أقاليم	ساعات	دقائق	عرض أرفع المتوازيات درج	دقائق
١	١٢	٣٠	٨	٣٤
٢	١٣	٠	١٦	٤٤
٣	١٣	٣٠	٢٤	١٢
٤	١٤	٠	٣٠	٤٨
٥	١٤	٣٠	٣٦	٣١
٦	١٥	٠	٤١	٢٣
٧	١٥	٣٠	٤٥	٣٢
٨	١٦	٠	٤٩	٢
٩	١٦	٣٠	٥٢	٠
١٠	١٧	٠	٥٤	٣٠
١١	١٧	٣٠	٥٦	٣٨
١٢	١٨	٠	٥٨	٢٧
١٣	١٨	٣٠	٦٠	٠
١٤	١٩	٠	٦١	١٩
١٥	١٩	٣٠	٦٢	٢٦
١٦	٢٠	٠	٦٣	٢٣
١٧	٢٠	٣٠	٦٤	١٠
١٨	٢١	٠	٦٤	٥٠
١٩	٢١	٣٠	٦٥	٢٢
٢٠	٢٢	٠	٦٥	٤٨
٢١	٢٢	٣٠	٦٦	٧
٢٢	٢٣	٠	٦٦	٢١
٢٣	٢٣	٣٠	٦٦	٢٩
٢٤	٢٤	٠	٦٦	٣٢

(اقاليم يقع فيها التفاضل بشهر)

اقاليم	اشهر	درج	دقائق
١	١	٦٧	٢٣
٢	٢	٦٩	٥٠
٣	٣	٧٣	٣٩
٤	٤	٧٨	٣١
٥	٥	٨٤	٥
٦	٦	٩٠	٠

هذا الجدول تعرف منه اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان فى الربع الشمالى من المسكونة فاذا كان الليل يساوى النهار وكل منهما ١٢ ساعة عند خط الاستواء فى نحو الكنغو وسومطره وغينيا الجديدة فان كلا منهما يزيد و ينقص ساعة واحدة تقريبا فى أطراف الهند والصين وساعتين فى القاهرة و بعض البلاد الفارسية و بلاد السند وثلاث ساعات فى البحر الاسود وقرب القسطنطينية والبلاد المحاذية لها

و ٤ ساعات تقريبا فيما يقرب من باريس و برلين ونحو ذلك

و ٥ ساعات فى بحر الشمال وما والاه

و ٦ ساعات فيما وراء ذلك و ٧ و ٨

و ٩ ساعات شمالى بحر البلطيق

وفيما بينه و بين رأس الشمال تصل زيادة كل منهما الى ١٠ و ١١ و ١٢ ساعة

ثم يكون كل منهما شهرا فشهرين فى جنوب جزائر جرونلنده و ٣ و ٤ أشهر فى شمالها ثم فى القطب يكون كل منهما ٦ أشهر فيكون ليل القطب الجنوبى نهار القطب الشمالى ونهار القطب الجنوبى ليل القطب الشمالى وكل منهما ستة أشهر

ثم اذا كان النهار فى مصر مثلا ١٤ ساعة فى زيادته كان فى نقصه ١٠ ساعات وهكذا الليل فهناك عدل تام فى الاضاءة والاظلام وعلى هذا فقس

ألا تعجب من هذا النظام الجميل وكيف ازدانت الارض بهذه الانوار المتلألئة المتألقة لبهجة المناظر أفلا ينظر الناس لهذا الجمال البارع والعدل والقسط والحكمة الباهرة اختلاف عظيم وعدل تام يكون الليل ١٣ ساعة عند زيادته فى البلاد التى حول البحر الاسود مثلا وشهرا فى أطراف جزيرة جرونلنده ثم يجىء النهار فى نوبته فيصل الى تلك الزيادة عينها أى ١٣ ساعة فى الاول وشهرا فى الثانى فيكون فى السنة ليلة هى شهر تام ونهار هو شهر تام وهذا هو العدل الحقيقى العملى (الشمس والقمر بحسبان) (والسماء رفعها ووضع الميزان) (انا كل شئ خلقناه بقدر) (وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) (والله يقدر الليل والنهار)

هذا الاختلاف باعتبار العرض فانظر الى الاختلاف باعتبار الطول فسأوضحه لك فأقول بعد الاجمال السابق

اذا طلعت الشمس على آفاق مصر مثلا كان لها بعد طلوعها بالخليج الفارسى وما حوله ساعة وفى بلاد فارس ساعتان وفى السند ثلاث ساعات وفى غرب بلاد الصين أربع ساعات وفى أواسط بلاد الصين ٥ ساعات وفى شرق بلاد الصين والبحر الاصفر ٦ ساعات وفى بلاد اليابان ٧ ساعات وفى شرق استراليا ٨ ساعات وفى كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادى ٩ ساعات وفى جزائر الملاحين بالمحيط الهادى ١٠ ساعات وفى جزائر سندويش بالمحيط الاكبر ١١ ساعة وفيما بين جزائر سندويش وكاليفورنيا من المحيط الاكبر ١٢ ساعة

وعلى هذا اذا طلعت الشمس بمصر أول فصل الربيع الآتى ذكره قريبا أو الخريف كانت غاربة بين هاتين الجزيرتين بالمحيط الاكبر ويكون قد مضى بعد غروبها ساعتان فى كاليفورنيا وغرب الولايات المتحدة و ٤ ساعات بالبلاد الواقعة حول خليج المكسيك وشرق الولايات المتحدة و ٥ ساعات عند (نيويورك) بالولايات المتحدة وست ساعات بناحية الارض الجديدة شرقى أمريكا الشمالية و ٨ ساعات بالمحيط الاطلانطيقى غربى أوروبا وعشر ساعات بباريس وجبال أطلس بالغرب و ١٢ ساعة فى طرابلس والصحراء الكبرى

هذه هى الصورة التى يراها المفكر فى اختلاف الليل والنهار فبينما المصرى ينظر الشمس مشرقة فى أفقه يكون السندى والصينى فى وقت الضحى ومن فى كاليدونيا الجديدة وقت العصر ومن فى كاليفورنيا ساهر مع محبه ومن فى نيويورك قد نام نوما عميقا ومن فى طرابلس قام لصلاة الصبح

واعلم أن ما ذكرته لك من هذه الساعات لا يكون تاما من كل وجه الا فى ٢١ مارث وفى ٢٣ سبتمبر من كل سنة لأن الأول أول فصل الربيع والثانى أول فصل الخريف وهما اليومان اللذان يعتدل فيهما الليل والنهار ثم ان أول الصيف ٢٢ يونيه وأول الشتاء ٢٢ ديسمبر * والاول يكون أطول أيام السنة كما ان الثانى يكون أقصرها والليل على عكس النهار (يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار)

(عجائب العلم والسياسة فى القرآن)

كما اختلف الليل والنهار اختلفت الدول والممالك * فالأولان بالزيادة والنقصان والآخرون برفعة قوم وضعة آخرين لقد سبق القول ان الشمس تشرق على أهل الشرق سائرة الى أهل الغرب جارية الى المحيط الاطلانطيق ساعية الى أمريكا فالبحر الاعظم هناك فبلاد الشرق ثانيا * وانه اذا نام قوم باظلامها استيقظ آخرون باضاءتها هكذا نرى العلم والحكمة والمدنية جرت مجرى الشمس ساعية باذلة جهدها مجدّة مشرقة على أهل الشرق فكانت الحكمة فى الهند ومصر وما بين النهرين فى أمم الكلدان والآشوريين والبابليين * ومن أهل الشرق كالمصريين انتقل الى اليونان ومنهم الى الرومان * ثم لما خمدت حركة النوع الانسانى قرعتهم قارعة الدين الاسلامى فاحدثت رجة عظيمة أطارت النوم من جفن الانسان وقضت على سير الحوادث القديم وأبدعت طريقا آخر بعد ان ضربت باحدى يدى الدين دولة فارس وباليد الاخرى الروم ثم أحدثت هذه الحركة نارا حامية ولهبا * فاما جمرها فبقى فى الشرق عند الأمم الاسلامية مدفونا فى عاداتهم وأخلاقهم الترابية * واما لهيبها فاندلع الى أمم الغرب فأحرق الأفئدة وتأججت نيرانها وسمت الى نيل

العلم والمدنية وشبت اليها الرجال وأخلفت تلك النار تتقد حتى طارت منها الشرارة فتعلقت إذ ذاك بأمريكا والجزائر في المحيط ثم تخطت المحيط وعلقت بأذيال أمة شرقية كرة أخرى وهي اليابان وها هي ذه تعيد سيرتها الاولى فهي تتخطى الى أفغانستان والهند والصين وبلاد سيبريا و بلاد الفرس والترك ومصر وسوريا * ومعلوم ان المدنية والعلم لا يكونان في الشرق والغرب على حد سواء فاذا زادا في أحدهما نقصا من الآخر * والذى يظهر ان الشرق اذا ارتقى هذه المرة يأتى بالعجب العجاب لان الغرب ليس منبع العلوم والحكم المدنية

ولقد وصل لنا من العلم عن قدماتنا ان العلم قد اعتنى به من الأمم الهند والفرس والكلدانيون والسريانيون والعبرانيون والروم وأهل مصر والعرب * وأما بقية الأمم من يأجوج ومأجوج و برطاس والخزر وجيلان وكشك والصقالبة والبلغر والروس والبربر وأصناف السودان والحبشة والزنج فلم تكن لهم عناية بالعلوم

وكانوا يسمون ملك الهند ملك الحكمة وملك الصين ملك الناس وملك الترك ملك السباع وملك الفرس ملك الملوك وملك الروم ملك الرجال

ولقد عرفنا ان مدينة رومة بنيت قبل قيام أغسطس أول ملوك القياصرة بنحو ٧٢٥ سنة على ماقيل فتكون تلك المدينة حديثة العهد جدا كما أن اليونان قد تعلموا من المصريين * فاما في بلاد الشرق فقد ظهر الكشف الحديث وابان أن مدنية الهند لا يعرف لها أول فقد جاء فيه ان (سور بوشيدانتو) الفلكي الهندى الذى نسب فلكيو عصرنا ارصاده في وضع النجوم وسبرها الى زمان لا يقل عن (ثمان وخمسين ألف سنة) قد تكلم عن اسفار الفيدا وانها كتاب قديم العهد جدا

وقد جاء في كتاب خطى كشف حديثا تاريخه قبل المسيح بأربعة آلاف سنة (في عهد الدولة الرابعة) ان أبا الهول كان مطمورا تحت التراب ومنسيا منذ أجيال عديدة وقد كشف في ذلك العصر على سبيل المصادفة * و يقولون ان التقاليد المصرية في الكشف الحديث لم يوقف على مبدئها بل هي متوغلة في القدم أكثر من ثلاثين ألف سنة كما أثبته العلامة مانيتون وقدورنها المصريون من شعب منقرض هو الجنس الأحمر الذى منه هنود أمريكا وكان انقراضه بعد حروب هائلة وحصل اذ ذاك في الارض انقلاب عظيم طبيعي * ومن آثار هؤلاء المنقرضين أبو الهول الذى كانوا بنوه على شاطىء البحر الابيض الملتصق اذ ذاك بالبر * وهذه هي آراء العلامة (ليبلونجون وسافيل في أمريكا الوسطى) و (روازل وجوباڤيل في بلاد (الاتلانت) وهؤلاء عرفوه بطريق البحث والتنقيب فكشفوا ذلك وهو عجيب (والذى يهمنا) في هذا المقام ان أهل الشرق هم أعرق الأمم في المدنية الاترى انه ظهر منهم الديانات والحكمة والحكماء مثل (كونفسيوس و بوذا) وأمثالهما والانبياء كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم وأوروبا لاتنى منها ولا سابقة علم معروفة قبل الرومانيين واليونانيين الذين هم تلاميذ المصريين فثبت من هذا ان العلم قد استدار كما استدار الزمان وقد بدا دور الشرق بعد الغرب * ولعلك بهذا تدرك السر في قوله تعالى في سورة آل عمران (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب) وتعجب كيف ذكر ادخال الليل في النهار وادخال النهار في الليل عقب ذكر عز الدول وذلها واعطاء الملك ونزعه * وهذه الآية سيأتى ذكرها عند آية الكرسى من بذور القرآن التى ألهم الصالحون أن يقرؤها في الاوراد ليفطن لها الخلف فيرون أمثال هذه المعانى النبيلة الشريفة ولعل الذى حفظ السماء ان تتداعى أقطارها حفظ علومها ان يدركها الغافلون اذ قال (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) اه

وأما قوله تعالى والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس

فان هذه نعم جليلة وآيات عظيمة تلك السفن الماخرات في اليم الجاريات في البحار والأنهار العجيبة الصنع

الجاري بين الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب الموصلة لمنافع الناس وأقواتهم من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر وبها التجارة وتنقل الخطيرة والاخبار من أمة الى أمة حتى ان أهل الكرة الأرضية بهذه السفن أصبحوا كأنهم في بلد واحد وأشبهوا هذا العالم كله في أن كلا لكل مساعد والحق ان الوحدة شاملة لاهل الارض كما هي شاملة للعالم كله والناس سائرون للاتحاد شاؤا أم أبوا وما الحروب والعداوات بينهم الا كما يقع الهضم في الطعام في جسم الانسان ولقد أخذ الانسان يقترب بالأسلاك البرقية والعلوم والمعارف * ومن عجائب السفن أنها تحمل المدافع والحديد وأنواع المعادن وصنوف البضائع وهي تجري فوق الماء ولا تغرق الا لعارض * واعلم ان هناك ناموسا ثابتا عاما به حفظ الله السفن من الغرق وأعطى السمك قوة بها يطفو ويرسب وتلك القاعدة ان الجسم اذا كان أخف من الماء المساوي له في الحجم فانه يطفو وان كان أثقل منه كالحديد فانه يرسب وان كان مساويا فانه يكون بسطح الماء عند العوم فكأنه ماء وهذه هي التي أعطيت للسمك من المواهب العجيبة فللسمكة منفاخ تجده داخلها اذا شرحتها وهذا المنفاخ مملوء هواء فاذا أرادت أن تطفو على سطح الماء نفخته فكبر حجمها فطفت وان أرادت أن تنزل الى أسفل ضغطت على ذلك المنفاخ فصغر حجمها فنزلت الى أسفل لانها صارت أثقل من الماء المساوي لحجمها وهكذا تعلو وترسب على حسب حاجتها كما يضيق الانسان عينه ويوسعها على حسب النور قلة وكثرة وعلى هذه القاعدة جرت السفن في البحار * فاعلم ان السفينة الشراعية الجارية في الانهار اذا وزناها هي وما عليها كانت مساوية للماء الذي حلت مكانه في البحر فان أثقلناها حتى زاد وزنها عن وزن الماء المساوي لحجمها غرقت والسفن الحاملات للمدافع والذخائر والبضائع على هذا النمط في البحار العظيمة الاطلانطيقي والهندي وبحر الصين والبحر الهادي والاساطيل الجاريات كلها على هذه القواعد جاريات وكل سفينتين جاريتين فان نسبة سعة مقعر احداهما الى سعة مقعر الاخرى كنسبة ثقل احداهما الى ثقل الاخرى ومعلوم ان حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين وهنا تكون النسبة الهندسية

﴿ وأما قوله تعالى وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ فاعلم أن الله عز وجل جعل اتحاد الماء بالعناصر الارضية سببا لخروج النبات المختلف الاشكال والالوان والازهار والاثمار فكان منه الرياض والجنان والرياحين والبهجة والرونق والحسن والجمال * ومن عجب أن يكون الماء والارض والحرارة باتحادها تحدث هذه العجائب التي لا يعرف آخرها ولا يدرى منتهاها

والنبات منه الشجر والنجم والزرع والكلأ والحشيش وكل واحد متنوع أنواعا كثيرة * الشجر كل نبت يقوم على ساقه منتصبا أصله مرتفعا في الهواء ويدور عليه الحول لا يجف

وأما النجم فهو كل نبت لا يقوم أصله على ساقه مرتفعا في الهواء بل يمتد على وجه الارض أو يتعلق بالشجر ويرتقي معه في الهواء كي يحمل عنه ثقل أثماره كشجر الكرم والقرع والقثاء والبطيخ * واعلم أن جميع النبات والشجر لا يختلف الا لاختلاف المواد الداخلة في تركيبه * فترى القطن والقمح والبرسيم من البوتاسا والصودا والجير والمغنيسيا وحمض الفوسفوريك وحمض الكبريتيك والسلكا والكلور وانما صار هذا قطنا نلبسه وهذا قمحا نأكله لاختلاف المقادير الداخلة في تركيبها * فقوله تعالى (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها) ليس يستوعب علمها الا علماء اختصوا بهذه المباحث * وسيرد عليك في هذا الكتاب شذرات من هذه العجائب عند قوله تعالى (أو كالذي مر على قرية الى قوله فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك) الآية فسترى هناك عجائب الكيميا العضوية وكيف اختلفت المظاهر لاختلاف التركيب والمقادير ان الله سريع الحساب

ولكن لابد أن أوقفك على بعض العجائب العلمية هنا ليكون كالمقدمة لما سأذكره هناك من مسائل الكيمياء العضوية وكيف كان اختلاف النبات لاختلاف التركيب فنقول * اعلم أن الله عز وجل خلق المادة ونوعها أنواعا وأجناسا وفصائل يجعل منها النبات والحيوان وهما عالم باهر * فمن نبات لا يكاد يرى وحيوان دقيق لا تدركه الأبصار

الا بالمنظار الى شجر النخل وشجر الغابات العظيم والى الفيل عظيم الجثة كبير الجسم هائل القوة وبين ذلك من الغرائب ما يحير العقول حتى انك لتجد أعلم الناس وأقدرهم على علوم الحكمة يقف مبهوتا حائرا أمام البقة والفيل ترى الناس يتعجبون من خلقة الفيل اذا رأوه وهم قد حملوا أبناءهم على العربات الى الحدائق التى فيها الحيوان كحديقة الجيزة ببلاد مصر ويقولون تفرج يابنى على هذا الفيل والاب والام والخادم يضحكون ويفرحون ويمرحون وهم غافلون ولا يعرفون الا أن الفيل كبير الجثة له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان * وقد فاتهم ان البقة الحقيرة القذرة الدنيئة المنزلة التى ينفر الانسان من منظرها وتؤذيه فى فراشه هى من الدلائل على أن منزلة قدرها مع صغر حجمها أعجب خلقة وأظرف صورة فلها ستة أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وامعاء وأعضاء أخر لا يدركها البصر وهى متسلطة على الفيل بالاذية ولا يقدر عليها ولا يمتنع بالتحرز منها * وايضا فان الصانع البشرى يقدر أن يصنع فيلا من الخشب والحديد والذهب وغيرها وهو عاجز كل العجز عن صنع بقة فثبت أن صنع البقة أدق وأظرف من صنع الفيل * وفى الحيوان وفى النبات من العجائب ما لا يدركه سائر الناس مهما عاشوا دهورا وأجيالا * وتلك العجائب من نوعين على الأرض وكم عليها من معادن وأنهار وبحار وفوقها من هواء وسحب وبدور معها كواكب وشموس كل ذلك من المادة الأصلية فى الكون فنقول لا يقدر الناس أن يتصوروا كيف خلق الخلق من مادة واحدة الا بمثال من أنفسهم وشاهد من عقولهم

(مثل المادة فى تنوعها كمثل الصوت وتنوعه فى الهواء)

علم الله ضعف الانسان فألهمه أن يحرك الاسنان والشفتين والفم بالهواء الداخل والخارج لاصلاح الدم الفاسد فى الرئتين ليعطى له الاكسوجين ويأخذ بدله المادة الفحمية المسماة بالكربون ففى دخول النفس بالشهيق وخروجه بالزفير يحدث الانسان فيه حركات تسمى حروفا وهى تختلف باختلاف الأمم * وهى فى العربية ٢٩ حرفا تتركب من تلك الحروف كلمات فتحدث الخطب والشعر والنثر والحكم والمواعظ والتفاهم والتجارات والسياسات والمنافرات وكتب الديانات والعلوم والمعارف هذه هى النتائج التى نظمت نوع الانسان وعلمته البيان وهى ليست شيئا سوى تنوع فى الهواء الجوى الذى له أعمال كثيرة غير هذه فانه كما قلنا داخل فى الرئتين للاصلاح أى ادخال المادة المصلحة للدم مع أنه ترسم فيه صور المرئيات فيرى الانسان الاشباح والصور التى تأتى للاعين من المرئيات وفى الهواء الحرارة والبرودة والرائحة الطيبة والخبيثة وفيه بخار الماء الذى يكون السحب وهكذا الرياح وهو يحمل السحاب ويسير السفن فى البحار فليست صفة الكلام فى الانسان أول أعمال الهواء ولا آخرها بل من تنوع الهواء تكون الموسيقى المطربة لقوم الشافية لآخرين المعلمة لقوم يعقلون * اذا فهمت هذا فاعلم ان هذا مثل ضربه الله للناس لعلهم يعقلون كيف خلق العالم من مادة واحدة ليستدلوا على وحدته وقدرته وليعلم الناس انه حاضر رحيم فمن رحمته هذا المثال

اعلم ان المادة كما هو رأى علماء العصر الحاضر واحدة * يقول علماؤنا الاقدمون ان جميع هذا العالم من الهيولى والهيولى كلمة عربية معناها القطن وانما سموها بهذا الاسم لان القطن يصلح للابس شتى كثيرة التنوع وقالوا هذه المادة الاصلية لا يمكن رؤيتها بل هى شئ أشبه بالامور الروحية هذا كلامهم * وقالوا أيضا ان هذا العالم أصله مادة واحدة متماثلة أشبه بما نرى ان الطعام بعد تناوله يصير فى المعدة كيموسا متشابه الاجزاء أشبه بمادة اللبن فهذه المادة المتشابهة فيها جميع ما يصدر عنها من الاعضاء والحواس ففيها مادة العين والانف والمخ والمصارين والبطن والجوف وهى تجمع مع لطافتها وتشابهها ما بين العظم الصلب وما بين الرطوبة الزجاجية فى العين ومادة المخ هذا كلام قدمائنا * فهكذا يقولون ان المادة التى خلق الله منها العالم كانت هكذا واحدة ولكن قد كمن فيها الشمس والقمر والارض والمعدن والنبات والحيوان

اما علماء العصر الحاضر فقالوا نحو هذا ودققوا أشد تدقيق فقالوا ان أصل العالم مادة سديمية دارت وتكورت

على مدى السنين فكان منها تلك الشموس والارضون الخ ومنها العناصر * بمعنى ان الوجود المسمى بالاثير مما لا تراه العيون ولا تدركه الاوهام هو الاصل لهذه الموجودات وهذا الاثير الذى هو أرق من النور وألطف من الخيال وأقرب الى أن يكون شيئا روحيا كما قالوا سلافنا منه تكونت المادة والكهرباء والمغناطيس وفيه الحرارة والضوء فهذه كلها صفات وتنوعات فى المادة الاثيرية والمادة التى منها تكونت * و بعبارة أخرى هى حركات من حركاتها لا يدرى كيفيتها قد شكلت الى عناصر كالحديد والنحاس والذهب والفضة والراديوم والاوكسوجين والأروجين والاوزوت والكربون و بالجملة تلك العناصر تبلغ فوق السبعين نوعا كما تنوعت الاصوات الخارجة من الفم فى المثال المتقدم الى الحروف الهجائية بحسب اختلاف الأمم فبلغت بتركيبها الى نحو أربعة آلاف لغة ذات فروع شتى وكلها ترجع الى تنوعات الهواء فى الفم * أو بعبارة أخرى لا شىء سوى الهواء المتحرك فهذه العناصر المادية تركبت منها هذه المخلوقات التى نشاهدها على الارض بنسب محفوظة وحساب متقن ونظام بديع حارت فيه العقول * وقد وصلنا الآن الى ما نقصده من عالم النبات والحيوان فانها عبارة عن تفنن فى المادة كما كان من الاصوات عجائب و بدائع ولم تزد عن كونها حركات فى الهواء فهكذا هنا نرى أن جميع أنواع الحيوان والانسان تتركب من العناصر المتقدمة كما تركبت الكلمات من الحروف ومن طوائف النبات تكون المروج الواسعات والرياض الغناء تسر الناظرين وتحير المفكرين كما رأيت فى الكلام من الخطب والشعر والمقالات فالرياض الناضرات والمروج الواسعات شعر المادة كما كانت أقوال المتنبي وعمرو بن كلثوم وأشعار هوميروس وشكسبير شعر الهواء

ولعلك تقول كيف يكون النبات والحيوان من عناصر واحدة ﴿أقول﴾ قد قدمت لك هذا القول وسأزيدك بيانا فأقول

قد أثبت علماء الكيمياء أن النبات والحيوان يتركبان من المواد التى ليست حية وأخصها الاوكسوجين والاودروجين والاوزوت والكربون و بعض أملاح أخرى وهذه العناصر الاربعة بمقدار تنوع المقادير فيها تتنوع النباتات والحيوانات وأعضاؤها وأجزاؤها فيكون منها الدم والشحم والصفراء والاعصاب ومادة الدماغ والعود الاخضر والورق والثمر والحنظل والتمر والبرتقال والزيت والصمغ فلا حلاوة ولا حموضة ولا دسومة ولا مرارة الا كانت مشتقة من تلك المواد الجامدة * و بعبارات أخرى هى كلمات من تلك الحروف لم تزد فى المادة شيئا فلا تزال المادة واحدة واختلاف المظاهر وقتى كاختلاف الكلمات والقصائد فى الهواء الجوى

ان عصير العنب لا يحوى خمرا ولا مادة الخمر وهو (الكحول) انما يحوى ماء وسكرا فاذا تخمر انحل جزء من السكر وانفصل عنه ما فيه من الاكسوجين والاودروجين والكربون وتتركب هذه بمقادير جديدة بنسب معلومة محدودة كالنسب التى ستراها عند قوله تعالى وانظر الى حمارك فى مسألة العزير وعند مسألة الطير وسيدنا ابراهيم الخليل واذ ذن ينشأ عنه المادة الخمرية المسماة (الكحول) فيصبح عصير العنب خمرا بدون أن يزاد شىء أو ينقص كما صار الهواء خطبا وقصائد بكونه صوتا وحروفا ولم يزد فى الهواء شىء ولم ينقص والخبز والفواكه التى نأكلها لا شىء من الدم فيها ولا اللحم ولا العظم ولا العروق ثم هى عند الهضم تتحول الى ذلك * وهكذا الحب والنوى ليس فيهما من الورق والزهر شىء ولكن الامتصاص من العصارات الارضية والتنفس بهما يحدث تفاعل فيكون النتائج الباهرة * لعلك أيها الفطن بهذا تعرف السر فى قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) فمن هنا فلتفهم الكلمات بالعلم والحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الألباب) اهـ ولعلك الآن فهمت السر المصون والجوهر المكنون فى العناصر والحروف * فالعناصر فى المادة والحروف فى الهواء فكما كانت لنا كلمات وخطب وقصائد هى حركات الهواء هكذا كان لله عز وجل عناصر تركبت معادن ونباتا وحيوانا وكما كانت اللغات كثيرة العدد وكلامها وقصائدها ليس لها عد ولا حد هكذا مركبات الطبائع لا تنحصر وكان الهواء فيه أحوال وأعمال كثيرة كالروائح والحرارة الخ غير الاصوات هكذا الاثير الذى تكونت فيه المادة فيه عجائب ومخلوقات

لا نعرفها فوق ما نشاهد من السموات والارض وما بينهما (وما يعلم جنود ربك الا هو وما هي الا ذكرى للبشر) ولعلك أيضا تعرف ان هذا التشبيه الذي أطلت لك فيه وجعلت كل ما في المادة أشبه بتركيبات الحروف من القصائد والكلمات مأخوذ من قوله تعالى (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين) فقوله اختلاف ألسنتكم اشارة الى علوم اللغات وما فيها من المقالات * وقوله وألوانكم اشارة الى العناصر وما تركب منها أفلا تتعجب أيها القارئ أن يكون مثالك هذا من كلمتين من القرآن وقرنتا معا في جملة واحدة ليكون ذلك داعيا الى أن أشبه أحد الطرفين بالآخر أليس ذلك من العجب

على انك سترى ما هو أعجب انه يقول ان في ذلك لآيات أي دلالات للعالمين بكسر اللام جمع عالم ولم أر آية في القرآن على ما أذكر جاء فيها ذكر العالمين على هذا النحو الا قليلا فكأنه يقول ان هذا المقام دقيق لا يفقهه الا المحققون في العلوم الدارسون للعلوم الطبيعية العاشقون للعلم المغرمون بالحكمة فتأمل في عجائب القرآن وكن على يقين ان نبوّة الانبياء لا تعرف عند أولي الالباب الا بمثل هذه الحقائق العلمية وكيف خص العلماء بالفهم في هذه المسألة التي لا تعرف الا في هذا الزمان أشد معرفة لمثل هذا فليعمل العاملون و بمثل هذا فليعقل المفكرون

(عجائب التنوع والتشكل في المادة الواحدة ايضاحا لما تقدم وانها دلائل التوحيد لاختلافها مع وحدة المادة)

من المعلوم الشائع في عصرنا الحاضر أن العناصر التي كشفها العلماء تبلغ فوق السبعين * وهي مركبة من اجتماع الذرات الاصلية وهي الجواهر الفردة التي رجعت في آخر أمرها الى حركات وتيارات يقف التعبير عندها لدقتها على العقول وهذه الذرات تجري بنواميس كالتي نراها في الكواكب والشموس أي انها عبارة عن دقائق جاريات بنسب مخصوصة على بعضها بنظام تام و بهذه النسب اختلفت أحوالها * فالاختلاف في العناصر راجع الى أنواع حركاتها لا غير فاذا رأيت الهواء والماء والحجر الصلد والذهب والحديد فذراتها جميعا عند البحث العلمي لا فرق بينها من حيث انها متحركات في أنفسها وان كانت ترى ساكنة في الظاهر * وليس المراد بتلك الحركات الهوائية والمائية بل هي حركات الذرات التي لا يعرفها الا العلماء الاخصائيون بالبحث والتنقيب * فتنوّع الحركات المذكورة جعل هذا ماء وهذا غبرة وهذا أحمر وهذا أصفر وهذا ثقيلا وهذا خفيفا الى ما لا يتناهى * ألا ترى ان الفسفور أبيض سام سريع الالتهاب فاذا أحميته في اناء محكم السد أو عرضته للنور في أنبوب لا هواء فيه تغير لونه الى الحمرة و يفقد خاصية السم ولا يلتهب الا بالاحتكاك واذا حللناه تحليلا كيماويا لا يختلف في تركيبه عن الفسفور الاعتيادي وهكذا ترى الكربون على أشكال مختلفة في الالماس والجرافيت والانتراسيت والكوك ولكل منها خصائص متميزة عن الأخرى * فبالله هل يستوي الالماس الجميل المنظر الحسن الشكل الغالي الثمن البديع البهج الذي يوضع فوق التيجان وتتحلى به الغانيات ويمتاز بامثاله أهل الثروة والغنى والملوك عن غيرهم والكوك الذي يوقدونه في أفرانهم وقطوراتهم و يملكه الغني والفقير كلا لا يستويان ولكن العلم قد أوجب استواءهما وان كلا منهما مركب من الكربون وحده فالالماس كربون والكوك كربون لا اختلاف بينهما ألبتة في الحقيقة وهي انها لا تذوب واذا أحرقت أنشأت حامض الكربونيك * فاما هذه الاشكال والخواص من اللمعان والبهجة والحسن في الالماس وضد ذلك في الكوك فلم تكن الا من تغير طارئ على تحرك الذرات فحسب * وتأمل في التباين العظيم فيما بين المركبات وخواصها العجيبة * تأمل كيف اختلفت خواصها مع التركيب وهي واحدة * فانظر خلاصة التربنتين والليمون والبرتقال والعيثران والفلفل والريحان والبقدونس * ان هذه الخلاصات مركبة تركيبا كيماويا واحدا وهو ستة عشر جزأ من الادروجين مع عشرين جزأ من الكربون * فبالله أين خلاصة الفلفل من خلاصة البرتقال والليمون وكيف كان كل منهما مركبا من كربون وادروجين فالكربون معروف في الكوك والالماس كما تقدم والادروجين هو الجزء الثمم لتكوين الماء * فالأول تراه محترق

والثاني

والتقطير لمعيشة الحيوان اذا تنفس فيه كما عرفه من درسوا علم الكيمياء * وفوق ذلك نرى ان سائر الانسجة الحيوانية والنباتية التي كثرت أنواعها وأشكالها وأوصافها مركبة من أربعة عناصر وهي الاكسوجين والادروجين والكربون والازوت مع اضافة بعض الاملاح والجوامد

فتعجب من المادة الواحدة التي يرجع أصلها الى حركات كيف كانت بسائطها تتنوع تنوعا مدهشا لغير سبب معروف الا تنوع حركاتها وهكذا مركباتها تنحو هذا المنحى كخلاصة البقدونس والفلفل وتركبهما من عنصرين وكالحيوان والنبات وأنواعهما المركبات من أربعة عناصر مع ما يضاف اليها * أليس هذا يريك بأجلى برهان في عصرنا الحاضر ان الوحدة ظاهرة في العالم المشاهد أوليس أنواع هذه المادة مع وحدتها تعرفنا حكمة الله * وان العناصر حروف والمركبات كلمات وهو العالم المنظور قصائد وخطب نقرؤها مسطورة على لوح الطبيعة الجميلة البهجة أوليست هذه كلمات الله ككلماتنا في الهواء فتشابهتا في أن تنوعهما بتنوع الحركات فهذه في أثير وهذه في هواء وان هذا التنوع عند الله كتنوع الكلمات عندنا في اليسر وعدم العسر * ولذلك جاء في القرآن (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وفيه قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) * واذا كانت هذه العوالم ناجمة عن مادة واحدة كان فاعلها واحدا فان ناظم القصيدة وقائل الخطبة يكون واحدا فاعلا باعضاء فمه في الهواء فعالا مقصودة ينتج منها ذلك القول المسموع المنتظم فهذا العالم المنظم المكون من حركات صانعه واحد * وهذا هو برهان التوحيد لأن الآية مسوقة للوحدانية (والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم) الخ فتعجب من العلم والدين كيف اتحدا وأتيا بالعجب العجاب وهذا هو بدء الخلق الذي أمر نابه في قوله تعالى (قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق) هذا بدء الخلق وتكوين العناصر والمركبات وبهذه الآية يجب على المسلمين أن يعرفوا أصول جميع الاشياء من بسائط ومركبات كعلم الاجنة وعلم الحياة وعلم الكيميا العضوية والكيمياء التحليلية والادام العذاب عليهم في الدنيا أجيالا لعلهم يعقلون اه

(لطائف في علمي الحيوان والنبات)

(اللطيفة الاولى) شجر النارجيل وهو الجوز الهندي هيئة شجرته كهيئة النخل المعروف ويبلغ ارتفاعها تسعين قدما تنبت في الأقاليم الحارة ولا سيما شواطئ بحورها وهي من أعجب ما خلق الله من النبات ففيها لاهل تلك الاقاليم غذاء وكساء ودواء ولبن وخمر وسكر وزيت وشمع وآنية ومساكن ودثر وفرش وحبال وادوات وأسلحة وغير ذلك

روى أحد الثقات أن مسافرا كان يجوب رمضاء تلك الارض تحت أشعة شمسها المحرقة حيث يندر الظل فرأى بيتا محيط به أشجار باسقة معتدلة الأجذاع على رؤسها أوراق جميلة تسر الناظرين فدنا من البيت فرأى فيه هنديا رحب به وأتاه بشراب شهي فيه طعم حموضة أروى ظمأه وأنعشه وبعد أن استراح دعاه الى الطعام في صحون مختلفة في جفنة (قصعة) سوداء مصقولة لامعة وسقاه خمرا لذيذا ولم يشرب مثل ذلك قط ثم أتاه بحلواء فاخرة ثم بغيرها فقال وقد دهش من أين لك هذه كلها في هذا القفر قال من شجرة النارجيل فالشراب الذي سقيتك اياه من جوزها قبل نضجه واللبن الذي استطبته من ذلك الجوز بعد النضج والطبيخ الذي قدمته لك من أوراق تلك الشجرة وتلك الخمرة من عصارة زهرها ومن هذه العصارة كل ما عندي من السكر وكل هذه الصحون والجفان والآنية التي رأيتها على المائدة من قشر جوزها وهذا البيت الذي أسكنه منها جدرانه من خشبها وسقفه من نسيج أوراقها ومظلتي من نسيج هذه الاوراق والثياب التي علي من خيوط أليافها ومن هذه الالياف مناخلنا وحصرنا وقلوعنا وحبالنا والزيت الذي نوقده في مصابيحنا عصير لب جوزها ولنا فيها مآرب أخرى * فدهش المسافر ولما هم بالانصراف سأله الهندي أن يبلغ كتابه الى صاحب له في المدينة التي يقصدها فقال من أين لك الحبر والقرطاس قال من تلك الشجرة فالحبر من نشارة أغصانها والقرطاس من أوراقها فأخذ الكتاب وهو في حيرة وعجب

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ نظر في عمر بعض الاشجار في اسكتلندا فكان أكثر من ثلثمائة سنة وأغرب من ذلك شجرة العندم (دم الاخوين ويسمى دم التنين ودم الثعبان) في بلدة تسمى (أوروتاوا) في جزيرة تينار يف احدى جزائر كنار يافي الاوقيانوس الاتلنتيك الذي كان يسمى عند أسلافنا بحر الظلمات من بعض جهاته لايحيط بساقها عشر قرجال يمدون أيديهم حوطا يمس كل منهم أنامل مجاوره بأنامله وقد انقضى منذ كشف تلك الجزيرة الى الآن ٤٨٢ سنة والشجرة بحالها وقد حسب العلماء الزمان الذي خلقت فيه على حسب نمو جنسها فقال انها خلقت قبل خلق الله الانسان على الارض

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ من غرائب النباتات النباتات الهوائية وهي أعشاب لا أصول لها في التربة تتعلق على غيرها من النبات وتتناول غذاءها من الهواء وتنمو في الأقاليم الحارة * ومن عجيب أمرها أن زهرها يشبه الفراش والنحل وغيره من أنواع الذباب وهو حسن زاه يسحر الألباب و يسحر العقل أن يرى الانسان أزهارها على أعالي سوق كالأسلاك يحركها النسيم فيظنها فراشا يحوم على الاشجار أو نحلا يبغي جنى العسل من الازهار ومن أزهارها مايشا كل الرتيلاء ومنها مايشا كل الانسان الى غير ذلك (وفي الأرض آيات للموقنين)

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ النباتات المفترسة * ومنها ما بعض النباتيين بالحلمية فهذه تتشبث بغيرها من النبات وتغتذي بعصارته فتعيش على غيرها كما يعيش بعض الحيوانات على بعضها

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ الفجل والبصل والخس وما أشبهها والنخل والعبل والسنط وما أشبهها

تأمل أيها الفطن الذكي شجرة الفجل وشجرة البصل من جهة وشجرة الخس أيضا وشجرة النخل والعبل والتين وما أشبهها من جهة أخرى وشجرة تسمى ثوب السيدة من جهة ثالثة * تأمل هذه الأنواع الثلاثة من الشجر وتعجب من أوراقها أوراقها مختلفة فترى ورق الفجل والبصل يتلقى المطر ويجمعه و يرسله الى جذر البصلة والفجلة وكذا ورق الخس وما أشبهه * ينزل المطر فيجد الورق بوضع يصلح معه ان يجد سبيلا الى الاجتماع عند الجذر وكأن الورق مساق تصب ماءها عند الجذور * ثم ترى ورق النخل وهو المسمى بالخوص وكذا ورق التين والرمان وما أشبهها لاتصلح لجمع المطر لينزل على جذع النخلة وأصل التين والرمان لم ذلك ولم هذا التباين ، ورق يجمع المطر وورق يفرقه * أما الجاهل فانه لايعنيه * وأما العالم فان له في كل نظرة حكمة وفي كل فكرة علما وفي كل نباتة جمالا و بهاء وسعادة ونورا ، اجتمع المطر في الفجل و لبصل والخس عند رأس البصلة والفجلة والخسة لأن الجذور غير متشعبة ولا متفرقة وانما هي متجهة الى أسفل باستقامة فلذلك ينزل المطر عليها ليسقيها مجتمعا لاجتماع الجذر * أما في النخل والعبل فان العروق الضاربة في الارض متفرقة منبثة في الجهات كلها فلذلك وضع الورق على حال لا تصلح لانحباس المطر فيسقط على الجذع بل يتفرق حوله لتفرق العروق * أما الشجرة المسماة ثوب السيدة النابتة في جبال الالب التي ذكرها اللورد افبري في كتابه جمال الطبيعة صفحة (١١٣) فان المطر اذا نزل على أوراقها كان له عمل آخر * ألا وهو انه يكون خفيرا لها يحفظها من العطب كالعساكر والجيوش التي تحمي الملوك على العروش * وذلك ان قطرات المطر أو الندى ترى متجمدة لشدة البرد تلمع كحبات اللؤلؤ على تلك الأوراق فاذا رأتها الحيوانات السائمة كالغنم والغزلان ولت عن الشجرة ولم تقربها لتلك العساكر الجليدية الثلجية المتلألئة المانعة كل ما يقرب الشجرة فتأمل وتعجب كيف كان الورق جامعا للمطر تارة ومفرقا له تارة أخرى وحارسا أمينا حينا . كل ذلك والمسلمون يأكلون الفجل والبصل والتمر والبرتقال والليمون وهم نائمون عن حكمة ربهم وعجائب صنعه والفرنجة فيها مفكرون * ياعجبا كل العجب لعالم أضاع حياته في أقوال جدلية وكلمات لغوية وقد أغمض أجفانه وهو غافل عن هذه العوالم المشاهدة * فلتفهم اذن قوله تعالى وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم * وقوله وأنبتنا فيها من كل شئ موزون * وقوله وكل شئ عنده بمقدار (على نفسه)

فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم

ثم انظر ووازن بين عيون الحيوان في محاولة الابصار و بين ورق الفجل والبصل وأمثالهما في استقبال ماء المطر لسقي

الرؤس النازلة فى الأرض وكيف جعل النور المشرق من الكواكب والشمس والقمر كالقطرات النازلات من المطر كلاهما يخلق له فى الحيوان وفى النبات ما يناسبه للانتفاع به فبينما نرى أعين الحيوان مدورة الشكل محدبة الاعلى حاوية مادة زجاجية وأخرى تشبه العدسة المحدبة الوجهين * وهذه الاشكال فى علم الضوء معدة لقبول الضوء وجمعه مهيأة لحفظه فترسله الى ماوراء الحدقة وهى الشبكية الموضوعة بنسبة مخصوصة لتقبل الصور التى حملها الضوء وتوصلها الى المخ الذى هو الناظر الحقيقى * ولوانها وضعت أبعد من ذلك أو أقرب لم تظهر فيها الصور فاحتاجت الى المناظير الزجاجية المعينة على ايضاح الصور واقرارها فوق تلك الاعصاب كما هو معروف عند أطباء العيون فى زماننا هكذا نرى ورق الفجل والخس والبصل قد وضع على هيئة حافظة للمطر بحيث يسقى الرأس ولم يجعل على هيئة مبعثرة له حتى لا ننتفع به أصولها (انا كل شئ خلقناه بقدر وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر) وما أحوج الشبان فى المدارس وفى المعاهد الدينية الى ورود مناهل هذه الحكمة والارتواء منها (وفوق كل ذى علم عليم)

﴿ اللطيفة السادسة ﴾ النبات المفترس للحيوان * قد ثبت للخاصة والعامة ان النبات طعام الحيوان مسخر له ولكن لم يدر فى خلد انسان أن الحيوان طعام النبات * وان النبات يفترسه بحيل مدبرة وكيد خاص * فاعلم ان نباتا يسمى (الديونيا) من نباتات أمريكا الشمالية له ورق يشبه مصيدة الفأر وفى وسط الورقة مفصل وتلك الورقة نابت عليها وبر ويحيط بها شوك ومتى لامست الورقة حشرة أحس بها الوبر فانطبقت الورقة حالا عليها وخرج منها مادة لزجة قائمة مقام لعاب الانسان لتمتص تلك الفريسة * فانظر كيف كان المفصل لتتحرك الورقة وكيف قام الوبر بالاحساس كبصر الحيوان وكيف كان فيها ماهو كالريق وكالعصارة المعدية فى الحيوان اهـ

﴿ اللطيفة السابعة ﴾ أعمار الحيوان * يقال فى المبدأ المشهور ان عمر كل حى ثمانية أضعاف مدة نموه فسريع النمو سريع الزوال ومايبلغ الكمال سريعا ينقص سريعا وعلى هذا المبدأ يكون فى استطاعة الانسان ان يعيش فوق المائة بل الى المائتين اذا لم تصادفه تلك العقبات فى غذائه وأحواله فقد مات أحد الانجليز وعمره مائة وتسع وستون سنة وكذلك من آبائنا العرب عاش أحد بنى تميم نحو هذا القدر وهذا وان كان لا يعقل عادة يصلح فى قدرة الله تعالى أن يتم والامكان واسع ولكن العادة لا تبيح ذلك * والحيوانات الجماء تعمر أكثر من القرناء والجريئة تحيا أكثر من الجبانة والمائية والبرية تعيش أكثر من الهوائية غير ان الرخة والنسر والببغاء والغراب تعيش قدر ما يمكن ان أن يعيش الانسان

﴿ اللطيفة الثامنة ﴾ القرود وتقليدها * ان جماعة من أهل العلم كانوا مشتغلين فى أمريكا الجنوبية بما يتوصل به الى معرفة شكل الارض فكانوا احيانا يبعدون عن الادوات فتأتى القرود وتنظر فى المنظار وتنصب الاخشاب وتأخذ الاقلام وتغمسها فى المداد وتخط على الورق ماتيسر

ومن محاكاة القرد للانسان انه تفشى الجدرى فى بعض السنين فى قرود بعض الآجام فى أمريكا الجنوبية فأتى (بنسكرد) الطبيب بولدين ربط أيديهما وأرجلهما بالحبال ولقحهما بمادة الجدرى أمام قرد كبير حذاءه قرد صغير ثم ذهب بالولدين وترك مادة التلقيح والادوات فطرح القرد الكبير القرد الصغير وربط يديه ورجليه ولقحه بالمادة كتلقيح الطبيب للولدين وحذا حذوه غيره من القرود

﴿ اللطيفة التاسعة ﴾ عجائب الحرباء هذا الحيوان بدنه كالاسطوانة وله رأس كبير وعنق فاحش القصر وذنب طويل كالحية وله براثن كمخالب الببغاء وهو يتلون ألوانا كثيرة وتقول فيه العرب (أصور من عين الحرباء) أى أبرد لاعتقادهم أنه يدور مع الشمس ويستقبلها بعينيه ليستدفئ وقد رآه الباحثون وراقبوه فوجدوه تارة يجعل جسمه أخضر اذا كان على شجرة * وقد يكون فى حال أخرى أصفر واذا تهيج حصل فى لونه خطوط متقاطعة على ظهره ثم تمتد الى سائر جسمه تقريبا فاذا دام التهيج صار الجسم كله أسود هذا فى لونه * أما جسمه فأعجب فتارة يجعل جسمه كأنه فأرة فى زاوية أخذ الرعب منها كل مأخذ وتارة ينشر ذنبه ويحنى ظهره فيكون كالاسد المزبد وتارة

يصير كورقة النبات و يرى خط أبيض مار ببطنه الى طرف ذنبه كأنه ضلع الورقة ثم يرق كالسكين فينكر بذلك أعظم تنكر

﴿ اللطيفة العاشرة ﴾ ذكاء الفيلة * مرضت فيلة مرضا شديدا فعالجها أحد العلماء فشفيت و بعد مضى خمس سنين رآته فى الطريق فذكرته فأسرعت اليه ووضعت خرطومها فى يده كأنها تحييه وتشكره على صنيعه ثم نظرته ثانية فدنت منه ومنطقته بالخرطوم كوالدة تضم ولدها بعد فراق طويل فانظر الى عجائب الحيوان والنبات واعلم ان هذا وأمثاله مما أمر الله المسلمين أن يعلموه وأن يعملوا به فى الدنيا و يرقوا مدنهم فيكونوا شاكرين لله وما دام المسلمون لم ينظروا ولم يعلموا ولم يعملوا فى الحيوان والنبات باستخراج الثمرات والمنافع فانما هم كافرون لنعمته غير شاكرين لها فهذه من آثار قوله تعالى وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة * واعلم ان الدين الاسلامى كما قال أحد العلماء الهولنديين كان عند أمة نعرفه فى صدر الاسلام فارتقت به فلما دخل فى هذا الدين أمم جاهلة عقولها غير ناضجة فهمته فهما معوجا فانحطت ونزلت أسفل سافلين (وها نحن) أولاء أبناء محمد صلى الله عليه وسلم وتابعيه نفسر القرآن على الوجه الذى نزل لأجله على قدر الامكان ونبشر الأمة بأيام سعادتها وان هذا القول وأمثاله من قوال العلماء سيسرى فى الأمة سريان الضياء والكهرباء فالدين ديننا وها هو ذا العلم امامنا واللغة لغتنا فاذا ذهى المسلمين وأذلهم الاجهل القائمين بأمرهم الجاهلين باللغة والقرآن الغافلين عن كلام أسلافنا الفضلاء مصابيح الدجى أولى الألباب

﴿ اللطيفة الحادية عشرة ﴾ يروى ان واحدا قال لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه انى أتعجب من أمر الشطرنج فان رقعته ذراع فى ذراع ولو لعب الانسان ألف ألف مرة لم لا يتفق مرتان على وجه واحد * فقال عمر بن الخطاب ههنا ما هو أعجب من ذلك وهو ان مقدار الوجه شبر فى شبر ثم ان مواضع الأعضاء التى فيه كالحاجبين والعينين والأنف والفم لا يتغير ألبتة ثم انك لا ترى شخصين فى الشرق والغرب يشتبهان فى الصورة

﴿ اللطيفة الثانية عشرة ﴾ تعاون النبات والحيوان (١) (السنط والنمل) هل سمعت أيها الذكى بملك فى قصره يحرسه آلاف الآلاف من الجنود وهم يجندلون كل يوم فى ساحات الوغى مئات الالوف من الاعداء يقتلونهم حفظا لشخصه وابقاء لذاته مدى الزمان وقد أحاط بقصره منازل خضر يأوى اليها الحراس وقد أعد لهم من الطعام كل ما لذ وطاب من ألذ الطعام كلا انك لم تسمع به لا فى الحقائق ولا فى الخرافات ولكن أسمعك الآن حقيقة واقعة مما نشاهده كل يوم والناس ساهون لاهون (وكم من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) ذلك نوع من السنط المدجج بالسلاح من السهام البيضاء تكون له قرون مجوفة فارغة وعلى ورقه نقط من العسل وحوله آلاف الآلاف من النمل تؤمه للقوت تراها صاعدة نازلة لتأكل الحشرات والديدان والسوس والهوام المحيطات بالشجرة الضارات لها المؤذيات لنموها وحياتها فهذا النمل يجندل تلك الجحافل و يبيت تلك العساكر و يسكن تلك المساكن وهى القرون الخضر ويشرب ذلك العسل النقى * وقد ذكر العلامة (فورل) انه كان يرى نحو ٢٨ حشرة فى الدقيقة الواحدة يجلبها النمل لتكون غذاءه * فانظر وتعجب كيف أصبح النمل فى هذا المقام حارسا للسنط الذى هو أغنى النبات بالسلاح وكيف احتاج هذا المدجج القوى البأس الى تلك الجيوش الجرارة من النمل لتحفظ حياته بقتل أعدائه من الهوام والدود والسوس (ان ربى لطيف لما يشاء) وهذه من جنود الله قال تعالى (وما يعلم جنود ربك الا هو) ثم أردفها بما يفيد أنها مذكرات لنا فقال (وما هى الا ذكرى للبشر) وانظر كيف يقول تعالى (وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) ثم أفاد أن هذا كله فى علمه المكنون ولوحه المحفوظ فقال (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) وقال أيضا (ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم) فلا يفتخر الانسان فالله تعالى مع كل نسمة ومع كل نبات (قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى)

﴿ اللطيفة الثالثة عشرة ﴾ ٢ تعاون النبات والحيوان (الزهر والحشرات) يطوف المرء فى الحقول والغابات

والاشجار

والأشجار والبساتين الغناء وجمالها وعجائب خلقها وأزهارها الجميلة الفاتنة من أحمر قان وأصفر فاقع وأزرق زاهر وأبيض ناصع ذوات رائحة ذكية عطرية وفيها مادة حلوة عسلية والحشرات طائفات من زهرة الى زهرة ومن شجرة الى شجرة وهن مغنيات فرحات راتعات فى بحبوحة العيش ونعيم الحياة فما كان قصارى خيال الشعراء الأأن يتذكروا أحبابهم والوجوه الجميلة والقدود وأوقات الصفاء والهناء * هذا ما يدور بخواطر الشعراء * وقد غفلوا عن الحكمة فى تلك الحشرات وطوافها والأزهار وألوانها والعسل فى أسافلها وكيف كان بعض الزهر يتفتح ليلا وهو بالنهار مغمض الأجفان فاذا جن الليل وأرخى سدوله ظهر بلونه الزاهى الأصفر وفاحت رائحته وعم شذاه العطر فاذا ماطلع الفجر رأيته ذابلا لاجمال فيه ولا رائحة ولا رونق فهو كالخفاش ينام نهارا و يقوم ليلا وهو نبات اسمه (القطرب) ثم كيف كان بعض الزهر يغمض أجفانه ليلا و يستيقظ نهارا مخالفا للاول موافقا للناس وأكثر الحيوان فهو بالنهار أنس وجمال و بالليل مسبل الستار غافل نائم وذلك هو (الأقحوان) ثم كيف كان بعض الأزهار يتفتح عند طلوع الفجر فاذا توسطت الشمس خط نصف النهار وقت الظهيرة أقفلت أجفانها ونامت الى طلوع الفجر من اليوم الثانى و يسمونها فى بلاد الانجليز (يارلد اذهب ونم عند الظهر) ومن الازهار ماتفتح صباحا فى الساعة السابعة وتنام عند الخامسة مساء وهو نوع من الهندباء * يطوف الانسان فى الحقول و يرى هذه العجائب وهو عنها غافل ثم يرى بعض الشجر كالصنوبر والزان والبوداق والسنديان أزهارها صغيرة ولا لون لها ولا رائحة ولا جمال فياليت شعرى جمال فتان فى بعض الأزهار وعدمه فى بعضها الآخر ونوم بالنهار و يقظة بالليل وعكس ذلك ما فائدة ذلك كله وهل هذا كله حكمة أم هو مما تموج به الطبيعة موجا بلا عقل يضبطها ولا هدى ولا كتاب منير ﴿أقول﴾ اعلم أن هذا كله قد كشفه العلماء و بحثوا فيه فى عصرنا الحاضر فوجدوا ان النبات فيه الذكور والاناث وذلك كالقرع وقد أتى باللقح الذى فى الزهرة التى فيها الطلع المذكر ووضعه فى الزهرة الأنثى وطنيناعثمان باشا سرى نضى وأرانيها فى حديقة قرب المنصورة فوجدت ان الزهرة فى اليوم الثانى قد حملت حملا خفيفا وقال لى ان الناس اذا ألقحوها على هذا المنوال أتت من القرع أضعافا مضاعفة * وتارة يكون الذكر والأنثى فى زهرة واحدة * ثم ان الذى ينقل طلع الذكور الى الاناث اما أن يكون الرياح واما أن تكون الحشرات كالنحل وقد جعل الجمال والالوان الزاهرة فيها لجلب تلك الحشرات وهكذا الرائحة العطرة تشوقها الى ورود تلك المناهل * واما العسل فى داخل الزهرة فانما جعل ليكون غذاء الحشرة حاملا لها على دخولها فاذا دخلتها احملت على جسمها من ذلك الطلع الذى يرى على تلك الأعمدة التى كأنها مدقات فتطير الى زهرة أخرى فيقع من جسمها عليها فاذا صادف ان كانت أنثى حملت بالثمرة المطلوبة وذلك الطلع كغبار الدقيق كما يرى فى طلع النخل * و بهذا ثبت أن الذكورة والانوثة عامة فى سائر النبات البالغة فصائله خمسمائة ألف ﴿ولقد بحث العلماء﴾ حبات اللقاح فى زهرة النبات المسمى عود الصليب فوجدوها من ٣٠٠٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠٠٠ أليس هذا مصداقا لقوله تعالى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ولقوله ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * ولما كانت هذه العجائب مدهشة للب مطيرة للفؤاد حتى يتعلق بمن نظم هذه العجائب أردفه بقوله (ففروا الى الله) فقد قلنا ان الحشرات هى الحاملة للقاح من الذكور الى الاناث ولذلك تراها طائفة فى الحقول والبساتين مغنية تجرى فى جو من الجمال والآمال تطلب العسل من الزهر وتشرب رحيقه المختوم تخدم أنفسها بالجمال والروائح العطرية وشرب العسل وهى تؤدى عملا نافعا للشجر فانها سبب فى بقاء نوعه ودوام جنسه وكأنها تغنى طربا كما تغنى النساء وهن يزففن العروس الى بعلها وكأن هؤلاء وهؤلاء فرحات بنعمة البقاء والدوام التى تزف على أيديهن لانواع المخلوقات * فاما نوم الزهرات فى أوقات مختلفات فذلك مطابق لعادات الحشرات فالزهرات الساهرات تسهر حشراتها تبعا لها * والنائمة ظهرا أو عند الغروب تكون هذه العادة نفس عادات الحشرات فثبت اذن ان هنا عالما عجيبا ونظاما بديعا وبدائع واعمالا متقنة * وليس الالقاح خاصا بالحشرات فان الرياح تلقح كثيرا من الاشجار * ولذلك نرى أن أزهارها لاجمال فيها ولا بهجة ولا رائحة ذكية ولا عسلا فان الريح لاتحتاج لشئ من ذلك * وانما تؤدى عملها بلا شهوة ولا عقل فترى

شجر السنديان والصنوبر والزان خاليا من جمال الزهر والحلية والزينة فان ذلك كله لا تحتاج اليه الريح ولا نعقله ولو أن الحشرات كانت موصلة للطلع فى تلك الاشجار لجل الزهر وحسن شكله وظهر عسله وذكت رائحته فان الله تعالى لا يخلق الاشياء الا لحكمة ولا حكمة فى جمال لا ناظر له ولا فى طعام لا آكل له ولا فى رائحة لا شام لها وهو هنا الرياح أوليس هذا مصداقا لقوله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) أولست ترى معى ان المسلمين قد قصروا وزادوا فى التقاعد والتقاعس والنوم والغفلة أوليس هذا من مقتضى دينهم (وكيف يفوز الفرنجة) بمعرفة الحقائق التى نطق بها كتابنا وهم لا يعلمون انها فيه ونحن أجهل منهم بحقائقه أفلست ترى ان المسلمين أولى بهذه العلوم وأحق بها * اللهم انى نصحت أمتى وعملت جهدى وما كتمت العلم * اللهم نور بصائر أولى الالباب فيها وأرهم رشدهم واجعلهم نورا وهدى للعالمين اهـ ونختم الكلام فى هذا المقام ونبتدئ الكلام على **(تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض)**

اعلم ان كل هواء هب فانه يسمى ريحا * ومن عجب ان السرعة فى الرياح على مقدار ثقلها فاذا كان ثقلها على القدم المربعة ٧٢ و ٠ من الدرهم كانت سرعتها ميلا فى الساعة وان كان ضغطها ٨٨ و ٢ من الدراهم كذلك كانت سرعتها ميلين واذا كانت ٤٨ و ٦ كانت سرعتها ثلاثة أميال ومعظم سرعة الريح المسماة زوبعة واعصارا والمسماة زعزعا وزعزاعا وزعزعانا ٨٤ ميلا فى الساعة الواحدة للاولى وواحد وتسعون ميلا للثانية وفى النادر ان تجرى فى الساعة مائة وعشرين ميلا أو أكثر

(الزوبعة أو الاعصار)

ريح تصعد فى السماء بالمواد كالعمود تثير الغبار والسحاب وقد تخرب الديار وتقلع الاشجار وتحملها وتذرو أثمارها فى الآفاق فيظن الناس ان السماء أمطرت أثمارا وقد تحدث على وجه المياه وترفع بعض حيواناتها فتمطر ضفادع وأسماكا وهى نتيجة ريحين عظيمتين متقابلتين متضادتين وقد يحدث بسببها ان يثور من السحاب مخروط معكوس تدور به فينحدر من الجو وتثير من البحر مخروطا مستقيما فاذا تلاقى المخروطان حدث ما تسميه العامة بالتنين وقد يكون قطر المخروط مائتى قدم

(عجائب السحاب وحكمه)

تعجب كيف كان السحاب ليس يرتفع عن وجه الارض فى الجو أكثر من ستة عشر ألف ذراع وان أقرب ما كان مماسا لوجه الارض وذلك نادر فى بعض البلدان اذ لو كان السحاب فى كل وقت وفى كل بلد مماسا لوجه الارض لاضر ذلك بالحيوان والنبات وأمتعة الناس كما يرى ذلك يوم الضباب وفى البلدان القريبة من السواحل مثل البصرة وانطاكية وطبرستان لقربها من البحار فبينما الناس فى غفلاتهم اذ فاجأهم الطل والمطر والضباب حتى يضيق الصدر ويأخذ النفس وتبتل الثياب والامتعة ولو كان السحاب دائما قريبا من وجه الارض لاضر الرعد والبرق أبصار الحيوان وأسماعها ولو كان بعيدا شديد الارتفاع فى الهواء حتى لا يرى لكانت الامطار والثلوج تأتى مفاجأة والناس والحيوان عنها غافلون لا يتحرزون فيكون الضرر عاما كما قال تعالى (وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) فتعجب كيف كان السحاب يأتى غالبا عند الحاجة اليه وليس يكون بعيدا جدا فلا نحترس منه ولا قريبا جدا حتى نستضر به فبعده وقربه بحساب وكثرته وقلته بحساب ولو دام متواصلا لقتل الخلائق وكل شئ عنده بمقدار وانظر كيف جعل الله بعض الاماكن يقل فيها المطر ولا أنهار فيها لتكون فاصلا بين الممالك والقارات أو لتكون ملتجأ ومأوى للفارين من الظلم وتكون ملطفة للهواء منقية لجفافها والا لتعفن بتواصل العمران ولم يكن هنالك خلاء نقى (ولما كانت هذه العجائب) لا يفهمها الا العقلاء قال تعالى ان فى خلق السموات الى قوله لآيات لقوم يعقلون

(السحاب والسفن يجريان بالبخار وبالكهرباء)

ذكر الله الفلك فى هذه الآية وذكر السحاب والرياح ولقد تشاركت السفن والسحب فى أنها جميعا تجرى بالرياح وبالكهرباء * لقد أضاءت لنا يا ألله السبل وأريتنا العجب وأسبغت علينا النعم فأريتنا السحاب تجرى بالرياح مسخرات فى جو السماء والهواء يسوقها لسقى الارض فيخرج النبات ويحيى الحيوان * ولقد جعلت بحكمتك الارض والجبال وطبقة الزمهرير الباردة أشبه بالحمام فالشمس المشرقة المحرقة الساطعة على البحار أشبه بالنار فى الحمام وماء البحر أشبه بالماء الذى يسخن فيه والبخار الصاعد من البحار فى الجو أشبه بالبخار الصاعد فى الحمام والجبال الشامخات المانعة للسحب أن تهيم على وجهها بل تحبسها فتسقى المروج والبطائح وراء الجبل كحيطان الحمام الحافظة للبخار والزمهرير الذى يعلو اليه البخار فيبرد فيتجمع ماء فينزل مطرا أشبه بسقف الحمام يتراكم عنده البخار الصاعد فيتساقط * سبحانك ربنا أريتنا ان الجبال أشبه بالسدود وبالحبوس وهى التى يسميها العامة فى مصر بالخزانات تصد الرياح الجاريات بالسحب حتى لا تجاوزها فتحبس المطر أمامها فيسقى الزرع ويدر الضرع والجبل كما يحفظ الماء فى السحاب ان يجاوز البطائح التى أمامه هكذا نراه قد خزن الماء فى جوفه الذى ينزل من المطر أو من الثلج الذى سطعت عليه الشمس فذاب قليلا قليلا وخزن فى باطنه ثم برد فكسر الصخر كما ذكرناه قبلا فكان منه العيون الجاريات وبها تكون الانهار فالجبل حفظ الماء فى الهواء وفى باطنه * اطلع بعض المغرمين بالعجائب على السحب من فوق الجبال الشوامخ فرأوا أن السحابة قد تبلغ قاعدتها عشرين ميلا مربعا وسمكها ميل ورأوا السحب صاعدة من الحضيض جارية الى تحت أقدامهم * ومن السحب مالا يزيد سمكها عن عشرين قيراطا وأدنى السحب ما كثرت فيها الكهرباء ومسير السحب الرياح غالبا * وكثيرا ما شوهد زمن سكون الرياح سحائب صغيرة متقابلة تجاذبت وكانت احدى المتقابلتين كهربائيتها موجبة والأخرى سالبة فتقابلتا بذلك التجاذب * فانظر كيف أمر الله الكهرباء ان تقوم بتسيير السحاب اذا ركدت الرياح فجرت تلك السحب * ثم كيف كانت السفن فى البحار تجرى بالرياح كالسحاب واستعملت الكهرباء أيضا فى تسييرها وجريها فى البحار * أفليس حب الله الذى سأشرحه لك فى المقال الآتى يوجب على المسلمين أن يأخذوا بأسبابه وأسبابه كما سترى هو العلم بما صنعه المبدع الحكيم والانتفاع به وقبول نعمه بالعمل ويكون ذلك هو الشكر * أرسل الله سبحانه الكهرباء فسخرها لجرى السحاب فجاء الانسان ونظر صنعة ربه فقلده ونقلها الى السفينة ان ذلك يا الله قبول منا لهديتك وشكر لنعمتك ألا وانى أشهد انا معاشر المسلمين مقصرون فى حبك والاطلاع على عجائبك والولوع والغرام بمصنوعاتك * جرت السفن فى البحار تارة بالرياح وتارة بالبخار وآونة بالمجاديف التى يقاوم الانسان بها الماء فتسير الى الامام وقد سلط الانسان الطاقة الكهربائية المتولدة من الطاقة (الميكانيكية) (الحيلية نسبة لعلم الحيل) لما يسمونه بخار التربية على محركات السفينة وهى المجاديف أو الرفاصات وقد أسفر ذلك عن نجاح باهر كما ذكرته المجلات الانجليزية فجرت السفن كما جرت السحب بالكهرباء وبالرياح والبخار المتولد من الماء والحرارة بالفحم أو غيره كالهواء فى ضغطه فهو ملحق به معنى * فسبحان الذى علم الانسان مالم يعلم * ولقد جعلت يا ألله حركات الماء كلها بركات فاذا جرى فى الأنهار كانت قوة اندفاعه من أعلى كما فى خزان (سد او عرم) اسوان بمصر فيها قوة لو استعملت لولدت كهرباء أجرت جميع القطرات فى البلدان ولانارت جميع القرى والمدن ولاغنتهم ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه فالحركة تولد الكهرباء بحيل علمية كما تكون منها الحرارة ومن الحرارة الضوء وهكذا والماء بلطافته يندفع بخارا فيجرى السفن والقطرات فهو ماء مبارك ونعم عظيمة فتبارك الله أحسن الخالقين * ولقد جعلت يا ألله هذه السفن الماخرات فى اليم فى حاجة الى النجوم السيارة يعرفها العاملون فيها بجداول حتى يلاحظوها فى أسفارهم ومعهم البوصلة وهى بيت الابرة المعروف تكون فيه تلك الابرة المغنطسة الناظرة فى اتجاهها الى الشمال والى الجنوب كأنها تقول اذا غاب النجم الذى به تهتدون كما قال الله (وعلامات

وبالنجم هم يهتدون) فانا أقوم مقامه وأهديكم في ظلمات البحر لان هداية الله تعم سائر الاقطار بالليل والنهار والظلمة والنور * فعلم الكواكب وتقويمها من النعم والبخار من النعم والكهرباء من النعم وحركات الماء من النعم وعموم الكهرباء في أجسام كثيرة من النعم كل ذلك والمسلمون نائمون كان هذا القرآن جاء لغيرنا وكأننا من سكان المريخ وكأن الذين يعقلون هذه الآيات غير المخاطبين فاليك يا الله أضرع ان تقر عيني باستيقاظ المسلمين ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ان ذلك هو الحب فالحب والعشق والشوق كلها ترجع للعلوم ولذلك ذكر آية الحب بعد هذا فقال

(المقصد العاشر)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ *

(ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا) أي من الأصنام والرؤساء (يحبونهم) أي يعظمونهم ويطيعونهم أو يميلون اليهم (ولو يرى الذين ظلموا الخ) أي لو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الانداد اذا عاينوا العذاب يوم القيامة أن القوة لله جميعا لندموا أشد الندم وقوله (اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) بدل من اذ يرون * والأسباب هي

الصلات التي كانت بينهم في الدنيا وقال (الذين اتبعوا لو أن لنا كرة) لو للتمني وجوابه فنتبرأ منهم والحسرات الندامات وقوله (يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا) نزلت في قوم حرموا على أنفسهم أحسن الاطعمة والملابس (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) لا تقتدوا به في اتباع الهوى تحريما وتحليلا والشيطان هو الشهوة والغضب عند قوم أو هو مخلوق حي يوسوس للناس وهو ظاهر الأحاديث (والفحشاء) ما أنكره العقل (واذا قيل لهم اتبعوا) أي اذا قيل للعرب اتبعوا القرآن جنحوا الى التقليد وهكذا اليهود * وقوله أولو كان آباؤهم والهمزة للتعجب * وهذه الآيات تدعو الى التنفير من الانقياد الاعمى للزعماء ذوي الاغراض الساقطة كملوك الاسلام السابقين في الدول الاسلامية فان كل من أغرى قوما بما لا ينبغي ثم وقعوا في العذاب اما في الدنيا بالأسر وغيره واما في الآخرة بجهنم تبرأ المتبوعون من التابعين وندم التابعون على انقيادهم الاعمى * وهذا هو الداعي لتأليف مجالس الشورى في الاسلام لان القادة لا ينفعون الناس في الحساب الدنيوي ولا الاخروي ويقع الذل على الامة فتارة يفتكون بالقادة كما حصل في اليونان أيام تأليف هذا الكتاب قتلوا وزراءهم لما أوقعوهم في حرب كانت عليهم وبالا وتارة ينجو الرؤساء كما هو غالب في العالم مثل ولسن في أمريكا أضر بامته في الصلح وخانهم ولم يقتلوه وقوله ومثل الذين كفروا الخ أي مثل داعي الذين كفروا الى الايمان كمثل الراعي الذي ينعق بغنمه وهي لا تسمع الا دعاء ونداء فهي لا تعقل * وقوله انما حرم عليكم الميتة أي أكلها والدم وقد كانت العرب تجعل الدم في المصارين ثم تشويه وتأكله فحرم وقوله وما أهل به لغير الله يعني ما ذبح للأصنام * وقوله فمن اضطر غير باغ بان يستأثر به دون المضطرين معه ولا عاد أي متجاوز سد الرمق أو غير باغ على الوالي ولا عاد بقطع الطريق فلا اثم عليه (هنا أبان) ان دين الاسلام دين أساسه العلم وعماده النظر وسقفه الحكمة فمن قلدوا في أعمالهم وآرائهم فأولئك هم الضالون اذ يتبرأ المتبوعون من التابعين وقد أحاط بهم العذاب وتقطعت بهم الاسباب * وقال التابعون لقد ظلمتمونا بأقوالكم وآذيتمونا بافككم وياليت لنا كرة الى الدنيا ورجعة الى الحياة فنتبرأ منكم كما تبرأتم منا وهذا المقام سنوفيه حقه قريبا بشدة حاجة الامة الاسلامية اليه في هذا الزمان * وأكثر الناس في الحياة صم عن أن يسمعوا النداء عمي فلا يستطيعون الاهتداء فهم لا يسمعون ولا يبصرون واذا قيل لهم انظروا بعقولكم واتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما كان عليه الآباء أيكون ذلك ولو كان الآباء لا يعقلون ومن ذا الذي يقتدي بالعميان قتل الانسان ما أشد جهله وأقل علمه * ولعمرك ما حرمت الانعام وانما حرمت الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذكر اسم غير الله عليه ويحل ما حرم من ذلك للمضطر اذا لم يبغ على الرفقة الآكلين فيأكلون ولم يجاوز الحد فيملأ المعدة ولا يجتزئ بما يسد الرمق فهذان محرم عليهما الرخصة شأن الامم اذا نأجلها وذهب مجدها ان تستبدل الترهات بالحكمة وأقوال الدجالين بالعلم كأهل سبأ اذ بطر ظاهرهم بجانب عرمهم لما أعرضوا عن حكمهم وجهلوا نظام العمران وهندسة البنيان وهكذا العرب الجاهلون لما طال عليهم الامد وقست قلوبهم نسوا دين ابراهيم وماتت عقولهم وذلت نفوسهم وتخطفتهم الامم المحيطة بهم من كل جانب لولا حمية جاهلية وشنشنة عربية فكانوا يحللون ويحرمون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير والمسلمون اليوم حذوا حذوهم واتبعوا خطوات غيهم واعتزلوا عقولهم الا من رحم ربك ولذلك أنزل الكتاب لهم (ولنلخص الكلام) على مقامات ثلاثة في هذه الآيات المقام الاول الحب الثاني الرؤساء والمرؤسون الثالث الحلال والحرام

(المقام الاول (الحب والعشق والشوق وما معنى حب الله)

اعلم أن كل ما حولنا ونشعر به ونعلمه بالنسبة لنا ينقسم قسمين موافق ومنافر فكل موافق أحببناه وكل منافر كرهناه فالحب والبغض تابعان للموافقة والمنافرة لا فرق في ذلك بين الطيور في وكناتها والآساد في آجامها والحيات في أوكارها والنحل في بيوتها والناس في منازلها والملوك على عروشها والأنبياء والحكماء قاعدة عامة لا يشذ منها حي في العالمين الحرير والورد والعسل والصور الجميلة والنغمات الموزونة مع الاصوات الحسنة نحبها لموافقتها لحاسة اللمس

والشم والذوق والبصر والسمع * والشوك والروائح الخبيثة والحنظل والصور القبيحة والاصوات المنكرة تكرهها لمنافرتها الحواس المتقدمة على الترتيب المذكور فهذه عشر صور خمس للمكروهات وخمس للمحبوبات وهكذا سائر ما حولنا من الناس والدواب والمعادن والنبات ملحق بهذه العشرة مقسم الى هذين القسمين

الخيال والتصور

ثم اننا اذا غابت عنا تلك الصور الجميلة والنغمات اللذيذة والمطعومات الحلوة والمشمومات المرغوبة فانا نتصورها بقوة الخيال ونستحضرها فى العقول ونتذكرها ولنا فيها آرب شتى هناك فنستلذ بحضور صورها كأنها مشاهدة أو بالاستنتاج من أحوالها أو بتذكر ما كان منها وهذه لذة تحاكى لذة الاحساس ولكنها أضعف منها وهكذا الصور المكروهة نتصورها فتؤلمنا كانها حاضرة ولكن الالم يكون أقل لان هذا خيال وذلك حقيقة

﴿ العلم ﴾ ثم اننا لا نقتصر فى الحب على المشاهد فاننا نحب المحسنين فى أى ملة ودين ونحله ونحب الشجعان الذين حكيت لنا قصصهم وتواريخهم ونحب الحكماء والعلماء وأرباب الجمال وان لم نشاهدهم * فاننا نرى ان العامة الذين يسمعون قصة عنترة يهيمون غراما بعبلة وبزوجها ولا يهنأ لهم طعام ولا شراب الا بذكر تلك الاسماء ومدحها واعظامها واجلالها * نرى المتعلمين العصريين يحبون نابليون لشجاعته وهمته * نرى فريقا من الناس يحب عيسى وفريقا يحب بوذا وفريقا يحب موسى وفريقا كونفسيوس كل ذلك تابع للعلم بتاريخهم والاطلاع على عملهم فالشجعان والعلماء محبوبون والمحسنون والصابرون والصادقون ان ذلك راجع للجمال العقلى وكل ذلك لموافقته لفطرنا ونفوسنا ونحن نكره المخربين للامم وننفر منهم مثل نيرون وقراقوش الظالمين ونكره الجهال والجبناء والكسالى لان ذلك لا يوافقنا ﴿ وبالاجمال ﴾ المحبوب والمكروه يكونان فى المحسوس والمعقول بهذا البرهان وبهذا تبين ان المحبة والبغض تابعان للعلم والعلم اما محسوس أو معقول

﴿ العشق ﴾ فاذا ما تمادى الانسان فى حب شئ ودام على ذلك وغفل عما عداه وصار هو همه الشاغل له كان ذلك عشقا * فالعاشق يكون مولعا بمعشوقه لا يحب أن يفارقه * والعشق الانسانى الذى هو المظهر المحسوس معروف متداول بين الناس والجمهور لا يفهم من العشق الا هذا المعنى مع انهم يجدون التاجر الذى نسى كل شئ الا تجارته والصانع والمزارع والقائد والعالم والمهندس الذى خلبت الهندسة عقله وسلبت لبه حتى لا يرى أجمل الصور أمامه لشدة شغفه بالهندسة فنحن نسمى المهندس والطبيب والتاجر والقائد الذين سلبوا حب كل شئ الا ما هم فيه من هندسة وطب وتجارة وحرب نسميهم عشاقا * اذ القاعدة فى الحب والعشق ان ننظر الى ما فضل على ما سواه عند المحب العاشق ونقيس نفسه بمن جلس على مائدة وأمامه التفاح والموز فننظر الى أيهما تمتد يده فلا شك انه يقدم عند الاكل أشهاهما لنفسه فنقول هذا يحب الموز أكثر من التفاح مثلا هكذا اذا رأينا رجلا يحدث الجليسين ويقبل على أحدهما بوجهه أكثر * علمنا أن حبه له أكثر من حبه للآخر * ونرى الشاب القوى البنية له خطيبة جميلة مرغوبة قد يفضل السفر والغربة الى أوروبا ليحيي قلبه بالعلم ويتحمل مضض الفراق فنحكم بأن هذا الشاب فضل العشق العقلى وهو الرقى فى الحياة على العشق الحسى * علمنا من هذا أن الحب يكون للعلم وللقدرة التى هى الشجاعة وللاحسان وللجمال * فالعالم محبوب والشجاع محبوب والمحسن محبوب والجميل محبوب

﴿ حب الله ﴾ وعند النظر فى هذه العوالم المشاهدة والتأمل فى جمالها وبهائها نجد هذا الجمال والبهجة والحسن فى الورد والزهر والشمس والقمر والكواكب والنجوم وجميع الصور الجميلة الخالبة للعقول الجاذبة للنفوس انما هى نقوش فى هذه المادة والصور لها أجمل منها وهى مظاهر ذاته كما يقول الصوفية وكما رأيت فى كلام سبنسر وهكذا علم العلماء وحكمة الحكماء ونبوة الانبياء انما هى من عنده فهذه العوالم المشاهدة تدلنا ان صانعها أقدر من نابليون وعنترة * وأعلم من عيسى ومحمد والجمال لعزة وليلى من جماله فالجمال له والعلم له والحكمة له والقدرة له ونحن قد

قررنا ان الحب يكون على مقدار الموافقة * ولو أن المحبوب كان جميل الصورة حسن النغم حسن الخلق عطر الرائحة فصيحاذكيا عالما لكان ذلك فوق كل جمال ومن عرف هذه الصفات فيه غاب عقله وفنى فيه وأصبح هائما بل ربما سلب لبه وعقله هذا عند المدرك له لان من ذاق عرف ومن عرف أحب ومن زاد حبه عشق ثم يكون الوله والفناء * فاما من قل ادراكه فانه لا يعرف الا على مقدار ما وصله ألا ترى ان الأعمى لا يدرك الصور الجميلة والاصم لا يعرف جمال النغمات فهذان لا يمكن ان يعقلا أو يتصورا صور الجمال وبهجة النغمات فالمدار على المعرفة في المحبة ومن جهل شيئا عاداه ولذلك نجد الامم تنشر لغاتها وعاداتها بين الناس لتحب * فاما المجهول فهو منبوذ فمن تحقق في الله انه هو المتصف بالجمال والقوة والعلم والاحسان ذابت أمامه صورة عزة وليلى ورأى عنده من العلم والقدرة والاحسان مالا يدانيه علم عالم ولا نبي ولا حكيم ولا احسان محسن ولا قوة شجاع وحينئذ يصبح هائما في جماله وعلمه وقوته واحسانه أكثر من كل جميل عالم مقتدر (وأن الى ربك المنتهى)

﴿ الشوق ﴾ قد قدمنا أن المحبوب اذا غاب عن عياننا حضر بصورته في خيالنا ونقول الآن ان هذه الصورة تحثنا أن نستكمل مشاهدتها لان حضور الصورة في الخيال ناقص والنفس تحب أن تتمتع بالرؤية التامة وهذا هو الشوق فالمشوق حاضر بعضه غائب باقيه والنفس لا تفتأ تجد في نستكمل التمتع بالجمال وعلى ذلك نشتاق الى المحبوب لنراه ونستكمل المشاهدة وهكذا اذا نظرنا وجه المحبوب تطلعت النفس الى بقية جماله وما خفي وراء ذلك * فالمطلوب للمشتاق اما غائب كان حاضرا واما حاضر ستر بعضه فهو يود استكمال باقيه بالمشاهدة ليكمل له ما أراد

﴿ الشوق لله ﴾ ولا جرم ان هذا العالم المشاهد بهجة وجمال وحسن وكمال فالكواكب بحساب والنبات منظم عناصره الداخلة فيه وكل شئ بمقدار في هذا العالم ومن ينظر ليلا للنجوم يجد من البهجة والحسن والنضارة ما يذهل عقله وانما غاب هذا الجمال عن الجهال لانهم أشبه بالعميان أمام الغادات الحسان وبالصم عند سماع الاوتار في أيدي القيان ولم تفتق لهم الحاسة التي بها يدركون * ومن الموانع لمعرفة هذا الجمال انه مبذول لكل انسان * ولقد قدمنا في هذا التفسير ان أكثر النوع الانساني عبيد العصا فاذا قرعهم الله بعصاه وأدبهم وأنزل عليهم البلاء ثم نفعهم رحمة من عنده حمدوه لانهم لا يعرفون النعمة الا بعد البلاء كالحيوانات العجم هكذا لا يعرفون الجميل الا اذا اختبأ عنهم وترفع فحينئذ يعز عليهم ويعظم في أعينهم فاما المبذول لهم فهو مبتذل والسماء وجمالها أجل من الجواهر واليواقيت والصور البديعة المعلقة في القصور ولكن الناس لجهلهم وقصورهم لا يعقلون من الجمال الا ذلك الحقير الذي في قصورهم أو دورهم كالدرة والمرجانة * ولعمرك ليس في الاحجار الثمينة من الجمال الا أثره بالنسبة للكواكب (وقال الامام الغزالي) ما معناه

ان الناس لا يفرحون بالكواكب لانها مبذولة لهم وهي لا نسبة بين جمالها وجمال الحدائق الغناء في الارض وتراهم اذا رأوا حديقة قد منعوا من دخولها ازدحموا عليها الا انهم مغرمون بالممنوع معرضون عن المبذول (أقول)

ولذلك قل الانبياء والحكماء في نوع الانسان الذين أدركوا الجمال وتفرغوا لهداية الناس فهم المغرمون بالعجائب لانهم عرفوا واشتاقوا فشوقهم لله يحثهم على البحث في جمال العالم ولا يزالون يجدون وكلما وصلوا الى جمال طمعوا فيما وراءه ولهذا نجد الحكماء يقرؤن سائر العلوم وهي حقيقة الجمال ثم يطمعون فيما وراء ذلك من المباحث بافكارهم ويجدون لذة لا يعرفها سواهم كما لا يعرف الأعمى جمال الصور ولا الأصم حسن النغمات فهؤلاء مدفوعون بحب الجمال هائمون وكذلك يريدون أن يستكملوا الجمال فانهم في هذه الدنيا مغمورون في المادة يقرؤن العلوم وينظرون جمال النجوم ويعلمون أن ذلك قشور وأنهم بالموت أو بالتجرد من المادة يطلعون على حقيقة الجمال ولا يزالون يجدون في تصفية نفوسهم وتقوية ملكاتهم حتى اذا ماتوا وصلوا الى الجمال الحقيقي كما ان العاشق اذا قابل من أحبه تمتع بالجمال الا كمل فههنا طلب العاشق الامرين زيادة الاطلاع على الجمال وحضور ماغاب من المحبوب كما في العشق المادي الذي شرحناه (ان الناس) مغمورون في الجمال من شمس وقمر وكواكب وعلوم ورياض ناضرات وحقول بهجات وأكثرهم نائمون فتبين أن حب الله راجع الى الغرام بالعلم والغرام بالعلم يرقي الأمم (ونتيجة القول) ان حب الله قليل بين

المسلمين لانهم عن العلم معرضون وبالجهل قانعون * ولقد اكتفى الصوفية الصادقون منهم بمحبة الله الجزئية لا الكلية وبالة توح فى الدوائر التى خلقوا فيها من تهذيب الاخلاق أونحوها وهذا والله قصور وعيب فالعلم بالتعلم وحرام على رجال الصوفية أن يقصروا فى حث تلاميذهم المستعدين على قراءة العلوم الغربية والشرقية والتفكر والتعقل وليكن ذلك على مقدار الاستعداد * حب الله يرقى المسلمين و بالاعراض عن حبه وجهلهم به أصبحوا عرضة للطامعين فأين حب الله أيها المسلمون وما الحب الا نتيجة العلوم فأين العلوم وأين الحب انا لله وانا اليه راجعون

(عجيبة) لعلك أيها الفطن تقول وهل قوله تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله يفيد هذا الذى أطلت به (أقول) على رسلك لماذا جاءت عقب قوله ان فى خلق السموات والارض الخ أعنى لماذا ذكرها الله بعد أن ذكر السماء والأرض والليل والنهار والسفن والنبات والحيوان والرياح والسحب هل هذا الترتيب لغير فائدة كلا وانما يقول ان حبى تبع للعلم فعلى مقدار العلم يكون الحب فتعجب من الترتيب العجيب و بهذا فلتعرف معجزة الأنبياء فلعمرك انها المعجزات دائمة * وقال ابن الفارض فيمن غرتهم العلوم اللفظية وأعرضوا عن الحقائق

ولاتك ممن طيشته دروسه * بحيث استخفت عقله واستقلت

(وقال شكسبير الانجليزى شعرا وقد ترجمته من قبل الى العربية)

اذا كان هذا الكون يكلؤه الذى * يراه فأولاه الجمال وتمما

فما ذا يراه عاقل غير أنه * قصور جنان الخلد رصعن أنجما

وقال سنيكا الرومانى * ما أعجب أمرك أيها الانسان وما أشد غفلتك * لو أن امرأ وهب لك أيها الانسان قطعة من أرض محدودة لشكرت نعمته ولأوليته حمدا كثيرا * أولم تعلم ان الله وهب لك الأرض بأقطارها وفجاجها المتسعة الارجاء البعيدة المدى فهلا شكرته عليها وهلا عرفت نعمته * ولو أن امرأ وهب لك نقودا من ذهب أو فضة لأكبرت فضله ولأجللته أعظم الاجلال أولم تعلم ان الله قد خزن لك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فى الجبال أفلا شكرت نعمته وأعظمت آلاءه * ولو أن امرأ أهدى لك بيتا جميلا لما حسبت انه خير المحسنين ولكنت مولاه ورهين احسانه مدى الحياة * أفلا تعرف نعمة الله عليك فى هذا البيت العظيم الذى أعطاكه سقفه القبة الزرقاء المرصعة باجمل الدرارى وأسفله هذه الارض التى تسكنها ألم تر الشفق والبدر المنير قل لى بحقك من أين جاء النور لعينيك ومن ذا وهبك الدم فكنت به حيا أولم تحس بالجوع فأكلت فعرفت فضل الله عليك ألم يهب لك أنواعا من الانعام وأصنافا من الحيوان غذاها بالكلا وقواها برعاها * أيها الانسان احمد الله الذى خلقك ولم تكن شيئا مذكورا وأخرجك من الظلمات وجعل لك نورا هذا كلام (سنيكا الرومانى) وذلك كلام (شكسبير الانجليزى)

أيها المسلمون أفلسنا نقول لهم نحن أحق بالله منكم نحن أرباب الديانات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام فكيف يكون منهم من يهيم بفعل الله تعالى و يقل فينا مثلهم اليوم * نقلت لك كلام (سبنسر) وهو فيلسوف الانجليز واللورد (افيرى * وسنيكا * وشكسبير) فى مواضع مختلفة أفليس المسلمون أولى بالعلم منهم هؤلاء عرفوا العلم بعقولهم ونحن لنا عقول ولنا نبى منا وقد جاء فى القرآن يحبهم ويحبونه وجاء هنا ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وانما كان الذين آمنوا أشد حبا لله لانهم هم الذين يعرفون العلوم فيدركون جماله وأين المدركون الجمال الا القليل وسيكثر فينا هؤلاء ان شاء الله نعم فينا محبون عاشقون لله من طائفة الصوفية ولكن يجب أن يكون طوائف من المسلمين منهم أو من غيرهم تدرس هذا الوجود كما درسه غيرنا فان التقصير فى ذلك نقص فى حب الله وعيب فاضح فى الأمة والله هو الولى الحميد (ومن الغرام) بالجمال والعلم والحكمة والنظام الذى امتاز به الناس عن الحيوان وازداد به الحكماء عن العامة ما جرى أثناء تأليف هذا التفسير من ذلك الحادث الجليل العجيب المدهش الذى ارتجت له الارض وتجاوبت بذكراه أصداء البرق وخرت لعظمته الفحول من الحكماء سجدا وصار موضوع اعجاب العامة والخاصة ذلك هو كشف مقبرة بالوجه القبلى من بلادنا المصرية لملك تولى

عرش مصر العليا والسفلى سنة ١٣٧٥ قبل الميلاد يسمى (توت عنخ أمون) فيكون قد مضى عليه نحو (٣٢٠٠) سنة ووجدوا بها من التماثيل والاحجار الثمينة والصناعة الدقيقة مالا نظير له في عصرنا وفي هذا الكنز طعام وفاكهة تملأ خمسا وعشرين حقيبة لاتزال حافظة شكلها وفيه مركبات (عربات) مرصعة باحجار ثمينة وعليها كتابة هيروغليفيه ومتكآت وثياب رقيقة وتيجان مرصعة باحجار ثمينة مختلفة وعلى كل تاج ثعبان عجيب وهناك من الادوات والزينة ودقة الصنعة مالم يحصر عند كتابة هذه الأسطر * وقال العارفون ان جمال الصنعة والاتقان في هذا الكنز أظهرت أن اليونان والرومان كانوا أطفالا بالنسبة لما شوهد في هذه العجائب * ان جميع العالم في الشرق والغرب دهشون والكاشف له رجل انجليزي مغرم بالعلم والبحث فيكون هذا من أنواع الغرام بالجمال والحكمة والصناعة والرجل صرف مالا كثيرا لغرامه بالعلم وقضى سنين وليس له من الكنز الا نشر العلم * ولعلك تقول ما لتفسير القرآن ولهذا الحادث * أقول نحن الآن في مقام حب الله تعالى وقد قررنا ان حب الله بدء والبحث في جمال صنعته واتقانها وكلما ازددنا بحثا ازددنا سعادة

وعلى تفنن واصفيه بحسنه * يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

فاذا رأينا الناس يقدسون هذا الملك المصري لظهور آثار دولته واتقان صنعته فذلك الا لمنعها عن الناس واحتجابها قرونا طويلة فافتتن الناس بما منع عنهم كما قدمنا في شأن الناس انهم يهرعون الى مابعد عنهم

أما جمال الله وصنعته فهما مكنونتان في جمال النجوم والقمر والشمس والنبات والحيوان وما الذهب الذي زين به عرش توت عنخ أمون الاقطع مما كنزه الله في الجبال للناس فلما كان هذا شأن الناس في كل جيل لا يفرحون الا بالممنوع المحبوس عنهم غفل أكثرهم عن جمال الصنعة الالهية ولم تفتح عين أحد منهم الى مشاهدتها الا الحكماء من كل أمة فأولئك لايزالون يفكرون و يبحثون و يعقلون وهم يزدادون عشقا وكلما افتتحوا كنزا ازدادوا شوقا حتى يبهرهم الجمال و يفنوا بأرواحهم في البهاء والنور والعرفان فلئن بهر الأمم اليوم مقبرة ﴿ توت عنخ أمون ﴾ فالحكماء كل يوم من ذلك كنز جديد وغرام وعشق وشوق يزداد جدة ومايعقلها الا العالمون * وقد صور الله الوجوه الجميلة وأبدعها في منظرها البهيج يزوق عقول الحكماء بأنواع الجمال العلمي وألهم الصناع النقش والتصوير وذوي الاصوات الجميلة التفنن في الألحان وضرب العيدان الشجية الاصوات وحكم على كل عالم وصانع أن يودع علمه وصناعته بطون الكتب والطوامير والدفاتر وأمر الملوك السابقين بالقضاء الحتم أن يتركوا آثارهم لمن يأتي بعدهم ان كل ذلك الا لتتزين بتلك الالوان من الجمال عقول الناظرين في الجمال السامعين للنغمات القارئين للعلم والحكمة المطلعين على الآثار القديمة تمرينا على قبول الحكمة وتشويقا الى الازدياد منها فلا تظنن ان الله ألهم القدماء ان يفعلوا هذا الا لحكمة دبرها وعدة أبرزها فالجمال المنظور والمقروء والمسموع يحدث جمالا عند الناظر والقارىء والسامع وذلك كله تمهيد وتشويق للاطلاع على الجمال الاعلى الذي لا يعقله الاقليل فالجمال الأدنى داع الى الجمال الأعلى فاذا كان الناس يسمعون النغمات و يرون الصور الجميلة و يهرعون الى رؤية مقبرة الملك ﴿ توت عنخ أمون ﴾ فذلك الامقدمة لفهم (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر الخ) ففهم المقبرة والصور الجميلة والنغمات والصناعات يشترك فيها أكثر الناس ولكن هذا العالم لا يعقله الا العالمون (بكسر اللام)

(الموضوع الثاني)

﴿ الرؤساء والمرؤسون ﴾

اعلم أن الامم والافراد على قسمين قسم تفانى في شهوات نفسه وتعامى عن المصالح العامة ولا يعامل سواه من الامم والافراد الا لحظ نفسه فترى الامة تذكر الحرية والمساواة والعدل ثم تسوق تلك الاقوال الى احياء أنفسها بذبح الامم الضعيفة وهذا هو الذي عاشت به بعض الامم الغربية بل أكثرها وترى الافراد الذين هم أصحاب رؤس الاموال أبدا

لا يوفون العامل أجره ولا ينصفونه فى المعاملة فيقف الوزير وفى يده اليمنى سيف مصلت وفى يده اليسرى ذهب مضروب ويقول لرؤساء الامم الضعيفة ان أطعتمونى أعطيتكم هذا الذهب وأدخلتكم فى مصاف الامم العظيمة مثلى وان عصيتمونى سلطت عليكم سيفى هذا فمن أطاع من الامم الضعيفة الشرقية ودخل فى حوزتهم عاملوه معاملة الحيوان أو انزلوه منزلة الجماد ومن عصاهم أرغموه بالسيف فان قاومهم أصبح محترما معظما وعاملوه بالاكرام معاملة الانسان للانسان * ويقول أصحاب رؤس الاموال وفى أيديهم اليمنى سيوف مصلتة لطرد العمال من أعمالهم وفى أيديهم اليسرى دريهمات يعطونها أجرة * ويقولون أيها العمال ان أطعتمونا أعطينا كم هذه الدريهمات لتعيشوا بها وان عصيتمونا طردنا كم فان اتحد العمال وقاوموا نالوا حظا وان أطاعوهم طحنتهم رحى الاغنياء وباؤا بالنكال

(أما الامم الضعيفة) فأولئك اذا أسلموا الرؤساءهم وقد ملك الجبن أفئدتهم وسلط عليهم الظالمون من الامم القوية أنواع النعيم والحظ وغمسوهم فى الترف وزجوهم فى الهوى والفسوق فلاشك أنهم يكونون على الامم المسكينة أشد بطشا وأعظم خطرا من كل مصيبة وحينئذ يصبحون صعيدا جرزا تذروه الرياح وتعاملهم الامم القوية معاملة الانسان للدجاج وللحمام تذبح أبناؤها وتحقر شأنها فهؤلاء الرؤساء لا يزالون للظالمين ناصرين وللظالمين آكلين حتى يأتى أجل هذه الامة وتندمج فى الامة الغالبة فيقول رجالها للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا فيقولون ان الله قد حكم علينا ويتبرأ الرؤساء من المرؤسين ويقول كل منهم نفسى نفسى حين يرون العذاب المحيط بهم فيقول التابعون ليتنا تداركنا أمرنا وعصينا سادتنا وكبراءنا وقال تعالى واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد وقال سبحانه وتعالى فى سورة أخرى وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا الآية وفى سورة أخرى قالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا وآيات كثيرة فى هذا المعنى * اياك ان تظن انى أجعل معنى هذه الآيات التى هنا فى أحوال الدنيا ان هذه الآيات واردة فى أحوال الآخرة حقا وان الرؤساء والمرؤسين يتجادلون ويقع العذاب على الجميع وكل مسئول لا فرق بين رئيس ومرؤس هذا لا شك فيه ولكن الآخرة صدى صوت الدنيا والناس قد نراهم فى الدنيا على هذه الطريقة سالكين فالرؤساء والمرؤسون قد مثلوا هذا كله لا سيما فى أمم الشرق * وبعبارة أخرى هذه سياستهم وهذا هو الذى رأيناه * وقد قال تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى) فهذا وحقك هو العمى فى الدنيا وسيكون العمى فى الآخرة ويبقى الاحتجاج متصلا والظالمون والمظلومون فى الدارين يتجادلون وكل يجعل الذنب على صاحبه * أفليس هذا مما يوجب أن يكون الامر شورى بين المسلمين * أوليس ما جرى به المسلمون من استيلاء الرؤساء على أمورهم كافيا فى الرجوع الى القرآن وينظر فى سياستهم من هم أهل للحل والعقد منهم ويجعلون بين أصحاب الاموال وبين العمال مودة ورحمة وقانونا يتفق مع المصلحة العامة حتى لا نقع فيما وقع فيه أهل الغرب فكانت البلشفية فليكن العدل قائما كأيام عمر * أوليس ما تفعله الفرنجة معهم من أنهم يعرضون عليهم عذابا وجهنم فى ايمانهم ونعيما وجنة فى شمائلهم وان من أطاعهم عذب ومن عصاهم ينعم بالحرية أشبه بما ورد فى صفة المسيخ الدجال ان من أطاعه ودخل جنته وجدها نارا ومن عصاه ودخل ناره وجدها جنة * أليس هؤلاء قد لبسوا لباس المسيخ الدجال * ولست أقول انهم هم نفس المسيخ ولكن أقول هم جنوده هم أتباعه هم تلاميذه * الدول الظالمة القوية المنتشرة فى الشرق هى هى المماثلة لذلك المسيخ هى هى التى نقول فى صلواتنا صباحا ومساء (اللهم انى أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيخ الدجال) أو يظن المسلمون فى الشرق والغرب ان الصلوات التى تكرر صباحا ومساء وأدعيتها جاءت لغير معنى فتكون أقل من الحرف فى أقسام الكلمة (لانه جاء لمعنى) فكيف يكون لنا نبى ولنا عقول وأسماع وأبصار ونكرر الالفاظ ولا نعقل لها معنى * قدمت لكم انا نذكر ابراهيم الخليل ونصلى عليه فى كل صلاة كما نصلى على نبينا لنتذكر تكسيره للاصنام ورجوعه للعقل ونبذه التقليد ثم النظر فى العالم العلوى والسفلى وهكذا مما

ذكرناه

ذكرته هناك عند قوله تعالى (ومن يرغب عن ملة ابراهيم) فارجع اليها فهكذا أقول هنا هل ذكر المسيخ الدجال لغير معنى ياقوم ان الدجالين قد أحاطوا بالعالم الانسانى فالرؤساء الذين استعملوا الشعب لشهواتهم دجالون والامم التى تغوى أولئك الرؤساء دجالون وأصحاب رؤس الاموال الظالمون للعمال دجالون والمنافقون والمخادعون والمخلفو الوعد دجالون ولا كرر القول كرة أخرى انهم ليسوا هم المسيخ بل أتباع وجيوش أو أشباه أوقل ماتشاء وانما هذا قصد الدين من الدعاء

طلب الله منا فى الصلوات أن ندعوه أن يخلع ربقة الكاذبين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل وهذا هو المقصود من ارسال سيدنا محمد رحمة للعالمين * يريد الله أن نكون خير أمة أخرجت للناس كما تقدم عند تفسير هذه الآية وأن نكون أمة عدلا وأن نكون الرحمة التى أرسل لاجلها نبينا ممثلة فينا ثم نبثها بين الامم فنبتدئ بالرحمة فى عشائرنا و يسود الحب بقدر الامكان و يمتنع الفحش والجرم من بلاد الاسلام ونكلأ العاجزين من الفقراء من مال الاوقاف والصدقات فلا سائل من المتسولين فى مصر والاستانة وعواصم الاسلام ونجعل كل قادر على العمل مشغولا به فلا بطالة ولا كسل هـذا هو الذى سيكون فى مستقبل الزمان (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) وهذه الامة التى تفعل ذلك هى القسم الثانى المقابل لقسم الظالمين فى أول هذا المقال

(القسم الثالث فى هذه الآيات الحلال والحرام)

أجمعت الامة على تحريم أكل الميتة وعلى نجاستها * واستثنى الشرع السمك والجراد والسمك الميت الطافى على وجه الماء حلله الشافعى وكرهه أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن جنى وحرمه سيدنا على وابن عباس وجابر بن عبد الله * وأباحه أبو بكر الصديق رضى الله عنه * وقال أبو حنيفة فى الجراد يحل ما أخذته وما وجدته ميتا وحرم مالك ما وجد ميتا ولم يحل عنده ما أخذ حيا الا اذا ذكاه مثله بان يقطع رأسه ويشوى فان غفل حتى يموت فلا يحل واتفق العلماء على ان الدم حرام نجس لايؤكل ولا ينتفع به وحرم الشافعى جميع الدماء المسفوح منها وغير المسفوح * وقال أبو حنيفة دم السمك ليس بحرام قال لانه اذا يبس يصير أبيض واستثنى الشارع من الدم الكبد والطحال ففى الحديث أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال

وأما الخنزير فقد أجمعت الامة على تحريم جميع أجزائه وجمهور العلماء انه نجس * وقال مالك بطهارته وان كل حى عنده طاهر ومذهب الشافعى الجديد أنه كالكلب اذا ولغ فى الاناء * وفى القديم يكفى فى ولوغه غسلة واحدة * وقوله تعالى (وما أهل لغير الله به) من العلماء من قال المراد بذلك ذبائح عبدة الاوثان التى كانوا يذبحونها الاصنامهم وهؤلاء جوزوا ذبيحة النصارى اذا ذكروا اسم المسيح عليها الا انه من طعام أهل الكتاب وطعامهم حل لنا وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبى وسعيد بن المسيب * وقال الشافعى وأبو حنيفة لا يحل ذلك لذكرهم اسم غير الله فاما سيدنا على فقد قال اذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلا تأكلوا واذا لم تسمعوهم فكلوا اهـ

(الكلام على جلد الميتة وفيها سبعة أقوال)

(١) يجوز استعمالها كلها قبل الدباغ و بعده وهو قول الزهرى (٢) تستعمل كلها بعد الدباغ وهو قول داود (٣) يطهر ظاهرها كلها بعد الدباغ لا باطنها وهو قول مالك (٤) تطهر كلها الا جلد الخنزير وهو قول أبى حنيفة (٥) يطهر الكل الا جلد الكلب والخنزير وهو قول الشافعى (٦) يطهر جلد ما يؤكل لحمه فقط وهو قول الاوزاعى وأبى ثور (٧) لا يطهر منها شئ بالدباغ وهو قول أحمد بن حنبل

(الكلام على صوف الميتة وشعرها)

يحرم الانتفاع بصوف الميتة وشعرها وعظمها عند الشافعى * ويحل ذلك عند مالك ماعدا الانتفاع بعظمها

خاصةوأماشعرالخنزير فاكثرالفقهاء وجهورهم متفقون على تحريمه * ولقد أتممنا المقال فى القسم الاول من سورة البقرة فلنشرع الآن فى القسم الثانى وهو مقاصد

الباب الثانى من سورة البقرة

(وهو عشرون مقصداً)

{ المقصد الاول } كمال الانسانية وهو من قوله ليس البر الى قوله وأولئك هم المتقون
{ المقصد الثانى } القصاص
{ المقصد الثالث } الوصية
{ المقصد الرابع } الصوم والجهاد
{ المقصد الخامس } الحج الخ
{ المقصد السادس } الخمر والميسر
{ المقصد السابع } اليتامى
{ المقصد الثامن } أحكام النكاح
{ المقصد التاسع } المحيض
{ المقصد العاشر } الحلف بالله
{ الحادى عشر } الايلاء والطلاق
{ الثانى عشر } الرضاعة ومابعدها
{ الثالث عشر } عدة المتعة وعدة المتوفى عنها زوجها
{ الرابع عشر } أسرار الجهاد ومافيه من قصص بنى اسرائيل وأعدائهم
{ الخامس عشر } صفات الرسل وصفات ذات الله وفيها آية الكرسى
{ السادس عشر } درجات ثلاث للعلم الايمان بالفطرة ونور النبوّة كالعصر الاول للاسلام والايمان بالجدل كمسألة النمروذ وابراهيم الخليل والايمان بالمعاينة كمسألة الطير ومستقبل الامة الاسلامية
{ السابع عشر } ضرب الامثال العجيبة الغريبة فى طلب الانفاق
{ الثامن عشر } بيان المنفق عليهم وأحوال الانفاق
{ التاسع عشر } بيان المعاملات فى الاموال من الربا والرهن ونحوهما
{ العشرون } خاتمة السورة بالايمان بالله ورسوله والتكليف والدعاء ونهايته بالنصر

(المقصد الاول)

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ *

البر كل فعل مرضى وهو اسم جامع لجميع الطاعات وأعمال الخير المقربة الى الله الموجبة للثواب والمراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة * وقوله وآتى المال على حبه أى على حب المال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أى الصدقة أعظم أجرا قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى * وقوله (ذوى القربى واليتامى) فاما ذو والقربى فايتاؤهم أفضل أعنى المحاويج منهم * قال صلى الله عليه وسلم صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوى رحمك اثنتان صدقة وصلة * وأما اليتامى فجمع يتيم وهو الذى لا أب له مع الصغر أى وآتى الفقراء من اليتامى والمساكين جمع مسكين وهو الذى أسكنته الحاجة لانه دائم السكون الى الناس * وابن السبيل هو المسافر سمى بذلك لملازمته الطريق * والسائلين هم الطالبون المستطعمون * وفى الرقاب يعنى المكاتبين وكذلك ان يفك الانسان الرقاب بالعتق وفداء الاسرى * وقوله وآتى الزكاة أى المفروضة وما تقدم كان فى النوافل من الصدقات * والموفون بعهدهم عطف على من آمن * والصابرين فى البأساء منصوب على المدح ولم يعطف لفضل الصبر على سائر الاعمال كما قدمنا فى قوله تعالى وبشر الصابرين فراجعه هناك والبأساء الفقر والضراء المرض ونحوه والبأس مجاهدة العدو * أولئك الذين صدقوا فى الدين واتباع الحق وطلب البر وأولئك هم المتقون * لما ذكر الله عز وجل أحوال الكافرين والمنافقين وخبائث اليهود ورجس العرب المشركين وما أحلوا من المحرمات وحرموا مما أحل الله طفق يذكر هيئة البر وتمام الايمان وجماع خصال الخير فقال ليس البر الخ * وورد فى أسباب التنزيل ان اليهود كانوا يلهجون ببيت المقدس والنصارى بالمشرق وان المسلمين أولعوا بالكلام فى التوجه للقبلة وأذهلوا عما عداه فقال الله لهم ليس البر أن تلهجوا بأمر وتتركوا ما عداه ان الانسانية كثيرة الوجوه متنوعة المشارب فلا تقفوا فى موقف الذين قصرت أنظارهم وللانسان قوة فكرية وصورة جسمية وأخلاق نفسية وأموال مملوكة فمن قصر نظره على الصلاة وهى بالجسم والروح أو على الايمان أو الاخلاق الفاضلة أو المعاشرة بالمعروف أو انفاق الاموال فذلك قاصر فالبر ان تجمل النفس البشرية بالمعارف وأهمها الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية وان يسخر الجسم فى الاعمال الظاهرة كالصلاة والحج وأن يكون حسن العشرة فيعطى المال لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وهو الضيف أو المسافر وأن يكون كريم الخلق فلا يخلف اذا وعد وكان يصبر عند الملمات كالفقر وشدته والمرض وحدته والقتال وصدمته لا فرق بين الوفاء والصبر والكرم والصلاة الدين أمر بالوفاء وبالكرم وبالصبر وهذا هو الجمال والبهاء وهذه الآية جمعت محاسن الدين وأموره ولذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان هذا هو الايمان الكامل كأنه يقول هذه الأمم من يهود وعرب يختصمون ويختلفون بلا جدوى فهلا نبذوا الشقاق ونهجوا نهج الوفاق وسارعوا الى البر بالعلم والعمل والصبر والاحسان يجب أن يذيع تعليم الصبر بجميع أنواعه أى على العمل كالجهاد والعلم وعن الحرام وعلى البأساء والضراء وليكن ذلك فى أبواب كابواب الفقه المشهور وتذكر فضائل ذلك ويذكر ان الصبر تقوية للعزيمة ومن لم يمرن على الاعمال وعلى المشاق والمصائب كان فى جميع حياته طفلا وجميع الانبياء صبروا على أنواع كثيرة راجع ما كتبناه فى قوله وبشر الصابرين الآية اذ بينا هناك ان السعادة محصورة فى الصابرين فى هذه الحياة الدنيا فما بالك اذا كان يوم القيامة فاعجب للقرآن كيف جعل الصابرين منصوبا على المدح للاشارة الى ما ذكرناه * ولما كان الكمال يقابل النقص وكان للانسان قوة غضبية وقوة شهوية وهما أبدا يتسارعان فى هدم هذا البنيان كما جاء فى قصة آدم وقرر فى قصص بنى اسرائيل والعرب أعقبه بحديث القصاص وهو

(المقصد الثاني)

وهو قوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ

وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *

(قوله) فمن عفى له من أخيه شئ أى شئ من العفو * واذن يكون بعض العفو كالعفو التام فى اسقاط القصاص * وقوله فاتباع بالمعروف أى فليكن اتباع بالمعروف أى فلا يعنف ولى الدم فى المطالبة * وقوله وأداء اليه باحسان أى وعلى القاتل أداء الدية الى ولى الدم باحسان من غير مماطلة * وقوله ولكم فى القصاص حياة أى بقاء لان القاتل اذا علم أنه اذا قتل قتل ترك القتل فيكون بذلك بقاؤه و بقاء عشيرته وعشيرة الذى يريد قتله لانهم كانوا يقتتلون طول الحياة لو أقدم على القتل * وقوله يا أولى الألباب أى ذوى العقول الكاملة * وقوله لعلكم تتقون أى تنتهون عن القتل خوف القصاص كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لاحدهما طول على الآخر فاقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى فلما جاء الاسلام تحاكموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فامرهم أن يتباوؤا القصاص من قص الأثر اذا تتبعه فعلى ذلك يقتل القاتل بمثل ما قتل به من سيف أو عصا أو شدخ رأس * وهذا قول الشافعى ومالك وأحد قولين عن أحمد ومذهب الحنفية السيف وليس فى الآية من دليل على ما ذهب اليه مالك والشافعى رضى الله عنهما من امتناع قتل الحر بالعبد والمسلم بالكافر وانما الدليل ما ورد فى السنة أن لا يقتل مسلم بذى عهد ولا حر بعبد وهكذا فعل الصحابة من غير نكير

وهذه الآية أفادت التخفيف على هذه الامة فلقد كان العفو عند النصارى والقصاص عند اليهود وكان العرب تارة يوجبون القصاص وأخرى يوجبون الدية * ومنهم من يبطش فيقتلون فى الرجل رجالا وفى المرأة رجلا وفى العبد حرا فجاءت هذه الآية بوضع القسطاس فى الارض فسوى الله بين الناس وجعل الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فلا يتجاوز عنه الى ما تفعله العرب الجاهلية وما كان فوق ذلك من المسلم والكافر والعبد والحر فانما هو محل الاجتهاد بين الائمة رضوان الله عليهم وهكذا أفادت أن العفو عن بعض الدم موجب لسقوط القصاص وللولى المطالبة بالدية وعلى القاتل دفعها وعلى ولى الدم اتباع بالمعروف ومطالبة بلا عنف وعلى القاتل وعاقلته أداء اليه باحسان * ولا جرم ان هذا تخفيف على الامة ورحمة بها وفتح باب المسامحة والمساهلة فلو قتل ولى الدم القاتل بعد أن أخذ الدية فله عذاب أليم فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار * ان القصاص حياة وابقاء للاجسام والارواح ألا ترى ان الاضطراب ما ولج فى أمة الا أنزلها من شاهق وأحل بها العذاب الهون ولما كان الانسان بالقتل أو الموت مفارق الديار وعليه أن لا يذر ورثته يتخبطون خبط عشواء ذكر الله حكما عاما لكل من دنت وفاته وحضرت منيته وجاءت ساعته فقال

(المقصد الثالث)

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

شرعت الوصية فى صدر الاسلام للوالدين والاقربين لما كانت عليه العرب من الايصاء للاجانب طلبا للمباهاة

والمفاخرة

وللفاخورة واظهار الكرم ثم نزلت آية الميراث (يوصيكم الله فى أولادكم) وروى عن عمرو بن خارجة قال كنت آخذا بزمام ناقة النبى صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فسمعته يقول (ان الله أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث) فنسخت الآية فى حق الوارثين وبقى وجوبها فى حق من لا يرث من الاقارب عند ابن عباس والحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار والمذاهب المشهورة بين المسلمين على خلافه * وعندى ان هذا وجيه لئلا تبقى الثروة فى يد وارث ويحرم من هم من أسرته وهذا هو الذى تسميه الأمم الاوربية ولقد سن الانكليز من نحو سنة أن يؤخذ من مال الغنى جزء للأمة لئلا يبقى المال فى يد وارث وتحرم الامة من التمتع به وهذه الوصية مستحبة عند الفقهاء وعلماء الشرع الذين بيدهم زمام الامة الآن * ولا يسن الا اذا كان المال وفيرا والخير كثيرا

ثم قوله فى الآية اذا حضر أحدكم الموت أى أسبابه وظهرت أماراته وقوله ان ترك خيرا أى مالا وقيل مالا كثيرا والوصية هى التقدم الى الغير بما يعمل به والقول المبين لما يستأنف من العمل وقوله فمن بدله أى غيره من الاوصياء والشهود بعدما سمعه أى وصل اليه وتحقق عنده فانما اثم الايصاء المغير على مبدله ان الله سميع أى لما أوصى به الموصى عليم بتبديل المبدل وقوله جنفا أى ميلا وجورا فى الوصية وعدولا عن الحق وقوله اثما أى ظلما * والمعنى اذا حضر رجل مريضا وهو يوصى فرآه يميل فى وصيته فلا حرج عليه أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف ان الله غفور رحيم لمن أصلح وصيته بعد الجنف والميل

(روى) ان رجلا قال لعائشة رضى الله عنها انى أريد ان أوصى فقالت كم مالك فقال ثلاثة آلاف درهم قالت كم عيالك قال أربعة قالت انما قال الله ان ترك خيرا وهذا شئ يسير فاتركه لعيالك والوصية مؤكدة فى الدين * روى عن ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما حق امرئ مسلم له شئ يوصى فيه أن يبيت ليلتين الا ووصيته مكتوبة عنده وقال ابن عمر ما مرت علىّ ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك الا ووصيتى مكتوبة عندى ولا يجوز تبديل الوصية ولا تحريفها ولا تزيد على الثلث فانه هو المعروف ويجوز التبديل لمن رأى بين المورث والورثة جفاء فاذا أصلح بينهم فتبديله جائز * ان الوصية احسان وتجاوز عن المطامع وايثار فكانت مما يطلبه علم الاخلاق من التعالى عن الاستخذاء للشهوات فناسب ان يعقبها الصوم وأحكامه والفدية من العاجز كالشيخ الهرم والمريض مرضا لا يرجى برؤه فالصوم تهذيب وتأديب للقوة الشهوية وكذلك الوصية والفدية كلاهما ترك للحرص على المال الذى هو من أكبر الآفات ورذائل الاخلاق فنظم الله عز وجل نبذ الحرص بعد الموت والحرص فى الدنيا فى سمط ولزهما فى قرن وقبل أن نبدأ بالكلام على الصوم نذكر نبذة فيه حتى يستبين لك حقيقته اجمالا تبصرة وتذكيرا لما يأتى من الآيات

(واجبات الصوم ستة)

(١) مراقبة أول شهر رمضان وذلك برؤية الهلال فان غم فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان * ومتى علم المسلم ذلك بقول عدل واحد كفى * وهلال شوال لا يثبت الا بعدلين * والمراد بالعلم غلبة الظن وان لم يقض القاضى

(٢) النية ولا بد لكل ليلة من نية معينة جازمة مبينة فاذا نوى الفرض مطلقا أو الصوم مطلقا أو شهر رمضان دفعة واحدة أو بالنهار فى الفرض أو فى ليلة الشك لم يصح الصوم

(٣) الامساك عن ايصال شئ الى الجوف عمدا مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالاكل والشرب والسعوط والحقنة وليس يفسد بالفصد والحجامة والاكتحال وادخال الميل فى الاذن والاحليل الا أن يقطر فيه ما يدخل المثانة ولا ما يصل بغير قصد من غبار طريق أو ذبابة تصل الى جوفه أو ما يسبق الى جوفه فى المضمضة الا اذا بالغ فيها فيفطر ولا يفطر الناسى

(٤) الامساك عن الجماع فان جامع ناسيا لم يفطر ومن احتلم أو جامع فاصبح جنبا لا يفطر وان طلع الفجر وهو مخالط أهله فنزع فى الحال صح صومه فان صبر فسد ولزمته الكفارة

(٥) الامساك عن الاستمناء وهو اخراج المنى قصد الجماع أو بغير جماع ولا يفطر بقبلة ولمس ولا بمضاجعة ما لم ينزل لكن يكره ذلك الا ان يكون شيخا أو مالكا لاربه فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى واذا كان يخاف من التقبيل أن ينزل فقبل وسبق المنى أفطر لتقصيره

(٦) الامساك عن اخراج القئ فالاستقاء يفسد الصوم وان ذرعه القئ لم يفسد صومه واذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى

(لوازم الافطار أربعة)

القضاء والكفارة والفدية وامساك بقية النهار تشبيها بالصائمين فاما القضاء فوجوبه عام فالحائض تقضى وكذا المرتد * أما الكافر والصبي والمجنون فلا ولا يجب التتابع في القضاء * وأما الكفارة فلا تجب الا في الجماع وأما الاكل والشرب وما عدا الجماع فلا تجب به كفارة والكفارة عتق رقبة (وهذا لا وجود له الآن لمنع بيع الرقيق) فان لم يقدر فصيام شهرين متتابعين فان عجز فاطعام ستين مسكينا مدا مدا * وأما الفدية فتجب على الحامل والمرضع اذا أفطرتا خوفا على ولدهما لكل يوم مد حنطة لمسكين واحد مع القضاء والشيخ الهرم اذا لم يصم تصدق عن كل يوم مدا وأما امساك بقية النهار فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه ولا يجب على الحائض اذا طهرت امساك بقية نهارها ولا على المسافر اذا قدم مفطرا من سفر بلغ مرحلتين ويجب الامساك اذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك والصوم في السفر أفضل من الفطر الا اذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج اذا كان مقيما في أوله ولا يوم يقدم اذا قدم صائما

(السنن في الصوم ست)

تأخير السحور وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة وترك السواك بعد الزوال والجود في شهر رمضان ومدارسة القرآن والاعتكاف في المسجد لاسيما في العشر الاخير وهذه الاحكام على مذهب الامام الشافعي وفي بعضها خلاف عند الأئمة تركناها خيفة السآمة

(اسرار الصوم)

الصوم ثلاث درجات صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص * أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن الشهوة كما تقدم تفصيله * وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام * وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والافكار الدنيوية وكفه عما سوى الله بالكلية وهو يحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر وبالفكر في الدنيا الا دنيا تراد للدين فان ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا فهذا الصوم اقبال بالهمة على الله وانصراف عن غير الله وتلبس بمعنى قول الله (ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) اﻫ الكلام في الصوم وأسراره (ولعلك تقول) كيف جمعت بين المتناقضات في هذا التفسير ذلك أنك قلت في مواضع كثيرة ان طلب العلم وحوزه والصناعات واستعمالها واجبة وان المسلمين مفرطون في ترك تلك العلوم للفرنجة حتى أخذوا ديارهم واستحلوا أموالهم * ثم انك هنا تقول ترك ما سوى الله وعدم التفكر الا في الله فلن يتفق الامران للمسلم وهذا منك عجيب تكلف نفسك والمسلمين الجمع بين الضدين * ولعلك أصبحت مقلدا في الدين ومقلد العلماء العصر الحاضر فألفت بين متناقضين وهذا مستحيل (أقول) لتتذكر ان ما كان من أمور الدنيا ضروري للدين حافظ له موجب لبقائه يصبح دينا لا دنيا فجميع الصناعات واجبة وجوبا كفائيا على المسلمين وهكذا العلوم فالصناعات من الابرة الى المدفع والقطار والعلوم من النحو الى علم الفلك والطبيعة كلها واجبة * ولعلك تقول أيضا كيف تنتظم هذه الدنيا نظاما تاما كأوروبا أو نسبقها كما تقول والدين يقول لا تفكروا الا في الله وصوموا وصلوا وقوموا الليل والموت يكتنفنا من كل جانب وكيف تنتظم هذه الحياة ونحن لا شك تاركوها ان الفكر في الآخرة والاستعداد لها مثبط للعزائم موجب للاعتكاف في المساجد والنوم والكسل حتى

يأتى اليوم الموعود (أقول) على رسلك ان الامثال حاضرة مشاهدة ولكن أكثر الناس لا يعلمون ألم تر الى الفتاة فى منزل أبيها كيف تعلم ان سعادتها انما تكون فى الحياة مع خطيبها وهى كل يوم تنظف وتحافظ على بيت والدها كأنها لن تفارقه أمد الحياة وترى رجال الحكومات المرشحين لوظائف أرقى مما هم فيه لايزالون يغارون على المصلحة التى هم فيها غيرة صادقة كأنهم لا يفارقونها وهم يعلمون انهم لها تاركون وهذه الأمثلة انما ترد من الامم الاسلامية المتأخرة لعدم فهم الدين الاسلامى والاقتصار على ظواهر العبادات والا فكيف كانوا يفتحون البلاد شرقا وغربا وهم يصومون النهار ويقومون الليل ويتهجدون وكيف كان الفرس والروم فى أبهة الملك وعظمته غارقين فى المادة والنعيم وكان آباؤنا صائمين مصلين متهجدين ثم يكسرونهم فى الحرب ويأخذون بلادهم ويسبون نساءهم ولقد كان فى مصر من جيوش الروم مائة ألف مقاتل فضلا عن الامة المصرية التى كانت أكثر عددا من المصريين اليوم وما فتحها الا اثنا عشر ألفا من آبائنا العرب * وروى المؤرخون ان المقوقس سأل رسله الذين قابلوا عمرو بن العاص ومن معه قال كيف رأيتموهم قالوا رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة والتواضع أحب اليهم من الرفعة ليس لاحدهم رغبة فى الدنيا ولا نهمة وانما جلوسهم على الارض وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا الحر فيهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون فى صلاتهم فقال عند ذلك المقوقس لو أنهم استقبلوا الجبال لازالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء احد اه فانظر كيف جعل الزهد فى الدنيا والترفع عنها والخشوع فى الصلاة من أسباب الحصول عليها والسيادة فيها وكأن الناس كلما كانت نفوسهم أقرب الى التجرد وأرفع عن الانغماس فى المادة كانت أملك لها والله هو الولى الحميد

(المقصد الرابع)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ * فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ * يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ * فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ * أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ * عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ * وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ

* ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ * وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ * تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا * كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ * وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ * فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ * فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

يقول ان الله عز وجل ما ترك الامم السالفة والاجيال البائدة بلا تهذيب وتأديب فاوجب عليهم أن يجتنبوا التغالى فى الشهوات والاكثار من الطعام فان النفوس الانسانية لها عروج الى الملا الاعلى اذا ما عفت عن الطعام واقتصدت فى الشهوات فلم يدع الله أمة الا أدبها ولا ترك جيلا الا أنذره وحذره ولقد كتب على النصارى صياما وعلى اليهود صياما وقال لنا يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون المعاصى * ولما كانت الامة الاسلامية أمة وسطا عدولا لا تتغالى فى الشهوات فتنزل الى حضيض الحيوانية وتحرم من المراتب الروحية ولا تتغالى فى التبرى من الاغذية فتضعف أجسامها وتذل نفوسها كما حصل للصين والهند اذ صاموا وصوما دائما فنبذ البراهمة والبوذيون الشهوات نبذا مفرطا فغلبتهم الامم وداستهم أمم الغرب وأذلهم الطامعون لذلك جعل الله عز وجل صوم هذه الامة أياما معدودات وهى شهر رمضان لتنال الحظين قوة الاجسام ورياضة النفوس وانشراح الصدور وأمة هذا شأنها جديرة أن تمسك بأعنة الشرق والغرب وتشهد على الامم وتقود غيرها الى طريق الفلاح ومراقى النجاح وعلى المريض مرضا يعسر معه الصوم والمسافر سفر قصر اذا أفطرا أن يصوما أياما أخر وعلى الذين يطوقونه أو يطيقونه فيطوقونه أى يصومونه بجهد ومشقة كما يطوق المرء طوقا أى قلادة فى عنقه أو يكلفونه بمشقة على هؤلاء فدية أى جزاء لما وقع من تقصير فى العبادة وهى نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند فقهاء العرب ومد عند فقهاء الحجاز أو فطور فقير وسحوره عند ابن عباس فمن تطوع خيرا وبر الفقراء وزاد فى العطاء فله ثوابه على أن الصوم أفضل لان الصبر عليه أشد والتكلف فيه أشق فانه خير للشيخ الهرم والمريض والمسافر والمريض مرضا لا يرجى برؤه * وليست هذه الخيرية الا اذا قدروا والا فقد يحرم وقد يكره وذلك بلا ريب تابع أحوال الناس مختلف باختلافهم ثم قال شهر رمضان على البدل

من

من قوله كتب عليكم الصيام أى صيام شهر رمضان الذى فيه ابتدئ نزول القرآن حال كونه هاديا للناس باعجازه و بينات أى آيات واضحات بما يهدى به من الحق و يفرق بينه و بين الباطل لما فيه من الاحكام * ولما كان الصيام لا يجب الا اذا رؤى الهلال أعقبه عز وجل بقوله (فمن شهد منكم الشهر) أى هلال الشهر فليصمه وخصصه بما بعده وهو قوله (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) ألا ترى ان المريض والمسافر قد شهدا الشهر ورأيا الهلال فكلاهما شاهد وكلاهما مخصص له فى السفر * وما أراد الله عز وجل الا اليسر ولم يرد العسر وأوجب الصيام على الشاهد ليكملوا العدة والقضاء على المريض والمسافر ليكبروا الله و يعظموه لما هداهم لطاعته ونوعها وهذا الترخيص يوجب الشكر على العباد * ولما كان الصوم سبب العروج الارواح الى عالم الجمال ولا جرم ان أوقات الصوم أقرب الاوقات لاجابة الدعاء ناسب أن يقول (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون)

﴿ روى ﴾ عن كعب أنه قال قال موسى عليه السلام يارب أقريب أنت فاناجيك أم بعيد فاناديك * فقال ياموسى أنا جليس من ذكرنى قال يارب فانا نكون على حالة نجلك أن نذكرك عليها من جنابة وغائط قال ياموسى أذكرنى على كل حال فلما كان الامر على ماذكر رغب الله تعالى عباده فى ذكره وفى الرجوع اليه فى جميع الاحوال فأنزل هذه الآية

﴿ روى ﴾ ان أعرابيا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فأنزل الله هذه الآية والدعاء بمعنى العبادة أو بمعنى الطلب وقوله فليستجيبوا الى الاستجابة والاجابة بمعنى قال كعب الغنوى

وداع دعايامن يجيب الى الندا * فلم يستجبه عند ذاك مجيب

واجابة العبد لله طاعته واجابة الله للعبد اعطاؤه ما يطلبه * وقوله لعلهم يرشدون فى قراءة بفتح الشين والاخرى بكسرها ففيها ثلاث قراآت يقول ان أجابونى بطاعتى والايمان بى أجبتهم وأعطيتهم رشدهم فى مصالح دنياهم وآخرتهم * أنظر الى هيكلك وجسمك ألست ترى ان يديك تلمسان بحاسة اللمس المواد الصلبة وفمك يذوق بحاسة الذوق ألطف مافى المادة وأنفك يشم مايتناثر فى الهواء من ذرات المادة وهى ألطف مما قبلها وأذنك تسمع أمواج الهواء الآتية من اصطكاك أعضاء الفم وعينيك تنظران النور الذى يتعالى عن المادة وهو ألطف منها بل هو أصلها فانظر أليس عقلك وهو أعلى مكانا من هذه الحواس يتصل بما فوق المادة وهو العالم الالهى الروحانى * أرواحنا متصلة بالعالم الروحانى اتصالا عقليا لا حسيا معنويا لا جسميا وكما أن كل حاسة اتصلت بما أحست اتصالا يناسبها كاللمس والذوق والشم والبصر فكذا اتصلت النفوس بالعالم الاعلى الروحى (وأن الى ربك المنتهى) فهذا معنى قوله تعالى (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب) فهنا قرب معنوى لا حسى فليس الله مادة ولا جسما ولا عرضا وانما هو مقدس عن المادة يتعالى عن النور وهذا هو السر فى قوله تعالى قل الروح من أمر ربى وقوله عليه الصلاة والسلام من عرف نفسه عرف ربه فعقولنا من العالم الالهى الروحى منزلة منزلة العين من النور والاذن من المسموعات وحاسة الشم من المشمومات ولكن أكثرها مغمور فى الطبيعة محاط بالمادة وكثيرا ما تتنزل اليها المعلومات الحقيقية عن الله تعالى وقد تختلط معلوماتها بالاوهام فجعل العقل والمنطق ميزانا لها فالله عز وجل قريب من العبد فاذا سأله وهو موقن بالاجابة طائع فان الله يرشده و يجيب دعاءه ولن تصح الاجابة الا اذا توجه القلب لله عز وجل توجها جازما على شريطة ان يكون بين السائل ومطلوبه مناسبة ولا جرم ان فى العالم ما يناسب هذا * ألا ترى ان المطر ينزل على الارض والحديد يجذبه المغناطيس والبخار تجرى به الفلك فى البحر فمتى كان بين الطالب والمطلوب مناسبة وتوجه بقلبه توجها تاما ثم فكر بالعقل فيما يعمله و يزاوله بعد ذلك فلا جرم يأتى له مطلوبه كما فى قوله تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه و يكشف السوء) وهذا هو المعبر عنه عند كثير من علماء العصر الحاضر بقولهم الاعتماد على النفس وذلك انها بتوجهها الى الله تقوى همتها فتجد فى العمل ولا تخاف الزلل ولا تخشى الملل فهذا مقصود قوله تعالى أجيب دعوة الداع اذا دعان تدعونى فأجيب وأنا أدعوكم فأجيبونى بالطاعة والايمان * أدعوا الله أيها الناس فى خلواتكم ووجهوا اليه هممكم ولا تقعدوا عن العمل واياكم أن تدعوا وأنتم كسالى * الدعاء توجه الهمة

الى الله والله قريب من العقول والارواح فما قرب من العالم الروحى كقرب العين من الضياء فوجهوا هممكم اليه تزدادوا همة * وقد قرر العلماء أن الهمم تنقلب الى حركات فيفيض القول على اللسان والعمل على الاركان فنتيجة الدعاء تقوية الهمم بالاستمداد من الله ليكون العمل المترتب على الطلب أحكم وأثبت ولتعلموا ان الدعاء اذا لم يصحب بعمل وخالف فعل الرسول صلى الله عليه وسلم فلا ريب ينزل الانسان من درجته الى مرتبة تحت الجلدية فضلا عن الحيوانية ألا ترى أننا نرى الطيور فى جو السماء تغدو وتروح للعمل ولم نرها نامت فى أوكارها وطلبت أرزاقها وهذا الانتكاس فى المسلمين اليوم هو السر فى أن دعاء الخطباء على المنابر يأتى بعكس ما يدعون وهكذا أولئك الذين يتلون الدعوات صباحا ومساء ولا عمل لهم فليس فيه تهذيب النفس ولا استنشاقها نسائم الرحمات فان كان القصد ذلك فنعما هو فان فى ذلك الابتهال سعادة لا يعرفها الا ذائقوها وهناك تحس النفس بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب الجاهلين من البشر ومتى وجه المرء همته الى العمل ودعا الله وعمل لمطلوبه نال مرغوبه لا محالة * الدعاء فتح لباب الحرية والاعتماد على الله ومنع النفس عن الذلة للمخلوق ويشير لتلك الحرية قوله تعالى (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون) فكأنه يقول انهم يضاهئون أى يشابهون فى ذلك من قبلهم من قدماء المصريين والرومان والعرب الذين يدعون غير الله * فاما أنتم أيها المؤمنون فلا تدعوا الا الله لتكونوا أحرارا ناظرين بعقولكم لا مقلدين ومن يعتمد على غير الله هان عليه أن يخضع للجبابرة والملوك الظالمين فادعونى أستجب لكم ولست غائبا حتى تنادونى فى البوادى والقفار وفوق رؤس الجبال أنا حاضر عند أنفسكم وقلوبكم عرشى وفى هذا رد على بعض جهلة السياسيين كالذى يقول ان المسلمين يعتقدون ان الله بعيد عنهم ولذلك يجأرون بالليل والنهار ويصرخون فى الطرقات كأنهم يبحثون عنه فلا يجدونه ولم يعلم ان الاستحضار بالقلب يلزمه النطق باللسان لتمام الاستحضار حتى يستجاب الدعاء ويصح العمل * ثم أخذ يبين مبدأ الصوم ونهايته ولقد كان المسلمون اذا أمسوا أحل لهم الاكل والشرب والجماع الى أن يصلوا العشاء ثم ان عمر رضى الله عنه باشر بعد صلاة العشاء فندم فنزلت أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم والرفث الافصاح بما يجب أن يكنى عنه ويراد به هنا الجماع اطلاقا مجازيا * والمباشرة الزاق البشرة بالبشرة وهو هنا الجماع وعلى المباشر ان يطلب بقاء النوع فلا قصد من الشهوات الا المنافع والفضائل وما عداها فمقدمات زائلات وهو قوله وابتغوا ما كتب الله لكم وقوله وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر معناه حتى يتبين لكم ذلك البياض الممتد فى الأفق وما معه من غبش الليل المشبهان خيطين أبيض واسود فالفجر بيان للخيط الابيض والليل الذى حذف بدلالة الفجر عليه بيان للخيط الاسود * عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال لما نزلت (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود) ولم ينزل من الفجر فكان رجال اذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجله الخيط الابيض والخيط الاسود ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فانزل الله عز وجل بعده (من الفجر) فعلموا أنه انما يعنى الليل والنهار * وروى مثله عن عدى بن حاتم اذ عمد الى عقالين أسود وأبيض وجعلهما تحت وسادته الخ ثم بعد ذلك عرّف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان من السنة أن يعتكف الانسان فى الصوم فانه آكد من غيره وأكثر ثوابا وأعظم أجرا وأقرب زلفى من الله عز وجل أعقبه جل وعلا بقوله (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) ولقد كان الرجل يعتكف فيخرج الى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك فالجماع مبطل للاعتكاف فالنهى فى العبادات يوجب فسادها ولا يكون الاعتكاف الا فى المساجد وقد كان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الاواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف أزواجه من بعده والجماع حرام فى الاعتكاف وما دونه مكروه (ايضاح) الاعتكاف سنة ولا بد أن يكون فى المسجد الحرام عند سيدنا على كما نقل عنه وفى المسجد الحرام ومسجد المدينة عند عطاء وفيها وفى بيت المقدس عند حذيفة وفى كل مسجد جامع عند الزهرى وفى كل مسجد له امام ومؤذن عند أبى حنيفة وفى سائر المساجد عند الشافعى ومالك وأحمد وهو فى المسجد الجامع أفضل وهو فى الصوم أفضل * وقال أبو حنيفة الصوم شرط وأقله لحظة

عند الشافعي ولا حد لا كثره وأقله يوم عند أبي حنيفة ومالك بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر ويخرج منه بعد غروب الشمس والجماع كما تقدم حرام ومبطل له ومادون الجماع كقبلة مكروه وبعضهم يجعله مفسد الصوم وأما الملامسة بغير شهوة فجائزة * ولما كان الصيام والفدية والوصية تصرفا في مال وقمعا للقوة الشهوية وهكذا الاعتكاف فانه كف النفس عما هو مباح بحيث يلزم المرء مسجده فلا يبرحه الا لحاجة من لحظة الى أيام فهو كف النفس عن الشهوات ناسب أن يلحق به الادلاء أى الالقاء بحكومات الاموال الى الحكام فلذلك قال ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون انكم مبطلون * فان حكم الحاكم لا يحل حراما ولا يحرم حلالا ولذلك روى أن عبدان الحضرمى ادعى على امرىء القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يحلف امرؤ القيس فهم به فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية فارتدع عن اليمين وسلم الارض الى عبدان فنزلت هذه الآية * ولما كان الصوم لا يثبت الا بالهلال ورؤيته وقد سأل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم رضى الله عنهما النبى صلى الله عليه وسلم فقالا ما بال الهلال يبدو دقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ وهكذا كانت الانصار اذا أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه وانما يدخلون أو يخرجون من فرجة ويعدون ذلك برا بين الله لهم الامرين بقوله (يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج) فى أعمالهم الدنيوية والعبادات لاسيما الحج (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) كلا ولكن البر من اتقى بفعل الطاعات وترك المعاصى وفيه ايماء الى ان السؤال عن سبب تغير الهلال وتطوره كالدخول للبيت من غير بابه فالبر الا يعكس المرء فى سؤاله وأن يأتى الامور من أبوابها فى الدين والدنيا ولما كان الصوم والاعتكاف كفا للنفس عن الشهوات والقتال وملاقاة الاعداء من أهم أنواع الصبر ناسب أن يلزا فى قرن وتنظم جوهرة الصيام وفلذة الجهاد فى سمط واحد فكلاهما صبر وكلاهما رفع للنفس عن حال البهيمية * فالصوم تعالى النفس عن شهوة الطعام والذلة للحطام والجهاد رفع لها عن أن تستخذى للظالمين أو تذل للقاهرين * فالصوم جهاد الآمنين والقتال جهاد الخائفين على الاعراض والاموال * وعلى الناس أن يربؤا بأنفسهم عن الدنايا فلا يذلوا للشهوات كالعجماوات ولا يسلموا قيادهم لمن يغلبونهم بل ليفكوا قيود الذلة عنهم ويرفعوا نير العبودية عن أعناقهم ويكسروا اصفاد الذلة واغلال الظالمين وليقاتلوا فى سبيل الله * الانسان فى جهاد مستمر وعمل دائم * الانسان فى الحياة محوط بالاعداء من كل جانب فنهم من هم فى داخل جسمه كالشهوات ومنهم من هم خارج كالحيوان الكاسر والعدو المهاجم فليبدأ بقتال عدوه الداخلى فاذا فرغ منه فأحراه أن يقهر الاعداء المهاجين * وترى الامة الاسلامية لما كانت تعظم الاعمال الدينية وترعاها حق رعايتها غلبت أعداءها فلما تفرقت أهواؤها خضدت شوكتها تخطفتها الاعداء من كل جانب فان الناس اذا استعبدوا لشهواتهم وذلوا لاهوائهم تفرقت كلمتهم وذهبت ريحهم وذاق بعضهم بأس بعض فلا يرى العدو أمامه الا أشباحا فارغة كأنها خشب مسندة ونفوسا مائتة وعقولا خامدة فيحصدهم حصدا ويتخذ سيدهم عبدا وهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم عند رجعته من احدى الغزوات رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر جهاد النفس وسره ما علمت من أن النفوس أيام أمنها واستيثاق الناس باخلاقهم يدعو ذلك لائتلافهم وما غلبة العدو الا ثمرة الائتلاف ولا ائتلاف اذا تعددت المآرب وتفرقت القلوب وذهبت شذر مذر * فلذلك قال وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم الآيات * قد كان صلى الله عليه وسلم ممنوعا من القتال فلما أمكنته اليدان وصده المشركون عام الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة وصالحهم على أن ينصرف عامه ذلك ثم يعود من قابل فيقضى عمرته ثم رجع فى ذى القعدة سنة سبع فقضى عمرته ولما أن أزمع على عمرة القضاء وتجهز هو وأصحابه خافوا أن لا تفى قريش بما قالت وتصدهم عن المسجد الحرام وقد عاهدهم أن تخلى مكة ثلاثة أيام فكره الصحابة أن يحاربوهم فى الشهر الحرام فى البلد الحرام فى حال الاحرام فنزل قوله تعالى وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم وايا كم أن تقتلوا الشيوخ والنساء والصبيان والرهبان ولا تعتدوا بالقتال مفاجأة ولا بقتال المعاهد ولا تمثلوا بالمقتول ولا تبدؤا بالقتال من غير دعوة ان الله لا يحب المعتدين ثم ازداد الامر واحتدم ونزل

واقتلوهم حيث ثقفتموهم والثقف الحذق كأن من أدرك عدوّه فهو حاذق * وهذه الآية معممة للحكم بحيث يقتلون فى حل وفى حرم فهى أشبه الآيات بآية الجز فلقد حرم شيئا فشيئا فهكذا هنا منع القتال ثم شرع للقاتلين ثم عمم * وقوله وأخرجوهم من حيث أخرجوكم أى من مكة وقد فعل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح ولا ريب ان التعذيب بالاخراج من الوطن أشد من القتل فهو عذاب واصب لازم والموت راحة فالفتنة والابتلاء باخراجهم من مكة أشد من قتلهم ثم نهاهم عن ابتدائهم بالمقاتلة عند المسجد الحرام حتى يبدؤهم بالقتال وقوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله خالصا من الشيطان فان انتهوا عن الشرك فلا تعتدوا على المنتهين اذلا يعتدى الا على من اعتدى * هذه الآية ترجع لقوله تعالى واقتلوهم حيث ثقفتموهم للدرجة الثالثة وهى تعميم القتال * وقوله الشهر الحرام بالشهر الحرام الخ تأييد للدرجة الثانية وهى قتال المعتدى بمثل ما اعتدى * فان قاتلوكم فى الشهر الحرام أو البلد الحرام أو فى حال الاحرام فقاتلوهم فان الحرمات وهى ما يجب أن يحافظ عليها وتحترم يجرى فيها القصاص * ثم لخص هذا كله بقوله فقال فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وهو فى المرتبة الثانية * ولما كان القتال لا يكون بلا مال أعقبه بقوله وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة بالكف عن القتال أو عن الانفاق فيه والباء زائدة أى ولا تلقوا أيديكم أى أنفسكم الى التهلكة أى الهلاك ألا ترون ان الامة الاسلامية لما نكصت على أعقابها ونامت على وساد الراحة الوثير وتقهقرت الى الوراء ونامت عن جمع المال وانفاقه فى الجهاد وسبقتها الامم أخذت تبيد وتهلك فهذا هو الالقاء للتهلكة وذلك هو السر فى حشد الجنود ورفع البنود ومخر السفن فى البحار واعداد الآلات والتسابق فى الميدان والتنافس فى صنع المدمرات وسير الطيارات الطائرات وأحسنوا أعمالكم وأخلاقكم كما تحسنون محاربة العدو فليس يغنى دفع العدوّ عن الفضائل الاخرى كما لا تغنى تلك الفضائل عن الجهاد * وكما انه ليس البر قاصرا على أمر القبلة والتولى اليها وليس البر أن تسألوا عن الاهلة هكذا ليس يغنى جهاد العدوّ عن جهاد النفس فليكن المسلم جامعا لصفات الكمال بعيدا عن خصال الشر واياكم أن يغركم انكم مجاهدون أو صائمون فلذلك أعقبه بمسائل الحج و بعض مسائل من القتال * وقبل ذكر آيات الحج وتفسيرها نسرد أحوال الحج ليسهل عليك أيها الذكى معرفة الآيات الآتية ولتكون لديك صورة تعقلها بها

(شروط وجوب الحج خمسة)

البلوغ والاسلام والعقل والحرية والاستطاعة * ومن وجب عليه الحج وجبت عليه العمرة والاستطاعة أن يكون صحيحا وأن يأمن الطريق بأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدو قاهر وأن يجد نفقة ذهابه وايابه الى وطنه وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة وأن يملك ما يقضى به ديونه وأن يقدر على ما يحمله فى السفر ثم ان كان معضوبا وكان له مال فليستأجر من يحج عنه بماله بعد فراغ الاجير من حجة الاسلام لنفسه

(شروط صحة الحج)

اثنان الوقت والاسلام فيصح من الصبى فيحرم بنفسه ان كان مميزا و يحرم عنه وليه ان كان صغيرا و يفعل به ما يفعل فى الحج من الطواف والسعى وغيرهما * وأما الوقت فهو شوّال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة الى طلوع الفجر من يوم النحر فمن أحرم بالحج فى غير هذا الوقت فهى عمرة وجميع السنة وقت العمرة

(شروط وقوعه عن حجة الاسلام)

الاسلام والحرية والبلوغ والعقل والوقت

(الاركان التى لا يصح الحج بدونها خمسة)

الاحرام والطواف والسعى بعده والوقوف بعرفة والحلق بعده على قول * وأركان العمرة كذلك الا الوقوف

(كيفية الحج)

اذاوصل الى الميقات المشهور الذى يحرم الناس منه يغتسل و ينوى به غسل الاحرام ويكمل الطهارة ويخلع ثيابه المخيطة ويلبس ثوبى الاحرام فيرتدى ويتزر بثوبين أبيضين وعند ذلك ينوى الاحرام بالحج أو بالعمرة قرانا أو افرادا ويكفى مجرد النية لانعقاد الاحرام ويسن أن يقرنه بالتلبية ثم يدخل مكة والأفضل أن يكون من ثنية كداء بفتح الكاف كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اذا دخل المسجد الحرام فالأفضل أن يكون من باب بنى شيبة ثم يقصد الحجر الاسود ويمسه بيده اليمنى ويقبله ثم يطوف طواف القدوم ولا يعوقه عن الاسراع لذلك الا الصلاة المكتوبة فليصلها ثم ليطف وليكن فى هذا الطواف وفى كل طواف مراعيا شروط الصلاة من الطهارة من الحدث والخبث فى الثوب والبدن والمكان وستر العورة فالطواف بالبيت صلاة أباح الله فيها الكلام * فاذا أتم الطواف سبعا فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب وليتعلق بالاستار وليدع الله بما شاء ثم ليصل خلف المقام ركعتين ثم يخرج من باب الصفا وهو جبل فيرقى مقدار قامة الرجل فيه ثم يسعى سبع مرات بينه و بين المروة وهو يكبر و يدعو ويمشى حتى ينتهى الى الميل الاخضر فاذا بقى بينه و بين الميل ستة أذرع أخذ فى السير السريع وهو الرمل حتى ينتهى الى الميلين الاخضرين ثم يعود الى الهينة فاذا انتهى الى المروة صعدها كالصفا وهذه مرة واحدة فاذا عاد الى الصفا حصلت مرتان وهكذا حتى يتم السعى وقد فرغ من طواف القدوم والسعى وهما سنتان والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة واذا سعى فينبغى أن لا يعيد السعى بعد الوقوف ويكتفى بهذا ركنا فانه ليس من شرط السعى أن يتأخر عن الوقوف وانما ذلك شرط فى طواف الركن نعم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أى طواف كان * اذا انتهى الحاج يوم عرفة الى عرفات ينبغى أن لا يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف واذا وصل قبل ذلك بايام فطاف طواف القدوم فليمكث محرما وليكن الخروج الى منى يوم التروية والمبيت بها والغدو منها الى عرفة لاقامة فرض الوقوف بعد الزوال اذ وقت الوقوف من الزوال الى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر وليغتسل للوقوف فاذا زالت الشمس خطب الامام خطبة لطيفة وقعد وأخذ المؤذن فى الاذان والامام فى الخطبة الثانية ووصل الاقامة بالأذان وفرغ الامام مع تمام اقامة المؤذن ثم جمع بين الظهر والعصر * فاذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فليكن بسكينة ووقار حتى يبلغ المزدلفة فليغتسل ثم يجمع بين المغرب والعشاء فيها ثم اذا انتصف الليل يتزود الحصى منها فليأخذ سبعين حصاة فانها قدر الحاجة وليسر الى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة بعد أن يكون صلى الصبح فى الغلس بها ثم يدفع من المشعر الحرام قبل طلوع الشمس ثم اذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيتهى الى منى ومواضع الجمرات وهى ثلاثة فيتجاوز الاولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر حتى ينتهى الى جمرة العقبة و يرمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقيد رمح فيرمى سبع حصيات مكبرا مستقبلا القبلة أو الجمرة و يقول مع كل جمرة الله أكبر فاذا رمى قطع التلبية والتكبير الا التكبير عقب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر الى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق ثم ليذبح الهدى ان كان معه ثم ليحلق بعد ذلك والمرأة تقصر الشعر * والاصلع يستحب له امرار الموسى على رأسه ومهما حلق بعد رمى الجمرة فقد حصل له التحلل الاول وحل له كل المحظورات الا النساء والصيد (والمحظورات فى الحج والعمرة ستة) * الاول لبس القميص والسراويل والخف والعمامة وانما يلبس ازارا ورداء ونعلين ولا ينبغى أن يغطى رأسه وللمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فاحرام الرجل فى رأسه واحرامها فى وجهها * الثانى الطيب فليجتنب كل ما يعده العقلاء طيبا فان تطيب أو لبس فعليه دم شاة * الثالث الحلق والقلم وفيهما الفدية أعنى دم شاة ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر * الرابع الجماع وهو مفسد قبل التحلل الاول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه وان كان بعد التحلل الاول لزمه البدنة ولم يفسد حجه * الخامس مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة التى تنقض الطهر مع النساء فهو محرم وفيه شاة وكذا فى الاستمناء ويحرم النكاح والانكاح فيه ولا ينعقد * السادس قتل صيد البر أعنى ما يؤكل أو هو متولد من الحرام والحلال فان قتل صيدا

فعليه مثله من النعم براعى فيه التقارب * هذه هي المحظورات وقد قلنا انه يرمي جمرة العقبة فتحلل التحلل الاول ولم يبق عليه من المحظورات الا النساء والصيد ثم يفيض الى مكة و يطوف كما وصفنا أولا * وهذا الطواف طواف ركن في الحج ويسمى طواف الزيارة وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر * وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر الى أي وقت شاء ولكن يبقى مقيدا بعلقة الاحرام ولا يحل له النساء الى أن يطوف فاذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الاحرام بالكلية ولم يبق الا رمي أيام التشريق والمبيت بمنى وهي واجبات بعد زوال الاحرام على سبيل الاتباع للحج ثم بعد هذا الطواف السعي ان لم يكن سعى بعد طواف القدوم والا اكتفى به * وأسباب التحلل ثلاثة الرمي والحلق والطواف الذي هو ركن ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين والاحسن أن يرمي ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف ثم يخطب الامام خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومتى فرغ الحاج من طواف الركن المذكور عاد الى منى للمبيت والرمي وتسمى ليلة القر لان الناس يقرون فيها غدا ولا ينفرون فاذا أصبح اليوم الثاني من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي وقصد الجمرة الاولى التي تلي عرفة فيرمي اليها بسبع حصيات ثم يتقدم الى الجمرة الوسطى و يرمي كما رمى الاولى و يقف في هذه وفي الاولى بعد الرمي و يكبر و يهلل و يدعو بحضور قلب ثم يتقدم الى جمرة العقبة و يرمي سبعا ثم يرجع الى منزله و يبيت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الاول و يصبح فاذا صلى الظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق ورمى في هذا اليوم احدى وعشرين حصاة كاليوم الذي قبله فهو مخير بين المقام بمنى و بين العود الى مكة فان خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شئ عليه وان صبر الى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمي في يوم النفر الثاني احدا وعشرين حجرا كما سبق وفي ترك المبيت والرمي اراقة دم وليتصدق باللحم وله أن يزور البيت في ليالي منى بشرط أن لا يبيت الا بمنى هذا هو الحج من أوله الى آخره مختصرا واضحا يسرا أولى النهى

(العمرة)

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده فليغتسل وليلبس ثياب الاحرام كما سبق في الحج ويحرم بالعمرة من ميقاتها * وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية و ينوي العمرة و يلبي و يصلي في مسجد عائشة بعد ذلك ركعتين و يدعو الله بما شاء ثم يعود الى مكة وهو يلبي ومتى دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعا وسعى سبعا كما تقدم ثم يحلق رأسه وقد تمت بهذا عمرته * وهذه الطريقة أي الحج أولا ثم العمرة تسمى الافراد (وهناك طريقة ثانية) وهي القران وهي أن يجمع بين الحج والعمرة * فيقول عند الاحرام لبيك بحجة وعمرة معا فتندرج العمرة في الحج كما يندرج الوضوء في الغسل ويكون السعي الذي بعد طواف القدوم محسوبا منهما ولكن الطواف الاول ليس بمحسوب كما تقدم فيكون طواف الركن بعد الوقوف وليس على الحاج شئ في هذا الا شاة الا أن يكون مكيا فليس عليه شئ (وهناك طريقة ثالثة) تسمى التمتع وهي أن يجاوز الميقات محرما بعمرة و يتحلل بمكة ويتمتع بالمحظورات الى وقت الحج ثم يحرم بالحج وتلزمه شاة ما لم تكن عمرته في غير أشهر الحج ومالم يرجع الى ميقات الحج ولا الى مثل مسافته لاحرام الحج فاذا لم يجد الشاة فليصم ثلاثة أيام في الحج قبل يوم النحر متفرقة ومتتابعة وسبعة أيام اذا رجع الى الوطن * والأفضل الافراد ثم التمتع ثم القران هذا ما أردت ذكره في العمرة والحج وبهذا تتصور الأحكام والأماكن وتفسير آيات الحج وتفهم ما سيأتي من قوله تعالى فمن تمتع بالعمرة الى الحج * وقوله فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام * وقوله فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه وهذه الاحكام على مذهب الشافعي وفي بعضها خلاف سيأتي في تفسير الآيات

(أسرار الحج وبقية أركان الاسلام)

اعلم أن الانسان في الدنيا كولد الموسر التاجر أو الملك الذي ورث الثروة من والده ثم انفرد بها فزاد هو في تجارته وزاد نماء أمواله فالانسان خلق في الدنيا المحيط به المحن والوصب ونكبات الدهر فاذا تحملها وصبر عليها وقوي همته

واستجمع عزيمته كان ذلك فوق عظيمة لسعادته فى الدنيا لا يحس بها الصبيان ولا الحيوان فكلاهما لا صبر له لان الصبر بالعقل وهو خاص باهله ان النعيم والترف واللذات والتمتع بالطعام والشراب وتقارب الجنسين قد اشترك فيه الصبيان والحيوان مع العقلاء وهى مضطربة غير ثابتة ولا سعادة الا ما بناه الانسان لنفسه بنفسه وذلك بأن يتخذ له من الحوادث درعا فيتقى اذ ذاك وقع الحوادث فتكون عليه هينة وتمر عليه أنواع الفرح والترح فلا تؤثر فى سعادته وهذا هو المذكور فى آية و بشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة وقد تقدم الكلام عليها فراجعها هناك * وهذا أشبه بالميراث فى مثال الصبي الغنى لانها عامة لسائر الناس * ثم ان الله أراد ان يزيد الانسان اسراعا فى الرقى و يعطيه أجنحة و يقوى سيره الى العلا فأنزل عليه الكتب وألهمه دراسة العلوم ومنها ما نزل بالوحى على بعض الخاصة من خلقه فأراد أن يهذبهم وذلك بالتخلية والتحلية فالتخلية بالجوع تارة مع ترك النساء فى الصوم وتارة بنزع ما تميل اليه النفس وما تعلق به القلب من المال بالزكاة والصدقات * ان العاقل كلما ازداد عقلا ازداد معرفة بالعشيرة و بالامة التى هو منها فيجزع لما حل بقريبه وولده وأبويه وصحبه وأمته فاذا صبر كان ذلك جمالا لنفسه واجنحة يطير بها الى المعالى وههنا فى الزكاة يبذل المال للفقراء منهم فيكون مواسيا لهم فهو عند الحزن عليهم صابر وعند الغنى والثروة شاكر ويكون هو فى نفسه قد قلل العلائق التى تربطه بهذه الدنيا و باللذات فيكون زاهدا فيها فلا ينقطع فؤاده اذكر الموت ولا يهلع ويجزع لموت دابة أو ضياع مال و يكون اذ ذاك كالحر الذى لم تستعبده هذه الدنيا ثم انه كما تخلى عن شهوة الطعام والشراب والنساء فى أيام رمضان وتخلى عن عمار بطه باوتق رباط من المال هكذا يتخلى عن اللباس فى الحج فلا يلبس المخيط وانما يقتصر على ازار ورداء ابيضين كالكفن وقد كشف رأسه وهو مع القوم عراة تحت حرارة الشمس وقد خرجوا من الاهل والوطن وأنفقوا المال وتجردوا من الثياب وحرم عليهم النساء * هذا هو التخلية فى الزكاة والصيام والحج * أما التحلية فان الصلاة فيها مناجاة الله عز وجل وقد توضأ الانسان ونظف ثوبه ومكانه وتوجه قلبه الى من فطره فأخذ يذكر بلسانه وقد أحضر فى الفؤاد انه رحمن رحيم عمت رحماته سائر الخلائق تصويرهم ورزقهم واغداق النعم عليهم فيقول اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم الخ وهو حاضر فى قلبه كأنه يراه ويشعر فى قلبه بهذه الرؤية وهذه هى التحلية فبالزكاة و بالصيام و بانفاق الاموال فى السفر للحج وفى الهدى وترك المخيط من الثياب والنساء تخلية عن علائق هذه الحياة القصيرة * وأما التحلية ففى المناجاة والتوجه لله فى (اياك نعبد) وفى الاستعانة به تعالى وفى الحج قائلا عند الاحرام (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك وسعديك والخير كله بيديك والرغباء اليك لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد) فهذه هى التحلية * ففى الحج تخلية عن المال وعن النساء وعن الطيب وعن حظوظ النفس بالامتثال فى السعى بين الصفا والمروة و بالطواف و برمى الجمرات التى يجهل العبد حكمتها فبهذا كله تخلى المرء عن حظوظه وشهواته وامتثل أمر الله وهو تخليه * وفى التلبية والتوجه لله تحلية بالرجوع الى من خلقنا وفطرنا وصورنا * ولا تظن ان أعمال الحج خالية من الحكمة المعقولة كلا فان كل ما توجه به العبد من قول أو عمل أدى المقصود منه فكما أن فى أقوال الصلاة توجها بالقلب هكذا الطواف والسعى ورمى الجمرات توجه بالقلب * وكما أن هناك فرقا بين فعل اللاعبين والمصارعين فى وقوفهم وانحنائهم وأعمالهم و بين الصلاة فى الركوع والقيام * وان الاول يقصد به تقوية العضلات والمسابقات وآثارها فى النفس لا تخرج عما قصدت له والثانية يكون فيها الخشوع والخضوع والرجوع الى الله والآثار حقيقة تكون بحسب ما وجهت به وتظهر على الجوارح والأعضاء بالتجارب والمشاهدة فى سائر نوع الانسان * هكذا يكون الفرق بين الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمرات الثلاث و بين الافعال التى تماثلها من عوائد الانسان وتكون هذه الافعال مستحضرا بها عظمة الله تعالى والطواف ببيته الذى جعله حرما آمنا محترما حرم صيده والقتال فيه اعظاما واجلالا لصاحبه وهكذا يسعى بين الصفا والمروة وهذا السعى يضاهى تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا اظهارا للخلوص فى الخدمة ورمى الجمرات كالتبرؤ من الذنوب والخطايا * ولا جرم ان هذه الافعال يصحبها عند القصد ما جعلت له ولذلك نجد عند الحجاج من المسرات

والابتهال وذكر الله مالا يوجد فيما يناظره من الاعمال الاخرى لنوع الانسان فكما ان الالفاظ لها أثر على حسب المدلولات هكذا الافعال لها آثار على مقتضى ماجعلت له فى الشرع دينا وفى اصطلاح الناس عرفا ألا ترى ان التحية عند بعض الأمم بأن يتفل على وجه صاحبه وعند بعضهم بأن يضربه وعند بعضهم بأن ينام على الارض منبطحا وعند بعضهم بأن يولى ظهره اليه وكل عمل من هذا يؤدى المعنى الذى جعل له عرفا واذا لم يقم به الانسان وأخل به عوقب على مقتضى ذلك بالعداوة والبغضاء فاذا كان هذا فى عادات الناس وهم عليه يحاسبون بعضهم فهكذا جعل الله هذه الاعمال من الركوع والسجود والطواف والسعى والرمى قوالب وظواهر لذكر الله عز وجل وامتثال الأمر واستحضار الصفاته وجماله وتبريا من الذنوب ومن المادة ومن الدنيا هذا * ولتعلم ان الحج المبرور هو الذى فيه هذه المعانى الشريفة وعلامته أن يرجع صاحبه وقد عشق ربه وتبرأ من الدنيا وفرح بالموت قبل حلوله وأحب لقاء الله وأعطى كل ذى حق حقه وهذا سر الحديث (الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة) * أما الصلاة والحج اللذان خلوا من هذه المعانى فان صاحبهما لا ينال منهما تلك السعادة العالية اهـ

(المقصد الخامس فى الحج وبعض أحكام القتال وغير ذلك)

قال تعالى وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ *
وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ *
وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي
السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ
فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ * زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا
فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ
اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا
اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ
فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ
أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ * يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ *
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى
أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ
الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى
يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ • يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ

ولما كان الحج قد يمنعه العدو كما اتفق لرسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية سنة ست وحصر هو وأصحابه وحبسوا عن المضى فيه ناسب أن يؤتى بالحج عقب الجهاد فقال (وأتموا الحج والعمرة لله) أى ائتوا بهما تامين مستجمعى المناسك لوجه الله تعالى فهما واجبان (فان أحصرتم) أى منعكم العدو يقال أحصره وحصره كما يقال صده وأصده وليس عاما لكل مرض أو غيره كما عند الحنفية لقول ابن عباس رضى الله عنهما لا حصر الا حصر العدو وعليه الشافعى ومالك ولا يلحق به غيره من كسر أو عرج أو نحوهما الا اذا شرط • لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير حجى واشترطى وقولى اللهم محلى حيث حبستنى (فما استيسر من الهدى) أى فعليكم ما استيسر من الهدى جمع هدية من بدنة أو بقرة أو شاة فمن أحرم بالحج أو العمرة ومنع من اتمامه لعدو أو غيره على قول فليتحلل منه وليذبح هديا وليحلق رأسه ولا يحلق رأسه حتى يبلغ الهدى محله أى مكانه الذى يذبح فيه وهو حيث أحصر من حل أو حرم (ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله) والحنفية على ان محله الحرم فلا يحلق رأسه حتى يعلم ان من أرسله بلغ الحرم بالهدى ان كان معتمرا او يوم النحر ان كان حاجا والاول أوجه لما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرين فحال كفار قريش دون البيت فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلق رأسه ثم أخذ يشرح حالا أخرى لحلق الرأس غير حلق التحلل فقال (فمن كان منكم مريضا) مرضا يحوجه الى الحلق (أو به أذى من رأسه) كجراحة أو قمل (ف)عليه (فدية) ان حلق (من صيام) ثلاثة أيام (أو صدقة) ثلاثة آصع على ستة مساكين (أو نسك) جمع نسيكة وهى الذبيحة • لما روى انه عليه الصلاة والسلام قال لكعب بن عجرة لعلك آذاك هوامك قال نعم يا رسول الله قال احلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق على ستة مساكين أو انسك شاة والفرق ثلاثة آصع • ثم أخذ يشرح حكما ثالثا وهو حكم ما اذا أحرم أولا بالعمرة من الميقات ثم تحلل منها وتمتع بالمحظورات فى الاحرام الى أن يحرم بالحج فعليه مثل ما على المحصر بدنة أو بقرة أو شاة وهو معنى قوله تعالى (فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى) أى فعليه ذلك وهو دم جبران يذبحه اذا أحرم بالحج ولا يأكل منه وقال الحنفية دم نسك فهو كالأضحية (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج) أى فعليه صيام ثلاثة أيام فى أيام الاشتغال به بعد الاحرام • والأحب أن يصوم السابع والثامن والتاسع من ذى الحجة (وسبعة اذا رجعتم) أى فرغتم من أعمال الحج سواء كان فى طريقكم أو عند أهلكم وهو مذهب الحنفية وللشافعى قول اذا رجعتم الى أهلكم (تلك عشرة كاملة) فليست السبعة للتكثير (ذلك) الحكم المذكور (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) بأن كانوا على مسافة قصر فأكثر من الحرم عند الشافعية • وعند الحنفية أهل المواقيت من قرن ويلملم والجحفة وذى الحليفة وذات عرق فكل هؤلاء ومن دونهم الى مكة حاضرو المسجد الحرام • ومن تمتع من هؤلاء وجب عليه دم واما حاضروا المسجد الحرام فليس عليهم دم لانهم ليسوا ممن يجب عليهم أن يحرموا من الميقات وعند الحنفية ليس لهم التمتع وان فعلوه فعليهم دم جناية (واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب) وهو ظاهر ثم قال (الحج أشهر معلومات) معروفات وهى شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة بليلة النحر عند الشافعية والعشر عند الحنفية وذو الحجة كله على مذهب مالك (فمن فرض فيهن الحج) أى أوجب على نفسه بالاحرام فيهن عند الشافعية أو بالتلبية أو سوق الهدى عند أبى حنيفة (فلا رفث) أى لا جماع أو لا فحش فى الكلام (ولا فسوق) لا خروج عن حدود الشرع بالسباب وارتكاب المحظورات (ولا جدال) لا مراء مع الخدم والرفقة (فى الحج) أيامه أى لا يجوز ذلك (وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا) لمعادكم بالتقوى فانها خير زاد وقيل

نزلت

نزلت فى أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس فأمروا أن يتزودوا ويتقوا الابرام والتثقيل فى السؤال (واتقون يا أولى الألباب) وفى هذه الآية السابقة دليل على وجوب العفة وترك أذى الناس وعدم التثقيل عليهم فناسب أن يؤتى بعدها بما يناسبها من التكسب وقد كان العرب أيام جاهليتهم تجارات ومكاسب فى سوق عكاظ وذى المجاز ومجنة فتأثموا أن يتجروا فيها فنزل قوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) أى عطاء ورزقا وربحا فى التجارة (فاذا أفضتم) أى دفعتم أنفسكم كما يفيض الماء اذا صببته بكثرة (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) وهو جبل يقف عليه الامام ويسمى قزح (واذكروه كما هداكم) أى اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة للمناسك وغيرها (وان كنتم من قبله لمن الضالين) أى قبل هدايته لكم (ثم أفيضوا) يا قريش (من حيث أفاض الناس) أى كسائر الناس لا من المزدلفة وأنتم مترفعون عنهم (واستغفروا الله) من جاهليتكم فى تغيير المناسك (ان الله غفور رحيم فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) كان العرب فى الجاهلية اذا قضوا مناسكهم ذكروا مناقب آبائهم ومفاخر أجدادهم نظما ونثرا كما هو معلوم فى سوق عكاظ وغيره فلما جاء الاسلام أمروا فيه أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم أو كذكر ذا كرا أشد ذكرا منهم لآبائهم وذلك ليعرفوا حقه عز وجل وليكونوا أمة وسطا متحدة فذكر الله يجمعهم وذكر الآباء يفرقهم ويشتتهم وذلك هو التضامن والتحاب العام وتوجه النفوس الى الوحدة الدينية العامة والتنائى بها عن الوحدة الخاصة وأو بمعنى بل * وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن هذه الآية قيل له قد يأتى على الرجل اليوم ولا يذكر فيه أباه فقال ليس كذلك ولكن أن تغضب لله عز وجل اذا عصى أشد من غضبك لوالديك اذا شتما اهـ * ولا جرم ان هذا هو النظام العام والناموس الشامل والقانون العام الكامل (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) كانوا فى الجاهلية يقولون اللهم أعطنا ابلا وبقرا وغنما أو يقولون اللهم ان أبى كان عظيم الفئة كبير الجفنة كثير المال فاعطنى مثل ما أعطيته * وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة (ثوب من خز أو صوف معلم) ان أعطى رضى وان لم يعط سخط تعس وانتكس وان شيك فلا انتقش والانتقاش اخراج الشوكة وشيك دخلت الشوكة فى جسمه * وحسنة الدنيا كالصحة والعفاف وتوفير الخير * والحسنة فى الآخرة الثواب والرحمة فدخل فى الاول المرأة الحسنة وفى الثانى الحوراء وكذلك العلم والعمل فى الاول أيضا وقنا عذاب النار أى احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية الى عذاب النار (أولئك) الذين ذكروا من الفريقين (لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) فيحاسب الناس فى لمحة والساعة قريب فليعملوا قبل أن تقوم فيحاسبهم (واذكروا الله فى أيام معدودات) أى أيام التشريق وهى أيام منى ورمى الجمار وسميت معدودات لقلتهن وهى ثلاثة أيام بعد يوم النحر أولها اليوم الحادى عشر من ذى الحجة ويكون التكبير ادبار الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها (فمن تعجل) أى استعجل النفر (فى يومين) أى يوم القر والذى بعده أى فمن نفر فى ثانى أيام التشريق بعد رمى الجمار عند الشافعية وقبل طلوع الفجر عند الحنفية (فلا اثم عليه) باستعجاله (ومن تأخر فلا اثم عليه) حتى رمى فى اليوم الثالث بعد الزوال عند الشافعى أو قبل الزوال جوازا عند الحنفية فلا اثم عليه فى التأخير ولقد كان الجاهلية يختلفون فمنهم من أثم المتعجل ومنهم من أثم المتأخر والذى ذكر من الاحكام (لمن اتقى) اذ لا منتفع به سواه (واتقوا الله) أيها الناس فى جميع أحوالكم وأموركم (واعلموا انكم اليه تحشرون) * كان الجاهلية يذكرون آباءهم فأمروا بذكر الله جل جلاله وأمر الحاج بذكر الله أيام التشريق فناسب أن يذكر من هو كالأخنس بن شريق الثقفى اذ كان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الاسلام ويقول انى أحبك ويحلف بالله على ذلك وقد خنس أى اختفى يوم بدر بثلثمائة رجل من بنى زهرة عن قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر * وقال ان محمدا ابن أختكم فان يك كاذبا كفاكموه الناس وان يك صادقا كنتم أسعد الناس به قالوا نعم ما رأيت قال انى أخنس بكم فاتبعونى فذلك قوله تعالى (ومن الناس من يعجبك

قوله في الحياة الدنيا) أي في شأنها من أسباب المعاش والتجارة وغيرها (ويشهد الله) على أن (ما في قلبه) موافق لكلامه (وهو ألد الخصام) شديد العداوة والمخاصمة (واذا تولى) أعرض أو صار واليا (سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) كما فعل الاخنس بثقيف اذ بيتهم وأحرق زرعهم وأهلك مواشيهم أو كما يفعل ولاة السوء بالقتل والاتلاف والظلم (والله لا يحب الفساد) لا يرضاه (واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم) الانفة أي حملته حمية الجاهلية الاولى على الاثم الذي يؤمر باتقائه لجاجا من قولك أخذته بكذا أي حملته عليه (فحسبه جهنم) أي كفته جزاء وعقابا (ولبئس المهاد) والمهاد الفراش ثم جاء بضده فقال (ومن الناس من يشرى نفسه) يبيعها (ابتغاء مرضات الله) أي يبذلها في الجهاد طلبا لرضاه أو في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ذلك أن صهيب بن سنان الرومي أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال اني شيخ كبير لا ينفعكم كفري ولا يضركم ايماني فخذوا مالي ودعوني فقبلوا منه وأتى المدينة (والله رؤف بالعباد) لأنه أرشدهم الى مثل هذا الشراء * ولما كانت مناسك الحج وآداب الصيام والجهاد تراد لتهذيب النفوس وائتلاف القلوب واتحاد الشعوب وكان فريق من الناس لا يثوبون الى رشدهم ولا يرجعون عن غيهم وفريق اهتدى فالاول كالاخنس المنافق ابن شريق والثاني كصهيب دعا الله المسلمين كافة الى السلم والطاعة ونبذ المشاحة والصلح والايمان بسائر الانبياء ليتحد المتشاكسون ويتفق المختلفون فقال (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم) أي استسلموا لله وأطيعوه جملة ظاهرا وباطنا حال كونكم (كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان) بالتفرق والتفريق (انه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (فان زللتم) عن الدخول في السلم (من بعد ما جاءتكم البينات) الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق (فاعلموا أن الله عزيز) لا يعجزه الانتقام (حكيم) لا ينتقم الا بحق * ألا وان هذا النوع البشري سعادته بالصفاء والسلم وشقاؤه بالخلاف والشقاق * فاذا تفرقت الاهواء وزلت القدم واتبع كل امرئ هواه جاءهم العذاب من حيث يرجون النعيم وحل بهم الشر حيث يرجون الخير هذا هو الناموس العام والسبيل الالهي * ألا ترى ان الناس يعذبون بنفس شهواتهم ويذلون بأطماعهم فمن لم يطع فقد انقلبت لذاته آلاما وصارت أفراحه أحزانا كما يرى في الفاجرين الفاسقين حين يقلب الدهر لهم ظهر المجن وكذلك الامم الكاسلة المتنكسة النائمة على وساد الراحة العاكفة على الشهوات يستخدمها أعداؤها بنفس هذه الصفات فمثل الامم اذ ذاك كما قال الله (هل ينظرون الا أن يأتيهم الله) أي أمره أو بأسه (في ظلل من الغمام) السحاب الابيض حيث يرجون الخير (والملائكة) لانهم المسخرون للعالم القائمون بتدبيره (وقضى الأمر) تم بهلاكهم (والى الله ترجع الأمور) فجاءهم الشر حيث ينتظرون الخير والضر حيث ينتظرون النفع كما هي حال ذوي الشهوات والمغرورين والغافلين وأكثر أمم الشرق لاسيما المسلمين فاذا لم يستيقظ المسلمون وفرحوا بأموالهم وأبنائهم كان ما فرحوا به عليهم شقاء وبلاء ثم ضرب مثلا ببني اسرائيل اذ يقول (سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة) معجزة ظاهرة وتبيان في التوراة على أيدي أنبيائهم شاهدات بالحق فاولوا وبدلوا وزاغوا وأتوا بأكاذيب كما يكذب جهلة الوعاظ اليوم على الامة الاسلامية فوعدوهم على قليل العمل كبير الاجر فكان الهدى سبب الضلال والخير سبب الشر (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب) فيعاقبه أشد العقوبة لارتكابه أشد الذنوب فيجعل هلاكه بما ظن أنه حياته كما جعل آيات الكتاب الهاديات سببا للضلال وقد فعل ذلك باليهود كما فعله أيضا بالامة الاسلامية اليوم فلكم افترى الاحبار والرهبان حفظا للرياسة فسلط الله عليهم المسلمين هكذا كذب كثير من أهل العلم في الاقطار الاسلامية وفسروا الاحاديث والآيات على حسب أهوائهم وأزاغوهم عن حكم القرآن فسلط عليهم من سخرهم فكان المفروح به هو المحزن والمطلوب هو المرهوب كالظلل من الغمام * ولما كان ذلك ناتجا من الغرور بالحياة أردفه بقوله (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا) كبلال وعمار وصهيب (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) في الدارين ولما كانت الآية السالفة دعوى للمسلمين أن يدخلوا في السلم والحب العام والطاعة ولا يتفرقوا أتبعها بما يذكر بما كانت عليه الامم قديما فلقد كانوا في جنة السعادة ونعيم الحياة اذ (كان الناس أمة واحدة) وعاشوا قرونا كثيرة كما

تشهد بذلك المكتشفات الحديثة وكابرمى اليه الدين البرهمى فى الهند والبوذ يون فهذه الامم تروى عن أسلافها السلام العام وهكذا تشير أشعار هوميروس الشاعر اليونانى وغيره فحصل الطمع والجشع فاختلفوا (فبعث الله النبيين) وبدأ بنوح وكانت الأمم قبله فى هناء وسعادة (وأنزل معهم الكتاب) أى جنسه ملتبسا بالحق (ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) أى فى الحق الذى اختلفوا فيه فجاء الامر معكوسا والوضع مقلوبا فجعلوا ما كان سبب الهداية للضلال وما هو الخير شرا (وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم) حسدا وظلما لحرصهم على الدنيا (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا) أى للحق الذى اختلف فيه المختلفون (من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) فالله يدعو الناس للوئام والاتحاد ويرشدهم للمحبة والوداد ويذكرهم بما سلف للأمم قبل نوح فقد كانوا فى سعادة وراحة فلما ضلوا أرسل الرسل فغير العلماء واتخذوا الديانات شبكة صياد وحيلة محتال وينادى الله الأمم أن ترجع سعدها وترد مجدها القديم والنعيم * ولما كان السلم العام لم يزل بعيدا واشرب نوع الانسان العداوة والبغضاء واستنبط الظالم وراش سهم الغدر أمر الله النبى والمؤمنين أن تكون حياتهم صبرا وجهادا ليقيموا الحق حسب الطاقة

اذا لم يكن الا الأسنة مركبا * فما حيلة المضطر الاركوبها

فقال (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) حالهم التى هى مثل فى الشدة (مستهم البأساء والضراء) بيان لتلك الحال مستأنف (وزلزلوا) ازعجوا ازعاجا شديدا (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) لتناهى الشدة ويقول بمعنى قال فقيل لهم تبشيرا (ألا ان نصر الله قريب) فالانسان فى الحياة مجاهد لعدوه الخارجى الظالم ويعوزه الثبات ولعدوه الداخلى ويعوزه الصبر وعند اشتداد الخطب يكون الفرج بغلبة الحق على الباطل فى الأمم وبارتياض النفس وراحتها فى الاخلاق ودخول دار السلام بعد الموت * ولما كان انفاق المال أشق على النفس وأشق منه هلا كها أخذ يحرض على الانفاق والجهاد

﴿ روى ﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما ان عمرو بن الجموح الانصارى رضى الله عنه كان شيخا همادا مال فقال يارسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فأجيب ببيان المنفق عليه (قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم) الخير المال وقدم الوالدين لأنهما واجب حقهما أولا ويليهما الاقرب فالاقرب ثم اليتامى الخ وانما كانت الاجابة ببيان المنفق عليهم لان النفقة لا يعتد بها الا اذا وقعت موقعها قال الشاعر

ان الصنيعة لا تعد صنيعة * حتى يصاب بها طريق المصنع

ثم أتبعه بذكر الجهاد بالنفس فقال (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) والنفوس البشرية اذا تعودت الخير ألفته فصار ملذوذا فلا سعادة الا فى لذة النفس ورضاها (والله يعلم) ما هو خير لكم (وأنتم لا تعلمون) ولو ان الناس تركوا أنفسهم وهواها فزينت لهم الحياة الدنيا لصار المحبوب لهم نقمة عليهم كما هو مقصود الآيات السابقة

وهكذا النفوس تحب القعود عن الغزو وهو شر لما فيه من طمع العدو لانه اذا علم ميلكم الى الراحة والدعة والسكون قصد بلادكم ونزل بساحتكم واذا علم أن فيكم شهامة كف عنكم * وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا وقال الزهرى كتب الله القتال على الناس جاهدوا أو لم يجاهدوا فمن غزا فيها ونعمت ومن قعد فهو عدة أن استعين به اعان وان استنفر نفر وان استغنى عنه قعد * قال الله تعالى (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى) ولو كان القاعد تاركا فرضا لما وعده بالحسنى اه واعلم ان هذا القول أجمع ما قيل فى هذا المقام فلتكن الامة كلها فى جهاد ان دخل العدو البلاد وجب الحرب والدفاع على كل رجل وكل امرأة وان لم يدخل وجب أن يجاهد كل

فيما اختص به فالعالم والصانع والزارع كل يتقن ما فى طاقته فلا قتال الا بالعدة والسلاح ونظام الطرق وترقية جميع مرافق الحياة

ثم أخذ يتمم مسائل الجهاد بما روى انه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية فى جمادى الآخرة قبل بدر بشهرين ليترصد عير قريش فيهم عمرو بن عبد الله الحضرمى وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها تجارة الطائف وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة فاحتج قريش على النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا استحل محمد الشهر الحرام شهرا يأمن فيه الخائف ويبذعر فيه الناس الى معايشهم فأجيبوا بأن القتال فى الشهر الحرام اثم كبير ولكن صدكم الناس عن الاسلام وكفركم به تعالى وصدكم الناس عن المسجد الحرام واخراجكم النبى وأصحابه منه هذه الاربعة أكبر عند الله مما فعلت السرية خطأ وتكون النتيجة ان ما فعلتموه من الفتنة بهذه الامور الاربعة أشد من ذلك القتل وهذا معنى قوله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) بدل اشتمال (قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل

(روى) أن عطاء كان يحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا فى الشهر الحرام ولا ان يقاتلوا فيه وما نسخت وجمهور العلماء على انها منسوخة بقوله (اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وبقوله (وقاتلوا المشركين كافة) يعنى فى الأشهر الحرم وفى غيرها اه * ثم أخذ يحذرهم من الكفار لما تقرر ان الناس مختلفون * وقد فسد الزمان فقال (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) هذا اخبار من الله بعداوة الكفار لهم وانهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم وحتى للتعليل وفى المرتد رأيان * فالشافعى يرى انه لا يبطل عمله الا اذا مات على ردته وأبو حنيفة يرى انه يحبط عمله وان أسلم * واعلم ان المرتد يجب قتله وتبين زوجته كما لا يستحق الثواب على عمله كما فصلناه وقوله (ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) ظاهرة مما تقدم نزلت فى عبد الله بن جحش وأصحابه رضى الله عنهم وذلك ان أصحاب السرية قالوا يا رسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا ونطمع ان يكون لنا غزو فأنزل الله هذه الآية اه * ولما فرغ من الجهاد مع الاعداء أخذ يشرح النظام الداخلى وما يحفظ كيان الامة بعد الذب عنها من العدو المهاجم وبدأ بالخمر والميسر وأحكامهما وهو

(المقصد السادس * والسابع * والثامن * والتاسع الخمر والميسر)

(وكيفية الانفاق واليتامى وأحكام النكاح والحيض)

فى هذا المقام ستة أسئلة (الاول) سؤال عمرو بن الجموح المتقدم اذ أجيب ببيان المنفق عليهم (الثانى) سؤال أهل مكة عن الشهر الحرام (الثالث) سؤال عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وجماعة من الأنصار فى الخمر والميسر (الرابع) سؤال عمرو بن الجموح المتقدم أيضا سأل فى هذا عن كيفية الانفاق كما سأل أولا عن المنفق عليهم (الخامس) سؤال المسلمين عن اليتامى (السادس) سؤال أبى الدحداح فى نفر من الصحابة عن الحيض والأسئلة الثلاثة الاولى بلا عطف والثلاثة بعدها بالعطف لافتراق أزمنة الاولى واقتراب أزمان الثانية * ولنفسر المقاصد الاربعة فى قوله تعالى

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ

تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم * ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون * ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين * نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين *

فنقول روى انه نزل بمكة قوله (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) فأخذ المسلمون يشربونها ثم ان عمر ومعاذا في نفر من الصحابة رضي الله عنهم قالوا أفتنا يارسول الله في الخمر فانها مذهبة للعقل فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون ثم دعا عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه ناسا منهم فشربوا فسكروا فأم أحدهم فقرأ أعبد ما تعبدون فنزلت (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك بن سعد بن أبي وقاص في نفر فلما سكروا افتخروا وتناشدوا فأنشد سعد شعرا فيه هجاء الانصار فضربه أنصاري بلحي بعير فشجه فشكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر رضي الله عنه اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت (انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) فقال عمر رضي الله عنه انتهينا يارب والخمر مصدر من خمره اذا ستره سمي به ما اتخذ من العنب والرطب ونقيع التمر والزبيب اذا اشتد وغلا وقذف بالزبد وسمي خمرا لانه كأنه يستر العقل كما سمي سكرا لانه يسكره أي يحجزه فاذا طبخ حتى ذهب ثلثاه حل شربه عند الحنفية وان أسكر حرم لما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه كتب الى بعض عماله ان أرزاق المسلمين من الطلاء ماذهب ثلثاه وبقي ثلثه وفي رواية أما بعد فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فان له اثنين ولكم واحد والطلاء الشراب المطبوخ من عصير العنب * وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما * قال حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها والسكر من كل شراب * ومذهب الشافعي رضي الله عنه ان الخمر عبارة عن عصير العنب النيء الشديد الذي قذف بالزبد وكذلك نقيع الزبيب والتمر والمتخذ من العسل والحنطة والشعير والارز والذرة وكل ما أسكر فهو خمر وأكثر علماء الأمة الاسلامية على سد باب الفتنة يحرمون القليل والكثير مطلقا ومال اليه متأخرو الحنفية والخمر وان أفادت الالتذاذ وتشجيع الجبان وتقوية الطبيعة أولا فكم فيها من رذائل ومضار مما شرحه علماء الغرب ولكم من رسالة في ذمها قرأتها ورواية عن طبيب درستها حتى ألحقوا بها شرب الشاي والدخان والقهوة * ولقد رأيت في كلام هنري الفرنسي في كتابه خواطر وسوانح في الاسلام ان أحد سلاح يستأصل به الشرقيون وأمضى سيف يقتل به المسلمون هو الخمر وادخالها ولقد جردنا هذا السلاح على أهل الجزائر فابت شريعتهم الاسلامية أن يتجرعوه فتضاعف نسلهم ولو أنهم استقبلونا كما استقبلنا قوم من منافقيهم بالتهليل والترحيب وشربوها لأصبحوا أذلاء لنا كتلك القبيلة التي تشرب خمرنا وتحملت اذلالنا * وقال بنتام المشرع الانجليزي من محاسن الشريعة الاسلامية تحريم الخمر فان من شربها من أبناء أفريقيا آل أمر نسله للجنون ومن استدامها من أهل أوروبا زاغ عقله

فليحرم شربها على الافريقيين وليعاقب عقاباصارما الاوروبيون ليكون العقاب مقدرا بمقدار الضرر

ولقد رأيت فى كتاب لطبيب أمريكى يسمى (كيلوج) منع التداوى بالخمر اذبان له ان ضررها فى الجسم عند التداوى أكثر من نفعها بالشفاء المؤقت لما تفعل فى الامعاء وباقى الاحشاء من الضراء (ولما) فشت الخمر فى بلادنا أغرم بها قوم حتى أخربت البيوت وأذهبت العقول ونحن نرقب من الله الخروج من مأزقنا و بعدما كتبت هذا أخذت أقرأ ذلك الكتاب المسمى (كتاب اليد فى الطب) فرأيته كتب فى ضرر الخمر نحو ٣٠ صفحة وكتب فى الدخان والشاى والقهوة والكاكاو وشدد النكير على الناس جميعا جمعت من ملخص ترجمته خطبة مع اضافة شذرات من كتب أخرى وهاك نص ماجاء فى الجرائد والمجلات ببلادنا التى نشرتها فى العام الماضى قبل الطبع

ننشر اليوم خطابا ألقاه (فلان) فى المدرسة الخديوية وكذلك فى الكلية الأميركية على ملأ من العلماء والأطباء وطلبة المدارس العالية المصرية لاسيما طلبة الطب فى موضوع (مطابقة الكشف الحديث لما ورد فى الحديث النبوى من أن التداوى بالخمر ضار) كما قاله أكابر الاطباء فى انجلترا وفرنسا وأمريكا * ولم نقصد بذلك الا ايقاظ أطبائنا وعلمائنا كما يقوموا بما هو مفروض عليهم نحو أبناء وطنهم كما قام غيرهم من الأمم الاخرى * وها هو الخطاب بتمامه * قال حفظه الله

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله (أما بعد) فاليكم أيها السادة الأفاضل يانخبة مصر وأساطين العلم والطب و يازهرة الشبيبة المصرية أنتم قدوة الأمة وعيونها المبصرة وآذانها السامعة ورؤسها المفكرة انتم قادتها وسادتها أنتم الرأى العام أوجه خطابى هذا راجيا أن تصغوا الىّ قليلا لاتلو عليكم ما جاش بقلبى وما أملاه علىّ وجدانى ودل عليه اختبارى مدة الحياة فى هذا الموضوع العظيم وهو (الخمر) كما انى أشكركم على ما تفضلتم به من تلبية الدعوة لسماع خطبتى

أيها السادة ان الامم اليوم قد تنبهت من غفلتها وقامت من سباتها والعلم يعدو حثيثا بالامم الى العلا والانسان اليوم غيره بالامس هذه حركة فكرية عامة للتطور الاجتماعى الانسانى العام ومصر التى شهد لها التاريخ بالتقدم على سائر الامم أجدر أن تدلى دلوها فى الدلاء وأن تبحث مع ذوى الآراء فى الامور الهامة والمسائل العامة وتحذو حذو الامم الرافعة للعلم حتى لايسلقنا خلفنا بألسنة حداد ويقول أبناؤنا (لقد قصر آباؤنا الاولون ونام علماؤنا السابقون) فوجب علينا أن ننقى مجتمعنا من بعض المضار والمصائب التى أهمها مسألة (الخمر)

تحريم الدين للخمر • أيها السادة • حرم القرآن الخمر تحريما قاطعا ولم يستثن حالا من الاحوال ولا أباحه ولا أجازه لهضم الطعام ولا لرضيه لتقوية الشهوة عليه ولا لاكثار الدم فى الجسم بل عمم التحريم فقال (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر و يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون)

التداوى به فى الدين • اختلف الفقهاء فى التداوى به فأباحته طائفة اذا لم يقم غيره مقامه * وقال آخرون الخمر لايتداوى به واستدلوا بالحديث (لم يجعل الله دواء أمتى فيما حرم عليها) و يقول القرآن (فهل أنتم منتهون)

المدنية الحديثة والدين • هجمت المدنية الحديثة فى الشرق وأخذت تسرع فى أسباب الرقى ففشت الخمر وعمت الأمصار والقرى وشاعت بين الخاصة والعامة وتبعها فى ذلك أنواع الحشيش والكوكايين وغيرها و يقول القرآن (رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)

مطاردة المدنية الحديثة للأديان • كان أسلافنا يقيمون الحدود ويجلدون الشارب نحو أربعين جلدة فكان ذلك مخففا من سطوة الخمر ومانعا لطغيانها * وكان لرجال الدين سطوة و بأس وكان الملوك والحكام أقوى معضدين للفضيلة ومنع الخمر امتثالا لقوله تعالى (فهل أنتم منتهون)

جاءت المدنية الحديثة بخيلها ورجلها وشاركتنا فى الأولاد والأموال وهجمت علينا ولم يبق للدين سطوته فانحسر عن المدن الى القرى ثم انحاز الى أطراف البلاد وهى تطارد الدين ولكن المدنية بلا علم ضلال والعلم الناقص وبال والبلاهة

كما قال الغزالى خير من الفطانة البتراء والجهلاء أفضل من الاذكياء المغرورين فاما الدين كله واما العلم كله ونحن أخذنا من الديانات أسماءها ومن العلوم قشورها فخسرنا الصفقتين وربحنا الرزيتين وسبقنا المتدينون وفاقنا من الفرنجة العلماء العاملون فويل ثم ويل لمن لا دين له ولا علم أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . فحق علينا أن نبحث فى موضوع الخمر بحثا علميا حتى نكون أتينا البيت من بابه وأرجعنا الأمر الى نصابه فالعلم اليوم هو السلاح الذى به تصول الفضيلة وبه تحارب النقيصة فبهذا السلاح أقاتل معكم وبهمتكم جيوش الجهل بين أبناء أمتى المصرية المحبوبة فلأقص عليكم أنباء ما عثرت عليه فى هذا الموضوع مرتبا على مقتضى الترتيب الزمانى وينحصر ذلك فى أربعة مباحث وهى

(١) ماقاله علماء الاجتماع من أنه يفنى النسل ويستأصله

(٢) ماقاله علماء التشريع من أنه يورث الجنون فى الاقطار الجنوبية

(٣) أعمال الجمعيات المنتشرة لمنع الخمر وماجاء فى خطبة رئيسها فى مصر

(٤) ماجاء فى كتب الطب الافرنجية وخصوصا الامريكية وكيف منعوا التداوى به

المبحث الاول . قرأت فى كتاب خواطر وسوانح فى الاسلام تأليف (الكونت هنرى كاسترى الفرنسى) المطبوع فى سنة ١٨٩٨ فى ص ١٣٥ (وعندى أن هجرة القبائل الى الصحراء الكبرى جنوبا من الجزائر وهم باطل كالقول بامكان مضايقتهم فينزحون عن البلاد شيئا فشيئا * أما انقراض الاهالى بالتدريج بعد دخول التمدين الاوروبى بلادهم فنحن لا نصدقه الا قليلا فان احتكاكهم بالمتمدينين ربما قلل وسائل العيش عندهم ولكن لا يؤثر فى وجودهم بل لا يزالون يتناسلون أكثر من الاوروبيين ونضيف الى ذلك ان المسكرات التى استعملها بعض الفاتحين لا تؤثر عند أهالى الجزائر لكونهم يمقتونها مقتا شديدا اهـ) ولقد دهشت عند قراءتى هذه الجملة وقلت ماقاله نصر بن سيار

أرى خلل الرماد وميض نار * ويوشك أن يكون لها ضرام

فان النار بالعودين تذكو * وان الحرب أولها كلام

فان كانت أمية فى سبات * فقل قوموا فقد حان القيام

وهنا غاية العجب كيف يقرأ قومى وهم غافلون اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون وكيف يقول ذلك الفرنسى العظيم ان الخمر آخر سلاح يقتل به الأمم المستعمرة وبه فناء نسلهم وأهل بلادى فى غفلة ساهون ولطالما عرضت هذه الآراء على أهل العلم والأذكياء وأقول ألم تقرأ أمتنا هذا الكلام أو قرأوا وهم لا ينتهون فالمسألة موت أو حياة .

المبحث الثانى . قال العلامة الانجليزى (بنتام) فى كتاب أصول الشرائع ترجمة المرحوم (احمد فتحى زغلول باشا) تحت عنوان (الجرائم الشخصية) (النبيذ فى الاقاليم الشمالية يجعل الانسان كالابله وفى الاقاليم الجنوبية يصيره كالمجنون ففى الاول يكتفى بمعاقبة الاول على السكر كعمل وحشى وفى الثانية يجب منع ذلك بطرق أشد لانه شبيه (بالنشرر) وقد حرمت ديانة محمد صلى الله عليه وسلم جميع المشروبات وهذه من محاسنها) انتهى كلامه

المبحث الثالث . منذ ثمان سنين جاء الى مصر رجل من أعضاء دار الندوة (البرلمان) السويدى والنرويجى ذكر أنه رئيس جمعيات منع الخمر فى العالم وأنه زار جميع دول أوروبا والشرق كفرنسا وانجلترا والروسيا والصين واليابان (وكل الحكومات ساعدته) وأن أعضاء الجمعية العاملين يبلغ عددهم ستمائة ألف رجل وذكر أنه فى أمريكا حرم خمسة وأربعون مليونا من أهلها الخمرة على أنفسهم (وكان ذلك قبل الآن وقد حرمت فى هذه السنة تحريما عاما فى هذه البلاد) وقال ان ولى العهد لبلاد السويد ربى على أن لا يشرب الخمر ونحن نفتخر بأنه أول ملك لا يشرب الخمر فى أوروبا

المبحث الرابع . كنت منذ بضع سنين عند طبيب نطاسى مصرى فأرانى كتابا انجليزيا مؤلفه أمريكى وقال ان

مؤلفه يقول فيه انى لست أبحث فى منع الخمر المسكر فهذا فرغ منه العلماء وان بحثى اليوم فى مضاره الطبية وأن التداوى
به يجلب للانسان أمراضا لاقبل له بها فاذن التداوى به ممنوع طبيا وليس فيه أدنى فائدة فقلت له لماذا لاترفع صوتك
بهذا فى البلاد فقال ان اخوانى الاطباء يسلقوننى بألسنة حداد فقلت أليس فى أمريكا علماء محققون فقال بلى ولكن
لايطاع لقصير أمر فلما دعيت للخطابة فى هذا الموضوع طلبت منه الكتاب وهو يسمى كتاب اليد الطبى تأليف الأستاذ
كيلوج كتب تحت عنوان الاستعمال الطبى للخمر من صفحة ١٧٥ الى صفحة ٥٠٤ فلأذكر لكم جلا منه
✻ وعليكم أيها الأطباء ترجمة الموضوع كله والرد عليه ان رأيتم خطأ علماء أمريكا وأوروبا والافساعدوا على منعه
كما منعه أعظم الامم علما ومقاما وهى أمريكا قال المؤلف من كان عنده أقل ريب أوظل الشك أن الخمر سم فليعتبر بما
يكون عند وصوله للمعدة فان الغشاء المخاطى يصير محتقنا ويخرج مقدارا من المخاط ليحمى نفسه وترى غدد المعدة
وفواهاالدافعة تسرع فى اخراج ماوصل اليها بأسرع ما يكون أليس ذلك مزيلا لشك الشاكين وريب المرتابين فى أن
الخمر من أنواع السموم وقال الاستاذ (لبيج) أنه اذا اعتدل الانسان فى شربه قوى جسمه وأكسبه نشاطا وقد نقض
هذه القضية ثلاثة من علماء الكيمياء الفرنسيين وهم الاستاذ لمان والاستاذ يرن والاستاذ دروى ثم الاستاذ
ادوارد سميث الانجليزى وقد برهن الثلاثة الاولون على بطلان ماتقدم بقولهم أن الخمر تخرج من الجسم ولا أثر لها وزاد
الاخير بقوله انه حلل الدم فلم يجد فيه أدنى شئ من العناصر التى يتركب منها الخمر وقال الدكتور ملر الاسكوتلاندى الخمر
لايشفى شيئا ✻ وقال الدكتور هيجنبوتوم أمام الجمعية الطبية البريطانية أنا لاأعلم مرضا شفى بالخمر ✻ وقال الدكتور
جونسون الانجليزى ان الخمر ليس ضروريا البتة ليستعمل دواء ✻ وقال فى ابطال قولهم ان الخمر غذاء وأنه يحفظ الجسم
أو يقوى العضلات ماهذه القوة ان هى الا اسم آخر من أسماء السموم فقولنا فلان نشوان طرب ثمل معناه مسموم
وبرهن على ذلك بقوله اذا أدخلنا الخمر أوأى سم آخر من العقاقير السامة التى تعد بالمئات فى الجسم فان جميع الاعضاء
تستعد للمقاومة والمدافعة لاخراجه من الجسم ومن هنا كان النشاط وقال فى نقض قولهم أن الخمرة تمنع المرض ان
الناس يتعاطون الخمر لامراض مختلفة فاذا كان ماتقولون حقا فأضرار الخمرة أشد من تلك الامراض فتكا بالجسم
فكيف بها اذا كانت لاتشفى منها شيئا فان تجارب الاطباء السابقة تثبت أنها لاتترك أثرا فى النسيج والاثر الحقيقى
انما يكون فى النسيج

وقال الدكتور (سميث الانجليزى) ردا على الاستاذ (لبيج) ان الخمرة يخسر بسببها الجسم جزأ من الحرارة بل
يزيد ذلك الفقد ✻ ومن العجيب أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أثبت ضرر الخمر فى الحديث الصحيح فقد جاء
فى صحيح مسلم مع شرح الامام النووى صفحة ٣٦٤ أن طارق بن سويد سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن
الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال انى أصنعها للدواء فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (انه ليس بدواء ولكنه داء)
أليس هذا الحديث الشريف مقتضى العلم الحديث ✻ يقول الدكتور (سميث) ان الخمرة تسبب للجسم خسارة جزء
من الحرارة وقد منعت الدولة الاميركية الخمرة بتاتا بناء على أمر الاطباء وعلى الاكتشاف الحديث المنافى لآراء الدكتور
(لبيج) وهذا الكشف الحديث معجزة اسلامية وقد أثبت الدكتور باركس ثم السير جون هيل مفتش عموم الجيش
البريطانى والدكتور هنرى مارتس وآخرون غيرهم أن الخمر لايشفى المرض ولاينفع الجسم ✻ وقال فى ابطال قولهم
ان الحب والفاكهة فيهما سم أن بعض الناس يقول اذا كان فى الخمر ضرر فذلك ليس خاصا به انه من الحب والحب فيه
قليل من السم فلم أكثر الاطباء من ذم الخمر مع ان السم عام فيه وفيما أخذ منه فأجاب عن ذلك بقوله نعم ان الخمر من
الحب ومن ذا يقول أن الحب فيه سم ان الحب لم يكن سما الا بعد اتلافه والخشب لا يكون دخانا الا بعد اتلافه فليس
الخشب دخانا وليس الحب خمرا ✻ ولاجرم ان السم حدث فى الفاكهة والحب بعد اتلافهما فالحب لاسم فيه وكذلك
الفاكهة ولقد شاعت هذه النظرية بين الجمهور وهى كاذبة وهل تدس الطبيعة التى أعدت لنا الحياة السم فى الطعم كلا
✻ وقال فى ابطال قولهم ان الشرب المعتدل لايضر أن كلمته مشتقة من كلمة لاتينية معناها السم فالشرب المعتدل

يصيرعادة لا يتخلى الشارب عنها فهو يتجرع السم قل أو كثر فويل الشاربين وأبطل قولهم ان الخمر الصافى هو سم صاف فاذا احتج الشارب بامثال هذا فقد ضل ضلالا مبينا لانه أثبت أن الخمر سم سواء أكان نقياً أو مخلوطا فهو ضار بالصحة مهلك للأبدان ثم ذم الاطباء الذين يتعاطون الخمر والمسكرات فقال انه من موجبات الاسف الحزن ذلك المنظر الذى تتقطع له القلوب أسى أن يخضع الانسان العالم أمام جنود الشهوات والرذائل المخزية وبما هو جدير بالفكر أن أولئك الاطباء الذين ينصحون بعدم شرب الخمر ويحضون عليه يصبحون هم أنفسهم مغرمين به عاكفين عليه فيكونون صرعى نصائحهم ومرامى سهامهم وقتلى علمهم وهم لا يشعرون * أو ليس من النتائج الواضحة بالدلائل الساطعة أن أحكامهم فى ذلك أوحت بها شهواتهم وقضت بها أوهامهم وهم عن العلم معرضون ألا ساء ما يصنعون * وأخذ يبطل قول الشاربين ان الخمر يمحو الهم والكسل ويجعل الفقير الذى لا منزل له ولا صاحب يشعر بأنه غنى أو ملك وقد أطال فى ذلك وقال فى الرد عليه ان الانسان اذا سكر حتى أصبح لا يشعر بما هو عليه وفقد الاحساس ونسى ما هو فيه من شقاء الحياة ومتاعبها العاجز عن الاعتبار بتلك التجارب العالية الرفيعة القدر الشريفة المنزلة والشعور الشريف الذى تكون فيه البهجة العالية بالحياة الحقيقية ان الفرار من الحق جبن * وأبطل ما يدعيه الشاربون من قولهم ان الخمر لا يضر فى ودحض حجة أولئك الذين يتعاطون المخدرات والمسكرات من الافيون والخمر ونحوها * وقال انهم فريسة له ويأتيهم الموت من حيث لا يعلمون وأخذ يدحض حجة أخرى للشاربين الذين يقولون ان الخمر عادة انسانية وطبيعة بشرية وكيف لا ونحن لا نرى أمة الا شربت الخمرة ولا جيلا الا عاقرها ولا قبيلا الا كرع منها وها هم أولاء الصينيون واليابانيون والشرقيون والغربيون والمسلمون والنصارى واليهود والمجوس والبوذيون كل منهم يشربها ومن ذا يقاوم الطبيعة أو من ذا يقف فى طريقها * فرد عليهم قائلا أليس فى هذه الامم ضالون وفاسقون وكذابون ومنافقون ومخادعون ولصوص خائنون فكيف يحتج الشارب بفريق السكارى مدعيا أنه طبع فى البشر أفلا نأسف لشيوعه ونأنف من وقوعه وتكاثره فى بنى الانسان انه من موجبات الحزن والاسف لا مما يحتج به للاعتذار ويصار اليه بالتقليد والاتباع * هذه هى نبذة من آراء المؤلف كيلوج الأمريكى ولا ريب أن الحكومات لا تقطع أمراً حتى يثبته العلماء ويطلبه الشعب ولولا أمثال مؤلف هذا الكتاب ما منعت أمريكا الخمر ومصر أولى بذلك لانها فى أول نهضتها بين الدول الاسلامية ولان الخمر أضرتها كثيرا * ولى أمل فى رجال الطب وعلماء الامة أن ينصحوا الشعب بالاقلاع عن هذه العادة والله موفقنا الى الاصلاح

هذه هى الخطبة ذكرتها هنا تذكرة للمؤمنين

(متناقضات الامم وعجائب الاسلام)

تأمل أيها الذكى وتعجب كيف كانت أمريكا النصرانية أول من نادى بمنع الخمر وتحريمه ودينها لا يمنعه ولقد بلغنا لهذا العهد أن هذه الامة كسبت من تحريم الخمر سعة فى الرزق وبسطة وأمنا فى البلاد وزادت مجالس العلم وكثر الداخلون فى المعاهد العلمية وقل القتل والسرقة وازدادت الاموال بنسبة مطردة * هذا هو سر الاسلام وتحريمه للخمر ثم انظر كيف كان المسلمون الذين يحرم دينهم الخمر يعاقرونها صباحا ومساء فى مصر بلادى وفى الاقطار الاسلامية الاخرى ولم يحرم شربها فى تركيا الا بعد أن استقلت البلاد فى هذا العام فحموها وحرموها وهى بلاد اسلامية * ثم أقول ان المسلمين تركوا العلوم الكونية ونسوها ولم تكن عنايتهم موجهة الا الى الامور الفقهية ومنها تحريم الخمر فاذا كانت عنايتنا موجهة للحلال والحرام ونسينا العلوم التى فى جمال النجوم وبهجة الزرع والشجر فتأخرنا فى كل شئ وسبقنا الفرنجة واختصاصنا انما هو بعلم الفقه ثم ننظر فنرى ان الخمر أول من منعها الفرنجة والمسلمون يكثرون منها صباحا ومساء فيالله ماذا جنينا وماذا أهملنا فلا فى العلوم الكونية نجحنا ولا فى الحلال والحرام اتقينا والفرنجة سبقونا فى الامرين فما فعل المسلمون اذن وعسى أن يكون الوقت أزف كما هو أملنا وان يرجع الى هذه الامة مجدها و يبزغ قمرها و يظهر

فضلها وتأخذ دورها فى العالمين

(تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وذكر أنها نجسة)

ثم اعلم ان الامة أجمعت على تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وتحريم ثمنها وقد كانوا فى الجاهلية يصيبون الربح من ثمنها وفيها أيضا الفرح والطرب وهذه من المنافع المذكورة فى الآية فحرمت والخمر نجسة العين فقد حكم العلماء بنجاستها للزجر عنها

(حكم الميسر)

(أما الميسر) فهو القمار واشتقاقه من اليسر لانه أخذ المال بسهولة من غير تعب * وقد كان فى الجاهلية نوعان أحدهما أن يخاطر الرجل على أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب باهله وماله * والثانى أنهم كانوا يذبحون جزورا و يجزئونها ثمانية وعشرين جزأ ثم يسهمون عليها بعشرة أقداح يقال لها الازلام والاقلام سبعة منها ذات انصباء أولها الفذ بواحد وأعلاها المعلى بسبعة ومجموعها ٢٨ وثلاثة لا انصباء لها وهى الوغد والمنيح والسفيح * وأما السبعة فهى الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى وكانوا يجمعون القداح فى خريطة يسمونها الربابة و يضعونها على يد رجل عدل عندهم يسمونه المجيل فيجيلها فى الخريطة و يخرج منها قدحا باسم رجل منهم فايهم خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر ما يخرج من القداح وان خرج له قدح من الثلاثة التى لا انصباء لها لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزور كله وقيل لا يأخذ ولا يغرم ولعلهما كيفيتان وكل ما فيه خطر فهو قمار حتى لعب الصبيان بالجوز والقمار وان كان فيه أخذ المال بسهولة فى وقت ما فان فيه خطرا وليس مكسبا طبيعيا للنوع البشرى وانما المكسب الطبيعى ما كان من أعمال جرت العادة بنفعها واستثمارها * ومن عجب ان هذا النوع من الخطر عاش مع الانسان من مبدأ الخليقة حتى رأوا آثاره فى الخرابات القديمة من العصور الذاهبة كان هذا الانسان عشق المغالبة والمخاطرة فابرزها فى صورة القمار غلطا والا فانه خلق ليركب كل صعب وذلول و يرقى الى العلا و يغالب الطبيعة و يذلل المسالك و يقتحم الاخطار و يقامر على روحه وقواه * و يقول اما هالك واما مالك * فالقمار رمز فقهه العالمون واغتر به الجاهلون حرم الله القمار وأوجب السعى للعلا والقمار على الارواح والمخاطرة بالاشباح واقتحام الاخطار هذا هو القمار المرغوب والسبيل المطلوب

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل * عفاف واقدام وحزم ونائل

وقد ابتليت الامة المصرية اليوم بالخمر والقمار جلبهما الاورو بيون واستتروا فى المحال المقوية واستهووا العقول وضحكوا على الذقون وانتهبوا الاموال وأخلوا الديار وبات الشاربون على شر الاحوال وهم غافلون وأولئك ساهرون مستيقظون * ومما يذكره العلماء عادة فى هذا المقام النرد والشطرنج فاما النرد فيحرم اللعب به قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لعب بنرد أو نردشير فقد عصى الله ورسوله أخرجه أبو داود * وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه النرد والشطرنج من الميسر * ومذهب أبى حنيفة فى الشطرنج انه حرام برهن و بغير رهن * ومذهب الشافعى انه مباح اذا خلا الشطرنج عن الرهان واللسان عن الطغيان والهذيان والصلاة عن النسيان اه (أقول) ولقد أصبح اليوم عمل كثير من الطبقة المتعلمة فى بلادنا ولو كان العلم محبو بالهم لكانوا به فرحين وعليه عاكفين * فليحبب العلماء العلم للشبان باظهار الجمال والمحاسن فى هذه العجائب الكونية لتصدهم عن ضياع أوقاتهم وذهاب مجدهم وهم نائمون لاعبون اه * ولما كان فى القمار نوع من اطعام الفقراء لان تلك الاسهم كانوا يعطونها للفقراء و يفتخرون بها و يعدون من لم يتقدم لذلك برما أى بخيلا شحيحا أعقبها الله باية (و يسألونك ماذا ينفقون) فاجيب بان الذى ينفق هو العفو وهو ما فضل عن قدر الحاجة والتصدق عن ظهر غنى فالعفو نقيض الجهد

(روى) ان رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب أصابها فى بعض المغانم فقال خذها منى صدقة فاعرض عليه الصلاة والسلام عنه حتى كرر عليه مرارا فقال هاتها مغضبا فاخذها فحذفه بها حذفا لو أصابه لشجه ثم قال يأتى أحدكم

بماله كله يتصدق به و مجلس يتكففه الناس انما الصدقة عن ظهر غنى . فكان الله عز وجل لما منع التصدق بطريق مجهول وغير منظم وهو القهار الذى فيه منفعة الفقراء وخزى الاغنياء كما يفعل اليوم عند فعل المبرات أمر أن يتصدق الناس بما فضل عن حاجتهم بطريق منظم واضح معلوم السبيل ولذلك أعقبه بقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة) وأما مسألة اليتامى فذلك انه لما نزل قوله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما الآية اعتزلوا اليتامى وتخالطتهم فانزل الله هذه الآية (ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم ان الله عزيز حكيم) العنت المشقة * وحاصل الامر يرجع الى أن المخالطة مرغوب فيها مطلوبة على شريطة ارادة اصلاحهم واجتناب الطمع فيما عندهم والله أعلم بما فى القلوب ولو شاء الله لكلفكم ما يشق عليكم وعليهم فى عدم المخالطة ان الله عزيز غالب يقدر على الاعنات حكيم يحكم بما تقتضيه الحكمة * ثم أخذ يشرح نكاح المشركين فحرم نكاح كل كافر كتابى وغيره وكذلك حرم نكاح كل كتابية ومشركة وخصصت الثانية بآية والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والمراد بالعبد والامة الرجل والمرأة لانهما عبد الله فهذا ملخص قوله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة) اشتركت معكم فى الرأى والدين وتشابه الاخلاق والعادات الدينية (خير من مشركة ولو أعجبتكم) لأن الجمال الظاهرى لا ثبات لمحبته الا اذا قوى بالباطنى * فالظاهر كالزهرات والباطن كالثمرات والزهرات ذابلات (أولئك يدعون الى النار) وأنتم تدعون الى الجنة واختلاف المشارب داع لاختلاف النفوس وهو سبب الاذى ونكد العيش (والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه) ولما كان هذا القانون نظاميا خلقيا أفاد شرفه فقال (ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) ولما كانت مسألة الحيض مختصة بالنساء أعقب ما ذكر بها فقال جل جلاله (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين) كان الناس فى الحيض قسمين * فاليهود كانوا يعتزلونهن فى كل شئ حتى فى الاكل وكان النصارى يجامعونهن ولا يبالون بالحيض وكانت العرب كاليهود فسأل أبو الدحداح وجمع من الصحابة النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت . والمحيض الحيض يقول عز وجل ان الحيض أذى تنفر منه النفس ويستقذره الطبع ويؤذى من يقربه فلا تجامعوا النساء فى المحيض حتى يطهرن اما بالاغتسال كمذهب الشافعية واما بانقطاع الدم فحسب كمذهب الحنفية وعند ذلك يحل الجماع فى مكان الحرث لا غيره . وأجمع العلماء على جواز الاستمتاع بالحائض بما فوق السرة ودون الركبة ويحرم على الحائض الصلاة والصوم ودخول المسجد ومس المصحف وحمله وعليها قضاء الصوم دون الصلاة * ولما كان الشرع موقظا للنفوس منبها للعقول لم يدع فرصة تمر الاذكر ولا اجابة عن سؤال تقال الاوعظ وحذر فانظر كيف تسامى عن المسائل الفقهية الى المعانى الحكمية وتعالى عن الاذى والحيض بعد الاجابة الى الحكمة التى أودعها والخلقة التى أبدعها فقال أيها الناس ما الشهوات الا آلات للتناسل وما نساؤكم الا مزارع وما أنتم الا زارعون فاياكم ان تكون مقاصدكم الشهوة فحسب وانما يراد تناسلكم فالشهوات مقصودة لغيرها وما أريد لسواه لا يليق ان يزاد فيه عن الحاجة وليكن أشرف مقاصدكم وأهم أغراضكم الولد فما الشهوات الا مقدمات والمنافع نتائج وكما ان ثمرة الغذاء البقاء فثمرة الجماع بقاء النسل وكأنه نبه ان القصد من الطهارة والنجاسة وأحكام الشرع ماهو شريف من بقاء الاجسام وطهارة الارواح * ولما فرغ من أحوال الزواج وأحكام الحيض أخذ يبين أحوال الطلاق على الترتيب الطبيعى العجيب وابتدأ بذكر الحلف بالله وأنه لا ينبغى أن يجعل عرضة وهو

(المقصد العاشر)

قال الله تعالى : وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ

النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

العرضة من قول الرجل قد جعلتني عرضة للومك وقال الشاعر * ولا تجعليني عرضة للوائم * وان تبروا تفعلوا البر فتكونوا بررة . اعلم أن المؤمن الذى يعرف الله جل جلاله يعظم جلاله فى قلبه و يمتلئ هيبة لعظمته وتعظيما لقدرته فيـنزهه عن ان يمر اسمه بلسانه فى محقرات الامور وصغائر الاشياء بل يتعود الصدق فى القول حتى يثق به الناس و يعتقدوا أنه من الصادقين واذا كان من يحب أحدا من المخلوقين يغار عليه من أن يكون اسمه عرضة للقائلين فما بالك بالاله خالق السموات والارض كيف يقرن اسمه بالأمور المحتقرات فيحلف باسمه على متاع أو فعل أو ترك * واعلم ان من اعتاد الحلف فى صغائر الامور وكبارها لا يلبث أن تصير له عادة محكمة وجبلة راسخة فيسبق لسانه للحلف صدقا وكذبا حقا وباطلا فيستحق مقت الله وغضبه و يحتقره الناس فلا يثقون بقوله ولا أيمانه اذا حلف فيخسر ر ضا ربه وثقة الناس به . واذا كان أولئك الذين يكثرون القول يزدر يهم الناس فما بالك بمن يتجشم أوعر مسالكه و يقتحم هضابه من الحلف والأيمان الصادقة والكاذبة فأولئك شر مكانا وأوهى مكانة وأنزل مرتبة . يقول الله ولا تطع كل حلاف مهين و يقول عليه الصلاة والسلام (اليمين الغموس) التى تغمس صاحبها فى نار جهنم لكونها فاجرة تترك (البيوت بلاقع) أما أولئك الصادقون فى أقوالهم الذين لا يحلفون فهم بررة بتعظيم مقام الله عز وجل متقون ما يخل بتعظيم مقامه وجلاله مصلحون بين الناس لثقة الناس بهم فتقبل حججهم لصدق أقوالهم وقال تعالى (واحفظوا أيمانكم) وكان العرب يمدحون الانسان على الاقلال من الحلف قال الشاعر

قليل الألايا حافظ ليمينه * وان سبقت منه الألية برت

أى لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم لأجل أن تكونوا بررة مصلحين بين الناس لوثوقهم بكم * وللآية معنى آخر وهو ان العرضة الشئ المانع للناس من السلوك والمرور واعترض فلان كلام فلان جعل كلامه معارضا لكلامه أى مانعا من تثبيته وعليه فالمعنى ولا تجعلوا الله عرضة ومانعا بسبب أيمانكم من أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس وذلك أن الرجل كان يحلف على ترك الخيرات من صلة الرحم واصلاح ذات البين فاذا طلب منه ذلك يقول أخاف الله ان حنثت بيمينى فيترك البر ليكون بارا بيمينه فنزلت هذه الآية وأمر الانسان أن لا يجعل الله بسبب الحلف مانعا من تلك الخيرات والصلات والصلح بين الناس وحينئذ يحنث ويكفر عن يمينه * وقوله سميع عليم أى يسمع أيمانكم و يعلم نياتكم من تعظيم الله والاعراض عنه * وقوله لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم الآية * قال أبو حنيفة اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب والمعنى لا يعاقبكم بما أخطأتم فيه من الأيمان ولكن يعاقبكم بما تعمدتم الكذب فيه والله غفور حيث لم يؤاخذكم باللغو حليم حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجد تربصا للتوبة

(تفصيل الكلام على ثلاثة مواضيع من الآيات السابقة)

(الميسر والطهارة وصون اللسان عن الحلف)

الاول الميسر قد عرفت طريقة الميسر عند أسلافنا العرب وكيف كانوا يذبحون جزورا و يقسمونه ٢٨ جزأ و يجعلون لكل قدح منها جزأ أو أجزاء والقداح عشرة سبعة منها لها انصباء فالاول ١ والثانى ٢ وهكذا الى السابع وهو القدح المعلى فله ٧ ومجموعها ٢٨ وهذه القداح والسهام متى أخذت انصباؤها من الجزور تصدقوا به على الفقراء ولم يكن ذلك باب ربح بل كان من باب المفاخر ومع ما فى هذا النوع من العطف على الفقراء حرمه الله تعالى فان المدار فى تربية الامم على تقوية الارادة والعزيمة * فانظر الى ما طرأ على الأمة الاسلامية بعد ألف وثلثمائة وأربعين

سنة أنظر كيف تنزلت أخلاق بعض الأمم الاسلامية التى نزل الفرنج بساحتها ، لقد ابتدعوا من الفنون المرجع مايذيب المهج و يغضب الرب و يزرى بالشرف الرفيع و المجد المنيع و الهمة القعساء و أهل الشريعة السمحاء

(ذكر بعض الميسر فى بلادنا المصرية اليوم)

(سباق الخيل ـ رمى الحمام ـ التيرو ـ يانصيب . اللوتريه)

اعلم أنى لما وصلت الى هذا المقام عند طبع التفسير أحببت ان أشاهد بنفسى بعض تلك الأماكن التى ابتدعها الفرنجة فى مصر ليكون قولى عن مشاهدة فصاحبنى الیها فاضلان مفتشان برقبان اللعب من وزارة الداخلية وهما من المغرمين بالعلم الباحثين عن الحقائق فتوجهنا الى محل صيد الحمام بشبرا و يسمونه (التيرو) كلمة طليانية يوم ١٨ مارث سنة ١٩٢٣ فوجدنا مكانا متسعا فى الفضاء عليه سور فى صدره كراسى للجلوس وهناك أدوات الرمى وترى الرماة هناك مصطفين فى مدخل المكان وقد كانوا فى ذلك اليوم ١٥ راميا كل منهم يحمل بندقيته يرمى بها وهناك أوراق معلقة بالحائط و باسم كل واحد من هؤلاء الرماة جلة فيأتى المقامر و يختار ورقة يدفع ثمنها وتكون من الورق الخاص بمن يراه غالبا من الرماة ومتى أخذت الاوراق يبتدئ الرمى

(صفة الرمى) قد كانوا من قبل يرمون الحمام المحبوس فى أقفاصه فيطيره صاحب المحل وهو الافرنجى و يرمى الرماة واحدا بعد واحد ، فانه يطير حمامة فيضرب زيد و يطير أخرى فيضرب جرجس * فمن كان أكثر اصابة من هؤلاء الرماة كان هو الفائز وحينئذ يكون ما اجتمع من النقود كلها مصروفا لمن أخذوا باسم هذا الفائز يقسمونه بينهم و يحرم الباقون ثم يعاد اللعب و يعاد سحب الورق وهكذا

ولما رأى رجال الحكومة ان ضرب الحمام فيه ابادة للنوع استبدلوا به أطباقا مصنوعة من الزفت والجير والاسمنت وهناك آلة شاهدتها ترفع تلك الاطباق للجو فتطير كما يطير الحمام ويضرب بها أولئك الرماة كما يضربون الحمام ، وهناك محل آخر للصيد ، وهذان المكانان يكسبان فى السنة ما بين ٢٠ و ٢٤ ألف جنيه * و بيان ذلك ان المقامرين كلما وضعوا نقودا كان لصاحب المكان منها اثنا عشر ونصف فى المائة من هذا المبلغ والحكومة تأخذ من هذا ثلاثة ونصف فى المائة توزعها على الجمعيات الخيرية يقمنها المصرية نحو الثلثين وللفرنجية نحو الثلث * ثم ان اللاعب كلما لعب دورا فقد بعض ما معه حتى يرجع خاوى الوفاض صفر اليدين لا يملك شروى نقير * وهؤلاء الرماة كل من فاز منهم يعطى جنيها واحدا من يد صاحب المحل و بعضهم شرقيون و بعض منهم غربيون

(٢) سباق الخيل عندنا بالبلاد المصرية)

و يقرب من هذا سباق الخيل ببلادنا ذلك أن المقامرين يأخذون الورق كما تقدم فى الرمى والمال المجموع يأخذ منه صاحب المحل نحو العشر وليس للحكومة الا مائة جنيه فى كل سباق وصاحب المحل الافرنجى هو الذى يعطى للفرس السابق جائزة فاما النقود فانها تفنى بتتابع الرهن كما مر فى السابق والذى يركب هذه الخيل فى السباق سائسوها أوغيرهم وليس لأصحاب الخيل من نصيب فى فضيلة الركوب بل ذلك المرجع

(السبق والرمى فى الاسلام ومقارنته بما عندنا اليوم)

ان فى الكتب الفقهية بابا واسعا يسمى (كتاب السبق والرمى) كما يقولون كتاب الصلاة وقد جاء فيه ان المسابقة سنة نبوية باجماع المسلمين لقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) والقوة هى الرمى * ولقوله صلى الله عليه وسلم (لا سبق الا فى خف أو حافر أو نصل) فيسابق الناس على الخيل والابل والفيلة و بالرمى بالسهام والرماح والاحجار والمنجنيق وذلك هو الذى كان معروفا عند أسلافنا المسلمين * وقال صلى الله عليه وسلم (ارموا بنى اسماعيل فان أباكم كان راميا) وقد كانوا يتعاقدون فيما بينهم على المسابقة برهان على شرط أن يكون ذلك مما يعين على الجهاد ومن فاز

أخلو هن صاحبه وقد كان ذلك التشويق للمعالى والتعويد على اقتحام الاخطار ونيل المجد وحفظ البلاد * فانظر كيف غفل المصرى عن ماضيه وحاضره وهو جاهل بما كان فى تاريخ أجداده من العز والانفة والشمم فأصبح الرامى الآن أجيرا عند صاحب المكان المعد للصيد وهو الذى يأخذ مال الحاضرين ثم ان المقامرين يكسب بعضهم من بعض وليس لهم فى الرمى أدنى نصيب * فانظر كيف جهل الراى فصار أجيرا وجهل المقامر الامرين (١) ليس له حظ فى الرمى ولا فى السبق (٢) وان صاحب المحل هو الذى يستنزف ثروتهم جميعا وهم غافلون * والذى أراه ان يجعل السباق والرمى فى كل قرية و بلدة بنظام تام برهن و بغير رهن على الطريقة الاسلامية الشريفة و يمرن كل شاب مسلم على ذلك تقوية لجسمه وتشجيعا لحماية البلاد وحفظا للديار من اغارة الاعداء * أما هذا الذى رأيته فانه يورث البطالة والكسل ويخرب البلاد ويغنى الفرنجة الذين هم بذلك فائزون

(٣) النوع الثالث يانصيب أو اللوتريه

وكيفيته أن يبيعوا أوراقا كل ورقة بقرش مثلا وهذه الاوراق ربما بلغت مئات الآلاف و يسمونها (نمرا) و بعد جمعها يسحبونها كما كانت تفعل العرب قبل الاسلام و يجعلونها فى صندوق فتخرج منها مئات تكسب كل واحدة منها جنيها واحدا مثلا وعشرات تكسب الواحدة منها من ١ الى عشرة وآحاد تكسب كل واحدة منها عشرات الجنيهات وواحدة فقط تكسب مئات الجنيهات * وأما بقية النقود ففى جيوب الفرنجة وقد نشروها فى بلادنا وأعدها بعضهم للاحسان على فقرائهم كما عند أسلافنا حذو النعل بالنعل

ان سباق الخيل والرمى قد مسخا مسخا فاصبحا عارا على الامة الاسلامية * أصبح الرمى وسباق الخيل مرتزقا للفرنجة فيأخذون عشرات الالوف من جيوب المصريين * و ياليت الامر وقف عند ما ذكرته بل هناك محال فيها أنواع من القمار مرية يلعب فيها الاغنياء وأهل الوجاهة والعظماء وهم كالسابقين يضيع مالهم بمئات الألوف فى يد الاوروبيين وهم جميعا غافلون وكل حزب بما لديهم فرحون * ولعمرك ماشبهتهم حين رأيتهم الا بنعاج يجز صوفها ويؤكل لبنها وسمنها ويشترى البرسيم من ذلك الثمن * يكسب زيد من المقامرين جنيها وهولم يأخذه الا من جيوب أصحابه المصريين وصاحب المحل الافرنجى هو الفائز بثمن مايدفعون فى كل مرة من مرات اللعب فيبنى القصور والدور فى البلاد و يخرب المصرى و يبيع ماورث من آبائه المثرين * واذا كان أجدادنا العرب قد كانوا يقامرون للفضل على الفقير كما فى (يانصيب) وقد حرم عليهم بل أمروا بالانفاق اختيارا فكيف نقامر قمارا لاحظ للفقير فيه من مالنا وانما الحظ للاجنبى يأخذ المال ونحن غافلون * ولم يجز فى الاسلام الرهان الا فى السباق وفى الرمى على الطريقة الشريفة * أما هذه فهى مضيعة للمال مخجلة للامة والمال فى يد الاجانب والاجانب هم الفائزون * ليكن السبق والرمى فى سائر البلاد فى القرى وفى المدارس وفى الجامعات الدينية * انها من الدين ان لها فى الفقه كتابا ككتاب الصلاة * وليست لجماعة من الفرنجه يضحكون على أذقان المسلمين * المسلمون فيها مقصرون * ولقد أديت ما على والله هو الولى الحميد (انما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)

(المسئلة الثانية الطهارة)

يقول الله عز وجل (ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) أى يحب التوابين من الذنوب و يحب المتنزهين عن الفواحش والاقذار كمخالطة الحائض مخالطة خاصة

فانظر كيف قرن التوابين بالمتطهرين وجعل حب الله لهما معا ولم يجعل التباعد عن قذر الحيض وملامسة الحوائض من موجبات حب الله تعالى وكيف كان للتوبة ذكرمعها فاعلم ان هذا هو السر الذى عرفه علماء الشرق قديما والغرب حديثا * أما أهل الشرق فقد شرحه الامام الغزالى منهم أوفى شرح وجعل العلاقة تامة مابين الطهارة الظاهرية

والطهارة الباطنية وان الظواهر تدعو حثيثا للبواطن ولما كان الانسان شديد العناية بطهارة جسمه ونظافة ظاهره جرّ ذلك الى العناية بالباطن وليس المقصود من هذا ان كل من كان أنظف جسما كان أورع كلا كلا والا فالعروس اذن تكون أطهر العالمين قلبا وانما جرت العادة ان من عجز عن الصغائر فهو عن الكبائر أعجز . فمن أعجزه ظاهر جسمه عن النظافة والعناية فانه عن العناية بقلبه وعمارة نفسه أعجز . ولذلك ورد اصلحوا ظواهركم فعسى ان تصلح بواطنكم . فظواهر الجسم أقرب لنا من بواطن النفس . واذا كان الانسان يجهل ظواهر القرآن فهو عن بواطنه أعجز فهكذا من لم ينظف ظاهره عجز عن نظافة باطنه ونظافة الباطن ونزاهتها شاقة صعبة المسالك وعرة الطرق وهى المقصودة بالذات من كل عبادة وطهارة وزكاة وصلاة وحج وصيام كل تلك الظواهر ليس لها نهاية ولا غاية الا جمال البواطن . وكيف تطير النفس الى العلا وتظهر لها محاسن هذا العالم الجميل والقلب مشحون بالكبر والاعجاب بالنفس وبالحقد والحرص والطمع والتملق والرياء والغيظ والكد وضياع الوقت والكسل والاسراف فى الكلام وفى الخصام والجدال . كل ذلك اسوار مانعة وحصون لا يقدر العلم أن يهدمها فيصل للنفس وجسور ليس فيها منافذ لسوق أرواحنا وأمراض مانعات من الشهوة لتعاطى الغذاء اللذيذ والفاكهة التى ليست مقطوعة ولا ممنوعة

تلك الامراض النفسية التى تغشى على القلوب منعت كثيرا من النفوس الانسانية ان تتمتع بجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين جنة العارفين هى جنة العلم جنة الحكمة ومن لم يدرك تلك البهجة فى الدنيا مات وليس له حظ ان كان صالحا الا فى الجنة المحسوسة وهو غافل ساه على قدر ما نال فى الحياة

هذا هو الذى يدور عليه كلام حكماء الاسلام وكبرائهم وكبار الصوفية فيهم وهم أهل الشرف وذلك أنسب بقوله تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين

وأما ما قاله علماء الغرب فاليك منها ما قاله العلامة بنتام الانجليزى فى أصول الشرائع وقد ترجم هذا الكتاب الى كثير من اللغات الاوربية وهو مترجم الى اللغة العربية عن الفرنسية ترجمه المرحوم أحمد فتحى باشا زغلول قال فى صفحة ١١ من الجزء الثانى عند الكلام على المسجونين

النظافة والصحة

ذهبوا الى انه يجب تطهير المسجون قبل ادخاله السجن وان يحاط ذلك بصلاة أو موسيقى خشنية ليكون مؤثرا على فكره ثم يلبس لباسا خشنا أبيض ليضطر الى حفظه نظيفا ويحلق رأسه أو يقص قصا جيدا ثم ينبغى استحمامه فى أوقات معينة ويلزم منع التدخين وكل عادة لا تليق بنزل نظيف ثم تغيير الملابس فى أوقات مخصوصة الى ان قال على انه يوجد بين التنعم الجسمى واعتدال الملكات النفسية ارتباط كثير لاحظه كثير من المؤلفين فان النظافة تبعد الكسل وتحمل المرء على التحرز فى أفعاله والتمسك بالوقار فى أطواره والرابطة بين نظافة الجسم وطهارة النفس شديدة جدا حتى ان شرائع المسلمين حثت عليها حثا كليا وجعلتها من الواجبات الاولية . فمن لم يصدق بتلك الاديان لا ينكر تأثيرها الجسمانى . هذا ما كتبه العلامه بنتام المشترع الانجليزى فى كتابه أصول القوانين أى تلك القواعد الكلية التى من ضوئها تقتبس القوانين ثم يحفظها تلاميذ مدارس الحقوق ثم يطبقونها على الحوادث فى سائر الامصار فهو اذن فوق واضع القانون وواضع القانون فوق القاضى انظر أليس قوله ان بين نظافة الجسم واعتدال الملكات النفسيه ارتباطا وان هذا لاحظه كثير من المؤلفين هو بعينه ما ذكره علماؤنا من أن نظافة الظواهر تدعو حثيثا الى نظافة البواطن التى هى المقصود الاعظم . أو ليس ذلك بعينه هو قوله تعالى هنا ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين فذكر لفظ يحب مع التوبة وهى راجعة الى طهارة الباطن وسلامة النفس واعاده ذكر الحب ثانيا مع الطهارة وهى تشمل الحسية والمعنوية وقدم الطهارة الباطنة لانها هى المقصودة ثم أتبعها بطهارة الجسم بحسب اللفظ لانها وسيلة أليس اقتران الظاهر بالباطن فى الآية هو بعينه ما قاله حكماء الاسلام فى الشرق وحكماء الشرائع والقوانين فى الغرب

هذا هو سر قوله تعالى (يحب التوابين ويحب المتطهرين)

(المسألة الثالثة) تنزيه الله عن الحلف باللسان

لقد ذكرنا للآية وجهين أحدهما وهو المقصود هنا ان العرضة من قول الرجل للرجل جعلتني عرضة للومك فاذا نطق لسانه بالكلام وأكثر من الحلف وجعل الله عرضة لايمانه كذبه الناس وضاعت ثقتهم به ولم يصلح لان يصلح بينهم فاما اذا ما احترس من الكلام وحفظ لسانه وصان مقامه وكان موفرا في نفسه صار قوله حجة وصار تقيا لانه اتقى شر لسانه والغوائل التي تنشأ منه وأصبح وقورا يمكنه الاصلاح بين الناس هذا هو المعنى الذي ذكرته فيما تقدم

أقوال علماء الشرق والغرب فيما يناسب هذه الآية

فقد شرح علماء الاسلام قديما آداب النفس ومن أهمها آداب اللسان وليس كلامي الآن في الحل والحرمة ولكن كلامي في النتائج والفوائد الدنيويه المشاهدة على الوجوه وفي الاخلاق والعوائد * يقول علماؤنا كالامام الغزالي ان الصمت والوقار وغض البصر عن المحرمات يعطي الوجه سمة الكمال ويكون عليه مهابة وبهاء فان هذه الظواهر الجيلة من حسن السمت والوقار وصون اللسان تؤثر في القلب سكونا عن كل مالا فائدة منه فالكلام أثر في القلب ووقع كوقع السهام خيرا أو شرا ومعلوم ان جميع الامم تربي الجند بالحركات الدالة على اطاعة الرؤساء وهذا مؤثر في العقول موجب للطاعة فان الباطن لوح الظاهر يكتب فيه ما يملي عليه * ألا ترى ان تعود الانسان على تحسين خطه زمن التعلم يولد في النفس ملكة تدعوه الى كتابة ما خزنته النفس من تلك الرقوم على حسب ماتقبلته من الجوارح وهكذا الآلة الحاكية (الفونوغراف) تقبل الصوت أولا فيرتسم على لوحتها رسما خفيا بحفر الابرة ثم تعيد الصوت حاكية كما يحكي الجبل صوت من رفع صوته في جواره هذا بعض ماقصده علماء الاسلام أوضحته مختصرا مع التصرف في بعض الأمثلة

وبعد ان شرح الآداب الواجب سلوكها مع الله في الحلف شرع عز وجل يبين حكم الايلاء وهو نوع من الحلف

(المقصد الحادي عشر)

أحكام الايلاء والطلاق فللايلاء قوله تعالى

: لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

يقال آلى عليه اذا حلف وعدي هنا بمن لتضمنه معنى البعد والايلاء ان يحلف الرجل أن لا يطأ زوجته مدة تزيد على أربعة أشهر فهو مول فيتربص به أربعة أشهر فان فاء أي رجع ووطئ فان الله غفور له اثم حنثه ان كفر عن يمينه * واثم ماحصل بايلائه من ضرار فان لم يفئ الى الوطء وذلك بعد مطالبة الزوجة وعزم الطلاق أي قصده أو تحققه بالايقاع (فان الله سميع) للطلاق (عليم) بالنيات والأغراض

فان لم يفئ ولم يطلق طلق عليه الحاكم واحدة عند الشافعي وعمر وعثمان ومالك وأحمد وعند ابن عباس وابن مسعود وأبي حنيفة تقع طلقة بائنة متى مضت المدة وقال سعيد بن المسيب والزهري تقع طلقة رجعية قال ابن عباس كان أهل الجاهلية اذا طلب الرجل من امرأته شيئا فابت أن تعطيه حلف لا يقربها السنة والسنتين والثلاث فيدعها وشأنها لا أيما ولا ذات بعل ضرارا وتنكيلا وجرى عليه المسلمون في ابتداء الاسلام فنزلت هذه الآية لترفع الظلم وليكون عدلا ولما كان الايلاء جامعا لليمين وللطلاق جاء بينهما فكان اليمين ثم الايلاء ثم الطلاق فقال

(المقصد الثاني عشر)

والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم * الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون * فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون * وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم * وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون *

ان في هذه الآيات لعظات جمة وفوائد عجيبه مزج فيها الوعظ بالاحكام والاخلاق بالفقه وهاهنا من الابداع في القول والترغيب في المودة والترهيب من الاضرار مالا نظير له • ائتمن النساء على أرحامهن فاتى بالأمر بصورة الخبر كأنهن يتربصن أي ينتظرن ويرتقبن بلا وازع من خارج ولا آمر وذلك هو التربية العالية بحيث يكون المرء على نفسه رقيبا تسمو فيه ملكة قوة الارادة وثبات العزيمة حتى ان المرأة لا يعوزها مرشد للتربص في الاقراء والقروء جمع قرء وهو الحيض أو الطهر والبعولة مصدر كالعمومة والخؤولة أي أهل بعولتهن والعضل المنع والتضييق قال أوس بن حجر

وليس أخوك الدائم العهد بالذي * يذمك ان ولى ويرضيك مقبلا
ولكنه النائي اذا كنت آمنا * وصاحبك الادنى اذا الأمر أعضلا

أي ضاق يقول الله على المطلقات أن ينتظرن ثلاثة قروء أي اطهارا أو حيضات وعلى الاول جمع من الصحابة كزيد ابن ثابت وابن عمر وعائشة والزهري ومالك والشافعي وعلى الثاني عمر وعلى وابن مسعود وابن عباس وأبو موسى وأبو الدرداء والضحاك والسدي وأبو حنيفة رضي الله عنهم أجمعين واصل القرء الوقت يقال جاء فلان لقرئه أي وقته ولا جرم ان أيام الحيض وقت وأيام الطهر وقت وليس الخلاف عظيما بين الائمة رضي الله عنهم فكيف والاطهار

تتبعها الحيضات ولكن ظهور الفرق فى أحوال قليلة والمذهبان الكليان متشابهان فى حفظ الانساب ألا ترى أن الاطهار والحيضات دالات على براءة الرحم من الولد وهذا فى المدخول بها من ذوات الاقراء فأما الكبيرة التى أيست والصغيرة واللائى لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر والمتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر وعدة الحامل ان تضع فهذه الآية فى حال خاصة

ثم أبان ان الطلاق الذى تصح الرجعة بعده مرتان فامساك بمعروف وحسن معاشرة أو تسريح باحسان وذلك باحد أمرين اما أن يترك رجعتها الى تمام عدتها واما أن يطلقها الثالثة * وهنا أتى بحكم الخلع فقال ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتموهن شيأ الا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله الآية * ذلك ان جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا انا ولا ثابت لا يجمع رأسى ورأسه شئ والله ما أعتبه فى دين ولا خلق ولكنى اكره الكفر فى الاسلام وما أطيقه بغضا انى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة من الرجال فاذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها . فنزلت آية الخلع فقال صلى الله عليه وسلم لجميلة اتردين عليه حديقته قالت أردها وأزيده عليها فقال صلى الله عليه وسلم اما الزائد . فلا أقبل الحديقة وطلقها تطليقه

وهذه الآية خطاب للحكام وللازواج * يقول الله ولا يحل لكم أيها الحكام والازواج ان تأخذوا مما آتيتموهن من المهر شيأ الا أن يخافا الا يقيما حدود الله . ان هذه الآية جاءت تالية الطلقتين اذ جاءت بعد المرتين ويليها الطلقة ثالثة وهى قوله فان طلقها فلا تحل له من بعد فهى فسخ عند ابن عباس وطاووس وعكرمة وأحمد واسحاق وأبى ثور وعند الشافعى فى القديم وطلاق عند عثمان وعلى وابن مسعود والحسن والشعبى والنخعى وعطاء وابن المسيب ومجاهد ومكحول والزهرى والشافعى فى الجديد وأبى حنيفة ومالك وسفيان الثورى

اعلم ان للزوج مع المرأة بعد الطلقة الثانية أحوالا ثلاثة (١) اما ان يراجعها (٢) واما أن لا يراجعها بل يتركها حتى تنقضى عدتها فتصير بائنا (٣) واما أن يطلقها طلقة ثالثة . وللاولى فامساك بمعروف * وللثانية أو تسريح باحسان * وللثالثة فان طلقها فلا تحل له من بعد الخ فيكون نظم الآية هكذا (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) وعلى هذا يكون الخلع الذى فصل الثالثة عن الثانية أجنبيا عنهما . واعاد عا الى ذلك ان الرجعة والخلع يستويان فى انهما لا يصحان الا قبل الطلقة الثالثة اما بعدها فلا يبقى شئ من ذلك فلهذا جاء حكم الرجعة وتبعه حكم الخلع وبعد الجميع حكم الطلقة الثالثة لانها كالخاتمة للجميع * ثم ان المطلقة بالثلاثة لا تحل لمالك الزوج الا بخمس شرائط أن تعتد منه وتعقد للثانى ويطؤها ثم يطلقها ثم تعتد منه وقال سعيد ابن المسيب وسعيد بن جبير تحل بمجرد العقد . وجمهور الامة انه لا بد من الوطء فنهم من جعل هذا من نفس الآية فان العرب تقول نكح فلان فلانة عقد عليها ونكح زوجته أو امرأته جامعها والآية هنا من الثانى ومنهم من قال الآية دلت على العقد وثبت الوطء بالسنة . لما روى ان امرأة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رفاعة طلقنى فبت طلاقى وان عبد الرحمن بن الزبير تزوجنى وان ما معه مثل هدبة الثوب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدين ان ترجعى الى رفاعة قالت نعم قال لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك فالآية مطلقة قيدتها السنة (فان طلقها) الزوج الثانى (فلا جناح عليهما أن يتراجعا) الآية * ثم أبان حكم المطلقات بعد انقضاء عدتهن وأمر أن لا يعضلن ويمنعن من أزواجهن اذ روى أن معقل بن يسار عضل أخته أن ترجع الى زوجها فنزل النهى عن ذلك بقوله تعالى (فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) الآية هذا ملخص الأحكام فى هذه الآيات

انى عجبت لهذه الآيات انها آيات أحكام وقوانين شرعية وأحكام فقهية ولكن الناظر فيها يدهشه نظمها ويبهره وضعها * الآيات مفعمة بالموعظة ماذكر حكما الا أتبعه بعظات ولا قال كلمة فقهية الا أتبعها بالزاجرات ألم تر كيف أعقب القروء الثلاثة بقوله (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن) من الحيض أو الولد وأعقبه بذكر الايمان بالله واليوم الآخر * وتأمل كيف أباح الرجعة والرد فى العدة على شريطة ارادة الاصلاح ولم يكتف به بل

سوى بين الرجال والنساء فى الحقوق فقال (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) ولم يكن للرجال الافضل الاشراف عليهن والانفاق * ثم ختم المقام بذكر انه عزيز غالب يقهر من عصى من الازواج والزوجات بكتم ما فى الارحام أو بالرجعة بغير ارادة الاصلاح وانه حكيم فى عقابه وأمره مكين * ثم انظر كيف أعقب ذكر الطلقتين بكلمتين جليلتين المعروف أولا أو الاحسان ثانيا فلا يمسك الرجال النساء الا بالمعروف ولا يسرحوهن الا باحسان ولم يدع مجالا للزوج أو الحكام أن يأخذوا من مال المرأة بالخلع الا اذا حصل مثل ما اتفق لجميلة وحذرهم أن يأخذوا أكثر مما أنفق الازواج بل جعله أقل بمن التبعيضية * فاستيفاء المهر والزيادة عليه عند الخلع مخالف لظواهر الآيات وان أفتى الفقهاء بخلافه مع كراهتهم له فلقد نفذوه وكرهوه ولم يبح فى الآية الخلع الا بعد شقاق وخلاف وكذلك ورد فى الحديث أيما امرأة سألت زوجها طلاقا فى غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة ولم يشأ أن يدع آيات الطلاق والاحكام بعد ان ذكرها بلا تذكير ووعظ فى خواتيمها كما وعظ فى أوائلها فقال (واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) أى قاربن الاجل على أحد الطلاقين فهو للمدة كلها ولنهايتها والمراد الثانى * يقول محذرا فاذا قاربن الاجل فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف واياكم أن ترجعوهن مضارين لتظلموهن ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه * ولا جرم ان أولئك الذين يرجعون زوجاتهم بظواهر الشرع ويضاروهن لاشبه بمن يتخذون آيات الله هزوا * ذلك انهم يطلبون الباطل بالحق والجهل بالعلم فكأنهم جعلوا الآيات هزوا * ثم ذكر الناس بالنعم فقال (واذكروا نعمة الله عليكم) بالحياة والصحة والدين المنزل فاذا أضعتم الايام فى التنغيص والاكدار كانت الحياة وبالا والعيش خبالا والعلم ضلالا

ثم ختم المقال بقوله (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى) أى أنفع (لكم وأطهر) من دنس الآثام (والله يعلم) أن الحياة لا تسر ولا تنفع الا اذا اتفق الزوجان وتبادلا الحب وعاشا قريرى العين فلا طلاق الا باحسان ولا امساك الا بمعروف ولا منع للزوجة عن زوجها اذا أحبت الرجعة اليه فتكون الحياة سعادة والموت بعدها شهادة والبنون قرة والاصهار مودة فاذا خالفتم ما رسمنا وجهلتم ما علمنا وقصرتم الأمر على القوانين الفقهية والاحكام الشرعية وظننتم ان هذا هو الاسلام فأنتم أيها الناس الأضل من الانعام (وأنتم لا تعلمون) العواقب ولا تدركون ما يكون من المصائب فأنا ان حذرتكم المغاضبة ومنعتكم المشاقة فأردت الاسعادة الحياة الدنيا وعقباها الآخرة فاذا أشقيتم الازواج واستحللتم أموالهن بغير حق وأرهقتموهن فى أمر فلتعيشن فى شقاق ولتموتن على حال أشبه بالنفاق لأنكم اتخذتم الآيات هزوا فكأنكم كفرتم بالقلوب وآمنتم بالالسنة فلست أريد منكم وثائق وشرائط ودعاوى والقلوب منبوذة والعقول مطروحة وانما أريد حياتكم السعيدة فى أحوال سديدة * هذا هو دين الاسلام هذا هو العلم والحكمة

فليعلم المسلمون فى أقطار الارض أن هذا هو الدين وهو المقصد وما عداه فقشور والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

هذه الآيات تدخل فى علم الاخلاق وحسن المعاشرة وطلب الفضيلة والاخلاق العالية * أوليس من العجيب أن يحذو الجنس البشرى اليوم حذو هذه الاحكام فقد علمنا فى الامة الامريكية اليوم محكمة تحكم بفراق الزوجين متى يستبين أنهما لا يقيمان حدود المعاشرة وقد أخذ الناس ينسلون اليها من كل حدب حتى ضاقت أرضهم بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم من ازدحام طلاب الطلاق وشرطوا أخيرا أن لا تقام دعوة الا لمن أقام عندهم ستة أشهر وقد بلغنا انهم حكموا على زوج بطلاق زوجته لانه قذر الثياب وسخ الملابس فقد أثبتت زوجته انه لم يكن ليغتسل * أفليس العالم أخذ يقترب من الاسلام شيئا فشيئا * ألا ترى ان هذه كمسألة جميلة هذه بقبح الصورة وتلك بقذارة الجسم وهل أجمع لهذه المعانى وغيرها من قوله تعالى (الا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله) يارب ان الانسان الى الآن ما عرف حقك وجهل سياسة الازواج وسياسة المدن وقد عصوك فى نظام المدن فظلموا وعصوك فى نظام البيوت ففسقوا فاسألك اللهم رحمة بالأمم وبأهل المنازل انك أنت الرحمن الرحيم اللهم اهد الانسان الى أحسن حال * ولما كانت نتيجة الزواج الولادة

(المقصد الثالث عشر)

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

(فى هذا المقصد ثلاث درر * الاولى تربية الولد وارضاعه * الثانية مدة المتوفى عنها زوجها * الثالثة الخطبة فى العدة)

(الدرة الاولى)

يقول الله تعالى للرجال والنساء ليكن رضاع الولد حولين كاملين عند التنازع فان ذلك أكثر احتياطا للولد وعلى الأم ارضاعه لأن لبنها له أشهى وثديها له أوفق من غيرها كما نص عليه الاطباء قديما وحديثا فالولد بضعة منها وقد أعد الله عز وجل لبنها له ولم يخزنه فى الثدى الا والولد يتحرك فى جوفها ويضطرب فى رحمها فعليهن ارضاعه لصحته فقوله يرضعن خبر معناه الامر أى ليرضعن وذلك على سبيل الاستحباب اذا قام غيرها مقامها ولم يضره ابن الاجنبية وقبله الصبى فاما اذا لم توجد الاجنبية أو كانت ولم يقبل لبنها أو قبله وأضر جسمه فعلى الام ارضاعه وجوبا وعلى الاب لها كسوة ونفقة على المعسر قدره وعلى المقتر قدره وهذه قسمة عادلة على الأب طعام وكسوة ونفقة للبائن ولا يصح استئجار الزوجة والمعتدة عند الحنفية وهو وجيه وخالف الشافعية وعلى الام الارضاع (تعجب) كيف أخذ عز وجل ينهى الوالدين عن اضرار ولدهما فقال (لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده) قرئت بالرفع والنصب والماضى ضار ويحتمل البناء للفاعل والمفعول فى الحالين والمعنى على البناء للفاعل عند النهى أو الخبر هكذا لا تضر والدة ولدها والباء زائدة ولا يضر مولود له ولده بين الله لكل عمله هذه ارضاع وهذا انفاق ورحمهما فقال (لا تكلف نفس الا وسعها) فلا المطلقة تؤمر بما لا تستطيع من الارضاع ولا نفقة لها ولا الوالد يكلف ما لا يستطيع من النفقة فلما أن عرفهما ما عليهما وانه رفع المشقة عنهما أخذ يوصيهما بولدهما وفلذة كبدهما وقال لكل واحد على حدته أوصيك بولدك لا تضار والدة

بولدها كأن تسىء غذاءه ولا تنظف ثيابه أو تجهل الاحوال الصحية أو تكثر المشاقة والمشاحنة مع الوالد فيكدر العيش وينغص فيسرى الحزن والمرض فى اللبن فيضر الولد وقال ولا يضر المولود له بولده باساءة الزوجة أو ترك الانفاق أو نزعه منها وهو بها متعلق وليس يصح للزوجين أن يفطما الصبى دون الحولين الا باستشارة وتراض بينهما .

﴿ياعجبا لهذه الآيات﴾ أوجب الله علم الصحة أوجب مبادىء التربية على النساء بقوله لا تضر والدة بولدها ولا جرم ان الجهل بتربية الصغار اضرار * واياكم أيها المسلمون فى أقطار المسكونة أن تظنوا اضرار الصبى قاصرا على ما ترتكب من جناية كلا فالجهل بالصحة هو الذى يهدم بنيان جسمه ويقوض أركان صحته ويذيقه عذاب الآلام ويجرعه كأس الحمام

مبادىء علم الصحة وتربية الولد واجبة وجوبا شرعيا على كل امرأة قبل زفافها وعلى ولاة الامور والعلماء والاغنياء التضامن والتعاون على نشر التعليم امتثالا لما أمر الله به من احسانه للوالد وترك اضراره * علم الله حال الانسان قبل خلقه أنه جهول ضعيف ولا سبيل لصلاحه الا بالتعلم وقد علم الله الطيور فى أوكارها بالالهام ما اضطرت اليه واحتاجته فى حياتها * ألا ترى كيف يتنزه أفراخ الطير فى أعشاشها أن تذرق فيها محافظة على الصحة وكيف ألهم الله السخلات اذا ولدتهن النعجات أن لا تبغم حتى لا يسمع الذئب بغامها فيأكلها ثم كيف أخرجت أفراخ الأوز عالمات بالعوم يوم يولدن وصغار العناكب عالمات بالنسج بلا تعليم ولا تدريب وسلب الانسان هذه الموهبة ومنع هذه المكرمة ولكنه منح العلم والحكمة وجاءت الديانات فقال فى القرآن (لا تضار والدة بولدها) ولقد أيقنا ان الولد قليل المواهب سريع العطب والام الجهول لا تقوى على تقويم صحته الا بالعلم لما فى النوع البشرى من الجهل العام فالسبيل القويم تعليم الفتيات والفتيان بعض تقويم الصحة وفى ظنى أن عشرين درسا كافيات لكل من الجنسين والا فكيف يتشاور الرجل والمرأة وهما يجهلان الصحة ومبادىء التربية وذلك بالمرأة ألزم فعلى رجال الامة أن يفكروا فى هذا فلقد سبقنا به أسلافنا أهل الأندلس وكان النساء هن القائمات بالتمريض وهن المطعمات للجدرى وعنهم أخذ الافرنج هذه الدروس العلمية فعلموا ابناتهم وربوهن تربية صحيحة والله يهدى من يشاء * ولقد رأيت لهؤلاء الفرنجة فى التربية كتبا فكان أهمها كتابا يسمى (تربية البنات) للمرحوم (صالح بك حمدى حماد) ترجمه عن فنلون الفيلسوف الفرنسى وقد طبع فى بلادنا بمصر * وعجبت كيف كان الفرنجة مخالفين لتعاليم حكمائهم مثل هذا الحكيم فلقد منع التبرج كتبرج الجاهلية الاولى وكذلك التباهى بالعلم وأوجب ان تعلم المرأة العبادة مع التفكر وحضور القلب والاخلاص لله وحرم عليها قراءة الروايات التى فيها أبطال خياليون لم يخلقوا فى الارض فتكون طالبة لتبهار جالا فوق من تراهم * وكثير من هذه التعاليم خالفها الفرنجة لكن على كل حال قد ارتقى رجالهم ونساؤهم فى التربية * أما المسلمون فانهم قلدوهم فلم يحسنوا التقليد ولم يرجعوا الى كتابهم المقدس * ولقد قرأت أيام طبع هذا الكتاب من هذا الاسبوع فى الميثاق الوطنى الاقتصادى التركى ما شرح صدرى وحمدت الله اذ رأيت فى حياتى أمة اسلامية قد ظهرت * وقد جاء فى هذا الميثاق ان التركية تعلم ابنها وتربيه تربية علمية صحيحة موافقة للعلم وهذه أول أمة أخذت تنهض بعد خمود الامم الاسلامية أجيالا طويلة وسيجعلون التربية على أساس شرقى اسلامى بالاستقلال الفكرى العقلى لا كالتربية الافرنجية المزورة التى انتشرت فى مصر وبعض بلاد الاسلام وأنا واثق أن الامم الاسلامية سيتبعون الامة التركية فى نهوضها واستقلالها فى كل شئ

﴿ولما﴾ كان الميثاق المذكور قد أوجب على المرأة أن تكون تربية الولد على مقتضاه ذكرته هنا لفائدته فقد جاء فى الجرائد انه قد قرره (١١٣٥) عضوا منتدبا من طبقات مختلفة من صانع وزارع وتاجر وعامل فى تركيا نائبين عن الامة فى المؤتمر الاقتصادى المنعقد فى أزمير من يوم ١٧ فبراير سنة ١٩٢٣ الى يوم ٤ مارس برئاسة المشير كاظم قره بكر باشا وكان تقرير هذا الميثاق بالاجماع

﴿المادة الاولى﴾ ان تركيا عنصر من عناصر السلام والارتقاء فى العالم مستقلة داخل حدودها القومية استقلالا لا شائبة فيه

(المادة الثانية) ان الشعب التركى قد حصل على سلطانه القومى بما ضحاه من دماله وأرواحه فهو لا يتنازل عن هذا السلطان القومى بأى ثمن وهو ظهير الى الأبد لمجلسه وحكومته القائمتين على أساس السلطة القومية

(المادة الثالثة) ان الشعب التركى شعب معمر لا يقع شئ من التخريب بيده وكل مساعيه مبذولة فى سبيل اعلاء شأن المملكة من الجهة الاقتصادية

(المادة الرابعة) ان الشعب التركى يعمل جهد الطاقة لانتاج المواد التى يستهلكها وهو كثير السعى و ينفر من الاسراف فى الوقت والثروة والواردات الاجنبية وشعاره العمل فى النهار وفى الليل - اذا اقتضت الحال - لانتاج المحصولات القومية

- (المادة الخامسة) ان الشعب التركى عالم بانه جالس على خزائن الذهب و يحب غابات بلاده كحبه لأولاده و يقيم للأشجار أعيادا و يغرس غابات جديدة و يستثمر مناجمه لاستعمالها فى حاجاته القومية ويسعى لان يعرف ثروته أكثر من معرفة غيره لها

(المادة السادسة) ان عدونا الأعظم هو العقوق - والكذب - والرياء - والكسل - وقاعدتنا فى كل شئ أن نكون ذوى صلابة دينية فى كل شئ بشرط الابتعاد عن التعصب ونقتبس دائما كل جديد مفيد بسرور وابتهاج والشعب التركى ينفر من الدسائس التى يدسها الاعداء ضد مقدساتنا - وأوطاننا - وأشخاصنا - وأموالنا ومن الواجب مقاومة ذلك مقاومة مستمرة

(المادة السابعة) الترك عشاق العلم والعرفان وهم يصرفون أيام حياتهم فى سبيل الاكتساب حيثما وجدوا غير انهم أبناء وطنهم قبل كل شئ وهم يحتفون بيوم المولد باعتبار أنه عيد كتاب أيضا

(المادة الثامنة) ان أعظم ما الناز يادة نفوسنا التى نقصت أيام الحروب الكثيرة التى توالت علينا والفاقة التى منينا بها وان يزداد شعبنا قوة وصحة * والتركى يتقى الميكروبات والهواء الفاسد والاقذار و يحب الهواء الطلق النقى والشمس والنظافة و يسعى للاقتداء باسلافه فى الفروسية والرماية والقنص والسباحة وغير ذلك من الرياضات البدنية و بقدر اهتمامه بدوابه يهتم باصلاح جنسها ونسلها

(المادة التاسعة) التركى صديق للأمم التى ليست عدوة لدينه وقوميته وأوضاعه وليس هو مبغضا لرؤس الاموال الاجنبية غير انه لا يعامل المتاجر التى لا تخضع للغته وقانونه مع انها موجودة فى وطنه * وحيثما وجد التركى تجددا فى العلم والصناعة يبادر الى اقتباسه مباشرة ولا يرغب فى كثرة الوسطاء بأى عمل من الأعمال التى يقوم بها

(المادة العاشرة) التركى يحب السعى والعمل وهو ناصح الجبين * لا يحب الاحتكارات الاقتصادية

(المادة الحادية عشرة) الترك يحب بعضهم بعضا مهما اختلفوا فى الصناعات والطبقات والأعمال واذا اتحدت أعمالهم ومسالكهم فانهم يكونون يدا واحدة فيها و يقومون بالسياحات بقصد التعارف والوقوف على أحوال الوطن

(المادة الثانية عشرة) ان المرأة التركية والعامل التركى يعملان لتربية الاطفال وفقا لقواعد هذا الميثاق الاقتصادى أزمير ٤ مارس سنة ١٩٢٣

وانما ذكرته هنا برمته لانهم جعلوه معاير بى المرأة ولدها على مقتضاه وهو أقرب للآية هنا فان الرجل والمرأة أمرهما الله ألا يضرا ولدهما ومن الضرر بالولد أن يجهل أمته ومصالحها واقتصادها وعدم الاسراف فصار أمثال هذا من الواجبات الشرعية * أليس من النافع المفيد لصحته الهواء النقى والشمس والاعمال الرياضية * أليس من المفيد له حب بلاده واستخراج كنوزها وحب دينه والتمسك به كما فى هذا الميثاق فهذا قوله تعالى (لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده) على معنى لا تضر والدة ولدها ولا مولود له ولده كما ذكره المفسرون وقوله تعالى (وعلى الوارث مثل ذلك) أى وارث الاب أو وارث الصبى وهم الأقارب على تفصيل يختلف باختلاف المجتهدين فيكون فى مال الصبى عند الشافعى لأنه الوارث للاب أو كل وارث له محرم عند احمد على حسب أسهمهم فى ميراث الصبى لو مات الى غير ذلك * ثم قال

وان

(وان أردتم أن تسترضعوا) المراضع (أولادكم فلا جناح عليكم) الآية وهو ظاهر

(الدرة الثانية)

(والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) الآية

يأمر الله عز وجل المتوفى عنهن أزواجهن أن يتربصن بعدهم أربعة أشهر وعشرا * يقال ان الجنين لا يتحرك الا الثلاثة وقد يتأخر لاربعة فاعتبر اقصى الأجلين وزيدت العشر استظهارا * ومن عجب أمر العدة فترى المطلقة بثلاثة الأشهر أو بالاقراء والمتوفى عنها زوجها بالاشهر والايام ليرينا الله عز وجل اختلاف الصور واتحاد المعنى فالمعنى براءة الرحم فى الجميع وزيدت أيام معدودات فى المتوفى عنها زوجها مراعاة للآداب ومجاملة فليس من حسن العشرة الاسراع بالتزوج بعد الموت والا كتفاء بثلاثة اقراء فربما تزوجت بعد شهر وأيام فحدد الله ذلك الاجل تحقيقا لبراءة الرحم وحثا على حسن المجاملة ومراعاة لحقوق الزوجية * ويظهر لى أن المرأة لو زادت عن هذا المقدار لكان أشرف لها وأجل وأدل على حسن خلقها ان كانت عفيفة حسنة السيرة (والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) خص عموم الآية بالحامل لآية (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) فلتترك المرأة الزينة والطيب ودهن الرأس بكل دهن والكحل المطيب * ويباح لها كل مااضطرت اليه واذا اكتحلت بالليل فلتمسحه بالنهار فاذا بلغن أجلهن وانقضت عدتهن فلا جناح على أئمة المسلمين فيما فعلن فى أنفسهن من التعرض للخطاب وسائر ما حرم عليهن للعدة بالوجه المعروف الذى يرضاه الشرع ولا ينكره العرف ولا تأباه الأخلاق (أفادت الآية) ان المسلمين متضامنون فعليهم كف العاصى وردع الفاسق اذ خاطب الناس بقوله (فلا جناح عليكم) أى فان قصرن فعليكم الجناح وليس ذلك قاصرا على هذا المقام فالمسلمون جميعا متضامنون فعليهم نشر العلم والفضيلة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكل معاقب اذا قصر همه على نفسه وجهل مصلحة العموم

(الدرة الثالثة)

(ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء الآية)

ذكر الله عدة المتوفى عنها زوجها وحرم عليها الزينة حدادا على الزوج * ثم أباح أن يتعرضن للخطاب ويتزين بالمعروف والأدب بعد انقضاء العدة * فناسب أن يأمر الرجال بترك الخطبة الصريحة لئلا يعدموهن الصبر فى العدة أمر الله النساء بالحداد * وأمر الرجال بالأدب والامتناع فلا يهيجونهن ولا يذكرونهن بأمر الرجال وأباح رحمة بالناس التعريض وهو من قسم الكناية فليس من الحقيقى ولا المجازى (ولقد روى) ان سكينة بنت حنظلة تأيمت فدخل عليها (أبو جعفر محمد بن على الباقر) فى عدتها فقال قد علمت قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق جدى على وقدمى فى الاسلام فقالت سكينة غفر الله لك أتخطبنى فى العدة وأنت يؤخذ عنك فقال انما أخبرتك بقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة فى عدة زوجها أبى سلمة فذكر لها منزلته من الله عز وجل وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير فى يده صلى الله عليه وسلم من شدة تحامله عليها فما كانت تلك خطبة

يقول (لا جناح عليكم) فيما كان تعريضا مثل هذا أو مكتوما فى النفس بلا تصريح ولا تعريض * ولما كان من عادة الجهلاء اذ ذاك أن يدخل الرجل على المرأة فى عدة الزوجية ويطلب منها السفاح أثناءها ثم يشهر النكاح بعد انقضاء العدة نهوا عن ذلك الزنا فيكون السر الجماع * وهو قول الشافعى وهكذا روى عن ابن عباس وقال امرؤ القيس

ألا زعمت بسباسة اليوم انني * كبرت وأن لا يحسن السر أمثالى

بسباسة اسم امرأة فلم يبح الا بالقول المعروف وهو التعريض ثم قال (ولا تعزموا) أى لا تقطعوا عقدة النكاح حتى ينتهى ما كتب من العدة

(المقصد الرابع عشر)

المتعة وعدة المتوفى عنها زوجها :

لاَجُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَالَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ * وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَافَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَجُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *

وفيها جوهرتان * الجوهرة الاولى المتعة * والثانية اعتداد المرأة التي مات عنها زوجها الى الحول

(الجوهرة الاولى)

﴿لاجناح عليكم﴾ لا تبعة من مهر ان طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة الآية * اذا تزوج الرجل امرأته ولم يفرض لها مهرا ثم طلقها قبل المسيس يجب لها عليه المتعة بمنطوق الآية عند الشافعي وأبي حنيفة وأحمد و يستحب عند مالك * فان سمي لها مهرا وقد طلقها قبل الدخول فلا متعة لها والمطلقة المدخول بها مفوضة أو مسمى لها لا متعة لها لانها تستحق المهر كاملا وهو مذهب أبي حنيفة وفي القديم عند الشافعي وفي احدى الروايتين عن أحمد ولها المتعة في الجديد عند الشافعي وفي رواية اخرى عن أحمد مستدلين بقوله تعالى وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين * قال ابن عمر لكل مطلقة متعة الا التي فرض لها المهر ولم يدخل بها زوجها فحسبها نصف المهر

﴿ومن﴾ لطيف هذا المقام ان الشافعي رضي الله عنه قدم القياس أي قياس المدخول بها مفوضة ومسمى لها على المفهوم ألا ترى ان مفهوم قوله مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة يقتضي انه لا يجب للممسوسة متعة فان قوله ومتعوهن وارد على المرأة المقيدة بما ذكر * المتعة مقدرة بحال الزوج يسارا واعسارا لا قيد لها ولا حصر فأمر معلوم فالعرف والمروءة هما القاضيان في ذلك ألا ترى الى قوله ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ومتاعا أي تمتيعا بالمعروف أي بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة وقد حق ذلك حقا على المحسنين فانظر كيف جعله حقا وكيف مدحهم بالاحسان ففيه ايجاب ومدح فالايجاب عند المشاحنة والمدح تهييج للاحسان والمروءة ولذلك متع عبد الرحمن بن عوف زوجته جارية سوداء ومتع الحسن بن علي رضي الله عنهما زوجته بعشرة آلاف درهم فقالت متاع قليل من حبيب مفارق

فأما تقدير ابن عباس لاعلاها الخادم ولاوسطها بثلاثة أثواب درع وخمار وازار ولأقلها بشيء من الفضة أومقنعة أونحو ذلك كمذهب الشافعي وتقدير أبي حنيفة لها بنصف مهر مثلها وتقدير أحمد لها بما يجزى فيه الصلاة فذلك كله لاختلاف الاحوال والأمور خاصة والافالمروءة في المتعة لاحد لها والقاضي أن ينظر مايقتضيه الحال ولا يتقيد بقيد الاترى كيف يقول متاعا بالمعروف من المروءة والشرع وكيف يصفه بالمحسن هوليس المعروف والمروءة خاصين بمن لها متعة بل المطلقة قبل الدخول التي سمى لها مهر ونصف مهرها نالت حظها من السعة في المقدار الذي يعطيها الزوج الا تراه يقول الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى يقول لهن نصف المهر الا أن يتجاوزن فيتركنه للرجل فلا يأخذن منه شيأ أو يعفو الرجل عن النصف الآخر فيساق اليها المهر كاملا وقد عفا عن حقه وهو التشطير ثم رغب الرجال وخاطبهم قائلا وأن تعفوا أيها الرجال أقرب للتقوى لانكم قوامون عليهن والرجل أولى بالفضل وأحق بالاحسان (وعن جبير بن مطعم) انه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو ولما كان مثل هذا الفضل عظيما زاد في الحض عليه فقال ولا تنسوا الفضل بينكم بالمماحلة والمغاضبة واقامة القضايا ورفع الدعاوى وايجار المحامين ونحو ذلك ان الله بما تعملون بصير لا يضيع فضلكم ولا احسانكم

فاياكم ان تضيعوا أوقاتكم ومروآتكم وشهاماتكم في المشاجرات والمماحلات فتنسوا المعروف والمروءة والفضل فذلك لن ينبغي أن يكون ويحسن بعضكم الى بعض فلا تضيعوا المعروف بينكم بالعداوات ولا تتركوا الصلاة بل حافظوا عليها ولا يشغلنكم أمر الطلاق والمتعة والمقاضاة وأحوالكم المؤلمة بالمشاحنات والمماطلات والعداوات عن أجل الامور واعلاها وارفعها وأوفاها ومماشيا ءن المعروف بينكم ورجوع الافئدة لله في الصلوات (حافظوا على الصلوات كلها والصلاة الوسطى) الفضلى

والافضل يسمى الاوسط وهي صلاة العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم نارا وقال عليه السلام انها الصلاة التي شغل عنها سليمان حتى توارت بالحجاب وانما فضلت لان الناس مشغولون بأعمالهم من تجارة وزراعة وصناعة وقد خارت القوى وسئمت النفوس

الصلاة راحة للنفوس الانسانية من الهم ومدعاة للسرور ولعروج الروح عن هذا العالم الذي ملئ نصبا وتعبا ولا بد للناس من أوقات يروّحون فيها أنفسهم من مآزق الحياة وأثقال الهموم التي تنقض ظهورهم وتكدر صفاءهم وتحملهم الاثقال وفيها تحيط بهم الآلام فليصلوا وليقوموا لله قانتين أي خاشعين واياكم أن يشغلكم الخوف من حرب أوغيره (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) جمع راجل وراكب كقيام جمع قائم سواء أكنتم واقفين أم ماشين محاربين أو خائفين من سبع أوغيره فأوفوا بالركوع والسجود وليكن السجود اخفض من الركوع وصلوا مشاة على أرجلكم أو ركبانا على دوابكم مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ومنع أبو حنيفة صلاة المشاة وذهب الى التأخير كما أخر صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر والعصر وقضاهن بعد غروب الشمس يوم الخندق واحتج الشافعي بهذه الآيات وهذا حال الخوف (فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم) أي اذكرا مثل ماعلمكم مالم تكونوا تعلمون من صلاة الأمن ثم رجع الى مسائل الازواج ليختمها بعدة المتوفى عنها زوجها فقال والذين يتوفون منكم وهي

(الجوهرة الثانية)

قد كان رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحرث هاجر الى المدينة ومعه أبواه وامرأته وله أولاد فمات فرفع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فحرم المرأة من الميراث وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولا كاملا والآية تدل على مجموع الامرين ان لها النفقة والسكنى وان عدتها سنة كاملة وهي مخيرة بين السكنى في منزل زوجها وبين الخروج وتسقط النفقة ونسخت الوصية بالنفقة والسكنى بآية الميراث ونسخت عدة الحول بأربعة أشهر وعشر ورأى الشافعي لها السكنى ولم يرها أبو حنيفة رضي الله عنهم أجمعين وقوله وصية أي فليوصوا وصية وقوله متاعا أي

متعوهن متاعا والى الحول صفة لمتاعا وقوله غير اخراج وصف مؤكد وقوله فيما فعلن فى أنفسهن أى من التزين والتعرض للخطاب * ولما ان ذكر أحكام المتوفى عنها زوجها أردفها بما يناسبها من أحكام المطلقات فى عدتهن فقال (وللمطلقات متاع) نفقة العدة (بالمعروف حقا على المتقين كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) ومن فسر المتعة بغير نفقة العدة جعلها شاملة للمندوبة والواجبة ومنهم من أوجب المتعة لكل مطلقة وهذا المقام مكارم اخلاق فعلى المرء أن يحقق الفضائل ومحاسن الاخلاق والآداب اه

(تفصيل الكلام على قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين)

أمر الله بالمحافظة على الصلاة فى هذا المقام * و يجب ذلك فى جميع شرائطها كالطهارة من الحدث والنجس فى البدن والثوب والمكان و بالمحافظة على ستر العورة واستقبال القبلة والعلم بدخول الوقت و بالمحافظة على جميع أركانها كالنية وتكبيرة الاحرام والقيام عند القدرة وقراءة الفاتحة والركوع والرفع منه والسجود الاول والثانى والتشهد الثانى والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فيه والسلام وهكذا مع اختلاف الائمة فى ذلك بالزيادة والنقص وهكذا الاحتراس من جميع المبطلات للصلاة سواءا كان ذلك من أعمال القلوب أم من أعمال اللسان * وأهم الامور فى الصلاة رعاية النية فانها هى المقصودة أصالة من الصلاة قال تعالى وأقم الصلاة لذكرى * وهنا يرد سؤال فيقال المحافظة مفاعلة من الجانبين فاذا حفظ العبد صلاته فان الطرف الآخر قالوا المعنى احفظ الصلاة ليحفظك الله أو لتحفظك الصلاة من المعاصى ومن استذلال المحن والبلايا لك واستدلوا بقوله تعالى (انى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة) ومعناه كما يقول الرازى رحمه الله انى معكم بالنصر والحفظ ان كنتم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة * وهذه الادلة كثيرة فى القرآن والحديث * وهذه الامور لا يعقلها الناس الا بالتجربة فاذا قام امرؤ بامر الصلاة وكان حاضر القلب فى جميع الاركان وفى القراءة والركوع والسجود والتشهد وهو مع ذلك نظيف الظاهر حاضر القلب مخاطب ربه طالب منه الهداية كأنه أمامه وهو يناجيه ويكلمه ويحمده ويقول له ان كل حمد صدر من مخلوق فهو لك وأنت الرحمن الرحيم فالعبادة لك والاستعانة بك وحدك وعند الركوع يتذكر تلك العظمة وهكذا عند السجود ويقول فى التشهد ان كل تحية وكل تعظيم فانما هو لك ومعلوم ان الغافل الذى يقول اياك نعبد وقلبه فى حقله أو فى دكانه كاذب فى دعواه (كما قال الامام الغزالى) غير مصل ولا عابد وقال أيضا ان فتوى الفقهاء تسمى هذا مصليا مادام يحضر قلبه عند النية والفقهاء لا علاقة لهم بأمور الآخرة ولا بتهذيب النفوس وانما الفتوى معلقة بالظواهر والظاهر هنا انه صلى فنقول له مالنا وعليه ما علينا وليس له فى الآخرة من نصيب والصلاة بلا حضور قلب جسم بلا روح ولفظ بلا معنى هذا ملخص ما قاله الامام الغزالى والعلماء الصالحون والحكماء المحققون * أقول اذا قام المصلى بالصلاة على هذا الوجه وهو الحضور بالقلب فهل تحفظه من المعاصى كما تقدم ومن بعض المحن والبلايا وهل صاحبها ينصره الله * هذا السؤال له أحد جوابين * أما الاول فانا نقول لينظر ان عمل على هذا الوجه الا كمل فى نتائج حاله واذن يجد المعونة من الله * وهذا لا يطلع عليه الا هو نفسه واذن يكون ذلك خاصا به فلا يتعداه لغيره فلا يكون حجة عند الناس

﴿ وأما الثانى ﴾ فانا ننظر فى العلوم التى كشفها علماء امريكا وأوروبا فى هذا المقام التى اطلعنا عليها وان كان لها نظير فى كتب غير مشهورة عند اسلافنا الذين ورثوا علوم الامم فنقول

﴿ اعلم ﴾ ان النفوس الانسانية المتصرفة فى هذا الجسد ذات قوى كثيرة وما رب شتى واعمال كثيرة والناس فريقان فريق ترك تلك القوى فى غفلاتها تجرى تبع هواها فاللسان يقول ما يخطر بالنفس والعين يطلق سراحها وجميع البدن حر فى تصرفه لا يردعه رادع من عقل ولا دين ولا مروءة فهذا يصبح ضعيف الأثر خامد النفس * أما الآخر فهو الذى حفظ هذه القوى وخزنها فى نفسه ولم يفرط فيها فالكلام بمقدار والنظر والسمع والعقل كل ذلك

موزون بميزان فهذا قد حفظ (البطارية) الكهربائية السالبة والموجبة في نفسه والمغناطيسية الحيوانية التي كسبها فلم يفرط فيها * واذن ببقائها تكون عونا له مساعدا وهو لا يشعر * أما الاول فقد تبعثرت قواه وطاحت وتفرقت فهذه القوى ببقائها في النفس تجعل لصاحبها احتراما وجذبا للافئدة وحبا (ولقد) اطلعت لهم على تجارب يعلمونها لتلاميذهم تعويدا لهم على حصر الفكر وقوة الارادة كأن يأمروهم بالتفكير في أمر واحد زمنا تاما أو يكرروا كلمات بعض دقائق خاصة بالغرض الذي يطلبونه أو يحبسوا الهواء الداخل في الرئتين زمنا تاما داخلا أو خارجا ويقولون لهم اياكم والتحدث عن أنفسكم والفخر في المجالس وذكر الوقائع لاظهار العواطف المختلفة واياكم ان تعاقروا الخمر أو تجترحوا الآثام الشهوية فان كل كلمة ورغبة وخفة وطيش ولذة تحمل معها قوة من المغناطيسية المودعة في نفوسكم فاحفظوها وتعلموا كتمان الاسرار والسكوت والسكون * ويقولون ان نتيجة هذا كله قوة الارادة فقوة الارادة عندهم هي كل شيء * هذا كلام علماء الجمعية النفسيه في أمريكا وهذا هو الذي دونوه * ومن مقالهم انهم يأمرون التلميذ أن يجلس في حجرة وحده ويقوم ذهابا وايابا مخاطبا شخصا خياليا بكلمات ذات معنى أو غير معنى جاضرا عند كل كلمة بنبرات حسنة جازمة كأنه خطيب ويكون ذلك مقدار نصف ساعة وان كانت تلك الكلمات في غرض خاص كانت أدعى لتحقيقه والقصد من ذلك عندهم قوة العزيمة والارادة والهمة وهي كفيلة بتحقيق الاغراض ولهم فوق ذلك ما لا وقت لذكره

وأنا أقول أنا لست الآن في مقام الاستهجان أو الاستقباح وانما الذي أسمعتك من كلامهم جار نظيره في ديننا ألم يقل الله تعالى (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) وتلك المسؤلية يظن الناس انها في الآخرة وحدها والحق انها في الدنيا والآخرة قال تعالى (سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم) والقرآن طافح بذكر عذاب الدنيا وعذاب الآخرة معا وهؤلاء الذين لم يحفظوا قواهم ضاعت وتبددت فضاعت مصالحهم في الدنيا فعذبوا فيها وفي الآخرة * وقال تعالى (أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) وقال تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فانظر كيف جعل الامر راجعا الى خسارة النفس والى تغيير ما بالنفس فالنفس وقواها رأس مال الانسان فاذا بذر فيها بالضحك وكثرته والكلام وثرثرته والحزن والفرح واللذات ضاعت قواها فلم يجد له معينا (أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) فهؤلاء الذين نسوا أنفسهم لا يقدرون على كبح جماحها ولا يحصرون عزيمتهم يصبحون عالة على المجموع * ولقد جاء في الحديث ما يقرب من هذا (من أصبح وهمومه هم واحد وقاه الله الهموم كلها) أوليس هذا كقوله تعالى (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) ولقد تجد في القرآن ذكر الهمة وعلوها وذكر أولي العزم * قال تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) فجعل المدار على العزيمة وترى الصلاة قد وجب فيها حفظ القوة الفكرية وحصرها في غرض واحد * أوليس هذا هو كل بل أكثر مما قالته جمعية المباحث النفسية لتقوية الهمة والنصر والسعادة * أفلا تتعجب كيف يقول الله (واستعينوا بالصبر والصلاة) وانظر كيف قرن الصبر بالصلاة التي يحضر القلب فيها الا صلاة أكثر المسلمين النائمين اليوم * أولست ترى ان تمرين الامريكيين بالخطابة في حجرة مع حضور القلب للكلمات التي تقال لأجل علو الهمة وقوة العزيمة هو تقليد لصلاتنا سواء اعلموا أم لم يعلموا * أفلست أيها الذكي النبيل وأنت تقرأ هذا تتعجب من غاية التعجب من المباحث النفسية التي جاءت مؤيدة لديننا بل هي لم تصل الى جلاله وجماله * وان هؤلاء القوم لما حرموا من جلال الديانات التي تأخذ بمجامع عقولهم بحثوا بأنفسهم عن قواعد استنبطوها بالتجربة وانهم لو كان عندهم ما سمعته من الآيات والأحاديث لجعلوا التعاليم على محورها * أوليس هذا هو قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أفليس هذا الذي ذكرته مما أراه الله لنا في الانفس كما أرانا جماله في الآفاق * أفلست ترى بعد الآن المحافظة على الصلاة بحضور القلب في الافعال والأقوال وخطاب الله ومناجاته مقوية للعزيمة نافعة في الدنيا والآخرة وان قوله (واستعينوا بالصبر والصلاة) له حقيقة عالية قد كشفها علماء النفس في مجلدات وهم لا يعلمون انها

فى الاسلام وان العامقرعما سعد بعضهم بهذه الصلوات وهم لايعلمون وان أسلافنا الذين ملكوا البلاد شرقا وغربا وهم يزكون ويصلون كانوا على حق وان المتعلمين تعليما ناقصا فى مصر وسائر أقطار الاسلام يجب عليهم أن يفكروا فيما قلت بعقولهم فيحفظوا المغناطيسية والقوى الحيوانية فى نفوسهم * وان هذا الذى قلته بلسان العصر الحاضر أقرب الى أفهامهم * أنا موقن أن الاذكياء يجيبون لما دعوتهم اليه بعقولهم لا بالتقليد * أفليس هذا يوضح ما قاله علماؤنا يقول هؤلاء الامريكيون ان الفرق بين تاجرين وعالمين تشابها فى التجارة والعلم واختلفا فى العمل والشهرة ان أحدهما قوى الارادة تام المغناطيسية اليه انجهت الافئدة والآخر ضاعت مغناطيسيته الحيوانية فلا محب له ولا جاذبية عنده أليس هذا كلام أكابر العلماء عندنا الذين يوجبون حضور القلب فى الصلاة أولا ثم فى سائر الاقوال والافعال

(ايضاح) فاذا قال الله ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فذلك لانها علمتنا حصر الفكر والانجاه لله وخشيته فقويت العزيمة فكانت المغناطيسية عندنا تامة * أوليس ما يفعله علماء النفس بامريكا من حصر أفكار تلاميذهم فى نقطة واحدة ما بين ٥ دقائق و ١٥ دقيقة بحيث لا تميل عينه يمنة ولا يسرة ويقولون انه بحصر الفكر قوى عزيمته وبقوة العزيمة والتمرين مرارا يصير قادرا على حفظ قواه فلا يقع فى الاسراف فيها بالشهوات واذن يصير عضوا عاملا فى الامة * أفليست المحافظة على الصلاة مع حضور القلب فيها من التكبيرة الى السلام ستنهاه عن الفحشاء والمنكر * وتمتاز هذه عن آراء الامريكيين من علماء النفس ان التفكر فى الله قد انضم هنا الى حصر الفكر فبدل أن يحصر فكره فى نقطة يراها بعينه يتجه لله فينال الامرين حصر الفكر والانجاه لله مع الاعتقاد الدينى فيكون الله فى عونه وقواه المغناطيسية كاملة تامة فهو مستعد للمساعدة ممن هم حوله بتسخير الله وتكون قوته النفسية موفورة * هذا هو الذى حضرنى عند كتابة هذا الموضوع * فاذا كنا نرى الشبان المتعلمين فى ديارنا يقرؤن هذا وبعضهم يعمل به ابتغاء الغنى من طريق حصر الفكر * أفليس هذا بعينه فى ديننا (ولأذكر لك شذرات) من أخبار آبائنا المصلين الذين فتحوا فارس والروم وهم كانوا يصلون ويصومون ونحن لا صيام ولا صلاة مع اننا علماء بلغات الفرنجة وآدابهم وخمرهم ونحن غنيمة لهم باردة وبآدابهم معجبون وفى محال لهوهم وشرابهم جالسون ولما لنا فيها منفقون

(١) قال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها وكان يقول انما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها

(٢) وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال على المنبر ان الرجل ليشيب عارضاه فى الاسلام وما أكمل لله صلاة قيل وكيف ذلك قال لا يتم خشوعها وتواضعها واقباله على الله عز وجل فيها

(٣) وكان مسلم بن يسار من الخاشعين فى صلاتهم وقد نقل عنه انه سقطت اسطوانة فى المسجد وهو يصلى فلم يشعر

(٤) ومثله عامر بن عبد الله الليثى كان اذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدث النساء فى البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله * أليس هذا هو الذى يلتمسه علماء الجمعيات النفسية فى أمريكا وأوروبا لما تضعضعت دياناتهم وذهبت بهجتها * أوليس هؤلاء المسلمون هم الذين فتحوا البلاد شرقا وغربا وهم مصلون * ان المسلمين اليوم فى سكراتهم يعمهون * انى لعمرك أيها الفطن الذكى لم أذكر أعمال الجمعيات النفسية ليكون برهانا على ان ديننا حق بل لأبين للمتعلم الذى عرف بعض علوم أوروبا وعاش غافلا عما كان عليه آباؤه الاولون

(حكاية مصرية)

قد كانت أمتنا المصرية فى أواسط القرن التاسع عشر وهو القرن الماضى ذات نهضة شريفة عالية بتأسيس (المرحوم محمد على باشا) وكان يرسل الشبان فى الارساليات الى فرانسا ومعهم شيوخ ليعلموهم الصلاة والمحافظة على الدين وكانوا يرسلون كل أسبوع ملخصات لدروسهم وترسل لهم خطابات بختم الأمير يظهر رضاه عنهم فى كل ما ظهر نبوغهم فيه

فاتفق

* فاتفق ذات يوم ان مراسلا لاحدى الجرائد الكبرى (وأظنها الطان) كان يجوب فى المزارع وقت الفجر لغرض ما فلمح من بعيد شبحا فذهب اليه اذا هو تلميذ مصرى بجانب ماء جمد فصار ثلجا وكان ذلك زمن الشتاء والتلميذ يلمس قطرات منه ليتوضأ فتعجب وسأله عن هذا فقال أتوضأ لصلاة الصبح فرجع وكتب مقالة عنوانها (مصر ستقتال أوروبا) وذكر الحادثة بتمامها وقال اذا كان هذا صادق العزيمة حتى يتوضأ بالثلج فهذه العزيمة لامثل لها فى أوروبا وهذه العزائم القوية تهد الجبال وتخرب المدن وسيكون المصريون والشرقيون بهذه التعاليم أقوى من أوروبا ويرجعون الى مجد آبائهم الأولين ويهدمون مجدا بنيناه وسدا أقمناه وحصنا رفعناه اهـ

هذا استنتاج كتابهم فى جرائدهم فتطلعت أنظار أوروبا الى تعاليم المصريين فاحتال قوم منهم على بعض الحكام فاشاعوا الخلاعة والفسوق وأغروهم باحتقار آبائهم ومجدهم ودينهم فخر عليهم السقف من فوقهم وأتانا العذاب فى ديارنا ونحن صاغرون * أليس هذا الكاتب الفرنسى قد لخص معنى (حافظوا على الصلوات) أوليس هذا العالم قد أدرك بفطنته ان مصر بامثال هذا الشاب سترقى وقد تم ذلك بعد سنين فانها ملكت الحجاز والشام وكادت تطير الى أوروبا لولا ماحل بها من الجهل اذ قامت تحارب خليفة المسلمين * أوليس كلام هذا الفرنسى عرفنا مرذكر هذه الآية ومعها الحرب اذ يقول (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) أى فصلوا راجلين أو راكبين وهى صلاة الخوف التى شرحها العلماء * أفليس ذكر الصلاة هنا مع الحرب يشعر بما ذكره ذلك الفرنسى وقد صح ماتنبأ به ثم خمدت جذوة نار البلاد بالجهل والفسق بعد حين * أفلا يصح بعد هذا البيان أن تقول ان الصلاة من قاموا بها نصرهم الله على أعدائهم وذلك بقوة العزائم واجتماع القلوب * لعمرى لقد وفيت لك المقام بغاية الاختصار

وأما قوله تعالى (والصلوة الوسطى) فاعلم أن خير الاقوال فيها قولان يرجعان الى معنى واحد

(أولهما) ان الصلاة الوسطى صلاة مجهولة لفائدة جهلها وهى ان المصلى يتقن كل صلاة عسى أن تكون هى الوسطى وذلك نظير ما فى هذا العالم من الجهل الذى يمر ثمرا لاينتجه العلم ألا ترى ان من أعظم النعم أن نجهل وقت موتنا لنجد ونبنى ونغرس ليدوم العمران هكذا هنا ليجد المصلى فى كل صلاة

(وثانيهما) ان مجموع الصلوات الخمس هى الوسطى من الطاعات فهى واسطة الطاعات فلاهى أعلاها ولا هى أدناها فان أعلى الطاعات مايمس القلب من الايمان والعلم والحكمة الدينية وهذا أفضل من سائر العبادات وأدناها ما يكون من الاعمال الصغيرة كاماطة الاذى عن الطريق * فقد جاء ان المؤمن حقا من كملت فيه شعب الايمان وهى بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة رواه الشيخان هكذا على الشك من حديث أبى هريرة فاعلاها الايمان بالله وماعطف عليه وأدناها كثير من الاعمال الصالحة والصلاة من الامور التى هى وسط بين الطرفين وهذه الشعب ذكرها صاحب النقاية وعدها جميعها بطريق الاجتهاد وهذا ما أردت ذكره فى هذه الآية (ولنرجع) الى المقام الذى فيه بحثنا العام وهو

(المقصد الخامس عشر)

قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ

مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ *

ها هنا فرغ الله عز وجل من اصلاح الأمة فى أحوالها الداخلة ، وللأمة حالان نظام فى داخلها ودفاع عن بيضتها وقتال عن حوزتها . ولقد مضى ما يمنع الهرج فى البلاد والحرج بين العباد من الاصول الفقهية والأحكام الشرعية والآداب الاجتماعية وحفظ الانساب ومنع العقول من سكرتها بخمرتها والأموال من ذهابها بضياعها فمنع القمار وحرمه وحول مجرى الاموال الى ما يحفظ المروءة والشرف ويصون العرض ويرضى الرب من مذله للائى كسرت قلوبهن وشيكت أكبادهن بالفراق والطلاق واليتامى والاقربين والمساكين ووجه العقول المحفوظة من الغائلة المصونة من الترف لحسن العشرة مع الزوجات والمحافظة على الانساب ابقاء للألفة بين الناس وتخليصا لهم من الارجاس وبعثا لهممهم وتوجيها لمجموعهم الى ما هو نافع وجميل

فلما أن فرغ من ذلك شرع يحث الأمة على ان تدرأ عن نفسها العاديات وتستنهض الهمم لرد الهجمات ومهاجمة الاعداء وقتال الظالمين

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتقى صولة المستأسد الحامى

وكانه

وكانه عز وجل يقول أيها الناس لا يصدنكم التزاحم الداخلي ولا التصادم والمعاملات عن التفكر في جلال الله بالصلاة ولا يلهينكم مسائل الفقه كالنفقة والعدة وأحوال المنازل عن ملاحظة الاعداء فاصلحوا أمركم بينكم ثم انتواصفا * حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى واذا كنتم في الخوف فصلوا رجالا أو ركبانا * أيقظ الأمة في ثنايا أحكام العدة والمتعة ونحو ذلك بذكر الله وأدمج فيها حال الخوف * يقول أيها المسلمون اياكم أن تثاقلوا الى الارض وترضوا بحياة المساكين الاذلاء ولتكن منكم طائفة اعدت لجهاد العدو ترصد أحواله وترقب أطواره * ثم ذكر الوصية لمن مات عنها زوجها ثم المتعة وطفق يشرح حال الذين تخلفوا عن الجهاد من الالوف وكيف اماتهم الله فلم يمنعهم الفرار من الموت وكيف غلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة باذن الله

وهنا نشرح لك القضيتين اللتين ذكرهما الله في هذا المقام حضا على الجهاد على طريقة المحاورة والمساءلة ليكون أرسخ في الذهن وأعون على الفهم وأقوم طريقا وأقوى قيلا * سأل بعض الطلبة بمدرسة دار العلوم وانرمز لهم بحروف س وص وع * قال س من أولئك الألوف وما ديارهم وما قصصهم وما مناسبة هاته القصة للاحقتها وكيف أخرناها وكيف كان قصص موسى عليه السلام ومنه وسلواه التي قد سبقت في أول السورة وفي أي تاريخ ذلك

اعلم انه قيل ان قوما من بني اسرائيل أمرهم ملكهم بقتال عدوهم فعسكروا ولكن لم يكونوا بالشجعان الجحاجيح ولا الصناديد القماقيم بل استصحبوا الفشل مع الراحة واحتجوا بالوباء المخيم في أصقاع العدو فحل بهم ما كانوا منه خائفين وأخذ الموت يرهقهم والهلاك يغشاهم حين فروا على وجوههم من الموت هاربين فدعا عليهم ملكهم فماتوا في لحظة واحدة حتى أروحت أجسادهم فحظروا عليهم حظيرة دون السباع بعد ثمانية أيام فلذلك قال الله تعالى (الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم) أى ألم تعلم يا محمد باعلامى اياك وهو تعجيب كما تقول الم تر الى صنيع فلان أى هل رأيت مثل هؤلاء (وهم ألوف) زيادة عن عشرة آلاف (حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) ذلك أن بني اسرائيل مكثوا في مصر عشرات من السنين وأربعمائة ثم خرجوا الى الشام * وقام الشيوخ بأمرهم نحو أربعمائة سنة وكان أول قائم بعد موسى يوشع ثم كالب ثم حزقيل ويقال له ابن العجوز ويقال له ذو الكفل كفل سبعين نبيا كما يقال فلم يقتلوا * وحزقيل هذا هو الذي دعا الله أن يحيي هؤلاء الموتى فحيوا وكان مع كل كاهن سبعون شيخا من شيوخ بني اسرائيل هو رئيسهم و يقال ان حزقيل النبي نفسه هو الذي ندب قومه الى الجهاد فكرهوا وجبنوا فارسل الله عليهم الموت فلما كثر فيهم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت * فلما رأى حزقيل ذلك دعا عليهم فقال اللهم اله يعقوب واله موسى ترى معصية عبادك فارهم آية في أنفسهم تدلهم على نفاذ قدرتك وانهم لا يخرجون عن قبضتك فارسل الله عليهم الموت * ثم انه عليه السلام ضاق صدره بسبب موتهم فدعا مرة أخرى فاحياهم الله

ولقد تضمنت القصة فرارا من الطاعون وفرارا من القتال وكلاهما محرم فلا يدخلن البلد الموبوء داخل ولا يخرجن منها احد وذلك كما فعل عمر وهو ذاهب الى الشام محاربا وأيد بالحديث النبوى فلما سمع ذلك كبر وكبر المسلمون وقال (فررنا من قضاء الله الى قضاء الله) ومنع الجيش أن يدخل الشام وهي موبوءة. ولا يجوز للناس أن يدعوا القتال لئلا يموتوا كما مات بنو اسرائيل الذين جعلهم الله عبرة لنا وهذا هو المهم من سرد القصة وليست تقصد لذاتها * ولئن مات أولئك موت الاجسام ليموتن الجبناء في الحروب موتا قهريا بأيدي أعدائهم أو أدبيا باستذلالهم وسقيهم كأس المذلة والهوان * وما أتعس الحياة مع الهوان وما أشقى الاذلاء

ولعمرى لئن مات قوم عقوبة لهم على فرارهم فكم مات من أمم خاضعة شراذم وجوعا طغى الاعداء عليهم بالبغي والعدوان واستنزلوهم بعد عز من مراتبهم وأودعوا سجن المذلة والصغار * ذلك شأن الأمم الاسلامية بعد ان خضدت شوكتهم وسيموا الخسف واوردوا موارد الحتف * ثم قال الله (ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) اذ يرفع أمة بعد خفضها ويعزها بعد ذلها وينصرها بعد ضعفها ويرفع من اخلاقها بعد سقوطها. ان في ذكر احياء الأمة بعد موتها العلامة ظاهرة وبشارة باهرة انه لا يأس من روح الله * فاذا ماتت أمة وحييت فالحرى الامم

الاسلامية المائتة بالجهل ان تحيا بالعلم وهذا هو الفضل العظيم فليشكروا الله وليعملوا ولذلك أعقبه بقوله (وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم) وليس القتال اجتماع الصفوف وجمع الجنود ورفع البنود وقيام الشاهد والمشهود فحسب كلا بل ان المال قوامه وعماده ورأسه وبنيانه وكيف يصنع السلاح من مدفع وآلات جهنمية الا بالمال لذلك قال (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون) فلا تبخلوا بالمال لئلا تبدل الحال

س أرجوان توضح هذا القصص الثاني ولم جاء مؤخرا عن الاول

ج اعلم ان قصص بني اسرائيل اذ كانوا في التيه وما حاولوا مع النبي موسى عليه السلام وما زاول هو معهم قد مضى في أول السورة وقصة أولئك الذين ماتوا حين فروا في غضون مدة الشيوخ السبعين في اربعمائة السنة بعد خروجهم من التيه ولما مات حزقيل الآنف الذكر مرت سنون والأمة الاسرائيلية في اضطراب والبلاد في اختلال فعظمت الاحداث فبعث الله اليهم الياس المذكور في سورة الصافات ومن بعده اليسع ثم اضطربت الاحوال فظهر عدو يقال له البلتا ناوهم قوم جالوت سكان سواحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة وضربوا عليهم الجزية ولم يبق اذ ذاك من بيت يتوسم فيه النبوة الا امرأة عجوز فولدت ولدا سموه اشموئيل وهو النبي فلما طغى جالوت والعمالقة قالوا لاشمويل (ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله الى قوله والله واسع عليم) هنا ابتداء عصر جديد وحياة اخرى لبني اسرائيل فانه بعد أن كانت حكامهم مجالس شورية تحكم أسباطهم القاطنين بالشام وغيرها وقد عجزت تلك الحكومة عن رد الظالمين والعمالقة الطاغين عليهم لجؤا الى أن تكون الحكومة ملكية ليلتفوا حول راية ملكهم فابتدأ اذ ذاك عظمة ملكهم وضخامة مملكتهم وكان ما كان من أمر داود وسليمان و بناء بيت المقدس قرونا وقرونا حتى ظهر بختنصر عليهم فاجلاهم وضرب بيت المقدس وأسكنهم نواحي اصبهان وما والاها من البلدان وهناك قصص أستير الفاضلة المشهورة وقصص العزير الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها وكيف حييت قريتهم بعد موتها ورد هم الى أوطانهم ملك فارسي حتى أجلاهم الروم الجلوة الكبرى

ألا تتعجب كيف جاء قصصهم في سورة البقرة مرتبا ترتيبا حقيقيا وكيف كان قصص موسى وقومه في أولها أيام انقلاب حالهم من استعباد الى حرية ثم جاء قصص الفارين من الموت في غضون حكومة الاشياخ السبعين ثم كان نبأ طالوت وجالوت وداود أيام الانقلاب ليبتدئوا دورا فيه يسعدون وبه ينصرون وهو دور الملك والعز * أليس ذلك ذكرى للنبي والمسلمين وايقاظا لهم انكم أيها العرب ستنقلون من حال الى حال وطبقا عن طبق ذلك عجيب ثم كيف تراخى بعد ذلك مجيء قصص العزير بعد آيات أفليس من المدهش أن تحوى سورة البقرة تاريخ الاسرائيليين نحو ألف وثمانمائة سنة مرتبا مفرقا منتظما متراخيا وأنت لو ضممتها لكانت تاريخا تاما ذلك من أعجب ما قرأت وأبدع ما فهمت ولقد تبين لي في هذا التفسير مالم أكن لأعلمه من قبل

ارشدت القصة الى اصطفاء الملوك وما صفاتهم قال بنو اسرائيل ان طالوت ليس من بيت لاوي بيت النبوة ومنه موسى وهارون ولا من بيت يهوذا بيت الملك ومنه داود وسليمان وهو من سبط بنيامين بن يعقوب فضلا عن كونه فقيرا ولا ملك الا بالمال فاجابهم بان المال والنسب ليسا سببا في الملك وانما الصفات الشخصية من العلم والقوة البدنية والشجاعة هي المحور الذي عليه يدور رحى الملك على ان الله يؤتي ملكه من يشاء ويرفع ويخفض ويعز ويذل وهو واسع الفضل يعطي الفقير ملكا وما لا عليم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره * هذه هي الداهية الدهماء والطامة العمياء التي أحاطت بالمسلمين فاوردتهم النكال وألزمتهم الخسار فانهم أضحوا تحت رحمة البيوت المالكة في أكثر المعمورة فاولئك ان أحسنوا احسنت أحوال الامة وان أساؤا ساءت فقطعت هذه الآية معاذير الامم الجاهلة وحتمت أن يكون الملك تابعا للعلم والقوة والشجاعة كما كانت حال طالوت * لقد عكف المسلمون على عبادة الانساب فذلت الاعقاب ونعق في ديارهم البوم والعقاب لقد عرف هذه الحقيقة الامريكيون حتى ولوا امرة عليهم خياطا والفرنسيون صانعا لمار آوا

من أخلاقهم وماعرفوا من آدابهم ۰ عرف الفرنسيون جهل المسلمين واستكانتهم وأنهم يستخذون لذوى البيوتات والشرف فعملوا بنصيحة كتابهم والسياحين منهم ان المسلمين تحت رحمة قوادهم من الأشراف وكبار الاولياء كالكتانى وماء العينين والتيجانى وشريف صحراء أكش فاغدقوا عليهم النعم وغشوا على عقولهم بالمال فمال لهم الشريف المراكشى من بيت الملك والتيجانى وساقوا هذه الامم العمياء الى ساحات العذاب وباحات النكال واستخذوا للفناء واستكانوا للوبال ۰ ذلك انهم عن الحكمة معرضون وبالعلم جاهلون (وهاهنا سأل ع) لقد طال بنا المقال فاتمم لنا قصص طالوت (ج) قال اشمويل النبى ان علامة ملكه (ان يأتيكم التابوت) الصندوق (فيه) التوراة تسكنون اليها فهو (سكينة من ربكم) وفيه آثار موسى وهارون وآلهما من الأنبياء وذلك طمأنينة لكم لما فيه من آيات الله وآثار الانبياء كرضاض الالواح وعصا موسى ونحو ذلك

كان ذلك التابوت عند العمالقة فتشاءموا به لما أصابهم من جهد البلاء فوضعوه على عجلة تجرها ثوران وضربوهما بالسوط فسعيا وهدتهما الملائكة بالالهام حتى حصلا فى ديار بنى اسرائيل واذ ذاك خرج طالوت بالجنود وهم ثمانون ألفا كما يقال واخذ يبتليهم وينظر أهم ممن ينقاد للعادات أم هم اعفاء صلحاء (لاجرم) ان الأمم المنغمسة فى الشهوات المترفة المنعمة أبعد عن النصر وأقرب للهلاك والقتل وأحرص على الدرهم والدينار وأقرب الى عذاب النار وقتل السيف البتار والمدفع والبارود وحصد الجنود واهلاك الديناميت

شأن الأمم المترفة الاستخذاء للذلة فيرأسونها ولن يكون فيهم ليوث خوادر ولا شجعان جحاجيح ولا صناديد فاقيم فيستذلون للاعداء ويموتون بالداء

ضرب الله مثل ذلك بما كان من طالوت لقومه عند نهر فلسطين اذ قال لهم لا تكرعوا الماء من النهر ولا تشربوا الاغرفة باليد فمن استكثر وشرب أكثر من الغرفة اسودت شفته وغلب عليه عطشه فمن لم يذق الماء ومن شرب غرفة بيده بلغوا ستمائة مختلفا فى عددها فلما جاوز النهر هو والذين آمنوا معه وهم الذين لم يخالفوا قال المخالفون لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال أولئك الذين يظنون انهم ملاقوا الله الخلص الذين لم يخالفوا كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين كما هو مشاهد فى سائر الامم ان النصر تابع للعزو الشجاعة والقناعة والاجتزاء بالقليل وسألوا الله أن يصبر قلوبهم ويثبت أقدامهم ثم ينصرهم على القوم الكافرين

وأمر طالوت أن يسأل (ايشا) فى عسكره أن يأتى بولده داود فانه هو الذى يقتل جالوت فى علم الله فاحضره ووعده طالوت أن يزوجه بنته فلما قتله زوجه اياها بعد التياو التى ثم حسده على حب الناس له وأضمر قتله فلم يفلح وعرف خطيئته فى هذا وفى مخالفة أوامر الله فى الدواب التى غنمها من الفلسطينيين وهام على وجهه فى الحال ثم أفتاه اشموئيل اذا حضرت روحه عجوز ۰ فقال له اشمويل تقدم أنت وولدك العشرة لجهاد العدو وموتوا فى سبيل الله فكان ذلك وملك داود وابتدأت اذ ذاك عظمة بنى اسرائيل ۰ قال تعالى (وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) الآية واعلم انه ما من أمة تسير على أثر داود فى الصبر والقناعة والآداب الا نصر قليلها على الكثير ألم تر الى البوير وهم قليل نصرهم الله على أمة كبيرة ذلك أنهم صبروا وقنعوا وكانوا يقرؤن مزامير داود على اسماع أبنائهم وبناتهم صباح مساء ۰ هكذا أهل طرابلس صبروا وقنعوا فنصرهم الله مع قلة عددهم وعددهم ذلك من أعجب الأمور وقانون لن يبور اه

ألم تر كيف ضرب الله مثل ذلك بالابتلاء بالشرب من النهر هكذا شأن الكتاب الكريم يضرب الامثال للناس والله بكل شئ عليم

(س) لم يزل فى المثل غموض وما الفائدة الواضحة والحكمة الصريحة فى ابتلائهم بالشرب من النهر وما فائدتنا من هذا القول

(ج) امتاز القرآن بضرب الأمثال للمعانى الغامضة والامور الشريفة ۰ ولما كانت أخلاق الناس خافية

وأحوالهم مستورة لم يتميز الصابر من الجزع والشجاع من الجبان الا بالابتلاء وهل الصور الظاهرة والملابس المتقاربة دالة على بواطن الامور وماغاب عن الجمهور فلاسبيل لادراك الخفايا الانسانيـة الا بالابتلاء والاستجلاء * ولما كان النصر حليف الصابرين الاشاوس والصناديد القماقيم من ابلالترفين بعيداعن المنغمسين في الشهوات العاكفين على اللذات ابتلاهم بمسألة جزئية ليدرك طالوت طباعهم الباطنية كانه يقول لاتعتمد الاعلى الخلص الكاملين (لا يستوى الخبيث والطيب ولوأعجبك كثرة الخبيث) ولاجرم ان عشرين صابرين يغلبون مائتين والمائة يغلبون ألفا * قد تبين في الاعصر الحاضرة ان هـذا واقع ومشاهد . وهذا ايذان من الله ألا تصدق أمرا الابعد تجربته ولاتعتمد عليه الابعد اختباره * ألاترى الى ذلك الاعرابي الذى سبر اخوانه ليبتليهم أيهم أصـدق مودة وأمتنهم صداقة فذبح شاة ودفنها بعد طبخها وتظاهر بانه قتل فلانا وقال فهل لك أن تساعدني يافلان فـكل تولى عنه معرضا ولوى عنه كشحا وقال مالي بهذا يدان حتى عثر على ضالته المنشودة وطلبته المحبوبة * اذ قال أوسطهم فضلا وأقربهم زلفى لاتخف فلامعقب لك وأنا النصير المبين * ثم جرد سيفه وقتل غلام صاحبه لئلا يعلم الأمر غيرهما فقال صاحبـه لقد كنت أختبرك وقد عرفتك صديقا وفيا واستخرجا الذبيحـة من مدفنها فاكلاها هنيئا مريئا هكذا مسألة الشرب من النهر لمتاز الخبيث من الطيب في الجهاد والله يهدى الى سبيل الرشاد

(ص) هل لك أن تذكر لنا بعض حكم داود عليه السلام

(ج) قال في المزامير لماذا تفتخر بالشر أيها الجبار * رحمة الله هي كل يوم . لسانك يخترع مفاسد كموسى مسنونة يعمل بالغش * أحببت الشر أكثر من الخير * الكذب أكثر من التكلم بالصدق (سلاه) أحببت كل كلام مهلك ولسان غش أيضا يهدمك الله الى الابد يخطفك و يقلعك من مسكنك و يستأصلك من أرض الاحياء (سلاه) فيرى الصديقون ويخافون وعليه يضحكون . هوذا الانسان الذى لم يجعل الله حصنه بل اتكل على كثرة غناه واغتر بفساده * أما أنا فمثل زيتونة خضراء في بيت الله توكلت على رحمة الله الى الدهر والأبد . أحمدك الى الدهر لانك فعلت وانتظر اسمك فانه صالح قدام أتقيائك

وقال في المزمور الثالث والخمسين

قال الجاهل في قلبه ليس اله . فسدوا ورجسوا رجاسة ليس من يعمل صلاحا * الله من السماء أشرف على بنى البشر لينظر هل من فاهم طالب الله . كلهم قد ارتدوا معا فسدوا ليس من يعمل صلاحا ليس ولا واحد اهـ

وفي المزمور الخامس والخمسين

الق على الرب همك فهو يعولك * لايدع الصديق يتزعزع الى الابد

وقال في الرابع والخمسين * اللهم باسمك خلصني و بقوتك احكم لى اسمع ياألله صلاتى اصغ الى كلام فمى اهـ

(ص) نريد أن نرجع الى الآيات

(ج) قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولـكن الله ذو فضـل على العالمين)

(تقريره ان نقول) ان الله عز وجل جعل الانسان محتاجا لغيره فلايقدر على القيام بجميع شؤونه فلابد من الجمعية العامة وكل لـكل خادم هذا زارع وهذا حائك وهذا بناء وهذه الانواع الثلاثة هي أصول الصناعات وأكثر الصناعات مقدمات لهذه أومتممات لها كالنجارة والحدادة وهذا خباز وهـذا خياط وهذا زجاج وهذا مسير القطار ومجرى الكهرباء كما سيأتي بيانه عند ذكر الصناعات والعلوم الواجبة على الامة الاسلامية في آخر هذه السورة عند قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) وان كل امرىء استعد لصناعة أوعلم يجب على أهل الحل والعقد ان يأمروا الحكومات أن يخصصوها وان العناية والحكمة الالهية قد أوجدت لـكل عمل قوما بحسب استعدادهم وماتهيئه اليه فطرهم فـكان الناس جميعا جسم واحد * ولما كان الافراد يختصمون والجماعات يقتتلون والامم تتحارب نصب الله في الارض قضاة بين الافراد والجماعات وجعل دولا وممالك ليحموا المجموع و يمنعوا الطاجين عليهم والمعتدين فهذا قوله (ولولا

دفع

دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) بفصل الخصومات والحاد الجماعات وصد الغارات

وأما قوله (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) فالحق هنا أن تعتبر يامحمد أنت وأمتك بتلك الآيات والقصص فكما ابتلى بنو اسرائيل بالاعداء فقاتلوهم وجاء جالوت بجنوده ثم قام طالوت بجنوده بأمر نبيهم شموئيل ثم داود فدمرهم الله وغلب الحق على الباطل ونصر المؤمنون بعدما تحملوا الشدائد * هكذا سيكون أمرك وأمر قومك لان هؤلاء مرسلون (وانك) أيضا (لمن المرسلين) فلابد من نصرك كما نصرناهم * ولقد احتمل الانبياء شدائد وقاسوا الصعاب الكثيرة كموسى وعيسى وابراهيم وداود فمنهم من كلم الله ومنهم من أيدته بروح القدس ومع ذلك لم يسلم أحد منهم من الشدائد والعقبات والعدوان * فلتصبر يامحمد كما صبروا فلذلك أعقبه بقوله في

(المقصد السادس عشر)

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ * يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ * اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّمٰواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصامَ لَها وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ *

(والسابع عشر قوله تعالى)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قالَ أَنا أُحْيِي وَأُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ

وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ‌• وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ •

يقول الله تعالى تلك الرسل الذين ذكروا فى هذه السورة كداود وسليمان والذين لم يذكروا ليسوا فى درجة واحدة بل هم درجات بعضها فوق بعض منهم من كلم الله كموسى على جبل الطور ومحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ورفع بعضهم كأولى العزم درجات كابراهيم وعيسى ونوح ثم خص عيسى بمزية قعساء وعزة شماء وفضيلة بيضاء من ايتاء الآيات البينات وتأييده بروح القدس نبيا ناله اليهود وقد حقروه والنصارى وقد عبدوه وانزالاه فى منزلة هو بها حقيق ومقام به يليق ذكر الأنبياء ومراتبهم والمقربين وفضائلهم ثم أخذ يشرح أحوال الامم التابعين فقال ولو شاء الله مااختلف التابعون لقد اختلف الانبياء واختلفت الأمم فى الطاعات • كان الانبياء مختلفين درجات فى الزلفى لديه واختلف الناس فى آرائهم فمنهم من كفر ومنهم من آمن بعد أن سمعوا الآيات البينات وشاهدوا المعجزات الواضحات بمشيئة الله اختلفوا و بعلمه آمنوا وكفروا وأنم كرهما متباين وعلقها بمشيئته كرتين فليس فى العالم الامراده ولا معقب لما أراده فهو الذى رتب الرسل مراتب • وهو الذى حكم على الأتباع أن يكونوا شراذم ذوى مناصب ومراتب • هذا معنى الآيات الى قوله ولكن الله يفعل مايريد وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ولسائر الناس على مايصيبهم من حوادث الدهر • هذا ولقد أجمعت الأمة على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الانبياء وخاتمهم ولا حاجة الى نقل أقوالهم وحججهم مادام الاجماع حاصلا ولكن لنذكر حديثا واحدا • فى الصحيحين عن همام بن منبه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلى ومثل الانبياء من قبلى كمثل رجل ابتنى بيوتا فاحسنها وأجلها وأكملها الا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البنيان فيقولون ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بناؤك فقال محمد كنت أنا تلك اللبنة

وهذه الآيات جاءت للتوحيد والايمان بالانبياء ولما كان التوحيد لاقيام له بلاعمل والامور المعنوية لاقيام لها الا بالمادة • وايمان بلا زكاة روح بلا جسم ومعنى بلا لفظ وقول بلا عمل أعقبه بقوله (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم) لا تقصرون فيه على تدارك مافرطتم فلا بيع توفون به دينكم أو تفتدون بثمنه نفوسكم ولا أخلاء تفزعون اليهم ولا أصدقاء تستصرخونهم فيصرخونكم ولا شفعاء يشفعون لكم الا من أذن الله لهم • فانفقوا الاموال فى هذه الحياة قبل الفوات لاسيما عند القتال فلقد يطغى الاعداء عليكم فيغتالون أموالكم وينهبون متاعكم ويستعبدون أبناءكم • فاننا حكمنا على الناس بالقتال وحكمنا السيوف والنبال والديناميت وقلنا لو أنا شئنا ما اقتتلوا فالمشيئة سابقة والحروب لاحقة فاذا أبت الأمة ان تصرف أموالها فى المنافع العامة وترفع شؤون العامة فليوقنوا بضياع كيانهم وذهاب استقلالهم وتمزيق جامعتهم ودوسهم بالاقدام وطحنهم تحت رحى الاذلال ووطء رقابهم وانتزاع عقارهم كأكثر الممالك الاسلامية اليوم فلا شفعاء لهم يشفعون ولا أخلاء لهم يواسون ولا مال لهم يبيعون

والله

* ولقد قابلت شابا من بلاد الجزائر عند كتابة هذه الآية * فقال ضاعت آمالنا كنا وأفل نجمنا وانتزعت منا أرضنا وأصبح خمسة ملايين عبيداً خاضعين وصعاليك شحاذين فلا صديق لهم حميم ولا شفيع لهم مقيم ولا مال لنا به نفتدي من ذلك المعتدي فلنخص هذه الآيات شيئان توحيد وانفاق وهذا اجمال سيوضح فيما يتلى من الآيات على لف ونشر بترتيب * أما التوحيد فقد أبرزله ثلاث مراتب عجيبة ذلك أنه ابتدأ بآية الكرسي وما بعدها الى قوله (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وثنى بمحاجة ابراهيم والنمرود وثلث بقصص العزير وحماره وابراهيم وطيره * فأما الأول فهو تقديس لله وتعظيم ووصف لعظمته وجلاله وحكمته وعجائب صنعه في أرضه وسمائه وهو بعصر الصحابة أليق وبالصدر الاول أنسب * وقد ظهرت الدولة العربية وفتحت الأمم الغربية والشرقية اذ كان ايمانهم نقيا من الجدال بعيدا عن الخصام والشقاق * والثاني شبيه بما حدث في الدولة من الجدال في التوحيد وتفرق الكلمة في علم الكلام كالمعتزلة وأهل السنة والشيعة * والثالث أنسب بمستقبل الأمة المجيد اذ ينظرون في خلق العالم العجيب كما أمر العزير أن ينظر لحماره ويتدبر في تصوير لحمه وعظامه وكبده وكلاه وحلقومه وسائر قواه وكما أمر الخليل عليه السلام أن يتبين الطير وقد فرقها ودقائق أجزائها وقد جمعها فاطمأن قلبه لما رآه من عجائب صنع الله * هذه أحوال الاسلام في المستقبل القريب * ووالله ليخرجن فيهم فلاسفة عظام وحكماء كبار * ذلك انهم سيرثون العلم عن سائر الامم اذ يعلمون أن التشريح أهم علوم التوحيد كما نظر العزير في عظام حماره ولحمه الكاسي وسيحللون العناصر الكيماوية كما حلل امامه الطير في البرية فهذه العلوم أصل العلوم الدينية بل أشرف علوم التوحيد وأرق وأدق علوم الدين * لقد جهل أكثر المسلمين هذه الحقائق وعما قريب سيعلمون ولتعلمن نبأ ارتقائهم بعد حين * هذا ملخص ما سنذكره من مقاصد التوحيد الثلاث ومراتبه المنظمة المرتبة ترتيب أزمان الأمة الاسلامية من أزمان النبوة الى آخر الزمان ولا يعلم الا الله مداها ولكن هذا ما وصل اليه علمنا واستقر عليه فهمنا * ان تاريخ الماضي سيقف الآن وقفة ويبتدئ دور العلم من الآن * اني بهذا موقن أيما ايقان كالمشاهد بالعيان

فأما الانفاق وايضاحه فستريك ضرب أمثاله بالحبة والسنبلة والحجر والتراب والجنة والأعناب فافهم وتعجب من الترتيب وكيف ابتدأ بمراتب الرسل وجعل ذكرهم عنوان التوحيد ثم ثنى بالأمم واختلافهم وجعلهم مناط القتال وأصحاب الميدان والنضال وطلب انفاق المال لاصلاح داخل البلاد وخارجها ثم رجع الى التوحيد فأبانه أيما تبيان والى الانفاق فأوضحه أيما ايضاح وفصله تفصيلا وأكثر من الامثال وأخذ يفصل أنواع المعاملات في الاموال * عجيب هذا النظام * وبديع هذا الاتقان * ولنفصل ما أجملنا فنقول * المرتبة الاولى قوله تعالى (الله لا اله الا هو الحي القيوم الخ آية الكرسي) وورد في فضل هذه الآية أحاديث كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم لابي المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم قلت الله لا اله الا هو الحي القيوم فضرب في صدري وقال ليهنك العلم يا أبا المنذر * وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكل شيء سنام وان سنام القرآن البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي * تأمل في هذا القول وكيف فضلها على غيرها وميزها على أترابها * فاعلم ان القرآن فيه قصص وأحكام وأمثال ووعظ ووعد ووعيد وانذار وتبشير * وهذه السورة خاصة فيها ذكر المنافقين والكافرين وهنات بني اسرائيل وقبائح ما ارتكبوه وذمهم وانذارهم ووعيدهم وتبكيتهم وذكر أمر القبلة والحج والصلاة والصيام والخمر والحيض والطلاق والجهاد والايلاء والحلف وما أشبه ذلك * وكل ذلك يرجع الى تهذيب النفوس تارة بالذم للمخالفين وطورا بأدب المعاشرة مع الأزواج والآداب في معاملتهن وآونة بالتكاليف من الحج والصيام والصلاة والصبر وذلك كله يرجع لأمر نفوسنا وتهذيبها وتخليتها عن الرذائل بالمواعظ والصبر والمشاق وتهذيب النفس مقدمة لتحقيق العلم والعلم هو الكمال والمقام الاوفى والذروة العليا والسنام والمجد والشرف الاعلى وأشرف العلوم ما كان لاشرف المعلومات وأشرف المعلومات الله جل جلاله وانه واحد لا شريك له (لا اله الا هو) وهو حي لم يزل بالحياة موصوفا لم تحدث له الحياة بعد موت ولا يعتريه الموت بعد حياة (القيوم) القائم بتدبير خلقه في ايجادهم وأرزاقهم وجميع ما هم في حاجة اليه

(لاتأخذه سنة ولانوم) فالسنة أول النوم والنوم غشية ثقيلة تقع على القلب * والمعنى لاتأخذه سنة فضلا عن النوم لما اتصف سبحانه وتعالى بالوحدانية والحياة وانه قائم بتدبير كل شئ على الارتقاء فى الوصف من توحده وانفراده وحياته وقيومته على كل شئ بالتدبير كان لاعلاقة ترد على النفس وارد فيقول كم من حى قائم بتدبير ما يملك يعتريه النوم فينام * فقال (لاتأخذه سنة ولانوم) واعلم ان هذه الصفة خارجة عما اعتاده البشر من اضطرارهم الى الراحة بعد العمل والنوم بعد اليقظة لتستكمل الاعضاء قوتها ولتأخذ الأعصاب حظها من السكون حتى تقوم بعملها على وجه يليق بها ولقد كان ذلك محتاجا الى التفسير عند الجهلاء وافهامهم بما يعلمونه من نفوسهم

﴿ روى ﴾ الطبرى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (لاتأخذه سنة ولانوم) ان موسى عليه الصلاة والسلام سأل الملائكة هل ينام الله فأوحى الله تعالى الى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فامسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما فجعل ينعس و ينتبه وهما فى يديه فى كل يد واحدة حتى نعس نعسة فضرب احداهما بالاخرى فكسرهما * قال معمر انما هو مثل ضربه الله تعالى له يقول فكذلك السموات والارض ولا تظن أن سيدنا موسى كان يجهل ذلك وانما ذلك من الله تعليم لقومه حتى يعرفوه بما يخالف ما اعتادوه من النوم وانه لو نام أو نعس الانسان لانكسر ما فى يده من القوارير * هذا المثل يعقله العامة والعلماء وهو حسن للجميع ولكن العلماء ينفردون بعلم و يختصون بحكمة * ألا ترى انهم ينظرون الكواكب طالعة غاربة والشموس مشرقة آفلة والاقمار ظاهرة خافية جارية بالليل والنهار فوق الافق وتحت الافق والرياح تجرى بالليل والنهار وكذلك السحب والانهار وترى النبات والحيوان نموان بالليل والنهار فلا يقفان فى نموهما بنوم فانك اذا رأيت شجرة الورد وقد صارت طول ذراع فى أول شهر و بمضى أسبوع وجدتها أطول بمقدار ثمن قيراط فماذا تقول أتقول ان نموها كان بالنهار أما بالليل فلا * كلا * بل النمو فى سائر الاوقات لكل وقت قسط منه * وأوقات النوم عندنا أوقات يقظة عند قوم آخرين كأهل استراليا ولايزال فى العالم نوم و يقظة فى سائر الاحوال وليل ونهار بل اذا كنت قارئا ما أسلفنا من علم الفلك ظهر لك أن كل ساعة تمر عليك فجر عند قوم وصبح عند قوم وضحى عند آخرين وظهر وعصر ومغرب وعشاء ونصف ليل .وهكذا (ليس عند ربك صباح ومساء) هذه تفصيل حال العالم المشاهد الذى نحن فيه فالقارورتان اللتان أوحى الله الى موسى بهما هما السموات والارض أو الارض والشمس وهما دائرتان دائما أبدا فلو ان الله تأخذه سنة أو نوم لاصطكت السموات والارض ببعضهما أو لاصطكت الشمس مع الارض أو مع كوكب من الكواكب فاختل النظام وانما اختار القارورتين لانهما أقرب تمثيل الى الكواكب * ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا) اذا عرفت ماقررته لك فهمت كيف أعقب الله ذلك بقوله (له ما فى السموات وما فى الارض) فتعجب كيف أعقب نفى السنة والنوم بانه له ما فى السموات وما فى الارض كما بيناه لك فتأمل * واستغنى عن الاستدلال فى القرآن بقارورتى موسى بالمقصود من الذى شرحناه وكأن هذه الأمة يراد أن تكون أعلم الامم والافلماذا يقول الله لموسى امسك بالقارورتين ويقول لامة محمد له ما فى السموات وما فى الارض وهذا لا يعقله ولا يعرفه حق معرفته الا أصحاب الفكر الثاقب * ولما كان الناس الذين لهم سلطان فى الارض كالملوك أو من يجرى مجراهم قد يرضون بشفاعة من يشفعون عندهم وذلك كأنه تنزل عن الرئاسة والعظمة والسلطان وكان الكفار يقولون ان الاصنام تشفع لهم عند الله أعقبه بقوله (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) أى لا يشفع عنده أحد الا بأمره كما ذكرنا فيما تقدم أول السورة من شفاعة الانبياء والعلماء والشهداء فارجع اليه وقد اخترنا أن تكون الشفاعة على وجه لا يخل بالمقصود من الدين وهو الجد والعمل ونبذ التواكل والغفلة والكسل ومن تعدى ذلك فقد أضاع أمته ودينه وأذهب المقصود من نبوة سيد العالمين (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) ما بعدهم وما قبلهم (ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء) علمه أى معلوماته واذا لم يحيطوا بمعلوماته فهو منفرد بالعلم كما انفرد بالالوهية (وسع كرسيه) ملكه وسلطانه وقدرته أو علمه (السموات والارض ولا يؤده) يثقله و يشق عليه

حفظهما

(حفظهما) أى حفظ السموات والأرض (وهو العلى) الرفيع فوق خلقه الذى ليس فوقه شئ فيا يجب أن يوصف به من معانى الجلال والكمال (العظيم) ذو العظمة والكبرياء أى لا شئ أعظم منه * واعلم ان الكرسى فى لغة العرب اسم لما يقعد عليه مأخوذ فى معناه من تركب الشئ بعضه على بعض ومنه الكراسة لتركب بعض أوراقها على بعض وهذا الكرسى ركبت خشباته بعضها على بعض * ويقول بعض العلماء ان الكرسى هو نفس العرش وهو السرير الذى يجلس عليه * وقال آخر الكرسى غير العرش وهو أمامه وهو فوق السموات السبع ودون العرش * واعلم كما قال القفال ان المقصود من هذا الكلام تصوير عظمة الله تعالى وكبريائه فقد خاطب الله الخلق فى تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه فى ملوكهم وعظمائهم * من ذلك انه جعل الكعبة بيتاله يطوف الناس به كما يطوفون ببيوت ملوكهم وأمر الناس بزيارته كما يزور الناس بيوت ملوكهم وذكر فى الحجر الاسود انه يمين الله فى أرضه ثم جعله موضعا للتقبيل كما يقبل الناس أيدى ملوكهم وكذلك ماذكر فى محاسبة الناس يوم القيامة من حضور الملائكة والنبيين والشهداء ووضع الموازين فعلى هذا القياس أثبت لنفسه عرشا فقال الرحمن على العرش استوى ثم وصف عرشه فقال وكان عرشه على الماء ثم قال وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقال ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * وقال الذين يحملون العرش * ثم أثبت لنفسه كرسيا فقال وسع كرسيه السموات والأرض اهـ اذا عرفت هذا فكل ماجاء من الالفاظ الموهمة للتشبيه فى العرش والكرسى فقد ورد مثلها بل أقوى منها فى الكعبة والطواف وتقبيل الحجر فاذا قلنا ان المقصود معرفة عظمة الله وكبريائه مع القطع بانه منزه عن أن يكون فى الكعبة فكذا الكلام فى العرش والكرسى هذا ملخص كلام القفال * ثم ان هذه الآية دلت على ان الله موجود واحد حى واجب الوجود لذاته قائم بنفسه مقيم لغيره لا يعتريه النقص والفتور مالك الملك فى العالمين ذو البطش الشديد والقهر والعظمة لا يشفع عنده الا من صدر له اذن منه يعلم الجليل والقليل واسع الملك والقدرة ولا يؤوده مشاق متعال عما تدركه الافهام وتتخيله الأوهام عظيم لا تحيط به العقول * ولا تدركه الأبصار * هذه آية الكرسى أفلا تذكر ماقاله صلى الله عليه وسلم لأبى المنذر وقد ضرب به فى صدره (ليهنك العلم) كأنه صلى الله عليه وسلم يقول ياأبا المنذر اهنأ بالعلم مشيرا بالضربة الى أن قلبه امتلأ نورا بالعلم * وكيف يكون ذلك والقرآن كله علم فلم خص آية الكرسى * فاعلم ان جواب هذا السؤال واضح مما قررته لك هناك من ان المقصود من القرآن هو العلم * وأهم العلم ذات الله وصفاته وأفعاله فهذه الآية ذكرت صفاته سبحانه وتعالى * فأما ماعداها من أكثر الآيات فلم تتعد الانذار والتبشير والحج والصلاة والزكاة وتهذيب النفوس والأخلاق * ولعمرك ان هذه العلوم كالفقه وعلم القصص والأخبار كل ذلك مقدمات لتحلية النفس بالعلم ليكون زينة للنفس ورقيا للمدنية وسعادة للامة وفوزا مبينا

(بذور القرآن)

ـ ولعلك تقول أين سعادة الامم فى معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله ونحن نرى اننا نعرف ذلك ونحن فى أخريات الامم ـ أقول على رسلك لئن عرفنا ذات الله بالتقديس والتنزيه وعرفنا صفاته بالكمال والجمال وأفعاله بالنظام والميزان لنكونن أرقى الامم ولأوضح لك ذلك فأقول

ـ لقد بذر الله فى قلوب العباد من المسلمين فى مساجدهم وصلواتهم أن يقرؤا آية الكرسى وآمن الرسول (والم الله لا اله الا هو الحى القيوم) الآيات * وقوله (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة) الآيات وقوله (قل اللهم مالك الملك) الآية * وقوله (سبح لله مافى السموات ومافى الارض وهو العزيز الحكيم) الآيات وقوله (هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة) الآيات * أليست هذه الآيات يقرؤها المسلمون صباحا ومساء عقب صلواتهم لماجاء فى فضلها * فقل لى برعاك الله لم لم يقرؤا آيات غيرها ولم لم يقرؤا مثل تبت يدا أبى لهب * أونحو قوله تعالى (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله) ولماذا تكرر هذه الآيات * واختارها الصالحون والصوفية لتلاميذهم

وأوصوهم بها . ان ذلك لعمر الله لسر قد آن انكشافه ولعل هذا وقت ظهوره * ان أولئك الاساتذة كانت تنشرح صدورهم لذلك التلقين ويعلمون التلاميذ ذلك الاكسير ليفتح الله عليهم بالقبول والوصول من طريق التقوى وتصفية الباطن ولكن الامر عظيم ان ذلك أشبه بما كان عند قدماء المصريين من العلوم المطمورة والآثار المخبوءة والرموز المكتومة حتى جاء علماء الآثار فحلوا معمياتها ووقفوا على بعض جزئياتها وهكذا ترى علماء الاسلام اليوم يبحثون في أسرار القرآن فلا لف عليك قلا من كثر وقطرة من بحر الاسرار في الدين فأقول

لقد استبان لك أن صفات الله ظهر بعضها في آية الكرسي وترى الآيات الأخرى كذلك فقوله (الم الله لا اله الا هو الحي القيوم) وصفته ولكن أعقب هذه الصفات بذكر الأفعال فقال (هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء) بعد قوله (ان الله لا يخفى عليه شئ في الارض ولا في السماء) أوليس ذلك يدعو الى علم التشريح وعلم الكيمياء وكيف لا يدعو لذلك وهو يقول (يصوركم في الأرحام كيف يشاء) أليس هذا يدعو الى علم الحياة المخترع حديثا الذي يبحث في حياة الانسان والحيوان والنبات أوليس الجنين في الرحم مكونا من الدم الناجم من خلاصة الغذاء وبالتفاعل الكيماوي كونت هذه الأجنة * أوليس هذا العلم يشمل الحيوان والنبات . ننظر نظرة أخرى في قوله (شهد الله) الخ أوليس قوله شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط يدعو الى سائر العلوم فان القيام بالقسط هو نفس النظام أي نظام الفلك ونظام الطبيعة * وقد قال علماؤنا لا يعرف معنى القيام بالقسط الا من درس سائر العلوم كما قالوا في قوله تعالى (ووضع الميزان) في سورة الرحمن ان هذا الميزان لا يعقله الا الذي درس كل علم كالطبيعة والفلك والكيمياء فان الذرات في التفاعل الكيماوي لها حساب دقيق لا خطأ فيه ولا خلل كما ترى في تركيب الماء من الاكسوجين والايدروجين وان نسبة وزن الاوكسوجين الى الايدروجين معلومة لا تتغير وهكذا نسبة حجم الاول الى الثاني ثابتة وهذا أمر لا يستثنى منه شئ في العالم كما قال تعالى (ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين) والله لقد قرأنا بعض صفحات هذا الكتاب في الطبيعة فأيقنا بنظام جميل بديع وحققناه وألفينا حساب الله لم يذر ذرة الا حسبها ولا أصغر منها الا كتبها كتبها بيده وأودعها في الطبيعة وألقاها الى الناس أجمعين وقال للمسلمين هذه علومكم فادرسوها جعلتها في القرآن لتحفظوها ويتعبد بها الصالحون ويدرس بها ما صنعت وما نظمت العلماء المفكرون والحكماء المحققون . فان رضيتم بقشور القرا آت ووقفتم عند حد التلاوات فانكم يا عبادي في عداد الاموات . وان فكرتم في مصنوعاتي ودرستم مخلوقاتي وعرفتم موازيني وأيقنتم بقسطاسي فانكم بذلك تحبون وترفعون رؤسكم بين الأمم . وهل يقر لكم قرارا ويكون لكم اصطبار وأنا أنعشت الامم حولكم فجاسوا خلال دياركم وأنتم عن الحكمة نائمون وعن التبصر فمعرضون أولم تتفكروا في آية (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي) الآية

أوليست هذه الآية المقروءة عقب الصلوات المختارة فيما اختاره الاساتذة الاخيار دالة على ان الملك ينقل من قوم الى قوم وانه لكل أمة يوم وأنا الذي أعطي من عبادي للغلبة من أشاء كما زاد النهار تارة والليل أخرى بحساب وكما أخرج الحي من الميت وأخرج الميت من الحي * أليس ذلك يدعو لدراسة الأفلاك والكواكب وعلم الحيوان أوليست هذه أفعالي * أوليست صفاتي في آية الكرسي لا يظهر لكم آثارها الا بأفعالي فهاهي ذه أفعالي هواذ أنزلت القرآن وقرأتموه وكررت تلك الآيات التي هي من أهم العلوم * أفليس فيكم رجل رشيد ألم يقم منكم قائمون يذكرونكم أن تلك التلاوات التي سيقت للعبادات يتبعها العلم والتفكر . أفلم يكن من وحيي لكم اني ألهمت أسلافكم حفظ آيات صفاتي وأفعالي لتكون ذخيرة لكم لعلكم تعقلون . أولم تقرؤا ما كتبه العالم الهندي في كتاب كليلة ودمنه من الحكايات الخرافية وانه قيل في أول ذلك الكتاب ان الحكايات تكون تسلية للجهال وغراما

للاطفال ولكنها حكمة الحكماء وعلم الملوك وسياسات القواد العظماء فهل ترون ذلك فى كتاب أحد عبيدى ولا ترونه فى كتابى الحق، كتابى يتعبد به العباد و يدرسه الحكماء أقول هذا هو السر فى اختيار هذه الآيات وهى بذور للحكماء والعلماء ومتى شاع هذا القول بين علماء الأمة ظهر سر قوله (ليظهره على الدين كله) وسر قوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله * هذا هو أوان اليوم الموعود للامة الاسلامية * هذا هو السر المصون والجوهر المكنون والجمال والنور المختبئ فى القرآن الذى أبرزه تألب الأمم الغربية على المسلمين فليقرؤا كل علم وليعرفوا كل فن * بهذا أمر الله فى الكتاب والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم هذا

(ولنرجع الى الكلام الى مابعد اية الكرسى فنقول)

قال تعالى (لا كراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) أى تميز الايمان من الكفر بما ظهر من الآيات الواضحات أن الايمان سعادة وان الكفر شقاء (فمن يكفر بالطاغوت) بالشيطان أو الأصنام أو كل ماعبد من دون الله (و يؤمن بالله) بالتوحيد وتصديق الرسل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) طلب الامساك بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق وهذا مستعار للتمسك بالحق من النظر الصحيح والرأى القويم (لا انفصام لها) لا انقطاع لها (والله سميع عليم الله ولى الذين آمنوا) محبهم أو متولى أمرهم (يخرجهم) بما منحهم من التوفيق والهداية (من الظلمات الى النور) أى الهدى والايمان (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) المضلات من الشيطان والهوى والاصحاب وغيرهم (يخرجونهم من النور الى الظلمات) من نور الفطرة (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

(المرتبة الثانية فى التوحيد)

(وهى قوله تعالى الم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه الى قوله والله لا يهدى القوم الظالمين)

يقول هل انتهى الى علمك يامحمد خبر الذى خاصم ابراهيم فى ربه وجادله وهو نمروذ فقال أنا أحيى بالعفو وأميت بالقتل فقال له ابراهيم فهل تقدر على تغيير الافلاك وقلب نظام الشمس فى سيرها فصار الذى كفر مبهوتا وانتهى من المجادلة مقهورا، وهل يهتدى الظالمون الى الحجة البلجاء والعقيدة السهلة السمحاء (ثم أتبعه بالمرتبة الثالثة) ونظمها فى سلكها ورتبها بعد تمامها فقال أو كالذى مر على قرية والكاف صلة كأنه يقول ألم تر الى الذى حاج والى الذى مر على قرية وهو أرمياء أو عزير والقرية اما بيت المقدس أو ايلياء وقد كانت خاوية ساقطة حيطانها على عروشها سقوفها قال ذلك النبى استعظاما لأمر الله واعترافا بالقصور عن ادراك طريق الاحياء كيف يحيى هذه الله بعد موتها وقد كان من قبل ذلك سطا على بنى اسرائيل بختنصر فى جمع عظيم فأنزل بهم العذاب وأجلاهم الى بلاد العراق وفارس فلما أن هلك أمر بعض ملوك الفرس بارجاعهم الى بيت المقدس وتعميره وتعمير ايلياء فلما ان قال ذلك النبى ماقال وقد شاهدها خرابا بلقعا ووحوشا يبابا وقد كان معه عصير عنب فى ركوة وسلة تين وهو على حماره فمات لساعته ضحوة وحيى بعد مائة سنة وقد عمرت القرية على رأس السبعين وتم توزكت فى ثلاثين هذا معنى قوله (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) قال له الملك (كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك) التين (وشرابك العصير) لم يتسنه يتغير (وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها) نحييها أو نرفعها (ثم نكسوها لحما)

تلك الحادثة كانت أيام سقوط الدولة اليهودية ذلك أنهم كانوا فى مصر نحو أربعمائة عام ومكثوا فى حكم الشيوخ السبعين والكاهن نحوا من ذلك حتى كان ما كان من أمر طالوت وشموئيل وداود وسليمان فظهرت دولتهم واستفحل ملكهم وعظمت شوكتهم حتى ملكوا الفرات وأطراف اليمن و بعض جهات الروم وجاور مملوك الفرس وذلك نحو ستمائة سنة وكانوا فى تاريخهم أشبه بالعرب فى سيرهم فانهم لما وصلوا فى الفتوحات لمجاورة التتر أزالوا دولتهم

فى القرن السادس فهكذا هؤلاء لما ملكوا الارض المقدسة حاربهم الفلسطينيون وهم العماليق وقلبوا جمهوريتهم الى ملكية ثم أخذ ملكهم يزداد وعظمتهم تمتد وطودهم يشمخ وأوتادهم تثبت حتى جاوزوا الفرات والجزيرة فانقض عليهم جيرانهم فأذاقوهم سوء العذاب ذلك تاريخهم فبدأ سلطانهم فى أول السورة عند ذكر موسى

وقلب الجمهورية الى ملكية فى قصص شموئيل وطالوت وداود وسقوط مجدهم وهبوط نجمهم وأفول سعدهم أيام العزير اذ قرأ لهم التوراة عن ظهر قلب

ثم كانت خاتمة أمرهم ان اجلاهم الروم ذلك انهم أى الروم قد غلبوا اليونان الذين غلبوا الفرس فانه لما تولى اليونانيون على ملك فارس بقائدهم اسكندر ورثوا ملكهم ومنه بيت المقدس ثم لما غلبت الروم اليونان ضموا اليهود اليهم وأجلوهم الجلاوة الكبرى ونقلوهم الى رومة وما والاها من البلدان وفى أيامهم أرسل المسيح عليه السلام

فاعجب لترتيب هذه القصص على مقتضى الزمان وترتيبها كترتيب التاريخ وأهم منه ما أشرنا لك من قبل عماد الامر وقصاراه التأمل فى حكمة الله هو انظر كيف يقول تعالى وانظر الى حمارك وانظر الى العظام كيف ننشزها الخ فأمره بالنظر فى جسم الحمار مرتين وقال ارجع البصر كرتين أوجب علم البيطرة لبيطرة الدواب والتشريح لمعرفة الاجسام للانسان والحيوان ثم ذكر معها جملة من العلم فى نمطها ونظمها فى سلكها فجعلهما درتين فى تاج الحكمة والعلم ومصراعين لبيت الاسلام فقال (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى) الى قوله (عزيز حكيم) لما حاج نمروذ ابراهيم وقال له أنا أحيي وأميت وعفا وقتل بعد قول ابراهيم الله يحيي برد الروح الى البدن انتقل ابراهيم الى ما تقدم ذكره ثم سأل الله المعاينة وذلك قوله تعالى (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى) الآية يقول ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى (ليصير علمى عيانا) قال الله (أولم تؤمن) باحيائى الموتى (قال) ابراهيم له (بلى) آمنت ولكن سألت ذلك لازيد بصيرة وسكون قلب بضم العيان والمشاهدة للوحى والاستدلال (قال) الله له (فخذ أربعة من الطير) طاووسا وديكا وغرابا وحمامة (فصرهن اليك) أملهن اليك من صاره يصيره ويصوره وقرئ صرهن بالضم والكسر أى اجمعهن (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) أى جزئهن وفرق أجزاءهن على الجبال التى بحضرتك وهى أربعة (ثم ادعهن) قل لهن تعالين (يأتينك سعيا) ساعيات مسرعات طيرانا أو مشيا (واعلم أن الله عزيز حكيم) فهو بالعزة غالب و بالحكمة منظم ومتقن

اياك أن يلج فى صدرك ان مثل هذه الآية نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم بعد قصص العزير وحماره لنسمع قصصا فضى وتاريخا خلا من غير ان نعتبر ونذكر ونفكر

يقول الله انظر الى حمارك ثم يقول انظر الى عظامه كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ، ولا جرم ان ذلك يدعو حثيثا لعلم التشريح و يتلوه الطب ولن يقوم للطب أساس ولا للتشريح قائمة الا اذا درست العلوم الطبيعية من النبات والحيوان وفصائلها وأنواعها وأجناسها وأشكالها و بذورها وغير ذلك

ونعجب كيف طلب الخليل من ربه انه يريه احياء الموتى عيانا بعد التصديق بالاستدلال والوحى تعليما للأمة الاسلامية أن يبحثوا وتهييجا لهم أن يتذكروا . بالله من ذا ينكر احياء الله للموتى من عجائز المسلمين والنصارى واليهود . ومن ذا الذى يختلج فى قلبه أو يهجس فى نفسه منهم أن يقول ان الله لا يحيي الموتى فضلا عن القراء والعلماء والانبياء فكيف يكون حال ابراهيم صلى الله عليه وسلم

لا جرم ان الامر فوق ما يظنه اغرار الناس وان الايمان والسعادة وارتقاء العقول البشرية التى تتبع ارتقاء الامم الانسانية يعوزها دراسة الاشياء المحيطة وعجائب تركيب الاجسام ونظام الحيوان وكيف يكون التحليل وكيف يكون التركيب

وأنت اذا وقفت على بدائع تركيب المخلوقات الحية وغير الحية اعتراك الدهش وأخذتك الحيرة وغشيتك غواشى العجب والبهر وأذهلتك أيما اذهال . ولارتك طرفا من علم الكيمياء لتدرك سرا من أسرارها وحكمة من علمها وقطرة

من بحرها لتعجب من هذا الوجود وتدرك ما كان يرتضيه الخليل و بماذا أراد الله بهذا القصص وماشأن الطيور وتمزيقها وتوزيعها على الجبال وسعيها طائرات وماشأن الحمار وعظامه ولماذا أمر العزير بالتأمل فى انشاز عظامه أى احيائها و بتحريك بعضها وضمه الى بعض وانه يكسو باللحم * فاقول

ان فى علم الكيمياء كلمتين هما المزج والاتحاد فلوانك مزجت عشرة جرامات من الفحم بعشرة من مسحوق الكبريت كان الحاصل منهما حافظا لخواصه الاصلية حتى اننا لو نظرنا الى هذا المزوج بمنظار لشاهدنا أجزاء سوداء لاقانون لها ولاضابط ولاقاعدة وانما ذلك حسب الهوى كما تضع الملح فى اناء والتراب مع الملح فلا اتحاد ولا التئام ولا انتظام

(الاتحاد)

أما الاتحاد فهو السر المصون والعلم المكنون والنظام البديع الغامض المتقاعس عن الجاهلين المترفع عن ادراك الغافلين * وهذا هو سر الله فى أرضه ومرمى آراء الخليل والعزير والنبى صلى الله عليه وسلم * ومن أدركه فقد أدرك السر المكنون والكبريت الاحمر وكانما ملك الدنيا بحذافيرها فان هذا هو سرها وعجبها و بدعها ومن يدركه الا الفوقة القماقم وصناديد العلم الاكابر * ففى الاتحاد تفقد الاجسام خواصها الاصلية وطبائعها وأوصافها وأحوالها وألوانها وتتحول الى شئ آخر مغاير لكل منها (خذ لك مثلا)

القطن والقمح والبرسيم

هذه نباتات كونت فى الارض من هذه العناصر وهى

البوتاسا والصودا والجير والمغنيسيا

وحمض الفوسفوريك وحمض الكبريتيك والسلكا والكلور

عناصر	قطن	قمح	برسيم
بوتاسا	٥ ر٣٥	٣١ر٥٤	٣٤ر٦
صودا	٣ر٦٤	٣ر٦٦	١١ر٤
جير	١٤ر٦٣	٣ر١٤	٢١ر٦
مغنيسيا	٨ر٧٨	١٢ر١٠	٤ر٥
حمض فوسفوريك	٨ر٣٤	٤٨ر٥٠	٥ر٣
حمض كبريتيك	٧ر٧٧	٠٠ر٠٨	٤ر٢
سلكا	٨ر٢٢	١ر٨٨	٣ر٨
كلور	٦ر٣٧	٠٠ر١٠	١٣ر٩

أنت تعرف الجير وقد دخل فى القطن بنسبة ١٥ ٪ تقريبا وفى القمح بنسبة ٣ ٪ وفى البرسيم ٢١ ٪ وأنت تعرف الجير تراه بعينك لكنك لو حللت النبات لم تر جيرا وانما هو نبات حول الجير اليه وذهبت خواصه وصار عالما جديدا

ها أنت ذا حللت النبات ونظرته فالفيت البرسيم والقطن والقمح من مواد متحده

المواد والعناصر فى الثلاثة متحدة فانت مالبست ولا اكلت ولا اكلت البهائم الا تلك العناصر المتحدة التى فقدت خواصها * ولعمرك ماحولت الى تلك الخواص والاجسام الحادثة الجديدة الا بتلك النسب المحفوظة فهذا الوزن وهذا الحساب هو الذى مكن من اعطائها أشكالها النافعة فكانت غذاء الحيوان ورداء الانسان وزينة الرجال والنساء فنحن نلبس ونتزين بما ياكله الحيوان ولكن السر المصون هو النسب فاذا حولت النسب حولت الخواص وتغيرت الاسماء

اليس ذلك من العجب ولو ان البوتاسا صارت فى القطن ٣٦ ٪ بدل ٥ ر ٣٥ ٪ ماتركب قطنا بل كان ممزوجا لا متحدا ولم تكن فيه خواص القطن وعلى ذلك كانت قاعدة الاتحاد

ان اتحاد الاجسام بعضها ببعض يكون بمقادير محدودة ثابتة فى كل مركب وهو المسمى بقانون المقادير المحدوده فترى الماء مثلا مركبا من (١) كسوجين و (٢) أودروجين ونسبة الثانى الى الاول وزنا كنسبة واحد الى ثمانية و يفقد كل منهما صفاته الخاصة وتحدث صفات لم تكن لهما وهى صفات الماء من طعم وهيئة وغير ذلك ونسبة

الاول الى الثانى حجما كنسبة (١) الى (٢) والاكسوجين عبارة عن جسم هوائى اذا ادخلت فيه شيأ قابلا للاحتراق احترق أما الاودروجين فهو جسم هوائى أيضا طيار كالاول انما اذا أدخلت فيه حيوانا مات حالا فهو جسم مميت أما الاول فهو جسم محرق وهذان الجسمان باتحادهما مع بعضهما تكوّن الماء الذى به حياة كل شئ . ولنعجب مما سأذكره لك وهو انه اذا تركب جزآن من الاكسوجين مع جزأين من الادروجين فانه يحصل منهما جسم آخر ليس بماء وانما هو جسم كاو محرق يسمى (ديتوكسيد) وهو سائل محرق أكال لما يدخل فيه فتعجب من هذه المركبات وكيف كان حساب الماء دقيقا ولما اختل الحساب جاء سائل آخر قاتل فمتى كان جزآن من الادروجين مع جزء واحد من الاكسوجين كان فيه حياة كل حى ولما صار الاكسوجين جزأين كالادروجين صار قاتلا لكل حى وانظر الفرق بين الاحياء والاماتة تجده جزأ واحدا فقط وكيف اختار الله هذا التركيب وجعله محيطا بالارض وهو الماء ان الله سريع الحساب

ما أعجب ما ترى فى هذا المقام وما أبدع ما عرفت ايها الذكى . لم اختار الله هذا التركيب اليس لانه به الحياة ولو انه زاد الاكسوجين جزأ واحدا لم يصلح المركب للحياة اليس ذلك دلالة على انه محيط بكل شئ (وهو الله فى السموات وفى الارض يعلم سركم وجهركم) والا فلماذا هذا النظام والحساب والعجب العجاب اهـ

وهناك قانون آخر يسمونه قانون النسب المضاعفة (اذا اتحد جسمان وتكوّن منهما جملة مركبات فاذا بقيت كمية احدهما ثابتة فكمية الآخر تتغير على حسب نسب مضاعفة بسيطة جدا)

فترى الأوزوت يتحد بالاكسوجين ويكون منهما خمس مركبات

(الاول) يحتوى ١٤ من الاوزوت و ١٦ من الاكسوجين

(الثانى) على ١٤ من الاوزوت و ١٦ فى ٢ من الاكسوجين

(الثالث) على ١٤ من الاوزوت و ١٦ فى ٣ من الاكسوجين

(الرابع) على ١٤ من الاوزوت و ١٦ فى ٤ من الاكسوجين

(الخامس) على ١٤ من الاوزوت و ١٦ فى ٥ من الاكسوجين

فترى من ذلك ان تركيب الاجسام جار على نظام ثابت بحساب معين ونمط بديع وهو السحر الحلال وعلى ذلك سائر المركبات من نبات وحيوان وانسان وهذا معنى كونه عزوجل سريع الحساب وقوله وكل شئ عنده بمقدار وقوله وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وقوله انا كل شئ خلقناه بقدر وقوله وما كنا عن الخلق غافلين وقوله ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان

فاذا تصورت ان كل ١٨ جراما من الماء فيها ١٦ جراما من الاكسوجين وجرامان من الايدروجين وانك لو زدت ذرة واحدة من احدهما أو نقصتها لم يكن اتحاد وبقيت بخاصتها وهكذا بقية المركبات المتحدات أدركت كيف أمر الله عزوجل الخليل بالنظر فى العوالم العلوية والسفلية وكيف أمره بتحليل الطير ثم ركبه وهو ناظر اليه ليقف على سر التحليل والتركيب والنظام البديع

وليكون ايمانه عن يقين لا برهان أو تقليد

وهذه أهم المسائل وأعجبها ولوانك راقبت النبات فى مدرستنا الراتبة يجتذب الذرات من الارض فتتمثل بجسمه وتنقلب ورقا وزهرا وثمرا على نهج قانون الاتحاد وناموس النسب فاذا تفرقت أجزاؤه وتحللت عناصره أعيد كرة أخرى فى نبات أو حيوان بنسب محفوظة على قوانين ثابتة غاية الطيروانعجة أما مناصباحا ومساء كل حين ونحن عنها غافلون انها الضرب بمثل لما نشاهده كل وقت . فعلى قادة المسلمين ان لايغفلوا عن هذه الحقائق وأن لاينامو عن هذه الحقائق

وهاك جدولا جامعا لكثير من النبات المشهور النافع للانسان والحيوان

عناصر	القطن			القمح		الشعير	
	شعر	بذرة	خشب	حب	تبن	حب	تبن
بوتاسا	٥٠ر٥	٣٢ ر ٣	٣٢ر٩	٣١ر٥٤	١٥ر٦٤	٢١ر٣٠	١٨ ر ٨٠
صودا	٣ر٦٤	٦ ر ٩	٥ر٤	٢ر٦٦	٩ر٥٤	٤ر٠٠	٦ ر ٨٠
جير	١٤ر٦٣	٥ ر ٦	٢٨ر٠	٣ر١٤	١٠ر٠٠	٢ر٤٠	٤ ر ٧٠
مغنيسيا	٨ر٧٨	١٦ ر ٥	٦ ر٣	١٢ر١٠	٣ر٥٠	٩ر١٠	٢ ر ٥٠
حض فوسفوريك	٨ر٣٤	٣١ ر ١	٨ ر١	٤٨ر٥٠	٣ر١٠	٣٣ر٧١	١ ر ٦٠
حض كبريتيك	٧ر٧٧	٢ ر ١	٥ر٤	٠٠ر٠٨	٤ر٧٠	٢ر١٠	٣ ر ٥٠
سلكا	٨ر٢٢	٠ر٣١	٥ر٩	١ر٨٨	٤١ ر ٩	٢٧ر٥٢	٤٣ ر ٠٠
كلور	٦ر٣٧	١ر٥٠	٧ر٥	٠٠ر١٠	٥ر٢٠	٠٠ر٣٠	١٧ ر ٣٠
اوكسيد الحديد	معدوم	معدوم	معدوم	آثار	٦ر٢٠	٠٠ر١٥	١ ر ٣٠

	الذره		الفول		بطاطس	القصب		برسيم
عناصر	حب	سيقان وقوالحه	حب	تبن	نوع من السكيا	ورقه وقلفاته	مجرد من قلفاته	
بوتاسا	٣٧ ر ٩	٣٢ ر ٠	٤٢ ر ٥	٢٧ ر ٨	٦١ ر ٦	٢١ ر ٥	٣٤ر٣٠	٣٤ر٦
صودا	٣ ر ٠	٣ ر ٠	٣ ر ٣	٨ ر ٦	١ر٩٠١	٢ر٤٠	١ر٩٠	١١ر٤
جير	٣ ر ٤	٩ ر ٧	٦ ر ٠	٢١ ر ٥	٢ ر ٤	٧ر٢٥	٤ر٨٠	٢١ر٦
مغنيسيا	٧ ر ٥	٥ ر ٥	٧ ر ٣	٥ ر ٦	٥ر٠٠	٣ر٨٠	٢ر٩٠	٤ر٥
حض فوسفوريك	٤٤ ر ٨	٢ ر ١	٣٤ ر ٦	٥ ر ١	١٧ ر ٦	٣ر٣٥	٤ر٨٠	٥ر٣
حض كبريتيك	١ر٥٠	١ ر ٤	٣ ر ٥	٥ ر ٩	٦ ر ٢	٦ر٣٠	٦ر٥٠	٤ر٢
سلكا	١ر٤٠	٣٢ ر ٨	٠٠ ر ٩	٨ر٧٠	١ر٠٠	٤٤ر٨٠	٢٦ر٩٠	٣ر٨
كلور	آثار	١٠ ر ١	١ ر ٤	١١ ر ٥	٢ ر ٢	٨ر٢٠	٨ر١٠	١٣ر٩
اوكسيد الحديد	٠٠ ر ٤	٣ ر ٠	٠٠ ر ٤	٤ ر ٩	٠ ر ٨	١ر٩٠	٩ر٨	

(تأمل هذا الجدول)

تجد ان مطعوم البهائم والآدميين والملابس والفاكهة كلها عناصر واحدة اختلفت مقاديرها فيا عجبا كيف كانت مادة القرع هي مادة القمح بعينها بل مادة القطن وباختلاف المقادير صار هذا ملبسا وهذا مطعما ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ٩ حارت الافكار في هذه الحكمة الباهرة . فان نظرنا الى ترتيب النبات مع المعادن والحيوان

وترتيب كل طبقة فيها وجدنا أحكاما وان نظرنا الى أجزاء كل شجرة من أعضائها الظاهرة من عروق وسوق وفروع وأوراق وأزهار وثمار رأينا حكمة باهرة وانها موزونة بميزان عدل ، وان نظرنا الى عناصرها التى تركبت منها رأينا مقادير مختلفة وعناصر متحدة ، وباختلاف المقادير اختلفت الطعوم والاشكال والألوان والروائح والمقادير ، وما أشبه هذه النظم فى ترتيبها بنظام السموات ، فكما رأيت هناك جداول لها نظام خاص فكذلك ترى هنا جداول محكمه ولقد صدق فيثاغورث فى قوله ان العالم مبنى على الاعداد والموسيقا ومن هذا نفهم سورة الرحمن ولنذكر آيات منها لنفهم المقصود قال الله تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) نعم خلق الله الانسان فيه كل نظام وترتيب ولما كانت الاشكال تحن الى أشكالها وضعت الروح ذات العلم والادب وحب النظام والترتيب فى هذا الجسم المشاكل والمناسب لخلقها وأعربت و بينت همها استكنّ فى هذا العالم الذى هو طبعا يحكى الجسم فلذلك أعقبه بقوله (علمه البيان) فأبان ما يقرأ على صفحات هذا الكون من العلوم واللطائف والعجائب اذ خلق العالم أولا مقدمة لخلق الانسان وليكون دفترا له وكتابا يقرؤه فله نفع فى عقله وفائدة فى جسمه فخلق الانسان أولا فاستفاد الماديات وعلمه البيان لاستفادة العلوم منه ، ولما كان هذا الكلام مجملا والمجمل لا يغنى عن المفصل فى التعليم شرع الرحمن يفصله تفصيلا مظهرا آثار رحمته على أجسامنا أولا وعقولنا ثانيا بالخلق أولا والعلم ثانيا فقال (الشمس والقمر بحسبان) ولقد أعدنا هذا الكلام مرارا واتضح لك نظام السموات على أبهج أوضاعه وترتيبه وبينا أيضا ان العالم السفلى نظامه تابع للعلوى لوصول الأثر من الثانى فلذلك كان له نظام بحساب متقن كمتبوعه الأول كما رأيت هنا فلذلك قال (والنجم) هو ما لا ساق له (والشجر يسجدان) فذكر المزارع من نبات وشجر وقد رأيت حسابها فأفاد انهما يسجدان ولقد رأيت آثار السجود فيهما من اطرادها على قانون واحد لا يتغير ولا يتبدل ولما كانت النباتات على سطح الكرة الارضية وهى مستديرة والسماء محيطة بها من جميع الجوانب ومرسلة أشعتها عليها وامطارها ورياح جوها كانت الارض ومزارعها ككرة طرحت بصوالجة فتلقتها هذه الحوادث الفلكية والجوية وذكر السماء بعدها كما ذكر الشمس والقمر قبلها لتفيد الاحاطة المذكورة فقال (والسماء رفعها) وهذه الرفعة حسية وعقلية أما الحسية فظاهرة وأما العقلية فقد علمتها من التأثيرات المختلفة بالحوادث المتناقضة فتارة تأتى ببرد واخرى بحرور مرة بخصب واخرى بجدب ولا ريب أن هذا يورث خللا فى النظام وعدم ترتيب فى الاحكام فلا بد اذن من قانون تسير عليه هذه العوالم كسفينة فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها فلذلك أعقبه بقوله (ووضع الميزان) ولقد فهمت فى الجداول السابقة فى العالم العلوى والسفلى شيأ من الميزان فقس عليه كل أحوال هذا الكون فكله موزون بهذا بعينه ومن هنا نفهم قوله تعالى (والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون) فلقد شاهدت الميزان فى الجداول السابقة (وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) * ولعلك فهمت أيضا من هذه الجداول قوله تعالى (وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فلقد رأيت أنه فضل القمح على الذرة فى الجدول السابق بالعناصر المقوية للعظام كالسلكا الذى هو مواد رملية وحمض الفوسفوريك الذى يدخل فى تركيب عظامنا ومنه تصنع أعواد الكبريت فهاتان المادتان فى القمح أكثر منهما فى الذرة بخلاف الكبريت فهو فى الذرة أكثر منه فى القمح وهكذا بقية العناصر ، فباختلاف المقادير فضل هذا الطعام على ذلك الطعام

قلنا ان الفصفور فى القمح أكثر وهو داخل فى تركيب العظام وهذا مشاهد فى عظام الموتى فانك ترى أبخرة تتصاعد وكثيرا ما ترى بالليل نارا ساطعة وما هى الا تلك المادة الفصفورية التى ذكرناها فى الاغذية وكمنت فى العظام

قد تصاعدت فتلاقت بالمادة الحارة فى الهواء وهى الا كسوجين فاتقدنارا فظن العامة انها كرامة لولى أونحوذلك وقد فهمت الحقيقة وقس على هذين النباتين غيرهما

ثم ان هذه المواد تدخل فى تركيب الاجسام النامية وتبقى الى أمد معلوم ثم تنحل وبذروها الهواء وترجع ثانيا وتدخل تركيبا كما قال تعالى (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا) استدلال بالطبيعة على بقاء الارواح والبعث رمز (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) ولذلك تقول الآية واردة فى خلقنا بعد الموت فلنا نم وانما نحن ذكرناها على سبيل الاشارة والرمز أونحو ذلك مما ذكره علماء البيان بل بقاء العناصر الارضية بعد الانحلال دليل على بقاء أرواحنا بعد الموت وكيف تبقى هذه العناصر المعتمة الظلمة الميتة وتهلك تلك الارواح الطاهرة المنيرة الحية العالية بل كان الاجدر بالقياس ان تهلك المادة وتبقى الارواح فاذا بقى الاخس فالاشرف أولى بالبقاء لان الروح اذا كانت بسيطة كما هو اجماع الحكماء فكيف تفنى والفناء انما هو تفريق كما تفرق الجسم عن البدن المركب من عنصرين روح وجسم ففناء الارواح ليس يقبله العقل بالكلية فافهم

(تفصيل الكلام على بقاء الروح من هذه الآية)

اعلم ان بقاء الروح فى الدين سمعى لا برهان عليه وانما الرسل معجزات تقنع تابعيهم انهم مبلغون عن الله ثم بعد ذلك مايقولونه عن الله يكون مقبولا فكل ماجاء عن الرسل يقبله أتباعهم بلا نكير ولكن من الاتباع من لا يكتفى بالتقليد والسماع ويريد ان يقف على الحقائق بنفسه ، يقول لى عقل فلم خلق هل خلق للاتباع بلا بصيرة ولا فكر فلذلك لم يترك الدين هنا الناس فى حيرة فجعل على العامة التقليد * وأما الاذكياء فسبيلهم النظر واذا فرطوا فى نظرهم أثموا كما يأثم العامة لوحا ولوا الاستقلال بالرأى فى الدين الذى لا يطيقونه فمما نصبه الله للخاصة والاذكياء فى القرآن أمثال هذه القصة فتجد ان ابراهيم الخليل مأمور بالتحليل فذبح الطيور وفرقهم ثم دعاها فجاءت * واعلم ان هذا فتح باب للبرهنة على بقاء الأرواح والقول وان كان فى ظاهره للعامة فهو فى باطنه للخاصة

(البرهان على بقاء الارواح * اما بالنظر العقلى واما بعلم الارواح)

(اما النظر العقلى فى ذلك ففيه طرق ثلاث)

﴿الطريقة الاولى﴾ ماذكره ابن مسكويه فى كتابه تهذيب الاخلاق اذ استدل على بقاء الارواح بأنها بسيطة قائلا ان الروح ليست جسما ولا عرضا فى جسم ذلك انا نرى ان الجسم لا يقبل الاصورة واحدة ولا يكون قابلا لصور متنافية فى آن واحد فان يقبل التربيع وهو مثلث ولا التخميس وهو مربع بل لا يقبل صورة ويلبسها حتى يخلع الاولى ولن يقبل التثليث الا اذا بطل منه التربيع هذه طبيعة الاجسام * أما النفوس فانا نراها على خلاف ذلك نرى اننا نتصور الاحمر والاخضر والاصفر والازرق والمثلث والمدور والمربع والطويل والقصير والاعلى والاسفل والجميل والقبيح وكل ذلك يجتمع عند العقل مخزون فيه وفوق ذلك نعرف ونتصور علوما كثيرة والجسم لا طاقة له الابشئ واحد ومتى خلعه لبس غيره * وأيضا نرى العقل كلما انغمس فى الماديات ابتعد عن المعقولات وكلما زهد فيها وعف عنها اقترب من المعقولات * وأيضا نرى الانسان كلما زاد فى طعامه وشرابه كرهه الناس واحتقروه * أما الذى يزيد علمه فهو محبوب وأيضا نرى اننا اذا نظرنا بأبصارنا وهى من الآلات الجسمية الى عين الشمس حصل لها الكلال وضعفت قوة ابصارها فاما اذا نظرنا بعقولنا فى المسائل العويصة فانها تكون سبيلا لقوتنا على فهم ماهو أسهل منها وذلك كله دال على ان النفس من طبيعة تخالف المادة فهذه تقبل المختلفات والاخرى لا تقبل وهذه تحب الزيادة منها وهذه تكره وهذه اذا شغلت بما هو أقوى زادت قوة والاخرى تضعف فهذه وأمثالها دلائل انهما مختلفان فتكون النفس ليست من عالم

الاجسام بل من عالم آخر بسيط غير مركب . لان الاجسام مركبة والذى يعقل ويحس فينا مخالف لها واننا لو كانت الروح مركبة لامكن أن يكون جزء منها عالما والآخر جاهلا باعتبار ان المسألة قد قامت ببعضها وتركت البعض الآخر لانها مركبة وفى هذا اجتماع النقيضين علم وجهل وهو محال * هذا ما آنذكره من أدلته فى أول الكتاب ولست أذكر هذا على أنى قائل ان هذه البراهين كلها قطعية * وانما ذكرتها لتعلم أيها الذكى طريقته فى الاستدلال لمناسبة مسألة التحليل والطير وتقطيعه وان ابن مسكويه قارن ما بين الروح والجسم وحلل تحليلا علميا وسترى فيما بعد التحليل الجسمى لغيره واعلم ان طريقة ابن مسكويه أشبه بطريقة (سقراط) الفيلسوف الشهير اذ قال * ان النفس جوهر غير مرئى فيلزم انه على غير طبيعة الاجسام لان من طبيعة الجسم أن يكون مدركا باحدى الحواس واذا كانت على غير طبيعة الجسم فهى اذن غير مركبة لان التركيب من طبيعة الاجسام واذا كانت بسيطة فانها غير قابلة للانحلال لان الانحلال يعترى المركب الى المواد التى تركب منها فاذا كانت النفس بسيطة لم يتصور انحلالها * وقال أيضا ان النفس هى الآمر والبدن هو المأمور فمن طبيعة الامور الالهية أن تكون آمرة ومتصرفة * ومن طبيعة الامور السفلية أن تكون مأمورة فالنفس اذن من الامور الالهية وهى غير قابلة للزوال فهى اذا بقيت على صفاتها وفطرتها من غير أن تشارك البدن فى أدناسه فانها تلتحق بعد الموت بموجود مثلها فتبقى معه سعيدة مبتهجة محررة من أوهامها وأخوافها وكل ما كان يسخرها ويهوش عليها اذ كانت فى قيد الحياة واذا تركت ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود الا ما يؤكل ويشرب ويلبس ويدرك بالحس فلا يسعها الا ان ترجع الى حياة مشابهة لطبيعتها اهـ باختصار ما ذكره ابن مسكويه ومايشابهه من مقال سقراط

﴿ الطريقة الثانية ﴾ ماذكره العلامة ابن سينا فى كتاب الاشارات مستدلا على ان النفس غير البدن بما ملخصه ان الانسان يعلم بوجوده وان كان غافلا عن جميع أعضائه والمعلوم وهو ذاته مغاير لما ليس بمعلوم فتكون ذاته غير جسمه وهى التى يعبر عنها بلفظ أنا * ألا ترى ان الانسان لو قطعت يداه ورجلاه وسلخ جلده فانه لا يزال يقول أنا فلماذا يشير أيشير الى أعضائه الباطنة كالقلب والكبد والطحال والرئتين كلا فان هذه لا نعرف الا بالتشريح وقد فرضناه غافلا عن كل هذا وعن التشريح وعن كل شئ الا نفسه * ولقد أطال فى ذلك وتبعه شراحه فلا نطيل بما ورد من اعتراض وجواب وانما أتينا بما يفيد الغرض وعلى ذلك ثبت عنده بهذا ان المعبر عنه بأنا غير الاعضاء الظاهرة والباطنة بل هو شئ غير الجسم وهو المطلوب

﴿ الطريقة الثالثة ﴾ طريقة ابن الطفيل فى كتابه الذى سماه (حى بن يقظان) فقد جعل موضوع الكتاب ان فتاة الجئت أن تودع ولدها الحديث الولادة فى جزيرة خضراء فعطف على ذلك الغلام غزالة وأرضعته سنتين وصار هو يراها أمه ويقلدها فى بغامها وغدوها ورواحها ولما ترعرع أخذ يقلد الحيوانات ويستتر بالورق ويتحلى بفروع الشجر ليظهر بالابهة أمام الحيوانات الكاسرة ويستعين بالقرون فى المناطحة والمقاتلة

ولما كبرت أمه الظبية أخذ يحضر لها الفواكه من الاشجار ويعطف عليها وهو فى ذلك كله يقلد طوائف الحيوانات فيما هو الاحسن والانفع وهو فى أثناء ذلك ينظر فى أنواع الاشجار والزرع والثمر والحب وأنواع الحيوان ويقارن بين نفسه وبينها ولم يفكر فى أمر الروح الا عندما رجع مرة فرأى أمه الظبية جثة باردة فأخذ يحركها فلم تتحرك وأخذ ينظر فى عينيها وفى أذنيها عسى أن يجد فيها تلك التى كانت تعطف عليه ثم أخذ يشرح جثتها قائلا فى نفسه اذا لم أجد حبيبتى العاطفة على فى ظواهر جسمها فعسى أن أجدها فى باطن الاحشاء فأخذ يشرح القلب والكبد والطحال والكاليين والمعدة والامعاء والعروق والشرايين والرباطات والاعصاب والمخ والمخيخ والفقرات الظهرية وأعصاب الحس وأعصاب الحركة المتفرعات منها الواصلة الى سائر الجسد الموصلات جميع ما تشعر به الحواس الى المخ ثم تكون هناك الاوامر الصادرة الى الاعضاء جارية فى أعصاب الحركة لتسخر الاعضاء فى الطلب تارة والهرب أخرى على مقتضى الاوامر الصادرة من المخ * فلم يجد فى جميع هذا الجسم المختلف الاعضاء والاحوال لتلك الحبيبة أثرا ثم لمح بعض

السم في باطن القلب فقال ان الحبيبة التي كانت هنا نطقت بهذا السم لما كان جاريا قويا ساريا في الجسم * ولست أرى أن السم هو الروح كلا فاني أرى ان الروح كانت حاكمة عليه وهو القائم بإيصال الغذاء الى سائر الجسد * ثم أراد أن يجرب هذه النظرية فعمد الى حيوان وانقض عليه وهو يجري واصطاده انضر به بالقرون التي جعلها عدته فلما شرح بعاشق صدره واستخرج قلبه فرأى السم حارا وله بخار لطيف فقال في نفسه ان حبيبتي كانت سارية في هذا البخار اللطيف السموي وهو يسري الى الحواس والاعضاء مع السم لان هذا البخار لطيف وهو قريب من العالم الروحي اذ هو ذو مزاج لطيف ثم رفع طرفه الى النجوم والشمس وقال ان هذه الاجرام بينها و بين حبيبتي علاقة وان حرارة القلب تصلح لتعلق الروح بها * ولعل هذه السموات لها مدبر * ولعل ذلك المدبر جعل الحرارة أثرا في الحياة وهكذا أخذ يفكر أفكارا فيها بعض الحقائق كما ان فيها كثيرا من الخيال الذي يبدو للناس في أول نظرهم وأخذ يبحث حتى قال لعل حبيبتي لما رأت هذا الجسم لا يصلح مستقرا لها توجهت الى هذا العالم العلوي المتلألئ الجميل ولابد ان تكون هذه الروح بسيطة أعني لا اجزاء لها والذي لا جزء له لا يفنى لان الفناء يكون بتحليل الاجزاء في المركب والروح لا جزء له فلا فناء له * هناك أخذت روحه تفكر في العالم العلوي الذي ظن أمه وصلت اليه وقال عسى أن يكون الذي أجرى هذه الكواكب قد استودعت تلك الروح عنده وانه هو نفسه خير منها بل هو الذي ينبغي أن أسعى للقائه * ثم نظر فقال ان هؤلاء الحيوانات اخواني وهذا النبات خلقه الله لنا * فعلي أن أرعى هذه المخلوقات و يظهر أني خليفة ذلك الخالق عليها واذن أنصر المظلوم وأنفع كل محتاج وتكون لي شفقة ورحمة لان ذلك الذي ذهبت اليه أمي رؤف رحيم * اني أراه قد أكثر الماء في الجزيرة والكلأ والفاكهة وجعل الحيوان آكلا النبات والنبات متغذيا بالعناصر وهو كثير الرحمة فلأقلده انه خلق أمي لا تعلم منها الحب والعطف وهو الرحيم فلاعطف على عباده * ثم نظر الكواكب وعرف السموات على مقتضى ما عرفه القدماء * ثم أخذ يخترع طريقا للعبادة ليقترب من ذلك الذي صنع السموات فدار على نفسه كما تدور الكواكب ظنا منه أن دورانها عبادة الى آخر ما جاء في ذلك الكتاب * أقول

وانما ذكرت لك ذلك أيها الذكي لتعلم ان العلماء السابقين لم يكونوا نائمين بل ألفوا كتبا لايقاظ الامة ونظروا في العالم وضربوا الأمثال وكان هذا الكتاب أشبه بما جاء في هذه الآية فان تحليل الطير على يد الخليل في القرآن من النظر الى هذا العالم * وأنا لا أقول ان ابن الطفيل ألف الكتاب اقتباسا من الآية كلا هو ألفه بعقله وصفاء ذهنه وجودة قريحته * ولكن أقول ان مسألة الطير في القرآن فتح لباب النظر من هذه الوجهة

واذا كان كتاب كليلة ودمنة جاءت فيه الامثال على لسان الحيوانات وكثير من الحكايات التي يتداولها المتعلمون وقد جعلت للعقلاء تذكرة وللحكماء تبصرة وللسواس في الممالك عبرة وفيها من الدقة والحكمة والأخلاق والآداب ما لا ينال غايته الا أولوا الألباب فبالاولى الكتب السماوية التي تنتشر بين العوام والخواص ويحفظها الصبيان فيقرؤن مسألة الطير وهم فرحون * فاما العالم فانه يرى فيها فتحا لباب النظر ومنفذا للحكمة * ولقد جاء كتاب ابن الطفيل موافقا لما ذكرته لك * ولقد جعل كتاب (رو بنسون كروزو) وهي الرواية المشهورة الانجليزية على منوال هذا الكتاب * ولقد انتشرت في أوروبا * وما سطرها مؤلفها الا بعد ما قرأ كتاب (حي بن يقظان) كما قرأت ذلك في بعض الكتب * ولقد كان الفيلسوف (روسو) الشهير يذم الكتب وتعاليمها و يأمر الشبان أن يقرؤا هذه الرواية ومدحها مدحا كثيرا وقال انها تعلم الحرية الفكرية

ولاشك ان كتاب (حي بن يقظان) أجل منها وان كانت هي منسوجة على منواله لان قصة (رو بنسون كروزوا) تعلم الاستقلال في العمل والجد والاعتماد على النفس والمخاطرة فحسب * وليس فيها عظيم عناية باتقان العلم * هذا ما أردت شرحه في الطريقة الثالثة * الى هنا انتهت الطرق الثلاث للنظر العقلي

وأما مصير الارواح فاني أحيلك على ما تقدم في هذه السورة عند قوله تعالى (فذبحوها وما كادوا يفعلون) الى

آخر الآيات * فقد ذكرت هناك تاريخ هذا العلم فى أوروبا وأمريكا وانتشاره وقد طبقته على القرآن فى كتاب الارواح * والآن أذكر ماقلته فى هذا المقام عند وفاة المرحومة والدتى سنة ١٩١٨ وكتب فى جريدة الاخبار تذكرة لذوى العقول الشريفة

جاء فى عدد يوم الثلاثاء ٢٨ شوّال سنة ١٣٣٦ * ٦ أغسطس سنة ١٩١٨ م ٣٠ أبيب سنة ١٦٣٤ تحت عنوان

(العلم والبدع وواجب العلماء)

كتب الينا أحد الفضلاء يذكر مقال فلان فى وفاة المرحومة والدته من تجافى البدع ولزوم أوامر الدين وسنة السلف الصالح فرأينا ان ننشر كتاب هذا الفاضل مؤملين أن يعتبر بما فى الكتاب المذكور اخواننا المسلمون * قال حضرة الكاتب * منذ أيام توفيت والدة الشيخ طنطاوى جوهرى ببلدة كفر عوض الله حجازى بمركز الزقازيق فاجتمع أهل البلاد المجاورة لتشييع الجنازة وحضر الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى وحضرة الأستاذ الشيخ عبد الحكيم القاضى بالمركز فوقف الشيخ طنطاوى مخاطبا من حضر من نساء قريته وقال لهن معاشر السيدات أتطلبن منى أن أخاطب والدتى فى أذنها ايذانا باعلامها بحضورى فلتعلمن رعاكن الله ان أرواح الاموات لاتزال حية * وانها تسمع وتبصر وان والدتى ترفرف روحها على حينما كنت اليوم اذفت من القاهرة ولاتزال ترانى الآن

ان علماء دينى أخبروا ان الميت علما بذلك * ونحن بذلك موقنون فلتطمئن كل منكن على والدتى ولتعلمن ان للاموات علما ببعض أحوال الأحياء * ومن ذلك انهم يحزنون ويجزعون لبكاء أقاربهم عليهم فان كل امرئ اذا علم ان حبيبه يحزن لاجله ويرق له يود لو يخفف من لوعته ويكفكف من دمعته ويقلل من حسرته ويكشف من غمرته وربما يشير الى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام (ان الميت ليعذب ببكاء أهله عليه) ولقد علمنا من بعض أهل الاطلاع المغرمين بتلك العلوم ان هذه حقيقة ناصعة كشفها العلم الحديث واطمأنت لها النفوس تصديقا لكلام النبوّة وتحقيقا للمعجزة النبوية

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يعاهد النساء أن لايشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينه فى معروف ولا يبكين على ميت * فقالت احداهن يارسول الله لاأعطيك عهدا حتى أذهب الى فلانة فاسعدها بالبكاء كما بكت هى على قريب لى فأباح لها ذلك فقالت أعاهدك يارسول الله ولم أبك بعدها على ميت * ثم التى الشيخ الى احدى السيدات وقال لها ألم ترى ان أهل مكة لايبكين على ميت فقالت انهن لايبكين بل يحنين أيديهن ويلبسن الأبيض فقال الشيخ ان هؤلاء مسلمون ونحن متبعون فى ذلك عادات الجاهلية الاولى لماذا تبكى الواحدة منكن على أخ أو والد أو حبيب وهى فى الحقيقة تعذبه بالبكاء يانساء قريتى اتبعننى أهدكن سبيل الرشاد * اتبعننى واتركن البكاء الاما كان من دمعة جرى به القضاء فلابأس فقالت احداهن ياابن اختى نحن نعاهدك كما عاهد النساء النبى صلى الله عليه سلم فسكتن جميعا واستبشرن وفرحن وانشرحت صدورهن فقال الشيخ لهن شرح الله صدوركن فلقد ملتن الى الدين وسيكون لوالدتى ثواب بعض هذا فقال النساء بلسان واحد عاهدناك على ذلك مالم يغلب البكاء وكان الشيخ اذ ذاك يتصبب عرقا فقالت احداهن كفى كفى فان سفرك فى الحر ومفاجأتك بالفاجعة ووقوفك بيننا كل ذلك أتعبك فقرهينا وانشرح صدرا واسترح انتهى المقصود منها هذا * ولما فرغ من الكلام على نظام التوحيد وما تبعه أعقبه بالكلام فى القسم الثانى وهو الاتفاق وهذا هو

المقصد

(المقصد الثامن عشر)

مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم * الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم * يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين * ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير * أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون * يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم * يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب * وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار * إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير * ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون * للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون

ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *

أى مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة يخرج منها ساق يتشعب منها سبع شعب لكل شعب منها سنبلة فيها مائة حبة

واعلم أن التمثيل بالحبة ليس يلزم منه وقوع الممثل به وقد وجد نحو ذلك فى الذرة فى العصر الحاضر وربما يكون فى القمح وفى الدخن فى الارض المغلة (والله يضاعف) هذه المضاعفة (لمن يشاء) من المنفقين على حسب الاخلاص وكماله (والله واسع) الفضل لا ضيق فيما يتفضل به (عليم) بنية المنفقين * ولما جهز سيدنا عثمان جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وعبد الرحمن بن عوف أتى النبى صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم صدقة نزل قوله تعالى (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقوله (يا أيها الذين آمنوا الخ) المن أن يعتد باحسانه على من أحسن اليه والاذى أن يتطاول عليه بسبب هذا الانعام * ثم أفاد أن الرد الجميل والتجاوز عن سائل الحاجة (خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى) عن انفاق بمن وأذى (حليم) عن معاجلة من يمن ويؤذى بالعقوبة * ثم قال (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا) أجر (صدقاتكم بالمن والاذى ك) ابطال المنافق (الذى) يرائى بانفاقه فمثل المرائى فى انفاقه كمثل حجر أملس عليه تراب فاصابه مطر عظيم القطر فتركه صلدا أملس نقيا من التراب (لا يقدرون على شىء مما كسبوا) لا ينتفعون بما فعلوا رياء ولا يجدون لهم ثوابا فيه * (والله لا يهدى القوم الكافرين) الى الخير ثم قال (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم) أى تحقيقا للجزاء صادرا من أصل أنفسهم * والجنة البستان والربوة الموضع المرتفع وشجره يكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا والوابل المطر العظيم القطر و (آتت أكلها ضعفين) أى آتت مثلى ما كانت تثمر بسبب الوابل فالضعف هنا المثل * والطل المطر الصغير القطر * والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله وان كانت تتفاوت قلة وكثرة كما أن الجنة تؤتى ثمرها ضعفين سواء أكان المطر وابلا أو طلا لجودة تربتها وحسن منبتها (والله بما تعملون بصير) هذا تحذير من الرياء وترغيب فى صفة الاخلاص * وقوله (أيود أحدكم الخ) الاعصار ريح عاصفة تنعكس من الارض الى السماء مستديرة كالعمود شبه حال المرائين فى الانفاق بحال رجل له جنة فيها النخيل والاعناب وجميع الثمرات والأنهار تجرى من تحتها وقد أصابه الكبر وذريته ضعفاء صغار لا قدرة لهم على الكسب فاصاب هذه الجنة اعصار فيه نار فاحترقت * فهكذا المرائى قد ينفق الاموال الكثيرة العظيمة بلا نية صادقة فاذا جاء يوم القيامة وهو فى أشد الحاجة الى الثواب وليس له ولى ولا نصير ولا شفيع لم ينل الثواب وحرم منه فى حال هو أحوج فيها اليه (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) ثم قال (يا أيها الذين الخ) تيمموا اقصدوا (الخبيث) الردىء (ولستم بآخذيه) أى وحالكم انكم لا تأخذونه فى حقوقكم لرداءته الا أن تغمضوا فيه أى تسامحوا

يقول الله للمؤمنين انفقوا من طيبات مكاسبكم ومن الذى أخرجنا لكم من الارض فانه خلقنا أنبتناه لكم وسخرنا الهواء والشمس والكواكب والماء والارض وبعض الحشرات والدواب فى تنمية المزارع فليس لكم فيها الا أقل الاعمال فكيف تبخلون بها على عبادى * فانا المخرج من الارض وأنا المنمى للزروع وأنا الآمر بالانفاق * هذا هو الذى يحويه قوله (ومما أخرجنا لكم من الارض) ثم قال ولا تقصدوا الردىء منه تنفقون كأن تعطوا الفقير الحشف وتصطفوا جيد التمر لكم وعن ابن عباس رضى الله عنه كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عن ذلك * فهلا عاملتم اخوانكم بما تعاملون به أنفسكم (ولستم بآخذيه) الا على طريق المسامحة (واعلموا ان الله غنى) عن انفاقكم

وانما يأمركم به لتخرجوا من التعلق بحب المال الذى يهلككم و يحببكم فى هذه الدار فتجزعوا عند فراقها (حميد) بقبول ما تنفقون واثابتكم عليه * ثم قال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر) فى الانفاق و يغريكم بالبخل والعرب تسمي البخيل فاحشا (والله يعدكم) فى الانفاق مغفرة لذنوبكم والله واسع الفضل لمن انفق عليم بانفاقه (يؤتى الحكمة) تحقيق العلم واتقان العمل (من يشاء) ومن يؤت (الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) فانه خير الدارين (وما يذكر) وما يتعظ بما قص من الآيات (الا أولوا الالباب) ذوو العقول الخالصة من شوائب الوهم والركون الى متابعة الهوى (وما أنفقتم من نفقة) قليلة أو كثيرة سرا وعلانية فى حق أو باطل (أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه) فيجازيكم عليه (وما للظالمين) الذين ينفقون فى المعاصى و ينذرون فيها أو يمنعون الصدقات (من أنصار) ثم قال تعالى (ان تبدوا الصدقات فنعما هى) أى فنعم شيأ ابداؤها (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم و يكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير) ترغيب فى الاسرار * والاسرار فى صدقة التطوع أفضل من العلانية وكذلك صدقة الرجل الذى لم يعرف بالمال * أما صدقة الفرض من غيره فاظهارها أفضل * وعن ابن عباس صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا . وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا

ولقد كان المسلمون يتصدقون على فقراء أهل المدينة فلما كثر المسلمون نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التصدق على المشركين كى تحملهم الحاجة الى الدخول فى الاسلام لحرصه صلى الله عليه وسلم على اسلامهم فنزل (ليس عليك هداهم) أى ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لاجل أن يدخلوا فى الاسلام فحينئذ تتصدق عليهم فاعلمه الله تعالى انه انما بعث بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه فاما كونهم مهتدين فليس ذلك عليه (ولكن الله يهدى من يشاء) أى يهدى من يشاء هداية توفيق وأما هداية البيان فعليك فلما نزلت هذه الآية أعطوهم وتصدقوا عليهم (وما تنفقوا من خير) مال (فلانفسكم) فهو لانفسكم (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) أى لا تنفقوا الا ابتغاء وجه الله (وما تنفقوا من خير يوف اليكم) أى ثوابه أضعافا مضاعفة (وأنتم لا تظلمون) لا تنقصون ثواب عملكم بالنفقة . اعمدوا (للفقراء الذين أحصروا) أحصرهم الجهاد (فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الارض) أى لا يستطيعون ذهابا فيها للكسب لاشتغالهم بالجهاد (يحسبهم الجاهل) بحالهم (أغنياء من التعفف) أى من أجل التعفف (تعرفهم بسيماهم) من الضعف ورثاثة الحال (لا يسألون الناس الحافا) الحاحا . ونزل فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرا وعشرة علانية وقيل فى أمير المؤمنين على رضى الله عنه لم يملك الا أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلا و بدرهم نهارا و بدرهم سرا و بدرهم علانية (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) انتهى التفسير اللفظى

(مباحث هذه الآيات ثلاثة)

(١) تلخيص هذه الآيات التى فيها أمثال المنفقين والانفاق (٢) علاقة هذه الآيات بالحال الحاضرة وكيف قامت الاشتراكية فى العالم الانسانى وارتجت الارض بسبب الاحوال المالية . وكيف كان القرآن يدعو الى العطف والمحبة العامة وان المسلمين أسرة واحدة والمال بينهم بمودة ومحبة . وما الذى يجب فيه الصدقة من المال (٣) أفضل عبادة المسلم التفكر فى الرياض والحقول والسموات

(المبحث الاول تلخيص الامثال المذكورة فى الانفاق والمنفقين)

هاهنا أربعة أمثال مثل الجنة والسنبلات ومثل الحجر والتراب ومثل الحديقة ومثل البستان الذى احترق لما أصابته نار هذه أمثال ضربت لحال المنفقين

يقول فى أولها وهو مثل الجنة والسنبلة يا أيها الناس انما أموالكم حبات فاذا أنفقتموها فى النفع العام وهو سبيل الله كتعليم أبناء الأمة أخذ المتعلمون يزدادون بنسبة المضاعفات المطردة ونماء عددهم وكانوا بكم يوم القيامة تبعا لهذه النسبة ابدا وامدادا هكذا فى الصناعات والزراعات والسياسات وكل عمل تعملونه يزداد ثوابه بازدياد نموه وارتقاء نتائجه فاما مثل الحجر والتراب فقد شبه المرائين وقد أنفقوا بمن وضعوا التراب على الحجر فعصفت به الرياح وذرته السافيات وطيرته الذاريات فلا نبات به يقوم ولا خير منه يرتجى فاما ثالث الامثال فذلك مثل الجنة النابتة أشجارها بربوة فآتت أكلها ضعفين فان لم تصب بوابل فطل فهي أبدا مثمرة مزهرة ناضرة وذلك مثل المخلصين * فاما رابع الامثال فهو تهويل لحال القوم الذين يراؤن ولا يخلصون فهو أشد من الثانى اذ شبه المرائى بصاحب جنة ذات أشجار ونخيل وقد أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء ورجا خيرها فاصابها اعصار فيه نار فاحترقت فهو بانفاقه الجم من المال يرجو عزة فحساه وفضلا واسعا فلما ان حرم من الاخلاص هدم بنيانه

ولقد يكون الانسان فاضلا سابحا فى بحار الحكمة فيتخبطه الشيطان فيغويه فيضل سواء السبيل بعد ان غرس الحكمة وطفق يجنى ثمارها فاذا نقضت صاعقة الشهوات فاذهبت الثمرات

(مطالب هذا القسم)

لقد أدركت ما سلكه الله فى أول القسمين وهو التوحيد وقد فصله ثلاثة أقسام وحشر فى آخرها علوم الطبيعيات والتحليل والتركيب والصناعات * فاما هذا القسم فقد ازدان بسبع جواهر نضرات ويواقيت باهرات وهى التعالى عن الرياء والايذاء وخوف الفقر بوعيد الشيطان وانفاق الخبيث واتباع الحكمة والانفاق على مدى الايام والاحوال سرا وجهرا ليلا ونهارا و بيان المنفق عليهم

(١) فاما ترك الرياء فذلك واضح فى الامثال المضروبة كما فهمت وأما الباقى فهو يقول

(٢) أيها الناس اياكم أن تبطلوا الصدقات بالمن على المساكين وأذى الطالبين

(٣) واياكم أن يخيفكم بوعيده ويزعجكم بتهديده فيخيفكم من الفقر ويأمركم بكنز الاموال

(٤) والانفاق من الحكمة العملية

فالحكمة علم وعمل فمن أوتيها فقد نال الخيرات ورزق أعظم الثمرات وهل يذكر الا أولوا الالباب الا وان الله يعلم صدقاتكم المعطاة ونذوركم المعقودة فأوفوا النذور

(٥) ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون فانكم لا تأخذونه الا مغمضين ولا تقبلونه الا كارهين فعاملوا بما تحبون أن تعاملوا به

(٦) فاعلنوا الصدقات واخفوها فانها فى الحالين محمودة مطلوبة ولا يصدنكم الشيطان فتقولوا لا ننفق خيفة الرياء فان ذلك ضلال مبين

(٧) فاما ساعها فهم المنفق عليهم كاهل الصفة وهم نحو أربعمائة من فقراء المهاجرين منعهم الجهاد فى سبيل الله وطلب العلم لا يستطيعون ذهابا فى الارض للكسب لانكبابهم على طلب العلم والغزو يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا أى الحاحا يقال لحفنى فضل لحافه أى اعطانى من فضل ما عنده

(المبحث الثانى)

اعلم أن مسألة المال اليوم هى الشغل الشاغل للنوع الانسانى وترى الحرب الكبرى التى قلبت وجه الارض لم يكن لها سبب الا المال فالنوع الانسانى بعد أن استعبده الملوك وقد خضدت شوكتهم وضعفت سلطتهم وأصبح الامر شورى فى أغلب الممالك جاء له دور المال وصار هو الذى به تقوم الممالك وتقعد وله وحده قامت الحرب الحاضرة وانتهى ملك دولة القياصرة ببلاد الروس وقسمت الارض على الفلاحين وأصبح البلشفيه يأمرون الناس جميعا بالعمل وزلزلت

رؤس الاموال لزلزالها

فانظر فى آيات القرآن كيف أمر بالانفاق وحض عليه وعلى الاخلاص فيه * البلشفية لا يهمهم الاخلاص وانما أخذ والارض نهبا من أرباب والقرآن يقول ليكن المسلم مخلصا فى انفاقه شاعرا ان المال مال الله وان الارض لله وهو الذى أخرج النبات وانماه وأثمره فليعطه للفقير اخلاصا لله لا خوفا من السيف فاذا يطلب القرآن يطلب مطلبا فوق ما تقوله البلشفية ولاقص عليك ماذكره الامام الغزالى فى الاحياء

قال ان شرط تمام الوفاء بافراد المعبود بالعبودية فى الشهادتين أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد فان المحبة لا تقبل الشركة والتوحيد باللسان قليل الجدوى وانما يمتحن به درجة الحب بمفارقة المحبوب والاموال محبوبة عند الخلائق لانها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون من الموت والامتحان بأمرين بذل النفس فى سبيل الله وبذل المال ولقد انقسم الناس فى بذل الاموال ثلاث فرق

﴿ الفريق الاول ﴾ نزلوا عن جميع أموالهم ولم يدخروا دينارا ولا درهما وانفوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم * قيل لبعضهم كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم قال أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع ولهذا تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله وعمر رضى الله عنه بشطر ماله فقال صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لاهلك فقال مثله وقال لابى بكر رضى الله عنه ما أبقيت لاهلك قال الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم بينكما ما بين كلمتيكما

﴿ الفريق الثانى ﴾ الممسكون أموالهم ولكن ينفقون الزكاة وغيرها وليس الانفاق خاصا بما جاء فى كتب الفقه مما سأبينه قريبا كلا بل يجب اعانة المحتاج وذوى القربى وما أشبه ذلك غير ما فى الزكاة وهذا مذهب النخعى والشعبى وعطاء ومجاهد فهؤلاء يوجبون صرف المال فى وجوه البر وفى مواسم الخيرات ويحرم عندهم التنعم وما فضل عن مقدار الحاجة يصرف ويستدلون بقوله تعالى ومما رزقناهم ينفقون وقوله وأنفقوا مما رزقناكم . قيل للشعبى هل فى المال حق سوى الزكاة قال نعم اما سمعت قوله عز وجل وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى الخ

﴿ الفريق الثالث ﴾ أن يقتصر على أداء الزكاة المفروضة وهذا أقل المراتب وهذا ملخص ماقاله الغزالى ماقاله العلماء فى الزكاة الواجبة

(زكاة النعم)

ولا تجب هذه الزكاة ولا غيرها الا على مسلم حر * وزكاة النعم (الابل والبقر والغنم) تجب اذا كانت سائمة أى ليست معلوفة بل ترعى فى المراعى المباحة فاما اذا ظهرت الكلفة فى مؤونتها بان علفت وقتا وسيمت وقتا أو علفت دائما فلا زكاة فيها ولابد أن يحول عليها الحول فى ملك المالك ويشترط أن يكون مطلق التصرف فى ماله ولابد أن يكون نصابا والنصاب فى الابل أقله خمس وفيها جذعة من الضأن والجذعة هى التى تكون فى السنة الثانية أو ثنية من المعز وهى التى بلغت السنة الثالثة وفى عشر شاتان وفى خمسة عشر ثلاث شياه وفى عشرين أربع شياه وفى خمس وعشرين بنت مخاض من الابل وهى التى فى السنة الثانية وهكذا

وأما البقر فلا شئ فيه حتى يبلغ ثلاثين ففيها تبيع وهو الذى فى السنة الثانية ثم فى أربعين مسنة وهى التى فى السنة الثالثة ثم فى ستين تبيعان واستقر الحساب بعد ذلك ففى كل أربعين مسنة وفى كل ثلاثين تبيع

وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز ثم لا شئ فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحده ففيها شاتان الى مائتى شاة وواحدة ففيها ثلاث شياه الى أربعمائة ففيها أربع شياه ثم استقر الحساب فى كل مائة شاة

(زكاة الركاز والمعادن)

الركاز دفين الجاهلية وقد وجد فى أرض لم يجر عليها ملك لمسلم فعلى واجده فى الذهب والفضة الخمس أما المعدن ففيه ربع العشر ولا يكون الا فى الذهب والفضة

(زكاة الذهب والفضة)

وتكون الزكاة فى الذهب والفضة اذا ملكهما الانسان حولا كاملا وكان الذهب عشرين مثقالا وكانت الفضة مائتى درهم وفيها ربع العشر وهو نصف مثقال فى الذهب وخمسة دراهم فى الفضة

(زكاة التجارة)

وزكاة التجارة كزكاة النقدين وانما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذى به اشترى البضاعة * وتقوم عروض التجارة عند آخر الحول بما اشتريت به وقال داود الظاهرى لا تجب الزكاة بحكم التجارة فى العروض الا أن ينوى به التجارة فى حال تملكه

(الزكاة فى الزرع)

أوجب أبو حنيفة الزكاة فى كل مايقصد من نبات الارض كالفواكه والبقول والخضراوات كالبطيخ والقثاء والخيار ونحو ذلك

وجمهور العلماء أوجبوا الزكاة فى النخيل والكروم وفى كل مايقتات به ويدخر من الحبوب ويجب اخراج العشر فيما سقى بالمطر والانهار والعيون ونصف العشر فيما سقى بنضح أوسانية والسانية هى التى يسقى عليها سواء أكانت من ابل أو بقر أو غنم

ولا يجب العشر فى الثمار والزروع حتى تبلغ خمسة أوسق والوسق ستون صاعا وقال أبو حنيفة يجب العشر فى كل قليل وكثير من الثمار والزروع * وأجمع المسلمون على ان الزكاة لا تصرف الا للمسلمين وهم المذكورون فى سورة التوبة وجوز أبو حنيفة صرف صدقة الفطر الى أهل الذمة وخالفه سائر العلماء وأما قوله تعالى (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) التى وردت فى التصدق على المشركين كما تقدم فانما هى فى التطوع لا فى الزكاة المفروضة فصدقة التطوع تصرف لفقراء المسلمين وفقراء أهل الذمة

(صدقة الفطر)

هى واجبة على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقتات ويخرجه من جنس قوته أو من أفضل منه ويجب على المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده وكل قريب تجب نفقته عليه من الآباء والامهات والاولاد اه

هذه هى الزكاة وهذه آراء العلماء فى الانفاق

فانظر كيف أوجب بعضهم صرف جميع المال وبعضهم أوجب صرف ما فضل عن الحاجة * وهذان المذهبان الاسلاميان أعلى مايتصوره العقل البشرى والانسانية اليوم يعوزها عقول ترقى المدارك البشرية حتى يرى العالم والطبيب والمهندس وعالم الدين أن الناس اخوته فليبذل نفسه لهم وجميع أعماله

فعلى الناس أن يبذلوا مواهبهم فى سبيل المنفعة العامة ويستخرجوا جميعا خيرات الارض وخيرات الصناعة والزراعة فاذا عجز أحدهم (وهو مجد فى عمله) عن قوته وجب اعانته وليكن ذلك بصدق واخلاص وليكن الآخذ مجتهدا لا كسلانا نائما والاحرم * وهذه التعاليم ان ظهرت فى الاسلام تكون أرقى أمة فى الارض

أوليس من العجائب أن يقوم تولستوى الروسى الشهير فعرض أرضه على المزارعين وهى تعد بعشرات الآف من الفدادين • كيف يظهر فى أوروبا نابغون فى العلم وفى الاحسان والمسلمون نائمون • اللهم ارفع شأن علمائها وعقلائها حتى يرفعوا بستواها انك أنت السميع العليم

(المبحث الثالث)

﴿ أفضل عبادة المسلم التفكير فى الرياض والحقول والبساتين ﴾

من لى بأن يسمع المسلمون صوتى فى أقاصى البلاد من لى بأن ينظر أبناء العرب والترك وأهل الهند والصين والجاويون والسودانيون مقاصد القرآن ووجهته التى تربى العقول والنفوس وترفع مستوى الانسان الى مصاف الملائكة وأن يكون المسلمون خلفاء الله على عباده رحماء لا ضعفاء جبناء لا تتخطفهم الامم من كل جانب

أنظروا أيها الاخوان ماجاء فى القرآن من الادلة وأنواع التشبيهات تروها نحو المشاهدات المحسة وعلوم الطبيعة

(١) فان أمر بالعبادة * قال فى سورة البقرة (الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء) ووصف انزال الماء واحياء الحقول والبساتين والثمر والحب والكلأ

(٢) وان استدل على التوحيد * قال فى سورة البقرة (ان فى خلق السموات والارض) الآية وأخذ يشرح اختلاف الليل والنهار وسير الفلك فى البحر والسحاب والمطر والنبات

(٣) وان طلب منا الشكر قال (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) فليكن الشكر على تسخير البحر والسمك والدر والمرجان والسفن الجاريات فيه

(٤) وان ذكر الحكمة والحكماء والعلم والعلماء قال (ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء) فجعل الخشية والعلم يرجعان للنظر فى الالوان والاشكال فى الانسان والحيوان والجبال والدواب فانظر كيف نام المسلمون

(٥) وان ذكر اليوم الآخر واستدل على البعث قال (يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) يذكر خلق الانسان من تراب يصير نباتا وحبوانا بالزرع والتغذية منه فيكون دما فلحما أو ورقا وثمرا بتغذية الحيوان بالزرع والزرع يغتذى من عناصر الارض وهو التراب ثم يكون نطفة فعلقة فمضغة قطعة متجمدة بمقدار ما يمضغ الناس فى الفم من اللقمة وهكذا وذلك هو علم الاجنة ولقد ظهر هذا العلم فى المدارس العالية فى جميع العالم

(٦) وان حرض على الانفاق فى المنافع العامة قال يصف زيادة الحسنات للمنفق بازدياد الحب فى السنابل (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل)

(٧) وان ذم النفاق مثل بالليل وظلمته والنار وايقادها وسرعة ذهاب نورها

(٨) وان مثل الكفر جعله كالظلمات أو القرآن جعله كالمطر أو الوعيد جعله كالرعد أو الحجج جعلها كالبرق

(٩) أو العدل جعله كالنظام العام فى قوله (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) الآيه

(١٠) أو الرياء جعله كالحجر عليه تراب فاصابته ريح شديدة أطارته

(١١) أو ذكر الاخلاص جعله كالجنات سقاها الغيث

(١٢) أو التخويف من عواقب الرياء ذكر الحدائق فيها النخيل والاعناب أصابها الزعازع والرياح العاتية فيها نار فاحترقت وصاحب الحديقة أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء

(١٣) وان ذكر انقلاب الدول والممالك مثل بالليل والنهار اذ قال (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء الى قوله تولج الليل فى النهار) الآية

ففى هذه المشاهدات * مظاهر العبادة وأدلة التوحيد ومطالب الشكر ومبادئ الحكمة وموجبات الخشية ودلائل البعث والقيامة ومثال ازدياد الحسنات ومشابهات النفاق ومايناسب الكفر ومايوافق العدل ومايوضح الرياء ومايشرح الاخلاص ومايبين انقلاب الدول * ذلك هو الذى اتجهت اليه وجهة القرآن * عجبا لامة نام عنها علماؤها وقتلها وغافلها * أمة الاسلام هى الامة التى أمرت أن تكون المزارع درسها والحدائق علمها والشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار آياتها * أيظن المسلمون ان تلك الامثال والتشبيهات جاءت عبثا * ياقوم أليس الاعراض عن المشاهدات الطبيعية أشبه شئ بكفر النعمة * أليس ذلك تحويلا لوجهة النظر العلمية * أيها المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ان ربكم واحد ودينكم النظر فى صنعه وعجائبه وجماله وحكمته وأنواره وشموسه وأقماره وأضوائه وبهائه أفلا تسمعون أفلا تبصرون جاءكم حكماء وعلماء كابن سينا والفارابى والغزالى والرازى وأسمعوكم ماأقول اليوم فابيتم وقلتم انكم كافرون

جاء ابن رشد بالاندلس وقال أيها المسلمون علم التوحيد مبناه هذه العجائب والبدائع فانظروا فى السهل والجبل والبر والبحر والشمس والقمر فانظروا فى حسابها وعجائبها فكذبتموه وكفرتموه وطرده أهل الاندلس وبصقوا فى وجهه فمات طريدا وحيدا ذليلا ثم حل علمه اليهود والنصارى فارتقت أوروبا بعلمه فى ثلاثمائة سنة بعد موته من أول القرن السابع الى أواخر القرن التاسع الهجرى ثم انقضوا على المسلمين فأفنوهم أجمعين وذلك جزاء القوم الجاهلين

أيها المسلمون أفكلما جاءكم عالم بمالا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون

أيها المسلمون آن الاوان وبهذا الكتاب وأمثاله سيستيقظ المسلمون سريعا وسيجئ جيل لم تشهد الارض مثله وينظرون فى هذه العوالم التى زوقها الله وزينها للناظرين وجعلها بهجة العارفين وحكمة العالمين

أيها المسلمون هذا هو علم التوحيد علم التوحيد فى الحقل والجبل والزرع والشجر والثمر والقمر لافى الكتب المصنفة المشهورة هى والله مبعدة عن حكمة الله ومعرفة آياته هى مجلبة للشك * ان القرآن أمركم بالنظر فى جمال صنعة الله ودقائق حكمته وجمال بهجته ذلك هو القرآن * اتبعوا ماأرشد اليه فوالله لينبغن فى هذه الامة نابغون يكونون بهجة الدنيا وزينة العالمين وليكونن أهدى الامم وأعلمهم بما فى الكون هم خلفاء الله فى أرضه هم المسلمون الصادقون ولن يكون ذلك بقراءة الكتب المشهورة * لقد كنت أيام مجاورتى بالجامع الازهر أردت قراءة العقائد النسفية مع المرحوم صديقى (الشيخ محمد جابر) بعد ان أتممنا سنى الدراسة ولم نجد من العلماء من يقرؤها كما هو المطلوب فكنا نقرأ آراء الخيالى وعبد الحكيم اللذين كتبا عليها ونحن مبتهجون بتلك العلوم

وبينما أنا نائم اذ رأيت كانى على شاطئ بحر وكان هناك سمك فى الماء بقرب الساحل ونور النجوم لامع على جلد السمك فسمعت قائلا يقول (لم يظهر من القرآن فى هذا الكتاب الا كما ظهر من الفلك على جرم السمك) اهـ

(حكاية)

جاء الى مصر منذ سنين المرحوم الأستاذ (السيد حسين الخياط) مع الاستاذ الصوفى الشيخ الجربى والاستاذ السيد حسين كان مدرسا بمكة فلما سلم على قال انى قرأت الشريعة والتصوف ولكن قراءة كتاب نظام العالم والأمم فتحت لى بابا كان موصدا وقد أرسله الى أحد تلاميذى من أسرة العطاس بناحية جاوه ولما قرأته تعجبت من هذه الدنيا وغرائبها ورأيتك تقول ان الماء قد حلل أمامك الى عنصرين الاكسوجين والادروجين وان هناك نظاما بديعا وحسابا متقنا بحيث يكون الاكسوجين ثمانية أضعاف الايدروجين وأن هذه النسبة لو أخطأت لبطل التركيب ولم يكن ماء ولطالما كنت أقول هل رأى المؤلف هذه العجائب بعينه ومن لى بان أذهب الى مصر فارى المؤلف وأسمع

منه

منه ذلك فأنت المؤلف فهل هو حق قلت نعم انا رأيته بعيني وانا تلميذ بدار العلوم ثم توجهت معه اليها والى غيرها من المدارس الثانوية وشاهد العملية بعينه فقال

ماشاء الله يا مصر قد خدمت الاسلام فقلت له ان مصر لا تزال طفلة فى هذا الموضوع وعلمها قليل جدا بالنسبة لاوروبا * ومما قاله لى وهو سبب مساق الحكاية انا الآن صدقت كلام الشيخ الشعرانى اذ قال ان الاسلام فى أول أمره يكون شريعة ثم فى آخر الزمان يكون حقيقة فقلت وما فهمت فى هذا فقال الشريعة هى الاحكام الشرعية المعروفة فى الاسلام والحقيقة هى الانفس والآفاق أى معرفة علوم النفس والنظر فى هذه العجائب التى نشرحهما من شمس وقمر ونبات . وهذه الكتب وأمثالها ستجعل وجهة الاسلام من الآن هذه الحقائق فى الانفس والآفاق

(مقارنة الاسلام بالنصرانية و بعلوم أوربا)

اللورد افبرى الذى كان معاصر النا من كتاب الانجليز وعظمائهم أخذ فى كتابه (محاسن الطبيعة) فى التمهيد الذى فى أول الكتاب يصف القمر والنجوم والشمس و بهجتها فى طلوعها وضروبها و ينقل عن العالم كنلى انه كان يحب البوادى وهو مغرم بجمال الطبيعة و يقول انه كان يؤنسه الحصى والنخل والزهر و يتأمل فى الغياض والاجات وهو يحاول فك الرموز والطلاسم فى سفر الكائنات و ينقل عن العلامة كبل انه كان يقول ما أحوج الانسان الى أن يرسل طرفه و يتأمل فى العوالم العلوية والسفلية عوالم المجد والجمال . و بعد ما سرد كثيرا من ذلك صرح أن ذلك من قرائحهم لا من دينهم وأن دينهم كان عقبة أخرتهم الى الوراء اذ قال (ان الطوارىء التى حدثت فى الذى ورثناه من الدين قد صرفت عقولنا وحواسنا وعواطفنا عن جمال الطبيعة ثم سرد فوق ذلك معتقدات اليونان وأجداده هو من الانجليز والاوروبيين من ان للغابات والانهر آلهة تحكمها وان فى الماء جنا تخيفهم وتزعجهم وان هناك أرواحا تغضب عليهم و يخافون من الجبال والغابات والبحار والبحيرات لتوهمهم ان الارواح الخبيثة تسكنها من العفاريت والغيلان والجن والشياطين والسحرة * ثم قال ولما بزغت شمس العلم تمزقت تلك الحجب فاصبح العلماء يبتهجون بتلك المحاسن ثم قال ان الارياف مواطن الجمال وهى السحر الحلال اه مختصرا

هاهى ذه أوروبا وهذه عقائدها الدينية والوراثية والقوم هم أنفسهم حلوا هذا الوثاق وخرجوا من سجن الخرافات واستنشقوا نسيم الحرية فى الحقول ونظروا فى السموات والارض أولست ترى أيها الذكى أن دين الاسلام الذى شرحت لك مقاصده فى هذا التفسير وفى هذه المقالة أيضا قد أطلق عقول المسلمين من يوم البعثة النبوية وكشف لهم الغطاء عن السماء والارض وأراهم الشجر والثمر والحب والزهر والفاكهة والأب وقال أى عبادى هذه أرضى وسمواتى وجنانى وأعنابى ونخيلى وجبالى وفواكهى وحيتانى فى البحر ودرى ومرجانى وجمالى باهر ظاهر تجليت عليكم بشمسى و بقمرى و بنورى و بنجومى فماذا جرى أيها الذكى هب المسلمون فى القرون الاولى ثم ناموا نومة أهل الكهف ولما ظهر الاوروبيون وبهروا قالوا لنا اننا كشفنا الغطاء عن الارض والسماء ونظرنا كل يابسة وخضراء * فنقول حقا كان ذلك ونحن نيام . وهذا دليل على ان نبينا آخر الأنبياء ودينه هو الباقى الى آخر الزمان لانه لا عفريت يمنعنا عن هذا الجمال ولا شيطان يخيفنا فى البحار ولا غول يهز رأسه فى الظلمات بل ان علومكم هى مقتضى ديننا ونحن وان كنا نمنا قرونا كثيرة سنبحث أبحاثكم ونقرأ علومكم ونعلو فيها عليكم لانكم قرأتموها مفكرين ونحن نقرؤها للعقل وللدين فيكون شوقنا أعظم وعلمنا أكبر ومدنيتنا أعظم * أنتم بالنظر فى الكون خالفتم كتابكم ونحن بالنظر فيه وافقنا ديننا وطابقنا بذلك معتقدنا وقد قال الله (ليظهره على الدين كله) وظهوره سيكون بهذه النظرات وارتقاؤه بهذه الآيات (ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) اه

(تذييل)

لقد كان أهل الشرق كالمصريين وأهل الهند قد يماً مغرمين بالنظر فى العجائب والبدائع والتفكر فى ابداع الخالق فلذلك عشقوا جمال هذه المشاهدات فأثرت فى قلوبهم وأحيت نفوسهم وأيقظت عقولهم فزينوا الدنيا بعلومهم وزوقوها بصناعاتهم وهـذا بتأثير أنبيائهم وحكمائهم الذين عشقوا هـذا الجمال ودونوه فى الكتب وعلموه للشعوب فان الجمال فى المخلوقات يرتسم فى النفوس وهى تبرزه علماً وصناعة وذلك كما ترى فيما وجد منقوشا باللغة المصرية القديمة بتل العمارنه وقد نقل الى اللغة الالمانية والفرنسية علماؤهم وترجم الى العربية وتاريخ تدوينها فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وهو نشيد دينى

(١) ﴿وصف الشمس الممثلة لعظمة الله﴾ أنت العالم بأسرار الحياة تظهر بجمالك فى آفاق السماء تشرق شمسك فى الارجاء فتملأ الارض بجمالك . أنت الجليل العظيم البهى الذى تسطع أنواره على وجه الارض وتحيط أشعته بكل أقطارك التى خلقتها وملكتها بحبك مهما بعدت عنا فأشعتك مالئة الارض كلها

(٢) ﴿وصف الليـل﴾ حينما تغرب شمسك يظهر المساء وينشر الظلام فى الارض كلها وينام الناس فى بيوتهم ويندرجون تحت غطائهم وتسكن حواسهم عن الحركة فلا يسمعون ولا يبصرون أنت الذى تحفظ لهم أرواحهم وأموالهم وأمتعتهم وهم فى مضاجعهم غافلون ويرخى الليـل ستوره فتخرج الاسود من عرنها والحيات من أوكارها وتسكن الطبيعة كلها

(٣) ﴿النهار والانسان﴾ تظهر عظمة شمسك فى الافق صباحا فتملأ أشعتها أرجاء الارض كلها . يطلع النهار وينجلى الظلام فتفرح الناس بظهوره ويستيقظون ويتوضؤن ويرتدون ملابسهم ويرفعون أيديهم الى السماء متوسلين اليك ثم يذهبون الى أشغالهم

(٤) ﴿النهار والحيوان﴾ متى أشرقت شمسك فى الافق تستقر المواشى فى مرعاها وتزدهى الاشجار والنباتات وترفرف الطيور تمجيداً لك وتنبعث الحيوانات على قوائمها

(٥) ﴿الماء﴾ اذا أشرقت شمسك فى الافلاك سبحت فى بحارها الافلاك وتمرح فى لججها الاسماك وتتلألأ أشعتك على صفحات الماء فما أبدعك وما أسماك

(٦) أنت الذى خلقت نطفة الانام وصورت منها الاجنة فى الارحام وحفظتهم ووقيتهم الآلام ورفقت بهم فى الرضاع والفطام ووضعت لهم الحنان فى قلوب الامهات والآباء فوفرت عليهم العويل والبكاء ووهبت الحياة لسائر المخلوقات وأطلقت ألسنتهم بالكلام على اختلاف اللغات ومنحتهم ما يحتاجون من قوت ومعاش ومن غطاء وفراش أنت الذى تهب النسمة للفرخ داخل البيضة وتحييه فيصيح ويمشى عند خروجه منها * تفضلا منك خلقت الارض والسموات وأبدعت جميع المخلوقات وأعمالك لا تحصى واحسانك لا يستقصى

أنت الذى خلقت البلاد الاجنبية وسوريا وايثيرو بيا ووادى النيل وخلقت كلا منها فى مواقعها وسخرت لها حاجاتها ومنافعها وخصصت لكل انسان ناصيته وحددت له أيام حياته . أنت الذى خلقت الشعوب مختلفة الاجناس واللغات والالوان والصفات

أنت الذى خلقت النيل لحياة أبنائه وأنعشتهم بعذوبة مائه . أنت الذى تسوق الارزاق للبلدان القاصية وتنزل الامطار على جبالها هامية فتنحدر المياه الى الحقول والبلاد لخصبها وترويتها * ما أجلك يارب الازل وما أجـل أوامرك العالية

أنت الذى قسمت السنة فصولا لمصالح خلقك ونظام حياتهم قدار تفعت فى علو سمائك لتبرزمنها أشعة شمسك وترى منها ملكوتك أنت وحدك الذى تشرق شمسك الحية المضيئة البارزة أشعتها قد خلقت الارض لعبادك

ومتى أشرقت علينا شمسك شخص الناس الى جمالك (هذا هو الذى كان يناجى به قدماء المصريين ربهم (والقرآن كله طافح بذكر الشمس والقمر والكواكب والنبات والحيوان والامم واختلاف الالوان والالسن) فعلى المسلمين أن يفكروا ويبتهجوا بجماله

هذا ولما انتهى الكلام على هذا المقصد شرعنا فى تفسير المقصد التاسع عشر فى بعض المعاملات فى الاموال وهى الربا والدين والرهن

(المقصد التاسع عشر)

الذِينَ يأْكُلونَ الرِّبا لايَقُومُونَ إِلا كما يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بأَنَّهُمْ قالوا إِنَّما الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فانْتَهَى فَلَهُ ماسَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلى اللهِ وَمَنْ عادَ فأُولَئِكَ أصحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ * يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِى الصَّدَقاتِ وَاللهُ لايُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصالِحاتِ وأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ * ياأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مابَقِىَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فإِنْ لَمْ تَفْعَلوا فأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ لاتَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلى اللهِ ثمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لايُظْلَمونَ * ياأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بالْعَدْلِ ولا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كما عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ولا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فإِنْ كانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لايَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُما الأُخْرَى ولا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذَا مادُعُوا ولا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلَّا تَكْتُبُوها وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبايَعْتُمْ ولا يُضارَّ كاتِبٌ ولا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلوا فإِنَّهُ

فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *

وصف الله المتعاملين بالربا بانهم يقومون من قبورهم يوم القيامة كما يقوم الذى يضربه الشيطان ضربا على غير اتساق بسبب الجنون اتباعا لزعم العرب وأسلوبهم فى التعبير عن حال المصروع وانما ذلك لانهم سووا بين البيع والربا والله أحل البيع وحرم الربا ذلك لان الربا ذاهب البركات ويزيد الله فى بركات الصدقات

الربا قسمان ربا فضل كما اذا باع ذهبا بذهب وفضة بفضة وحنطة بحنطة فذلك ممنوع فيه النسيئة والتفاضل فأما فضة بذهب فالتفاضل جائز على شريطة المقابضة وهذا هو النسيئة وكلاهما ممنوع ولقد فصله علماء الشريعة الغراء ومن عجب أن الربا الشائع فى الأمم اليوم قسم ألحق بما فصله علماؤنا وهو اللاحق بالقرض وهو قرض جر منفعة

ان المسألة التى هى عقدة العقد واحدى الكبر وهى الربا قد هزهزت الأمم هزهزة وستكون من نتائجها الهزاهز والمحن على الأمم جمعاء ألم تر كيف كان الاستعباد منوطا بثلاث ملك جائر ورئيس دينى ظالم ومترشح طامع هؤلاء هم الفجرة الاشرار الظلمة فاما الملوك الظالمون فقد قال الله فيهم ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها كما يشاهد فى بلاد الجزائر ومراكش وتونس وأمثالها من الأمم التى دوخها الفاتحون وظلمها الملوك القاهرون وأما الرؤساء الضالون ففيهم قال الله تحذيرا لتابعيهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله أى مشرعين مستبدين بالشرائع لا يعطون أمتهم الا ما تهواه أنفسهم كما روى أن عدى بن حاتم قال للنبى صلى الله عليه وسلم لما نزل (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) ما كنا نعبدهم يا رسول الله قال أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال هو ذاك

فاما القسم الثالث وهم أولوا الحرص من الأغنياء والمستبدين من ذوى الثروة والجاه فقد قال الله فيهم فان لم تفعلوا فأذنوا أى اعلموا بحرب من الله ورسوله أو فأعلموا غيركم بحرب من الله ورسوله فى الدنيا

وذلك الحرب اما شرعى كما نص عليه المفسرون من محاربة ذى الشوكة المرابى اذا لم يتب أو حبسه وسجنه وتعزيره ان لم يكن ذا شوكة واما أن يعامل يوم القيامة معاملة المحارب فيعذب ويلقى فى النار كأنه كان يحارب الله ورسوله واما بما يستأصل الأمم ويدهورها ويزيلها من الوجود كهذه الأمم الحاضرة فانك ترى الاشتراكيين يودون قلب النظام الحالى فى الحكومات اذ علموا ان الظلم واقع ماله من دافع على الفقراء والضعفاء من الأمم القوية وعلى كافة رجال الامم الضعيفة ذلك بتحكم أرباب الاموال فى نفوس الملوك والعظماء فيكون الحرب والقتال كبضاعة يبيعونها وسلعة يزجونها وبما يتحكم أرباب الاموال المرابون فى العملة الضعاف وبذلك أصبحت حياة الامم وعرة خطرة مشتعلة الافئدة بنار الحرب وما موقدها فى أفئدة الفقراء الا أصحاب المال بنيران الذهب الوهاج المتقدة فى حطب العمال فالفقراء بها يسجرون والاغنياء بنورها يفرحون وستكشف الحال ويصبح المنعم بها شقيا والمسجور بها منعما ستصير بردا وسلاما على الفقراء ونارا وسعيرا على الاغنياء . اذا اصطدمت القوتان . واقتتلت الطائفتان . وأخذ المظلومون حقهم من الظالمين فى هذه الحياة . فما بالك اذا وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية فهناك الجزاء الاوفى . وان الى ربك المنتهى

كما ان الزنا عاقبت عليه الشرائع السماوية فلما أهمل الناس ذلك عوقبوا بذلك الداء القتال وهو المسمى

(الافرنجى) فى بلادنا و يسمونه (الزهرى) وهو يشوه الجسم و يضعفه وهو يعذب المريض عذابا لا يطاق
هكذا الربا لما أهمل الناس أمر الديانات فى تحريمه جرعت الامم غصص الاضطرابات من الاشتراكيين والحروب . وهذا
الحكم يشمل سائر الامم والاجناس والممالك . فما ذلك الذى أكل الربا من أبناء جنسه واستبد به ووقفه على نفسه
وقد أصبح الفقراء فيها جاهلين معذبين والاغنياء متعين منعمين فان ما يلحق الامة من فقر واذى وجهل فاضح
فانه لا جرم باولئك الاغنياء لاحق فلا سبيل لسعادة امرئ ما لم يعم السعد بلاده . والا فكيف يتمتع بخادمه ويهنأ
بصديقه وصاحبه ويأكل الثمرات ويعلم بنيه وبناته فانفاق الاموال من الاغنياء عناية بالجموع وسعادة للمجموع .
ولا عز لامرئ الا اذا أحاط السعد بامته فانما هى موسيقى ذات فروع وهو أحد فروعها . ان الانسان مدنى بالطبع .
لهذا السر يمحق الله الربا ويربى الصدقات أى يذهب الله بركته ويهلك المال الذى يدخل فيه ويضاعف ثواب الصدقات
ويبارك فيما اخرجت منه * وعنه عليه الصلاة والسلام ان الله يقبل الصدقة فيربيها كما يربى أحدكم مهره وعنه عليه
الصلاة والسلام مانقصت زكاة من مال قط (والله لا يحب) لا يرضى (كل كفار) مصر على تحليل المحرمات
(اثيم) منهمك فى ارتكاب الاثم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم
ولا خوف عليهم) من مستقبل (ولا هم يحزنون) على فائت (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا) اتركوا
بقايا ما شرطتموه على الناس فى معاملات الربا (ان كنتم مؤمنين) بقلوبكم يروى انه كان لثقيف مال على بعض
قريش فطالبوهم عند حلول الاجل بالمال والربا فنزلت (فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أى فاعلموا
بها من أذن بالشئ اذا علم به فيقاتل المرابى بعد ان يستتاب حتى يفئ الى أمر الله كالباغى . ولما نزلت هذه الآية قالت
ثقيف لا يدلنا بحرب الله ورسوله (وان تبتم) من ان ترابوا (فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) فلا
تأخذون الزيادة ولا يماطلكم المدين ولا ينقص مالكم (وان كان ذو عسرة) واذا وقع غريم معسر (فنظرة)
فالحكم نظرة (الى ميسرة) فلينتظر الدائن مدينه الى أن يأتى اليسر من الله والفرج للمدين (وان تصدقوا) على
المدين بالابراء من الدين (خير لكم ان كنتم تعلمون) ما فيه من الاجر والذكر الجميل والقدوة الحسنة والسعادة
النفسية (واتقوا يوما ترجعون فيه) الآية معناها ظاهر

﴿تنبيه﴾ ولقد كنت كتبت ما تقدم وانا مدرس بدار العلوم قبل الحرب العامة الكبرى بنحو ثلاث سنين كما
تقدم وبقى التفسير حتى هذه السنة ١٩٢٣ وابتدئ بطبعه وقد حصلت الحرب من سنة ١٩١٤ وكان الصلح سنة
١٩١٨ ولا يزال الناس فى هرج ومرج والامم كلها فى اضطراب واختلاط فحقق الله عز وجل ما جاء فى كتابه وكانت
الحرب وظهرت دولة (البلشفية) وهى التى قضت على دولة الروسيا وعلى الاستئثار بالسلطة والمال ولست أقول أنى
أعرف كل شئ عنها أو احرض عليها . وانما أقول ان وعد الله حق والحرب التى ذكرها الله فى القرآن من أجل المال
قد قامت وذلك قوله فأذنوا بحرب من الله ورسوله

(موازنة آراء علماء الاسلام فى الربا بآراء الاشتراكيين)

يقول علماؤنا رحمهم الله فى قوله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) ان هذه الآية من المجمل الذى يرجع
فى بيانه الى الحديث الشريف فان قوله وأحل الله البيع يفيد جواز جميع البيوع سواء أكانت فيما هو من جملة ما فيه الربا
أم من غيره وقوله وحرم الربا يقتضى تحريم جميع البيوع سواء أكان فيما فيه التفاضل فى النقد والنسيئة أم فى غيره
لان كل بيع يقصد به الزيادة ولا معنى للربا فى اللغة الا الزيادة فيرجع فى هذا المجمل الى الحديث الشريف وقد ورد فى
الحديث بيان ما فيه الربا وهو ستة أشياء الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح

والربا قسمان ربا النسيئة وربا النقد ويقال له ربا الفضل

اعطى زيد عمرا عشرة دنانير الى شهرين مثلا ليأخذ ١١ دينارا وهكذا البر والشعير ونحوهما فهذا هو
ربا النسيئة

وهكذا اذا أعطاه ١٠ دنانير في الحال بما يوازنها من الذهب ان كان حليا وزاد عليها زيادة ما وكان ذلك في الحال فهذا ربا النقد ومثل ذلك ما اذا أعطاه برا أو شعيرا مثلا عشرة أرادب وأخذ منه احد عشر بان كان هذا رديئا وكان الاول جيدا مثلا وكان في الحال فذلك يقال له ربا النقد

فاما اذا اختلف الجنس بان أعطى ذهبا بفضة أو قمحا بشعير فذلك جائز فيه التفاضل نقدا يدا بيد ولم تكن العرب تعرف من معنى الربا الا ربا النسيئة وهو المتعارف اليوم وهو الذى قاله ابن عباس ولم ير غيره ذلك انهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كل شهر قدرا معينا ويكون رأس المال باقيا ثم اذا حل الدين طالبوا المديون برأس المال فان تعذر عليه الاداء زادوا في الحق والاجل فهذا هو الربا الذى كانوا يتعاملون به في الجاهلية فحمله ابن عباس عليه ولكن الحديث أثبت غيره ويكون محصل الصور ثلاثة بيع مطعوم مثلا بدراهم أو دنانير يجوز نقدا أو نسيئة * بيع دراهم بدنانير يجوز التفاضل فيه لكن يكون نقدا وكذلك الشعير مثلا بالبر فاذا أعطاه أردبا بأردبين جاز بشرط أن يكون حالا فاما الذهب بالذهب والفضة بالفضة والشعير بالشعير فلا يجوز الا مثلا بمثل نقدا هذا ملخص ما جاء في الربا

ولما كان هذا المقام يحتاج الى بيان الحكمة التى حرم لاجلها الربا والى بيان تحديده والاصناف التى حرم فيها وجب ان نبين ذلك على ما قاله العلماء فان الله عز وجل لما قال العرب انما البيع مثل الربا لان كلا منهما يقصد به الفائدة فكيف يباح أحدهما ولا يباح الآخر وترجيح أحدهما على الآخر تحكم أجاب سبحانه بقوله وأحل الله البيع وحرم الربا وترك الامر ولم يبين الا الحكم وحده تاركا للعقول لنا التفصيل مع الوقوف عند النص فلنبين الحكمة التى قالوها أولا ثم نتبع ذلك بما يكون فيه الربا ثم نذكر مذاهب الاشتراكية

(حكمة تحريم الربا ورأى الامام الغزالى)

ولقد رأيت للامام الغزالى هنا قولا مفصلا أختصره لك مع الفائدة فأقول قال * ان الذهب والفضة لا يقصدان لذاتهما وانما هما وسيلتان الى التبادل فاذا كان عند امرئ جمل وعند آخر زعفران وكل منهما يريد أن يعرف ما المقدار الذى يستحقه الآخر في مقابلة ما عنده فكان هذان النقدان حكمين فيقال هذا الجمل يساوى ٢٠ دينارا وهذا الزعفران يساوى عشرين دينارا وشيئان يساويان شيئا واحدا يكونان متساويين . وهذان الحاكمان من اتجر فيهما وحبسهما فقد ظلم وكانه حبس القاضى الذى يقضى بين الناس فيعطل مصالحهم

وهكذا المطعومات لا يجوز ان تجعل سلعا تباع وتشترى قصدا وبالذات فان فعل ذلك أصبحت مقيدة في أيدى الناس وكان الاحتكار والاضرار بالناس والناس في حاجة اليه والحاجة الى الطعام شديدة فينبغى ان تخرج عن يد المستغنى عنها الى المحتاج ولا يعامل على الاطعمة الا مستغن عنها اذ من معه طعام فلم لا يأكله ان كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة وان جعله تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا اليه نعم بائع البر بالتمر معذور اذا احدهما لا يسد مسد الآخر هذا ملخص ما قاله الامام الغزالى

وأنت ترى ان هذا القول وان كان حسنا لا يكفى لمعرفة الحكمة فلنذكر ما قاله غيره

قال بعضهم انما حرم الربا لانه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب وذلك لأن صاحب الدراهم اذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقدا كان أو نسيئة خف عليه اكتساب وجه المعيشة فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة وذلك يفضى الى انقطاع منافع الخلق * ومن المعلوم ان مصالح العالم لا تنتظم الا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات * وقال آخر ان الغالب ان المقرض يكون غنيا والمستقرض يكون فقيرا فالقول بتجويز عقد الربا تمكين الغنى من ان يأخذ من مال الفقير الضعيف مالا زائدا وذلك غير جائز هذا أهم ما قاله علماؤنا في حكمة التحريم (ما الاصناف التى يحرم فيها الربا)

تقدم القول ان تلك الاصناف ستة ولكن هذه الستة لا يعلم الناس لم خصصت وهنا أخذ العلماء يبحثون * فاما

الشافعى

الشافعى رضى الله عنه فقال هذا يدل على ان المقصود بالربا هو الطعم والنقد لان الحديث انما ورد فى النقدين والمطعومات فلنحمله على كل مطعوم قياسا على ماذكر فى الحديث * وقال أبو حنيفه كلا فان المدار على التقدير وهذه الاشياء مقدرة اما فى الدراهم والدنانير فالوزن واما الأشياء الاربعة فالكيل مع اتحاد الجنس فى الجميع فكان أبا حنيفة تراعى تلك الاشياء من حيث انها مقدرة فقاس عليها كل مقدر بكيل أو وزن كالقطن والنحاس والجص والنورة

وقال آخرون كالامام مالك ان المدار على القوت لان هذه الاربعة من الاقوات فيقاس عليها غيرها ومذهب الشافعى المتقدم يدخل فيه الثمار والفواكه والبقول والادوية مكيلة كانت أو موزونة

وقال آخرون كابن الماجشون ان كل ماينتفع به ففيه الربا وهذا أعم الاقوال عند علماء الاسلام * واعلم ان هذا القول يناسب الحكمة التى قدمناها عن بعضهم وهى ان المرابى قد أخذ مالا بلا مقابل ولاجرم ان من أخذ الزيادة فى مكيل أو موزون أو غيرهما من حيوان أو نبات أو معادن أو أرض فقد أخذ من الناس مالا بلا منفعة تعود على نوع الانسان فالذى ناله الناس منه حتى أخذه * ان الزارع والتاجر والصانع يرزون للناس ماينفعهم فالذى حمله المرابى الجالس على كرسيه وغيره يخرج من الارض أو يصنع أو ينقل البضاعة من بلد الى بلد و يأخذ فى مقابل ذلك ثمنا يزيد على الثمن الاصلى * أما هذا فلم يفعل شيأ وهذه الحكمة لاتفرق بين مكيل وموزون ومعدود وهذا هو الاقرب للعقل والواقع

ولما اضطربت أقوال علماء الاسلام فيما ورد عن صاحب شريعتنا صلى الله عليه وسلم لعدم تحديده تحديدا تاما قال ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا وماسألناه عن الربا ومقصود ابن عمر ان هذه الآية من المجملات

ثم جاء الامام الغزالى فى مقام آخر وابان ان كل هذه المعاملات والشروط والحدود والقوانين والعقود انما جعلت لاجل قصور الناس وعقولهم الضعيفة وحرصهم والا فالناس جميعا متضامنون ويجب أن ينال كل حظه من العمل ومن المال ولا يدخر أحد شيئا بل يعين كل واحد أخاه بما زاد عن مقدار مايحتاج اليه وهذا القول أشبه من بعض الوجوه بأقوال الاشتراكية فى زماننا

قال (من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفى عباد الله من يحتاج اليه فهو ظالم وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله وانما سبيل الله طاعته وزاد الخلق فى طاعته أموال الدنيا اذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم نعم لا يدخل هذا فى فتاوى الفقهاء لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس فى استشعار الفقر فى الاستقبال مختلفة وأواخر الأعمال غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكون عن كل كلام غيرهم وهم بحكم نقصانهم لا يطيقونه فتركنا الاعتراض عليهم فى اللعب واللهو واباحتنا ذلك اياهم لا تدل على ان اللعب واللهو حق فكذلك اباحتنا للعوام حفظ الاموال والاقتصار فى الانفاق على قدر الزكاة لضرورة ماجبلوا عليه من البخل لا تدل على انه غاية الحق وقد أشار القرآن اليه اذ قال تعالى (ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) بل الحق الذى لا كدورة فيه والعدل الذى لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله الا بقدر زاد الراكب فكل عباد الله ركاب لمطايا الابدان الى حضرة الملك الديان فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج اليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الاسباب التى بها عرف ان ماسوى زاد الراكب وبال عليه فى الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله فى جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات اه

فها أنا ذا ذكرت لك مسألة الربا فى الاسلام * فانظر كيف كان ابن عباس يقصره على الربا المعروف الآن فى سائر الامم وعند الجاهلية وهو ربا النسيئة * وانظر كيف جاء فى الحديث شموله لستة أشياء فى النقدين وفى المطعوم ثم كيف توسع العلماء فى القياس من مطعوم الى قوت الى كل ما يكال و يوزن الى كل ماينتفع به وكيف كانت الحكمة وهى تعطيل طائفة من الناس عن العمل مطابقة لاعم الاقوال وهو القول الاخير * ثم انظر كيف أبان الامام الغزالى ماهو

أوسع من ذلك وجعل الناس أطفالا جهالا وان تلك الشروط والقوانين ماجعلت الاتلبية لعقولهم الضعيفة ونفوسهم السخيفة والا فالناس كلهم اخوان فليعط كل منهم الآخر مايزيد عن حاجته * ولعمرى ان الاشتراكية المسماة بالبلشفية فى البلاد الروسية عجزت عما وصل اليه الامام الغزالى اذا ارادت نزع الملكية العامة فعجزت وأمرت ان تعطى لكل امرئ مقدارا معلوما من الارض كبلاد الصين فان الملك هناك محدد لايجوز لاحد الزيادة عن الحد المعلوم فيه هذا ما أردت ذكره فى مذاهب الاسلام فلأذكر آراء الاشتراكية

(آراء المذاهب الاشتراكية وكيف كانت ابحاثهم قريبة مما ذكره علماء الاسلام)

أبنت لك فيما مضى كيف ابتدأ دين الاسلام بتحريم الربا وكيف كان رأى ابن عباس انه لاربا الا فى النسيئة وهو المتعارف الآن ثم جاء الحديث بستة أشياء ثم أوسع ذلك علماء الاسلام الى أن جعلوه فى كل ما كان مالا مادام من جنسه سواء أكانت الزيادة فى النقد أم فى النسيئة واذا اختلف الجنس فلنبع كما نشاء فنبيع التمر بالشعير ونزيد كما نشاء كالذهب والفضة والى هنا وقف جواد بحثهم ومنتهى نظرهم ولكنهم من جهة أخرى جعلوا ان هذا كله انما هو لأجل الضرورة فى أخلاق الناس وحرصهم وجشعهم وهنا وصلوا الى غاية من الكرم والتسامح حتى جعلوا ان ما يملكه زيد يجب ان يتصدق على الناس بما فضل عن حاجته منه والا كان عبدا بخيلا حريصا فلا يكنز الانسان ذهبا ولا فضة ولا طعاما بل كل ما فضل فهو للمستحق وأنت ترى كلام الامام الغزالى فيما تقدم ولكن الحق ان هذا القول لايجوز الاخذ به على علاته فان لكل انسان قوة وقدرة واستطاعة لابد من ابرازها الى الوجود وهذه المكارم التى ذكروها يجب أن نبحث بحثا مدققا لئلا يعطى الناس المجدون مالهم الى من تكاسلوا عن العمل هذا خطر عظيم ولتعلم ان هذا مذكور فى ثنايا الكتب وليس هذا محل تفصيلها * ولما كان الاسلام قد أشرب هذه المكارم شاعت الاوقاف وجعلت لذوى الحاجة وترى ان الاوقاف فى بلادنا المصرية تبلغ عشر الاملاك العامة * ولعمرى ان ذلك من آثار هذه المكارم الاسلامية العامة ومن آثارها الزكاة والصدقات العامة الواردة فى الشرع * وأكبر مصيبة اسلامية أن يعطى شئ من ذلك الى من لم يقم بما يستطيع من العمل * فاما أولئك الذين لايعملون ويأخذون من الصدقات والاوقاف وهم نائمون بلا علم ولا فضل فأولئك عالة على الامة ومصيبة على الاسلام وقد آن ان أفصل لك آراء الاشتراكية فاقول

يقولون ان مصادر الارزاق أربعة

(١) عمل العامل (٢) الأرض التى نعمل فيها (٣) رأس المال (٤) مدير العمل أو صاحب المشروع

ويقولون أن المال كل ما فضل عن حاجتك من طعام أو مصنوع أو غيرهما فالغلة والحصير والمسكن والارض التى لاتحتاج اليها تسمى عندهم مالا لانك تقدر ان تبادل بها * أما الدراهم والدنانير فقد قالوا فيهما ماقاله علماؤنا كالامام الغزالى وهى انها واسطة للتبادل ولتسهيل المعاملات بل قالوا انها لاتسمى عندهم مالا لانها لاتنفع فى طعام ولا شراب ولا مسكن ويقولون انما جاءت من مستلزمات الحضارة والنظام ومتى كانت الفوضى سقطت قيمة التعامل بها وأضحى من عنده قدح شعير خيرا ممن عنده قنطار ذهب ولقد سلكوا فى التبادل الطريق التى سلكها علماء الاسلام فذكروا كيف يضطر الفقير أن يأخذ من الغنى أردبا قمحا باردب ونصف بعد سنة وكيف يأخذ عشر جنيهات باحد عشر جنيها بعد زمن ما وبرهنوا ان ذلك ضار بالمجموع الانسانى وان ذلك المرابى يصبح سيد المجموع ويصبح السادة الأغنياء مترفين منعمين والعبيد الاذلاء العمال فى فقر مدقع مع الاشغال الشاقة فانظر كيف اتفق فى التعليل وفى التحريم علماء الاسلام وعلماء الاشتراكيين ولكن الاشتراكيين تمادوا فى الامر الى حد بعيد جدا فاخذوا ينظرون فى أمر العمل وأمر المال وصاروا يقولون ان الغنى الذى عنده مايزيد عن قوته من الحنطة ومايزيد عما يلزمه من الارض يتعالى على العامل فى المصانع وعلى الفلاح فى الارض ويقول لكل منهما أنا عنك غنى ويمكننى أن أستعمل غيرك فيعمل الطرفان عنده باقل القيمة وكلما زاد العمال والمزارعون بوفرة العمران ازداد أولئك الاغنياء

ثروة وأصبحوا ملوك المال والناس لهم عبيد وكلما زادوا ثروة زاد الفلاحون والعمال فقرا وذلا فاما أولئك فلا عمل لهم الا الزخرف والزينة والاسراف والبذخ . ومما زاد الطين بلة الآلات الحديثة المخترعة التى أغنت عن العمال فالآلة تعمل ما يعمله آلاف من العمال فيصبحون عاطلين ويفيض المال فيضا على صاحب رأس المال . فالاشتراكيون يريدون أن تكون الاعمال العامة فى المصانع وفى الارض وفى التجارة فى يد الحكومات والناس يعملون فيها كأسرة واحدة كل على مقدار طاقته . أما ديننا الاسلامى فقد وضع بذور العدل والنظام بمسألة الصدقات والاوقاف وحب الرحمة والشفقة والرأفة والبر وحرم على الناس السؤال وبذل الوجه ولكن الامة فى العصور الاخيرة تغافلت عن وضع الامور فى مواضعها فكثير من الاوقاف تصرف الى من لا يستحق . وهذا مخالف للدين ولآية الصدقات التى جعلتها للفقراء والمساكين والعاملين عليها الخ هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام وسيأتى فى هذه الامة من يفكرون لنظامها على مقتضى الشريعة الغراء وينظمون أوقافها وأعمالها انظاما ينطبق على روح الشريعة ولا تكون مجموعا غير منظم وقد قال الله فينا كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر

(الكلام على الدين والرهن)

ولما حرم الله الربا أحل السلم وهو البيع لاجل وسن أن يكتب فقال (اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه) ويتخير المتداينان كاتبا يكتب بالسوية لا يزيد ولا ينقص ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فمن من الله عليه بنعمة فشكرها صرفها فيما خلقت له والكتابة نعمة وشكرها الاجابة من المتسوها وذلك سنة أو واجب عينا أو كفاية أقوال لكل من أربابها وجهة وأقرب الاقوال أن ذلك سنة ولن يصح الوجوب الا اذا تعين خطر كبير ولم يكن الامن دعى لها والله أعلم

واذن فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق المملى الله ربه ولا ينقص منه شيأ فان كان الذى عليه الحق ناقص العقل مبذرا أوضعيفا كصبى أو شيخ أولا يستطيع أن يمل هو لخرس أوجهل باللغة فليملل قيمه ان كان صبيا أو مختل العقل أو وكيله أو مترجمه ان كان غير مستطيع

واستشهدوا شهيدين من الرجال المسلمين أو رجلا وامرأتين فى الاموال خاصة عند الشافعى وفى ماعدا الحدود والقصاص عند أبى حنيفة وليكن الشهود عدلا ولم يكتف بالواحدة فضم لها الأخرى لتذكر احداهما الأخرى وحرى بالشهداء أن يجيبوا اذا دعوا للتحملها ندبا أو وجوبا عينيا أو كفائيا على ما تقدم

(ولا تسأموا) أى تملوا كسلا (أن تكتبوه صغيرا أوكبيرا الى أجله فان ذلكم) أكثر قسطا عند الله وأثبت للشهادة وأقرب الى أن لا تشكوا الا اذا كانت تجارة حاضرة تديرونها بينكم من مبايعة بدين أو عين بأن تتعاطوها بينكم يدا بيد أى الآن تتبايعوا يدا بيد فلا بأس أن لا تكتبوا وأشهدوا اذا تبايعتم أى بيع ولا ينبغى للتبايعين أن يضرا الكاتب والشاهد فلا يكلفانهما الخروج عن مهم لهما ولا يمنعان جعل الكاتب ومؤنة مجىء الشهيد كما لا ينبغى للكاتب والشاهد ترك الاجابة والتحريف والتغيير فاذا كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتبا فليكن الاستيثاق برهان مقبوضة فان كان الأمانة وثق كل باخيه فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه فى الخيانة وانكار الحق ولا تكتموا الشهادة) أيها الشهود أو المديونون فالمرء مطالب بالشهادة على نفسه (ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم) تهديد

الكلام على قوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) أى اتقوه فى مخالفة أوامره ونواهيه الدينيه ويعلمكم أحكامه المتضمنة لمصالحكم يقول الله ليس تعليمى لكم خاصا بالصلاة والزكاة وما أشبهها . ان الدين لا يقوم الا بمصالح الدنيا وأنا عليم بهما فلتقوموا بالامرين وهذا باب واسع لفروض الكفايات التى سأشرحها فى آخر السورة وان المسلمين يعذبون فى الدنيا والآخرة اذا لم يقوموا بقسطهم فى نظام الارض وسعادة الامم لان الله بكل شئ عليم ومن علمه يعلمنا

مصالح الدين والدنيا فاذا نقصنا أحدهما نخر الآخر مريضا فالمسلمون اليوم لما جهلوا أمر الدنيا نقص الدين وخسروا الدارين وقد آن أن يرجعوا الى رشدهم ويقرؤا العلوم ويعرفوا الصناعة وأنت أيها الفطن خبير بما ورد فى العلم من الاحاديث والآيات فلا نطيل بذكره فاقرأه فى البخارى وفى الاحياء والله يهدى الى الرشاد

(المقصد المتمم للعشرين)

لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *

لله ما فى السموات وما فى الارض فهو العالم بما فيهما ولا جرم ان اخلاق العباد وأعمالهم مكتوبة لديه معلومة عنده مخزونة فى الافئدة فان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فكفى بنفسك عليك أيها الانسان حسيبا

وهذه الأحكام والشرائع فى القرآن آمن الرسول بها والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله يقولون لا نفرق بين أحد من رسله ولم يحمل الله أحدا فوق طاقته ولا يكلف الله نفسا الا وسعها فمن آتاه الله مالا أو حباه ثروة أو أناله قوة أو أورثه علما أو منحه فطنة فليشكر الله على نعمته برفد اخوانه وليكن لهم شمسا تضئ

وهاهنا يحسن الكلام على قوله تعالى وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله الآية بايضاح فنقول قوله تعالى وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه الخ يفيد اننا معاشر الآدميين محاسبون بما رسم فى صدورنا وما قام بأفئدتنا فتارة يغفر لنا وتارة نعذب على ذلك * وبيانه أن أرواحنا أشبه بلوح محفوظ يرسم فيه ما يرد عليه من الحواس الخمس وما يقوم به من فكر فاذا مات الانسان ظهرت له صورته الحقيقية واطلع على جميع ما كان يتصوره فى الحياة من خير وشر وعزم وكسل وتتجلى له نفسه تجليا واضحا كأنها خريطة فيها رسوم مختلفة فينفر من الصور القبيحة فيها ويفرح بالصور الجميلة قال تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤف بالعباد وقال تعالى (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) فجعل النفس هى المحاسبة لانها هى المطلعة على صورها وقبائحها وتفكر أيها الفطن كيف نألم فى الدنيا اذا اطلع أحد على ما أضمرنا من عمل قبيح أو نوينا من نية سيئة ونحن نكتم أعمالنا وما نوينا فاذا نشرت هذه الاعمال دفعة واحدة واطلع عليها من كنا نحاذر فكيف تكون حالنا . ذلك هو الخزى العظيم وتأمل فى قصة مريم كيف تقول لما اطلع قومها على انها ولدت من غير زوج (ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) وكيف يقول الله تعالى (ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) فالكافر يتمنى لو يكون ترابا ومريم تتمنى لو تكون نسيا منسيا فاما مريم فللخزى الذى يلحقها من قومها وقد عرفت هى وأهل بيتها بالطهارة والشرف فالخزى والعار على مقدار المظهر وهكذا الكافر رأى علمه جهلا وصالح العمل قبيحا فيريد ان يتوارى بالحجاب فلا يجد لذلك سبيلا قال تعالى (أولئك لهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة

أخزى وهم لا ينصرون) وقال (ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى)

واعلم أن نفس الانسان تسع جميع هذه الصور من أول الحياة الى آخرها كما يرتسم فى الهواء جميع صور الاشياء فتصل الى أعيننا ورسمها فيها أشبه برسم الصور فى المرآة فانها ترسم فيها بحالة لطيفة فى الطبقة الاثيرية والنفس تقبل من الصور على هذا النحو مالا يتناهى ولذلك نرانا نتذكر حوادث وعلوما كثيرة مخزونة فى نفوسنا وهذه الصور لا تنسى عند النفس وانما نسيانها فى الحياة الدنيا لضعفنا هنا قال تعالى (أحصاه الله ونسوه) واذا احصى الله أعمالنا عنده فقد أودعها فى نفوسنا لنقرأها قراءة حقيقية والله تعالى يحاسبنا على تلك الصور ويكون الغفران والعذاب

فكل حركة وكل فكر فى النفس يدوّن فيها ويظهر لنا بعد الموت فليحاذر المرء فالحياة قصيرة * على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

وأما قوله تعالى آمن الرسول الخ فاعلم أن هذا اختتام السورة المشتمل على ملخص ما فيها * و بيانه ان السورة جاء فيها أمران وهما الايمان والعمل فالايمان فى أولها اذ قال الذين يؤمنون بالغيب الخ ثم ذكر المنافقين والكافرين وأتى بأدلة الالوهية وذم اليهود وعدد فضائحهم لان مقالاتهم كانت مناقضة لايمان المؤمنين وهذا فى الجزء الاول من السورة وأما الجزء الثانى فانه ابان فيه الصلاة والصيام والحج وأعمال البر من الصبر والاخلاص والصدق والتقوى ومعاملة النساء وصيانة اللسان عن الحلف ثم ذكر الجهاد والمحافظة على البلاد وفضيلة الانفاق وترك الربا وكيفية المعاملة فرجع الامر الى اثنين (ايمان وعمل) فالايمان فى قوله آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون الخ والعمل فى قوله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا فانظر كيف كانت الخاتمة على ترتيب السورة ثم تعجب أيضا فى ترتيب الايمان بالله والملائكة والكتب والرسل ذلك ان الله أشرق نوره على الملائكة وأشرق منهم على الانبياء فالملائكة واسطة قال تعالى وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء الخ فالله كالشمس والملائكة كالقمر ونور الشمس المشرق على القمر أشبه بالوحى الصادر من الله للانبياء بواسطة الملائكة وهنا سؤال وهو ان يقال أيهم أفضل الملائكة أم الانبياء وقد اختلف العلماء فى ذلك اختلافا كثير الافائدة فيه اذ لا أثر له فى العقول ولا فى رقى المتعلمين . فمن الناس من يقول الانبياء أفضل من الملائكة ومنهم من يقول الملائكة أفضل من الانبياء وهؤلاء أفضل من الملائكة الارضيين و يقولون النبى أفضل من غيره من الناس ومن الصوفية من ينازع فى تفضيل سائر الأنبياء على سائر الناس بل يفضلون بعض التفضيل

ثم اعلم أن الاحوال ثلاثة ماضية وحالية ومستقبلة فقوله آمن الرسول الخ اشارة الى المبدأ وقوله سمعنا وأطعنا اشارة الى الحال وقوله غفرانك ربنا واليك المصير اشارة الى المستقبل وهذه الجمل أليق بأواخر الكلام كما هنا فتعجب

وقوله تعالى غفرانك أى اغفر غفرانك روى فى الحديث الصحيح ان لله مائة جزء من الرحمة قسم جزأ واحدا منها على الملائكة والجن والانس وجميع الحيوانات فبها يتراحمون وادخر تسعة وتسعين جزأ ليوم القيامة فهذا الحديث يفيد ان هذا العالم المادى لا نسبة بينه وبين ذلك العالم الذى تجلى الله فيه على عباده وظهرت رحمته بأجلى مظهرها وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال انه ليغان على قلبى وانى لاستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة يقول العلماء ان كل ما علمه العبد مهما عظم فى جانب كبرياء الله عز وجل ضئيل قاصر فلذلك كان صلى الله عليه وسلم يستغفر من كل مقام يصل اليه لان كل مقام دون مقام الجلال الاعلى

الكلام على قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت) من خير (وعليها ما اكتسبت) من شر الى قوله لا تؤاخذنا أى لا تعاقبنا والاصر الثقل والطاقة اسم من الاطاقة والعفو ان يسقط عنه العقاب والمغفرة أن يستر عليه جرمه صونا له من عذاب التخجيل والفضيحة والرحمة نعيم الجنة وقوله أنت مولانا يراد به أن يستغرق العبد فى جلال الله وجماله و يفرح بهذا الاستغراق وهو منتهى اللذات فهذه مراتب أربع مرتبة ترتيبا حقا سقوط عقاب جسمى بالعفو وستر الذنب بالمغفرة فلا يفتضح ونعيم الجنان والاستغراق فى الجمال الاعلى

واعلم ان كل امرئ مسؤل عما يطيقه من الاعمال فأف لمن كان ذكى الفؤاد سليم العقل قوى البنية ثم ينام عن الاعمال النافعة لامته وعنده قدرة تفوق غيره وكيف ينام القادر بعلم أو بمال أو بقوة بدنية كيف ينام عن مساعدة المجموع الله يقول لا يكلف الله نفسا الا وسعها وبهذا ادعو جميع الاذكياء والعلماء والاغنياء وأقول حرام على من عنده علم أن يصبر ويسكت بل لينشره وحرام على من هو قادر على عمل أو نصيحة أن يذر الناس يتخبطون ولا ينصحهم وحرام على من عنده مال أن يذر الامة الجاهلة فلا يسعى لرقيها بالطرق الشريفة العالية وليس معنى قولى انه يعطى المال للقادرين على العمل وانما يسعى لهم فى عمل الشركات وينمى رأس المال ليكون اداة صالحة للعاملين من أبناء الامة فى الصناعة والتجارة مع الاجر المناسب والكسب اللائق فيا ويل من ضاعت حياته وهو غافل عما حوله ه الطاقة متفاوتة فمن الناس من يطيق نفع نفسه فقط ومن الناس من يقدر على اسعاد أسرته ومنهم من يقدر على ارشاد أهل بلدته ومنهم من يقدر على ارشاد أمته ومنهم من يقدر على هداية جميع الأمم وكل من قدر على شئ من ذلك وغفل عنه أو أهمله اعتراه عند الموت من الآلام ما لا يطاق وندم * ولات ساعة مندم * ورب عاجز يدعى ترك عمل لا يعذب عليه خالدا لان هذا عذاب دائم فبه كان يترقى الى العلاق تلك الساحات العالية فاذا فاز غيره وهو خائب وقد أمكنه ذلك تحسر حسرة لا مرد لها وندم أندامة الكسع ولات حين مناص

واعلم ان هذه الندامة دائمة والحسرة ملازمة والعذاب واقع فحرام على امرئ قدر على بذل معروف وبخل به وحرام على من قدر على نفع الناس ونام عنه ان المقام مقام ارتقاء فى الحياة الاخرى والارتقاء بالاعمال والاعمال بالامكان فمن أمكنه وفرط ندم على انه لم يرتق فى تلك الساحات العالية وليس يدرك ما قلناه اليوم الاذو بصيرة وعقل مشرق والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

(اختلاف العقول وواجب الحكومات الاسلامية)

اعلم أيدك الله أن عقول الناس مختلفة اختلاف ألوانهم واشكالهم فترى ان الجنس الابيض من نوع الانسان اتفقوا بياضا واختلفوا فيه بحيث لا يتساوى بياض عمرو ببياض خالد وترى لكل عينين وانفا وحاجبين وفما وقد اختلفوا اختلافا حقيقيا بحيث لا يتشابه وجهان على ظهر البسيطة هكذا عقولهم فهم وان اتحدوا فيها قد اختلفوا فى قابليتها وكل له استعداد يناسبه وفى العقول من الكنوز ما ان مفاتحه ليعوزها رجال ذوو علم يضعون كلا فى المقام الذى استعد له ولقد جعل الله الارض مختلفة البقاع ولا تقبل من النبات الا على مقدار استعدادها وكذلك النبات كل له مقام معلوم فمن النبات ما لا ينبت الا تحت الماء كقصب السكر والارز والنيلوفر وأنواع من الكرش ومنها ما ينبت على وجه الصخور كخضراء الدمن وهكذا ثم ان النباتات التى فيها أعضاء التناسل غير مجتمعة فى زهرة واحدة يكون سلطانها فى المناطق المحترقة بين المدارين ولطالما دهش السياح بتلك المظاهر الجميلة وتأملوا تلك المراعى البهيجة فيها قطائع الانعام سارحة هائمة لا يقودها قائد ولا يسوقها سائق * والنباتات التى فيها تلك الاعضاء مجتمعة فى زهرة واحدة يكون سلطانها فى المناطق المعتدلة والنباتات التى أعضاء التناسل فيها خفية يكون سلطانها فى المناطق الباردة

ولقد خصص الله كل أرض بعدد من النبات فتجد فى بلاد فرانسا ٨٣٠ جنسا وفى النمسا ٦٠١ وفى (لابونيا) ٣٠٠ وفى مصر ٤٣٠ وفى غيانه (٦٠٠) وفى جزائر الخالدات ٢١٢

(جدول لذكر الاجناس والأنواع فى بعض الاماكن)

	أجناس	أنواع
فرانسا	٨٣٠	٦٠٠٠
نمسا	٦٠١	٤١٠٠
لابونيا	٣٠٠	١١٠٠

بلاد

	اجناس	انواع
بلاد البربر أى المغاربه	٥٠٠	١٦٠٠
مصر	٤٣٠	١١٠٠
غيانه	٦٠٠	١٢٠٠
اسلنده	٢١٠	٢٥٠
جمتيك	٥٠٠	١٤٠٠
ترستان الكونا	٥٥	١١٣
كنرى (من جزائر الخالدات)	٢١٢	٣٧١
هيلانه	٣٥	١٦

وترى ان الحكمة خصصت لكل ما يحتاج اليه فقل الهواء وكان الماء أقل منه والحبوب أقل من الماء والجواهر والمعادن أقل من الطعام ثم الجواهر النفيسة أقل من الجميع ثم ان الراديوم ذا القوة المدهشة الذى ظهر حديثا نادر جدا فى الطبيعة هكذا نقول ان الله جعل نوع الانسان منه من خصهم الله بحسب فطرهم الى العمل الجسمى وهم الا كثرون وهذه الفئة طبقات بعضها فوق بعض وكل من كان أدق فكرا كان أقل وجودا كما نشاهد فى ذوى الصناعات الدقيقة ويليهم العلماء والحكماء ثم الانبياء وهم أندر كالراديوم فى المعادن * قضت الحكمة أن يكون لكل شئ قدر وأن تكون العقول مختلفة كما اختلفت المشاهدات

فكما اناط الله بالهواء سائر الحيوان والنبات للتنفس فى جميع الاوقات * و بالماء كل حى وقتا دون وقت و بالقوت فى أقل من ذلك و بالهواء أدنى من ذلك وجعل المعادن أقل من القوت طلبا ولم يجعل من الراديوم دراهم ولا من الذهب محاريث ولا من الحديد أقواتا ولا من الحنطة بحارا ولا من الماء جوّا يحيط بالكرة ولا من الهواء جوّا يصل الى كرة الشمس بل جعله الى حد فوقنا

هكذا رتب عقول الناس على هذا النمط فلم يكثر من الانبياء حتى يملؤ القرى ولا من ذوى الصوت الجميل والصور الفاتنة لئلا يفتتن بهم الناس ولا جعل فى كل قرية حكيما فيلسوفا ولا أكثر من الاذكياء المفرطين فى الذكاء ولم يقلل من ذوى الاجسام القوية لئلا تضيع الاعمال . وانما كثر فى النفوس وفى العقول مواهب مقدرة بمقدار الحاجة ثم بعد أن رتب ذلك عملا قال على لسان رسوله (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) ليطابق قوله فعله فذكر الوسع وذكر التكليف وجعله منوطا بالوسع وقال فى آية أخرى (قل انظروا ماذا فى السموات والارض) فرأينا لكل مخلوق عملا يخصه ورأينا الاختلاف فى الموجودات وفى الجدول السابق فى النبات فقلنا لقد صدق قوله تعالى فعله (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) بل كل شئ عنده بمقدار

هذه أشياء يراها الناس ولكنهم لا يفكرون فيقسمون العلوم على مقدار العقول كما وزع النبات على مناطق الارض

الله قد سهل هنا للناس ليفقهوا فجعل الجبال الشاهقة التى بين المدارين العالية رؤسها عن السحاب جامعة لجميع خصائص الارض كلها * فلما كانت مخزنا للمياه جعلت مخزنا للعلوم والحكم المنقوشة على ظاهرها * فترى أن جميع مناطق الارض واضحة فى آن واحد على مهابط هيماليا والجبال المسماة (كرد ليير) فان أعلى الجبل يمثل القطبين وأوسطه يمثل المناطق المعتدلة * وأسفله يمثل المناطق الحارة * وكل منطقة ينبت فيها ما خلقت له * فانظر كيف أوضح الله للناس طرائق الاستعداد بتوزيع النبات على المناطق ثم أعطاهم درسا أسهل . فرسم الجبل على مثال الارض . ولما جهلوا هذا كله قال لهم على لسان رسوله بألفاظ يفهمونها (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) يقول الله انا قلت لكم فى هذه السورة (ان فى خلق السموات والارض الخ) وابنت لكم ان النظر فى الارض ونحوها

يفيدكم نفعلا فاذا عجزتم فماهو ذا رسولي وأقول على لسانه (لا يكلف نفس الا وسعها) فبكما لا ينبت في المناطق الباردة بكثرة النباتات التي أعضاء التناسل فيها غير مجتمعة في زهرة هكذا لا ينبت العلم الرياضي أو الطبيعي في عقول خامدة ونفوس كاملة فكم خزنت لكم في عقول الناشئين في القرى والبلدان من نفائس وذخائر كما خزنت في الجبال الذهب والنحاس والحديد ودفنت في الارض الفحم والماس فغرائز العقول أى استعدادها يكفل لكم كل ما تطلبون وهل تظنون أنى أبينها لكم أ كثر من ذلك

ضربت لكم الامثال في المناطق ونباتها والجبال ورسومها ونقوشها . ولما عجزتم أسمعتكم هذه المعاني بالفاظ كما أسمع العميان فاذا بعد ذلك الآن تنظروا بانفسكم انى آليت بعظمتي وجلالي أن لا أنزل نعمة الا بقدر (وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم)

(نظام الحيوان على منهج حواس الانسان ومنافعه)

ألم تروا يا عبادى انى جعلت الحيوان مخصصا على المنهج الذى سلكته في خلقكم ألم أقل لكم في كتابي (وآتاكم من كل ما سألتموه) ولقد أعطيتكم كل ما سألتم بقدر ونظام

ألم تروا الى حواسكم الخمس وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس . أن لها المطالب فخلقت الطيور المغردة الحسنة الصوت المفرح السار اللذيذ لتمتع أسماعكم بجميل النغمات وخلقت أمثال الطاووس وسائر الحيوانات والطيور الجميلة والصور البديعة والعجائب المفصلة في أنواعها وأجناسها تمتيعا لابصاركم وبهجة ومن ذلك الدر والمرجان جعلتهما لذة للناظرين . وخلقت غزال المسك تأخذون من نوافجه ألذ مما شم من الروائح اجابة لسؤالكم ان أحببتم لذة فيما تشمون وخلقت لكم اللبن والسمن والجبن واللحم في حيوان البر والبحر لتذوقوا لذتها ولتفتنوا بألبانها غذاء ومتاعا الى حين ومن ألذها العسل الذى به تتداوون وتتفكهون وما كنا عن الخلق غافلين

وخلقت لكم الحرير الناعم الملمس لتتمتع به حاسة اللمس التي بها طلبتم أن أسعدها بلذتها وجعلت ذلك فتنة لكم غالية الثمن اخرجه الدود فكان زينة لكم وبهجة للامسين وكسوتكم بما طلبتم للدفء من جلود الانعام وأشعارها وأوبارها وجعلتها أثاثا لكم ومتاعا الى حين وجعلت منها أحذية تكم وبيوتا تحملونها من بلد الى بلد آخر كل ذلك وقاية لاجسامكم أن يهلكها الحر والبرد بما تحسون بحواس اللمس فتهلكون

أى عبادى الم تروا كيف قسمت الحيوان قسمة صادقة على حواسكم الخمس ومطالبكم التي تطلبها حواسكم وهل تظنون انى أقرب الغافلين عن حق التائهين النائمين كلا وعزتي وجلالي لا ينال عهدى الظالمين • انظروا ماذا في السموات والارض أعطكم على مقدار ما تعلمون وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم . فاذا أردتم يا عبادى ان تنالوا نعمتي فابحثوا في العقول عن استعدادها كما بحثتم في الجبال عن معادنها وفي النبات عن منابتها وفي الحيوان عن مناسباتها من حواسكم وليهتم أهل الحل والعقد بتعليم الشعب كله رجالا ونساء وليقووا أجسامهم بالرياضات الجسمية ثم ليصدقوا في اختبارهم وامتحانهم ثم ليجعلوا كل طالب خاصا بما هو أميل اليه وإياكم ان تحيدوا عن هذا فانه ظلم مبين

وهل رأيتموني أنبت النيلوفر في الصخر أو الارز في الجبل ألم أضع كل نبات في مكانه اللائق له وكل حيوان في منطقته وفي حال تناسب منافعكم موزعا عليها بحساب كل هذا اريكم كيف تستخرجون كنوز العقول وهي أثمن ما خلقت لكم وأعز وأجل فشمروا عن ساعد الجد وجدوا حتى تظهر لكم أنوارى التي كمنت في النفوس الانسانية في رجالكم ونسائكم الم تقرؤا قولي (والله أنبتكم من الارض نباتا) فهذا بعض سره المصون

هذا ولتعلم أيها الفطن أن علماءنا رحمهم الله قد نبهوا الناس لذلك فاوجبوا على ذوى الاستعداد للفقه مثلا أن يجدوا فيه لنفع الامة فجعلوا الاستعداد سبب الوجوب فلنسر على منوالهم ولتكن لنا عقول وأسماع وأبصار ولنفصل الصناعات والعلوم الواجبة على المسلمين

(الكلام على والعلوم الواجب أكثرها أو كلها على المسلمين فى هذا الزمان)

العلوم الواجبة على قسمين * فرض عين وفرض كفاية * ففرض العين هو مايجب على كل مسلم و يعاقب عليه اذا تركه و يثاب عليه اذا أداه وفرض الكفاية مايجب على مجموع الامة بحيث يعاقبون عليه جميعا اذا تركوه فاذا قام فى الامة رجال به سقط عنهم الطلب * فالواجب العينى كمعرفة الامور العامة فى الصلاة والصوم وكذا الحج وكمعرفة ترك الغيبة والنميمة وكبر الوالدين وما أشبه ذلك * وأما فرض الكفاية فمثل سائر العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك والعلوم الطبيعية من المعادن والنبات والحيوان والانسان وكالضوء والمغناطيس والحرارة والكهرباء كذلك جميع العلوم الشرعية من الكتاب والسنة والاجماع والقياس المسماة (علم الاصول) وكالفروع وهو (علم الفقه) الذى يقوم به العلماء لنظام الدنيا وهم الفقهاء وهذه الفروع دنيوية * وكالفروع الاخروية من الاخلاق فى التصوف وكالمقدمات من اللغة والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والخط والاملاء والانشاء * وكالمتممات من علوم القراآت ومخارج الحروف وتفسير القرآن وكمصطلح الحديث

(فاذن العلوم الدينية أصول وفروع ومقدمات ومتممات)

الا وان المشتغل بالمقدمات من النحو والصرف وهو لم ينل بعد الفضائل الدينية والكمالات الاسلامية أشبه بمن له آلات الزراعة وهى كاملة كالمحراث والفأس ثم تركها ولم يشق بها الارض ولم يستنبت بها نباتا فهذا مغرور فالآلات الزراعية من المحاريث والعجلات الدارسات السائرات بالبخار والمخرجات للماء لاتغنى عن اخراج الزرع وهكذا العلوم اللسانية من النحو والصرف والمعانى وغيرها ان هى الا مقدمات لعلم الدين

(الصناعات الواجبة كلها أو جلها على المسلمين)

هذه الصناعات اما أن تكون حاصلة (١) فى الماء كالملاحين والسقائين والروائين والشرابين والسباحين (٢) واما أن تكون حاصلة فى التراب كحفار الآبار والقنى والانهار والقبور والمعادن وكل من ينقل التراب و يقلع الاحجار (٣) واما أن تكون حاصلة فى النار كصناعة النفاطين والوقادين والمشعلين (٤) واما حاصلة فى الهواء كالزمارين والبواقين والنفاخين (٥) واما حاصلة فى الماء والتراب معا كالفخارين والقدوريين وضرابى اللبن وكل من يبل التراب (٦) واما حاصلة فى أحد المعادن كالحدادين والرصاصين والزجاجين والصواغين (٧) واما حاصلة فى النبات نحو الكتانين ومن يعمل القنب والورق (٨) واما حاصلة فى ورق الاشجار وحب النبات والحشائش أو زهر النبات ونورها والعروق والقشور كصناعة الدقاقين والعصارين والبزارين والشيرجيين (٩) وأما حاصلة فى الحيوان مثل صناعة الصيادين ورعاة الغنم والبقر وسياسة الدواب والبياطرة وأصحاب الطيور ومن شاكلهم (١٠) واما حاصلة فى أحد الاجسام الحيوانية كاللحم والعظم والجلد والشعر والصوف والقرن كصناعة القصابين والشوائين والطباخين والدباغين والاساكفة والجزارين والسيوريين والحذائين (١١) واما حاصلة فى مقادير الاجسام مثل الوزانين والكيالين والذراعين (١٢) واما حاصلة فى قيمة الأشياء كالصيارفة والدلالين والمقومين (١٣) واما حاصلة فى أجساد الناس كالطب وصناعة المزينين (١٤) واما حاصلة فى نفوس الناس وهى قسمان عملية كمثل ماتقدم وعلمية مثل المنطق والعلوم الرياضية والطبيعية والالهية

(الصنائع كلها ترجع لامور ثلاثة)

(الغذاء والكساء والبناء وكلها ترجع الى واحدة وهى حياة الانسان).

اعلم ان الله خلق النبات والحيوان والانسان وجعلها درجات بعضها فوق بعض فالذى يكون أرفع شأنا منها تجده

أ كثر احتياجا وكلما قلت الحاجة كان أنزل مثال ذلك النبات فما كان منه كالحشائش ينبت فى الطل والندى وفى سائر الارض بلا تعهد ولا فلاحة وترى أمثال القمح والقطن يعوزها العمال والحفظ والسقى وترى الناس يزيلون الحشائش التى مازرعوها وهكذا ترى مايزاول الناس زرعه كالقثاء والعنب فالاولى من العمل بمقدار ثمره والثانى أرفع ثمرا وأبقى أثرا وأشرف مقاما فكان أحوج الى العناية فهكذا الحيوان أرفع من النبات لانه يسعى لرزقه والنبات لا يسعى اليه وله حواس تهديه والنبات غنى عنها * فاما الانسان فانما كثر حاجة وأعظم شرفا فانظر كيف سعى لغذائه كالحيوان وزاد افتقارا عنه الى الكساء والى عناية أشد بالمساكن فعلى مقدار ارتقائه كان احتياجه وأهم حاجاته هذه الثلاث

(الغذاء والكساء والبناء)

اما الغذاء فيكون من حب النبات وثمر الشجر وغيرها فكانت الحراثة والغرس واثارة الارض وحفر الانهار وصناعة الحدادين والنجارين لصنع الآلات ثم صناعة المعادن واستخراجها وهذه هى الصناعات التى تتقدم الحراثة * ومنها صناعة البخار والكهرباء والبترول لتدور تلك الآلات الساقية والحارثة ويتقدم ذلك صناعات كثيرة وهناك صناعات متممة للحب كالطحن والدق والعصر والخبز

أما الكساء فان الانسان لما احتاج الى ماتستغنى عنه البهائم من اللباس اذ خلق عاريا وهن كاسيات اتخذ اللباس بضاعة الحياكة وهى لاتتم الا بالغزل وهو بالندف والندف يتقدمه الحلج وهذه مقدمات على الحياكة والحياكة تتلوها الخياطة والرفو والطرز * اما البناء فان الانسان يستكن فيه من الحر والبرد والسباع ويخزن فيه القوت فتتقدمه صناعات كالنجارة والحدادة وماشاكلها

وهناك صناعات جعلت للزينة كصناعات الديباج والحرير والعطر * فهذه خلاصة مايحتاجه الانسان فى هذه الحياة

(قواعد الشريعة الاسلامية فى هذه الصناعات)

واعلم كما قاله العلامة السيوطى فى كتابه اتمام الدراية لقراء النقاية ان من قواعد الشرع ان الوازع الطبيعى يغنى عن الوازع الشرعى * مثاله شرب البول حرام وكذلك الخمر ورتب الحد على الثانى دون الاول لنفرة النفوس منه فوكلت الى طباعها والوالد والولد مشتركان فى الحق وبالغ الله فى كتابه العزيز فى الوصية بالوالدين فى مواضع دون الولد وكولا الى الطبع لانه يقضى بالشفقة عليه ضرورة

هذه القاعدة نطبقها الآن على مايحتاج له المسلمون فنقول

قد استبان لك ان جميع العلوم والصناعات يقصد منها حياة الانسان وتهذيبه ورقيه والصناعات ترجع الى مقصودة بالذات وهى الثلاث المذكورة * والى مقدمات لها ومتممات وبعدها تكون صناعات الزينة

فعلى رجال الحل والعقد فى الامة الاسلامية ألا يتركوا صناعة ولا علما الا خصصوا لها أناسا وليكن ذلك بحسب الاستعداد الجسمى والعقلى فيوضع كل امرئ فى مركزه الذى خلق له * وان الله قسم العلوم والصناعات على العقول كما قسم الذكورة والانوثة بالعدل بين الناس

(وههنا يرد سؤال فيقال)

لقد ذكرت العلوم الشرعية والفلسفية والصناعات وجعلتها فروض كفايات وكيف ساغ لك ذلك وكيف تقرن علم الفقه والتفسير والحديث بالفلسفة وعلم الكيمياء والضوء

أقول ان هذه كلها فروض كفايات وأن كانت متفاضلة فى الشرف فان شرف العلم قد يكون لمتانة الدليل وصدقه

كالهندسة -

كالهندسة وقد يكون للحاجة اليه وعمومها وان كان ظنى الدلالة كالطب * واما الجلال موضوعه وعظمته كالعلم بالله وملائكته ورسله ، وكذلك شرف الصناعات

(١) اما العموم الحاجة اليها كالحيا كة والبناء والحراثة

(٢) واما من جهة الصنعة نفسها كمثل من يعملون آلات الرصد مثل الاسطرلاب ومثل صناعات من يصنعون الساعات التى تعرف الزمن فان شرف هذه فى صنعتها فاذا صنع الاسطرلاب من نحاس كانت قيمته عظيمة جدا تساوى عشرات الجنيهات أو مئات منها ولكن النحاس الذى فيه الصنعة يباع بدراهم معدودة

(٣) واما من جهة عموم نفعها مع تساوى الناس فيها غنيهم وفقيرهم صغيرهم وكبيرهم كصناعة الزبالين والسمادين فان هؤلاء لو تركوا المدينة أسبوعا واحدا لامتلأت المدينة من السرقين والسماد فينغص عيش أهلها

(الوازع الطبيعى والوازع الشرعى)

اعلم ان الله عز وجل سلط على الناس الحر والبرد والسباع والاعداء والسارقين فاضطروا فى البادية أن يتخذوا البيوت وينسجوا الشعر والوبر وسلط سبحانه الجوع على الناس فكان الجوع للغذاء والحر والبرد ونحوهما للكساء والحيوان الكاسر والاعداء وحوادث الجو للبناء * ان الله عز وجل لما رفع قيمة الانسان عن الحيوان والنبات كلفه الاستقلال فى حياته وألزمه أن يسعى لسعادته و بدأ ذلك بتلك الغرائز التى سلطها من الجوع والعطش والاحساس بالحر والبرد والخوف من السباع وكلما تقدم الانسان فى مدنيته ازدادت حاجاته * فلقد كان يكفيه فى الفطرة الفاكهة غذاء وورق الشجر وجلود الحيوان كساء والمغارات مساكن * ان الغرائز الكامنة فيه بمساعدة العقل ألزمته أن يتخذ ذلك بلا حكومة نظامية ولا مدارس ولا علوم ولا يجب عليه فوق ذلك شئ بحسب المعاش الدنيوى

فلما أن اجتمعت الناس فى المدن حدثت لهم أحوال واستجدت لهم شؤون وجاءت واجبات فكانت الصناعات المتقدمة وغيرها وربما عدت بالمئات لاسيما فى هذا الزمان * ألا ترى ان السفر الذى كان يكفى ان يقال انه على جمل أو حمار أو بغل أو سفينة أصبح الآن ذا شعب كثيرة من الطرق الحديدية والآلات البخارية والسفن العظيمة الجارية كأنها مدينة والغواصات والطيارات وكل هذه تحتاج الى الأسلاك البرقية (التلغرافية) والبرق الذى لا سلك له والى علم المغناطيس والكهرباء ونحو ذلك

و بعد أن كان يكفى الوازع الطبيعى فى تربية المرأة لولدها ان تغذيه باللبن كالحيوان * حدث اليوم حادث المدنية الذى به فسد الهواء فى المدن وازدحم الناس وضاعت الاخلاق فوجب التعليم والتهذيب وقراءة العلوم ومعرفة الصناعات وصار الفرد مكلفا بشؤون خاصة على مقدار طاقته

وليس يجوز لأولى الحل والعقد فى الاسلام أن يتركوا الامة وشأنها بل عليهم أن يجعلوا طوائف فى العلوم والصناعات بمقدار فلا تزيد طائفة عن حاجة الامة كما هو حاصل الآن * فبلادنا المصرية مسكينة تجهل الصناعات المستحدثة فى أوروبا ولا تعرف الا القليل وهى عالة عليها فيها ولا ترى فيها كثيرا الا علوم القضاء والمحاماة وعلم الفقه الاسلامى والأمة الآن كبقية الامم الاسلامية متروكة سبهللا * فالمتعلمون فى مدارس الحقوق والقضاء والمعاهد الدينية كثيرون جدا يزيدون عن حاجات الامة المسكينة الفقيرة فى سائر العلوم ماعدا هذين العلمين * ويجب أن يتعلم كل ذى علم شرعى أو عقلى بعض الصناعات كالنجارة والحدادة والكهرباء تقوية لبدنه وتكميلا لامور حياته وحفظا لمروءته اذا لم يجد وظيفة وليكن تعليم السبق والرمى من أهم مقاصد جميع المتعلمين

(الفرض العينى الواجب على كل مسلم)

. ولعلك تقول أليس علم الفقه واجبا على جميع المسلمين فلماذا تجعله فرض كفاية كعلم الكهرباء وعلم النحو وصناعة البخار وسير القطار

أقول دع اختلاف العلماء في الواجب العيني فانهم لم يتفقوا فعلماء التوحيد يقولون الواجب العيني علمهم وعلماء الفقه يوجبون علمهم والمفسرون علمهم والمحدثون علمهم والصوفية علمهم وقال أبو طالب المكي علم حديث بني الاسلام على خمس الخ * والحق أن الواجب على كل امرئ حفظ ذاته وحفظ عقله ودينه فحفظ الذات كفت فيه الغريزة فاذا ترك اللباس آذاه الحر والبرد واذا ترك المسكن تعرض للهلاك واذا رأينا من لم يحافظ على نفسه أرغمناه وأوجبنا عليه حفظها كمن يسكر أو يريد قتل نفسه والمكلف به المرء اعتقاد وفعل وترك فالاعتقاد هو الايمان بالله ورسوله و بقواعد الاسلام وأن يقوم بفعل الطاعات و يجتنب المحرمات * فاما علم الفقه الذي هو الشغل الشاغل لعلماء الاسلام فقد قال الامام الغزالي فيه ان أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات وما أشبه ذلك انما هي قانون السياسة وضبط الجمهور الذين يتنازعون بحكم شهواتهم فالفقيه معلم السلطان ومرشده الى قانون سياسة الخلق وهذه في الحقيقة حراسة للدنيا والدنيا بها يتم الدين فالفقه الذي عند الامة الاسلامية انما هو القانون والقانون لحفظ البلاد والعباد و بحفظ هؤلاء يتم الدين

وليس بمتاز عما تقدم في الفقه أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج والحلال والحرام فكل هذا نظر الفقيه فيه دنيوي لا أخروي لانه يحكم بصحة الصلاة ظاهرا وكذا الزكاة والحج والاسلام وهذه كلها لا نفع لها في الآخرة الا بالاخلاص والتوجه لله فالصلاة لا نفع فيها ولا فائدة اذا كان قلب الانسان مشتغلا بما أهمه والفقيه يقول انها صحيحة والله يعلم انها باطلة (و يل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) (بيان قصور التعليم بالمدارس المصرية في زماننا) وان الشاب يخرج من المدارس مغمض العين ناعس الطرف فلا يرى نجما ولا شجرا ولا معدنا الا قليلا منهم

قد ذكرت لك في الباب السابق أن علم الفقه لضبط السياسة في البلاد وقلت ان أكثر المتعلمين من مصر يجدون في هذا العلم ألا ترى الى الجامع الأزهر الذي تعلمت فيه والى فروعه في دمياط ورشيد والزقازيق والاسكندرية وأسيوط وفيه الآلاف المؤلفة من الطلاب والى مدرسة القضاء الشرعي والى مدرسة الحقوق التي هي تبع الحكومة والى مدرسة الحقوق الليلية التي أقامها أهل فرانسا في بلادنا وغيرها فهل لهذه المدارس كلها الا مطلب واحد هو سياسة الجمهور * و بعبارة أخرى ان علم الفقه الاسلامي وأصوله الذي يراد لاجل الافتاء والقضاء قد شاركه القانون الفرنسي وأصوله واصبحا علمين يقرآن وانكب عليهما الطلاب للغرض الذي كان يسعى له طلاب المال والجاه * والامة المصرية اليوم مسكينة فقيرة في العلوم والصناعات * أما في الصناعات فظاهر لا تناعالة على أوروبا حتى ان نساءنا من كانت منهن غنية فالماشطة لها اما أفرنجية والخائطة افرنجية والخادمة افرنجية وللرضع افرنجية وهذه صناعات يحرم على الامة أن تكون خالية منها فيعذب المسلمون قاطبة على تركها

وأما العلوم فاننا فيها فقراء * ألا ترى ان علم الحيوان وعلم النبات وعلم المعادن وعلم الفلك مفقودات في المدارس الثانوية وقد كانت هذه في مدارسنا في أواخر القرن الماضي في النظام الذي سنه (محمد على باشا) ومن بعده ان المدارس الثانوية هي المدارس التي تعطي الشاب صورة العلوم العامة وهذه مفقودة في البلاد الا قليلا نعم يقرؤن الحساب والهندسة والجبر و بعض الطبيعة كاحوال المادة الثلاثة الصلبة والسائلة والغازية * وخواصها العامة كالحيز وعدم التداخل الى آخره وكالقوى المحركة والروافع والحرارة والمغناطيسية والكهربائية الساكنة والمتحركة ثم علم الحيل (الميكانيكا) ولكن هذه لا تغني عن علم الحيوان والانسان والنبات والمعدن * يعيش الشاب و يموت وهو يجهل النجوم وعجائب الفلك و يجهل نبات مصر وحيوانها ومعادنها و يجهل تاريخ المصريين والسودانيين وأهل العراق وأهل الحجاز والعرب وما أصلهم وما تاريخهم ومن أين نزحوا كل ذلك مجهول في الاسلام في وقتنا الحاضر * أما الاوروبيون فهم يعلمون أبناءهم ما يحتاجون اليه مما يناسب أحوالهم

فالمسلمون جميعا يجهلون صناعة الحرب التي ارتقت فيها أوروبا وصناعات البريد والحراثة وغيرها من فروع الحياة الا قليلا عرفه بعض مواطنينا من المصريين * ولكن الجهل لا يزال مخيما في البلاد كما خيم في سائر البلاد الاسلامية

ثم

ثم المتعلمون عندنا مجدون فى علم الحقوق وعلم الفقه كاقسمنا وهذا الانكباب من جهة وترك العلوم والصناعات الاخرى حرام على أولى الحل والعقد بل عليهم ان يعملوا بقوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الاوسعها) و يخصصوا كل طائفة بعلم أوصناعة أما ترك الامة سبهللا همَلا فهو حرام نعاقب عليه فى الدنيا بالخزى ودوس الفرنج لنا بجهلنا وفى الآخرة بجهنم و بئس القرار

أيها المسلمون أيها المصريون

ان التلاميذ فى مدارسكم أعينهم فى غطاء انهم يقرؤن ولكن ماذا يقرؤن يقرؤن شذرات من العلوم كالكيمياء والمغناطيس والضوء وأمثالها يقرؤنها وهم متكلفون يقرؤنها بايجاز . تلك مقدمات الصناعات والمقدمات غير النتائج . تلك تنقص من العلوم لا تسمن ولا تغنى من جوع لا يعرفون الجمال لا يدرسون محاسن الطبيعة لا يقرؤن نظام النبات ولا أنواع الحيوان ولا بهاء الدنيا ولا جمال النجوم ولا بهجة هذه المناظر لا يقرؤن العلم بلذة وفرح ولا يدرسونه بانشراح ومسرة

(حكاية)

منذ ١٣ سنة قال لى ثلاثة من تلاميذ المدرسة الخديوية كانوا قد سافروا الى أوروبا انا نحن الثلاثة كنا نظهر اهتماما بجمال الزهر و بهاء الزرع وجمال الشجر فقال أستاذنا (الذى كان ناظر المدرسة الحقوق فى مصر ونشاجر مع مستشار المعارف الانجليزى لحرمان التلاميذ من الفلسفة فى التجهيزى قبل دخول مدرسة الحقوق ثم غادر البلاد وصار ملجأ للتلاميذ المصريين فى مدارس الحقوق بفرانسا) مالى أراكم تعشقون الزهر وتحبون الجمال ولم أرهذا فى التلاميذ المصريين فقلنا له اننا حضرنا فى سنة ١٩٠٧ على مدرس كان يعطينا مواضيع الانشاء كلها فى جمال الطبيعة فعشقناها فقال لنا الماذا حضرتم الى أوروبا اذا ظهر فى أمة من يحببها فى الجمال ارتقت سريعا ومثل هؤلاء تثمر كلماتهم وهؤلاء يفتحون عيون شعبهم و يوقظونه فى زمن قريب انتهى

أيها المسلمون أيها المصريون دينكم يدعو للجمال وفهم الطبيعة هذه دين قدماء المصريين كاقدمت فى هذا التفسير يعشق فى جمال السماء والارض كافى النشيد الدينى المتقدم هاأوروبا تقدس الجمال فى العوالم * فالقرآن وجميع الديانات والامم تدرس جمال هذا العالم ونحن نجتزئ بالقشور الى يوم النشور أغمض أبناؤنا أجفانهم غطوا أعينهم وناموا لم يدرسوا ماحولهم نعم درسوا فى كراسة المعلم وهى وحدها التى اقفلت أجفانه وانامته وكرهته فى العلم . ليدرس النبات والحيوان والنجوم بصفة تشوق الطالب الى الدرس وترفع نفسه الى مستوى الحكمة والعلم و بهجة الانوار القدسية ذلك هو الصراط المستقيم

ولعمرك ان من يدرس فى التجهيزى أحوال المادة الثلاثة الصلبة والسائلة والبخارية وخواصها العامة كالقصور الذاتى والحيز كونها اماسام وخواصها الخاصة كالقابلية للطرق والسحب والاستعداد للتجزئة فى المعادن وكذلك القوى التى تحرك الاجسام والروافع والضغط الجوى والحرارة والمغناطيسية والكهربائية والميكانيكا والضوء وقوانينه ان الذين يدرسون هذه وهم بعد لم يستكملوا هذه العلوم فى صناعة من الصناعات وأيضا لم يقرؤا علم الحيوان والنبات وغيرها ان هؤلاء يكونون أشبه بمن قرأ الصرف والنحو وهو لم يتضلع من النثر والنظم العربيين و يعيش حافظا نظريات لا تفيده فى الحياة كمثل الذى حفظ الميراث والدعاوى والبينات وسائر أبواب الفقه ولم يكن له فيه عمل تما ثم هو يجهل مافى القرآن من الاشارات للعلوم والاطلاع على الحكمة فهذا ومن قبله من الذين حبطت أعمالهم فلا يقام لهم فى الدنيا وزن (قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) فالتلميذ الذى يحمل الشهادة الثانوية لا يقدر على مهنة يشتغل بها وهو مغرور بشهادته والحق انه قد خرج أعزل لا سلاح له الا تلك الورقة الكاذبة فلا يمكنه الا كتساب بما علم بل هو تعلم التوكل على الناس فلابد من قلب التعلم فى مصر وفى المعاهد رأسا على عقب نظاما وشهادات وعلوما وتلقينا والله هو الولى الحميد

(قال الامام الغزالي في الاحياء)

ولو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج الى شيء منها وان احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤونة التعب فيها فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا في حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهم في الدين * واذا روجع فيه قال اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض كفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه والفطن يعلم انه لو كان غرضه اداء حق الامر في فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين بل قدم عليه كثيرا من فروض الكفايات فكم من بلدة ليس فيها طبيب الا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالاطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحدا يشتغل به ويتهاترون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع * فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قام به جماعة واهمال ما لا قائم به هل لهذا سبب الا أن الطب ليس يتيسر الوصول به الى الاوقاف والوصايا وحيازة مال الايتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الاقران والتسلط به على الاعداء * هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء فالله تعالى المستعان واليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان انتهى المقصود منه

وأنا أقول أيها الامام قد مضى نحو ٩٠٠ تسعمائة سنة بعد تأليفك هذا الكتاب والمسلمون نائمون جاهلون ومصر التي ظهرت في طليعة البلاد الاسلامية لاتزال كالعهد الذي تركت الاسلام عليه * فبها معاهد العلم الديني لا يزالون في هذا التلبيس وتبعهم رجال المدارس الذين لا يحاولهم الا مدارس الحقوق ومدرسة القضاء الشرعي كل هذا للظهور وتولي الحكم والمحاماة * أما الصناعات والعلوم الاخرى فهي منبوذة الا قليلا فليس عندنا مبرزون فيها أما أوروبا فقد قهرتنا بآلاتها القاتلة والجارية والطاحنة وسبقونا في الاقتصاد والسياسة ثم ان المدارس عندنا تعليمها لفظي لا يعشق الشبان في العلم والبحث فهو تعليم خال من الروح ولذلك سقطت الامة في هاوية الاحتلال الاجنبي

(الواجب على المجالس الشورية أو النائبة عن الامة)

الواجب عليها ان تقلب التعليم قلبا ما في المعاهد الدينية والمعاهد الدنيوية وندخل فيها التهذيب وكل ما يرغب في حب العلم وحب البلاد ومعرفة أحوال الامم الاقتصادية في السوق وهكذا علم الاخلاق وعلم الحيوان والنبات والمعدن وما أشبه ذلك وليس يجوز أن يكون التعليم بلا ضابط وانما يكون على مقتضى الاستعداد المذكور في قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها)

(هل في الاسلام نابغون)

ولعلك تقول كيف تذم التعليم في الاسلام وفي مصر وفيها نبوغ ظاهر لذي عينين

أقول على رسلك ان هؤلاء النابغين في الأزهر والمدارس انما جاء من استعدادهم ومن دراساتهم الخاصة وبيئاتهم أما مستوى التعليم فانه ناقص * وأهم من هذا انه غير منتظم لم ينظر فيه الى ما تحتاج اليه الأمة * الامام الغزالي يقول لنا ان البلاد مشحونة باهل الفقه وهي خالية من الاطباء وينـدد على المسلمين ويقول قد ذهب الدين وضاع لماذا ضاع ضاع لان البلاد ليس فيها من يقومون بجميع المطالب للامة

وأنا أقول ياضياع المسلمين اليوم ياضيعة الاسلام * أيها الامام المسلمون لا يزالون كما تركتهم فاهل الفقه وحفاظ القرآن يملئون البلاد وكذلك المحامون والقضاة * اما علماء الكيمياء والطبيعة والضوء والكهرباء والسكك الحديدية والبرق وعلماء المعادن وعلماء الحشرات وعلماء السياسات فان هؤلاء في أوروبا وليسوا عندنا وأنت أيها الامام تقول ان الدين ضاع وأنا أقول لك ان كثيرا من أهل بلادي لا يعلمون ان هذا من الدين ولا يعترفون بأن ديننا يحرم علينا ترك الصناعات الحربية الحديثة وصناعة الطرق الحديدية وصناعات المعادن ولا يتصوروا أكثر الناس ان

ذلك

ذلك فرض كفرض علم الفقه الذى به يكون القضاء وأقول فوق ذلك فقد أخبرنى عالم صينى ان علماء الاسلام هناك ظنوا ان العلوم العصرية مخالفة للقرآن فتأخروا عن أهل الصين المتبعين للدين الوثنى فأصبح الاسلام فى زماننا نامانعا من العلم فى نظرهم والمسلمون هناك يبلغون سبعين مليونا * ولقد جاءنى مرة أمير يقال له جمال الدين من الهند ومعه فتوى يسأل فيها عن علم الجغرافيا والتاريخ فاجبته بان العلوم كلها فرض كفايه وقال لى ان علماء بلدى حرموا هذه العلوم * وقابلنى فى هذا العام عالم تونسى فقال ان بعض العلماء يقولون لا يجب شئ غير علم الفقه اما النظر فى العالم العلوى فيكفى ان ينظر الانسان بعينه وهكذا الاسلام اليوم أضعف منه فى كل زمان

وانا أطالب كل من وقع هذا فى يديه ان يبحث فى هذا الموضوع ويفكر بعقله و يستخرج العلوم الواجبة على المسلمين و يرفعها لولاة الامور فانه ظهر بهذا القول ان علم الدين ليس خاصا بالفقه بل العلوم كلها والصناعات أصبحت فروع الشجرة واحدة هى الحياة الانسانية وكل ماعندنا الآن خطأ نشأ من عادات قديمة راسخة * فليقلب التعليم فى المعاهد الدينية على حسب ماقلنا وكذلك فى المدارس العصرية وليكن للامة حال جديدة فهذه الحال لا يجوز بقاؤها وليدرس هذا الموضوع دراسة تامة * فالاسلام وأمة الاسلام اليوم فى خطر ولا منجى من الخطر الا بما ذكرنا و باتباع قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها)

(الاوقاف الاسلامية والمعاهد الدينية)

اذا تقرر ان فروض الكفاية تشمل العلوم والصناعات وان المعاهد الدينية الاسلامية يدرس فيها علوم النحو والصرف والمعانى وأمثالها وعلوم أخرى من أصول الدين والفقه وكذا الحساب والهندسة والنظر فى الكون أفلا ينبغى أن ينظر فى أمر الشهادة النهائية و يقال ان هذه العلوم كلها فروض كفاية لا فرق بين علوم الدنيا والدين . فاذا نظر رجال الحل والعقد فى المجالس النيابية فى أمر ماتحتاج اليه الأمة من العلوم والصناعات ثم قرروا أن يكون فى تلك المعاهد شهادات عالية أيضا للهندسة وأخرى للطب وللصناعات الشريفة باعتبار انها فروض كفايات وان كثرة المتعلمين فى البلاد فى نوع واحد غير مفيدة كما قاله اسلافنا اذا حصل ذلك فانى أراه يوافق الدين بل أقول فوق ذلك ان مخالفة هذا تنافى الدين لما قرره الامام الغزالى من النداء بالويل والثبور ومخالفة الدين بسبب كثرة الفقهاء وقلة الاطباء الله الله عباد الله اتقوا الله فى دينكم وأمتكم وليكن لطلاب المعاهد الدينية حياة أسعد من هذه وارقى منها بتنوع شهاداتهم مع انهم منسوبون للدين فمن أخذ الشهادة بالطب لا يكون أقل ممن أخذها بالفقه لانهما معا درسا هذا الفن ولكن أحدهما اختص بالطب والآخر استمر بحسب استعداده فى الفقه وهكذا الهندسة . ويكون تخصيصهم بحسب استعدادهم بالامتحان * ثم ينظر أهل الحل والعقد فى الاوقاف وتنتظم نظاما تاما فلا تبقى مبعثرة كما هى الآن ويحرم الانفاق على العاطلين ويعرض مافيها على أهل الحل والعقد وينظر العقلاء فيها بعقولهم فيما يطلبه حال الأمة ثم يستعرضون آراء المذاهب كلها من حنفية وشافعية وحنبلية ومالكية وزيدية وغيرها و يأخذون من أقوالهم بما هو الاصلح للبلاد من حيث نظام الاوقاف وانماؤها ومن حيث الانفاق على معاهد التعليم وأن يكون المتخرجون منها نافعين فى نظام الامة تبع قانون معلوم ونظام مسنون لا بالهوى والعادة ويكون ذلك بمقتضى قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) اما أنا فقد كتبت مافى وسعى وهذا أنا به مكلف وهذه بذرة سينميها العلماء و يسقى زرعها العقلاء و يعمل بها النواب النبلاء انتهى تفسير سورة البقرة مساء الجمعة ١٣ ابريل سنة ١٩٢٣ ٢٦ شعبان سنة ١٣٤١

بشارع زين العابدين رضى الله عنه آمين

﴿ يقول الفقير اليه تعالى (ابراهيم بن حسن الانبابى) خادم العلم الشريف ورئيس لجنة التصحيح بمطبعة الشيخ الجليل (مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر) ﴾

حمدا لمن كشف لذوى البصائر مخدرات آى التنزيل * وأشهدهم مكنون أسرار التأويل * وأخرج بهم من الجهالة * ومتعهم بنعيم المعرفة * وأمدهم من أبحر فيوضات أنوار أسراره المؤتلفه * وصلاة وسلاما على أجل مبعوث بأفضل كتاب الى خير أمه * سيدنا محمد وآله وصحبه ومن انتهج دينه القويم وأتمه * و بعد فلما كان كتاب ربنا جلت عظمته بحر معارف لا يتناهى * وينبوع حكم لا يحيط بعلمها الامن أبدعها وسوّاها * وكان العارفون من العلماء الألباء * لا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء * وقد اغترف كل بقدر مبلغ علمه * ومنتهى وسعه * أهل من بينهم الأجل الأمجد والملاذ الأفخم الأوحد * الفيلسوف المحقق والجهبذ المدقق الشيخ طنطاوى جوهرى حذا الفيوضات الربانية والمواهب اللدنيه يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا (ولله دره) لقد اغترف من بحار أنوار معانى التنزيل بالقدح المعلى وأتى بما لم يسبق به من كل أوضح أجلى * وضمنه بدائع حكم الموجودات وغرائب غرائز المكونات فالى الامة الاسلامية أزف هذا السفر الكريم والكتاب العظيم لتقف على حقائق الاشياء فتخرج من ورطة الجهالة الشنعاء وتحلى بحلى المعارف وتستظل بظل تبيانها الوارف وتحوز فضلها وتتدارك مجدها وحبا فى

نشر العلم وتعميم النفع قد قام بنشره بين الانام السيد (مصطفى البابى الحلبى وأولاده) بمطبعته الكائن مركزها بشارع التبليطه بسراى نمرة ١٢ بجوار الازهر الشريف ووافق تمام طبعه فى أواخر شهر رمضان سنة ١٣٤١ هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية آمين



(بيان صواب الخطأ الواقع فى هذا الكتاب)

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٥	٧	هرم	النعمان
٢٠	١٩	سلمه	سلمى
٥٦	١	امزاجها	امزجتها
٥٦	١٧	وحدهم	وجدهم
٥٩	٢٤	وينقضى	وينقض
٨١	١٤	أيها المسلمين	أيها المسلمون
٨٣	١	الى التفكر	الا تفكر
١٠١	٤	والملك بدلمن الماواحدا	والماواحدا بدلا من الملك
١٣٦	٢٦	وقطوراتهم	وقطراتهم
١٣٠	٢٣	وكم من آية	وكأى من آية
١٤٣	٣	شجيع	شحيح
١٧٠	٧	فابك	فابالك
١٧٣	٦	ونزاهتها	ونزاهته
١٧٧	٤	أوالاحسان	والاحسان
٢٠٠	٢٦	وفضائلها	وفصائلها
٢٠٨	٢٤	ولم أبك	قالت ولم أبك
٢١١	٣٢	الجنه	الحبه
٢١١	٣٣	المنافقين	المنافقين والمخلصين
٢١١	٥	شوائب	شوائب
٢١٢	١	الجنه	الحبه
٢٢٦	١٧	جبيل	جيل
٢٢٠	١٥	نهواه	تهواه
٢٢٢	١٩	فكان	كان
٢٢٣	٢٣	الاعمال	الاعمار
٢٢٧	١٦	ولرسل	والرسل
٢٢٧	٢٧	بينة	بينه
٢٢٨	١٢	الكسو	الكسى
٢٢٩	٤	غياته	غيانه
٢٢٩	١٩	دفوقنا	فوقنا
٢٣٠	٦	اسمعنكم	اسمعتكم
٢٣٠	٧	حلالى	جلالى
٢٣١	١	والعلوم	العلوم

فهرست الكتاب

صحيفة

اختصاص

(تمت الفهرست)

فهرست

(الجزء الثاني من تفسير الجواهر)

صفحه

صفحه

صفحه

صفحه

صفحه

صفحه

صفحه

صفحه

﴿ تمت الفهرست ﴾

